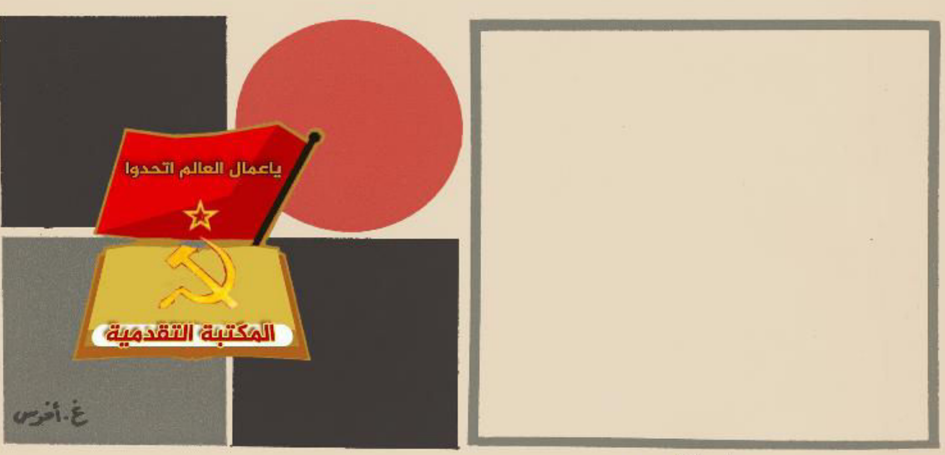
هنري لوفيفر

فكر لينين



أصول الفكر الاشتراكي ٣

ترجمة ومراجعة : د. كمال الغالي - أديب اللجمي

هنري لوفيفر



فكر لينين

ترجمة ومراجعة

د. كمال الغالي　　　　أديب اللجمي

منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي

دمشق ١٩٦٩

العنوان الأصلي للكتاب :

Henri LEFEBVRE

Pour Connaître

LA PENSEE DE LENINE

Editions Bordas

Paris



كان لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) مؤسس الحزب الشيوعي (البلشفي) وواضع نظريته ، وكان في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ منظم الثورة الروسية وقائدها ، وهي حدث تاريخي ذو نتائج يعسر حسابها .

ومنذ ذاك الحين، فان ستالين في روسيا السوفياتية ، وماوتسي تونغ في الصين ، وتيتو في يوغسلافيا ، وتوغلياتي في ايطاليا ، وموريس توريز في فرنسا ، وكثيرين غيرهم في أكثر بلاد العالم اعتبروا أنفسهم ، وما يزالون ، « لينينيين» انصار لينين ومكملي عمله .

فكيف نفهم إذن التاريخ المعاصر ، تاريخ الامس واليوم والغد ، إن لم نعرف فكر لينين ، اي ما يسمى بـ « الماركسية - اللينينية » .

لقد كان لينين ثورياً أساسياً ، وهو ، بكل تأكيد ، أعظم ثوري في جميع العصور . ومنذ موته ما انفك فكره واعماله تلعب دور خميرة ثورية ، مما يجعل عسيراً التحدث عنه او سماع الحديث عنه بهذا المزيج من الصفاء واللامبالاة المتجردة بعض الشيء ، التي كثيراً ما يُخلط بينها وبين « الموضوعية » التاريخية أو الفلسفية . لا سيما وان لينين يتميز من سائر عظماء الثوريين في أنه لم يمت مغلوبا ولا مضحى به في سبيل قضيته - شأن روبسبيير او بابوف - بل قضى وهو في أوج انتصاره ، رجل دولة وصل الى السلطة .

(*) كتب هذا المؤلف في تموز - ايلول (يوليو - سبتمبر) ١٩٥٥ . وبعض التعديلات للنص الاصلي - وهي تعديلات غير ذات شأن - أثبتت في الحاشية .

إن من يؤلف كتابا عن روبسبيير أو سبارتاكوس يستطيع ان يبلغ (بشيء من الصعوبة) مثل هـذه « الموضوعية » . اذ لا يتعلق الأمر « بمذهب روبسبييري » أو « سبارتاكي » بالمعنى الدقيق لمذهب فلسفي وسياسي ما يزال راهناً حياً ، بيد أن ثمة لينينية .

واننا نود ، ونأمل في هذا الكتاب ، ان نلخص اللينينية على نحو يقدر على فهمه القراء الراغبون في الاطلاع عليها .

سنطلب الى هذا القارىء إذن ، على سبيل الاتفاق المسبق والضمني ، على سبيل « اتفاق جنتلماني » أن يعلق حكمه ، وأن يسلم بأنه سيتعرف على واضع نظرية الثورة البروليتارية واستراتيجيتها وتكتيكها ، وعلى فلسفته .

واذا سبق لهذا القاريء أن اطلع على ماركس والماركسية ، فان مهمتنا تتحقق على نحو أيسر : لأنه يملك اذ ذاك العناصر الضرورية لفهم فكر لينين . ويتوصل بصورة أفضل الى أن يتتبع منعطفات هـذا الفكر ومساره المعقد ، ويقبل لهجة الجدل العنيفة في أكثر الأحيان ، التي استخدمها لينين ضد خصومه .

ان هذا الكتاب الصغير يستهدف تلخيص اللينينية . وليس من هدفه ، بالتالي عرض الأحداث التي أسهم بها لينين ، رغم ان الكتاب لا يستطيع ان يعفي نفسه من التنويه بها . فهو لا يحل محـل كتاب في التاريخ المعاصر ، ولا يغني عن الرجوع الى هذه الدراسة المتخصصة أو تلك .

والحقيقة ان الأمر يتعلق بالتاريخ العالمي منذ أكثر من خمسين عاماً ، وهو تاريخ معقد ، تاريخ مفجع ، بل و « جهنمي » ، في كثير من جوانبه ، تاريخ متسارع بصورة رهيبة ، حسب تعبير بارع غدا مبتذلا . وفي نهاية هـذه الدراسة ، وبعد أن يكون القاريء علق حكمه ، وفقاً للمبدأ الديكارتي ، قد يستطيع القاريء أن يفهم كيف ولماذا لعب لينين دوراً عظيماً في هذا التاريخ .

إن اللينينية تبدو ، بادىء ذي بـــدء ، كتيار أو إتجاه للفكر الثوري المستوحى من ماركس ومن الحركة الواسعة التي تحاول الطبقة العاملة الحديثة خلالها البحث عن طريقها ، كما هو الشأن ، مثلاً ، في اللوكسمبرغية ، (أو نظرية روزا لوكسبورغ) ، و « التروتسكية » (مذهب تروتسكي) . ومع ذلك فان اللينينية غلبت سائر التيارات والاتجاهات . كيف ولماذا ؟ هـذا ما سنراه أيضاً بالتدريج ، عندما نصل الى تخطي التعاريف الناقصة ، والوحيدة الطرف للفكر اللينيني ، التي لا تقدم منه الا وجهاً أو تفسيراً مما حكا .

ولنشر في الحال الى ان تعبير « اللينينية » قلما يستخدم وحده . وعندما يستعمل منفرداً بشكل منتظم ، فمعنى ذلك اننا نفصل اللينينيةعن الماركسية. في العادة يقال «الماركسية ـ اللينينية» ،وقد دخل هذا التعبير في الاستعمال الشائع ، السياسي ، بل الفلسفي . ومع ذلك فان وجود تعبير متميز يكفي للبرهنة على أن اللينينية لا تطابق الماركسية . فينبغي علينا اذن ان نبين بماذا تتميز اللينينية من الماركسية ، وماذا يبرر اتحاد الكلمتين : « الماركسية ـ اللينينية ». ويتعين علينا ، لبلوغ ذلك ، الرجوع أحياناً الى النظريات الماركسية ، وتناولها من جديد لعرض ارتباطها بنظريات لينين .

وخلافاً لما قد يظن أحيانا ، فانه ليس من اليسير أن نجد الصلة الدقيقة بين الماركسية واللينينية . ولنوضح في الحال هـذا الرأي . يقال ، ويعتقد غالباً ، إن المسائل الفلاحية ، التي تركها ماركس جانباً ، لأنـه كان يدرس الرأسمالية ووضع البروليتاريا في المجتمع البورجوازي ، قد نالت لدى لينين أهمية كبيرة ، جديدة على الماركسية . وكان هـــذا لأن لينين إنما كان يطبق الماركسية على التحليل الاقتصادي والسياسي في بلد متأخر ، زراعي بالدرجـة الأولى : هو روسيا القيصرية .

وانطلاقاً من ذلك تم الانتقال بسهولة الى اعتبار اللينينية[1] كظاهرة روسية نوعية ، أو كانحراف عن الماركسية، وغالباً ما يتم هذا الانتقال (صراحة أو ضمناً) في المناقشات والمجادلات .

غير أن هذا الرأي بشكله هذا ، لا يتفق والحقيقة . فماركس أولاً لم يترك جانبا المسائل الفلاحية . وما كان له ان يهملها ما دام تحليله الاقتصادي يتخذ من الاقتصاد البورجوازي الكلاسيكي نقطة انطلاق .

فنظرية الريع العقاري عنصر أساسي في اعمال ريكاردو . والاشارات والاحالات الى نظرية الريع العقاري،أساس التحليل في المسائل الفلاحية، لا تنقطع في مؤلفات ماركس، من مؤلفات فترة الشباب حتى كتاب رأس المال. غير أن ماركس يدرس فقط في القسم الأخير من رأس المال المجتمع الرأسمالي في مجموعه وتوزيع « الدخول » بين مختلف الطبقات والفئات في هذا المجتمع . وفي هـــذا القسم فقط يقدم فيزيولوجيا المجتمع ،بينما لم يقدم ريكاردو ، سوى تشريح المجتمع بصورة ناقصة . فهو يستأنف بحث نظرية الريع العقاري ، وينتقد ريكاردو ، ويقدم نظريته الخاصة . غير ان هذا القسم من رأس المال بقي غير منجز. واكثر من ذلك فان قلة من قراء رأس المال تصل اليه . بل أن أغلبهم لا يصلون الى نظرية الاسعار والدخول والمشكلات التي تطرحها ، انها مشكلات حلها لينين اجمالا منذ مؤلفاته الأولى . ذلك ان لينين انطلق من العمل الذي لم يتمه ماركس ، وتناوله تماماً في النقطة التي خلفها ماركس .

هـــذه الظروف قد افسحت المجال لتصديق الخرافة التي مفادها ان الماركسية – صنع ماركس – تتضمن تحليلاً نقدياً للانتاج الصناعي ووضع البروليتاريا في المجتمع البورجوازي ، مغفلة القطاع الزراعي او مفترضة انه مندمج في القطاع الصناعي .

---

(١) وبالتالي الستالينية .

والصحيح ان لينين وسع نظرية المسألة الزراعية الموجودة لدى ماركس[1] . ان هذه التحليلات تفسر ، كما سنرى ، الاثر الحاسم للينينية في البلاد المسماة « متخلفة » حيث جرت ، وما تزال تجري ، **اصلاحات زراعية** ويتم اللجوء الى مكننة الزراعة وتصنيعها عن طريق **التعاون** (بالطريق الاشتراكي) ، الا ان هذه السمة الهامة لاتشكل تعريفاً للينينية .

وقد يكون أقرب الى الصحة ان نصف اللينينية بتحليل رأسمالية الاحتكارات . فقد تنبأ ماركس ، لدى دراسته لرأسمالية المنافسة الحرة ، بتركز رأس المال وتمركزه ، والقضاء على المشروعات الصغيرة والمتوسطة ؛ عن طريق المنافسة او تبعيتها المشروعات الاكبر . إلا انه لم يقدر له ان يشهد العصر الذي حققت فيه فعلا الاحتكارات والترستات والكونزرن والشركات القابضة[2] الخ (holdings) السيطرة على المجتمع في مجمله ، بما فيه العناصر الرأسمالية وغير الرأسمالية (الحرفيين وصغار المزارعين) ، وبما فيه أيضاً جهاز الدولة . كل هذا رغم الاحتجاجات والتشريعات ضد الاحتكارات وسواها .

لم يستطع ماركس اذن ان يسهم في المناقشات الحادة حول هذه النقطة الحاسمة ، اذ اكتفى بعض المتناقشين بالشكوى او الاحتجاج باسم الليبرالية « الكلاسيكية » ، بينما لمح آخرون في الاحتكارات بذرة نظام جديد ، والعنصر المنظم لفوضى الرأسمالية في عهد المنافسة الحرة ـ وكشف آخرون مع لينين ، في الاحتكارات ، انها في الوقت ذاته عنصر منافسة عنيفة يمكن ان تصل الى الحرب وعرضاً لتفسخ داخلي في الرأسمالية ، وامكانية للانتقال الى الاشتراكية (بشرط تحويل العلاقات الاجتماعية للانتاج وحرمان البورجوازية ، بوصفها طبقة ، من ملكية وسائل الانتاج وادارة الشؤون العامة) . .

---

(١) وفي نصوص عديدة لانجلز ، لا نستطيع ايرادها هنا .

(٢) اثبتنا هذه التعابير جنباً الى جنب تاركين جانباً معانيها الدقيقة والفروق بينها .

غير ان هذا التعريف للينينية يهمل هو أيضاً سمات هامة من تفكيرها الفلسفي والسياسي .

وقد يكون أيضاً أقرب الى الصحة ان نصفها بنظرية وتطبيق دكتاتورية البروليتاريا .

ولنذكر منذ الآن ان التعبير والفكرة انما يرجعان الى ماركس . ففي رسالته الذائعة الصيت الموجهة الى ويدماير Weydemeyer (٥ آذار ـ مارس ـ ١٨٥٢) التي نشرها مهرنج Mehring عام ١٩٠٧ في صحيفة Die New Zeit [1] ، يلخص ماركس المعنى السياسي لفشل ثورات ١٩٤٨ . وهو يقول إن آخرين غيره قد اكتشفوا صراع الطبقات : المؤرخين الفرنسيين لفترة عودة الملكية . وهناك آخرون غيره، الاقتصاديون الكلاسيكيون ، سميث وريكاردو ، قدعرضوا تشريح المجتمع والطبقات :

« ان الجديد الذي قمت به هو في البرهنة التالية :

١ ـ ان وجود الطبقات لايرتبط الا بشروط معينة ، تاريخية ،متصلة بنمو الانتاج .

٢ ـ ان صراع الطبقات يفضي بالضرورة الى دكتاتورية البروليتاريا

٣ ـ ان هذه الدكتاتورية ذاتها تشكل فقط مرحلة الانتقال نحو الغاء كل الطبقات ونحو مجتمع لاطبقات فيه » .

ان هذا النص الذي كتبه ماركس يوضح نص البيان الشيوعي ، الذي

---

(١) راجع لينين ، الدولة والثورة . الفصل الثاني القسم ٣ ، وكذلك : الثورة البروليتارية وكاوتسكي المرتد ، الفصل الثاني ، صفحة ٤٢٩ . وسنقتبس عن لينين على الاغلب من المؤلفات المختارة في جزئين ،طبعة اللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٨ .

لايتناول الا استيلاء البروليتاريا على الديموقراطية ، وانقلاب الطبقة العاملة الى طبقة مسيطرة قومياً .

لقد أخذ لينين اذن عن ماركس فكرة دكتاتورية البروليتاريا ، ووسعها وطبقها بعد ان صاغ ستراتيجة وتكتيكاسياسيين للطبقة العاملة في استيلائها على السلطة وممارسة هذه السلطة .

إلا ان من الخطأ الكلي ان نصف اللينينية بالتدخل الشرس للعنف ، والعنف وحده ، الذي يحطم كل اكراه ويلغي كل مشروعية خلال انقطاع تاريخي مفاجيء ومطلق .

ذلك ان امكانية استخدام العنف الثوري والاكراه الفعلي للبورجوازية لا يستتبعان بالضرورة استخدام العنف غير المحدود . ويميز لينين بعناية بين التحضير للدكتاتورية والقيام بها . ففي فترة التحضير (كما في عام ١٩٠٥ او في شباط ـ فبراير ـ ١٩١٧ في تاريخ روسيا) بدأت الطبقة العاملة بفرض دورها المسيطر والقائد ، خلال **الثورة الديموقرطية البورجوازية** . هذه الثورة والنظام السياسي الذي يعقبها ليسا محددين مقدما ، ورغم ان لهاحدوداً ، فان هذه الحدود غير ثابتة . انها رهن بميزان القوى وبالنشاط السياسي للطبقات الموجودة . فالديموقراطية البورجوازية يمكن تعميقها بحيث ان الدور الذي تلعبه فيها الطبقة العاملة يمكن ان يحتوي على بذرة سلطتها الحاسمة ، وفي الوقت ذاته على ممارسة هذه السلطة بأقل مايمكن من العنف . فثمة اشكال للانتقال اذن ، وهكذا فان **الدكتاتورية الديموقراطية للعمال والفلاحين** على الاقطاعيين ورواسب الاقطاع ، ضد القيصرية وانصارها (وقد تحققت فعلا في تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩١٧ بمشاركة الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين ممثلي الفلاحين ، الذين صاغوا مع لينين ، مرسوم الغاء الملكية العقارية) . ولكن البرنامج اللينيني لم يكن

يتضمن « **الانتفاع المتساوي** » بالارض ، وتطبيق « **اشتراكية الارض** » في اطار القرية الضيق ، مما كان يبشر به الاشتراكيون - الثوريون اليساريون .
وكان لينين ، كما سنرى بشكل واضح فيما بعد ، يميز بعناية بين المحتوى الديموقراطي والمحتوى **الاشتراكي** للعلاقات الاجتماعية وتحولها . فهو يرى ان الديموقراطية والاشتراكية لاتتطابقان ، دون ان تنفي احداهما الاخرى ، ومع احتوائهما على امكانيات الانتقال من الاولى الى الثانية ، وعلى تفتح الاولى في داخل الثانية . فالعلاقات بينهما معقدة ديالكتيكية ، تتضمن اذن مشكلات ونزاعات او امكانية نزاعات . وهو يرى ان التدابير **الديموقراطية** التي يدعو لها الاشتراكيون - الثوريون اليساريون تجعل ممكناً ، بل وحتمياً ، اعادة تكون بورجوازية ورأسمالية على اساس الانتاج التجاري . فالاصلاح الزراعي (اعادة توزيع الارض المؤممة . وتصرف الفلاحين فيها بشكل دائم) كان يهدم بنية الملكية والاستغلال في روسيا . غير ان لينين لم يكن ينظر الى هذا الاصلاح الزراعي ، ذي المحتوى الديموقراطي ، الا كمرحلة انتقالية نحو المشروع الاشتراكي الكبير (الممكنن والمكهرب) . وخلال هذا التحول الضخم فان اراضي الفلاحين الاغنياء (الذين احتكروا في الاصل بدرجات متفاوته الاراضي المستولى عليها من الاقطاعيين) يجب بدورها ان تصادر لمصلحة الفلاحين الفقراء والمتوسطين . واذ لم يقبل الاشتراكيون الثوريون اليساريون بهذه التدابير فانهم انسحبوا من الائتلاف الحكومي .

وكتب لينين يومئذ : في صيف **١٩١٨ ابتدأت الثورة البروليتارية في الريف** »

ان روسيا والشعب الروسي كانا ينتقلان آنذاك ، بمبادرة وعفوية ثوريتين توجهها اللينينية ، من الدكتاتورية الديمقراطية للعمال والفلاحين (ضد

الاقطاعيين) الى دكتاتورية البروليتاريا (ضد البورجوازية كلها، بما فيها البورجوازية كلها ، بما فيها البورجوازية الريفية ، بالتحالف مع الفلاحين الفقراء وحياد الفلاحين المتوسطين او مساعدتهم .[1] وخلال هذا التحول اخذت البورجوازية ، متحدة مع الاقطاعيين ، مبادرة العنف ، فكانت الحرب الاهلية مع التدخل الاجنبي . ومن هنا التصلب المتطرف للدكتاتورية البروليتارية : فالعنف استجاب للعنف .

لقد ضربنا مثلا ، قبل اوانه ، من الوقائع والاحداث التاريخية التي وقعت سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨ ، لنبين اولا كيف ان ماركس لم يكن ليستطيع ان يتنبأ بالاشكال العملية للدكتاتورية التي نادى بها ، وايضاً ، وبصورة خاصة ، كيف ان فكر لينين السياسي يتكشف اكثر تعقيداً او مرونة بكثير مما يفترض فيه عادة . فهو يميز ، ولكنه لايفصل ولا يعتبر انها متعارضة هذه التعابير التي كثيراً مايفصل بينها : الديموقراطية والاشتراكية ، المشروعية والاكراه ـ الاصلاح والثورة ـ الاستمرار والانقطاع التاريخيين والسياسيين . فلئن كانت ثمة ـ حسب رأيه ـ مبادىء نظرية واهداف عملية محددة فلم تكن هناك ايضاالا اوضاع مشخصة :

« ان الحقيقة مشخصة ابداً »

لقد تبنى لينين صراحة هذه الحكمة من هيجل . هل يعني ذلك ان نقول ، مع الفيلسوف السوفياتي ديبورين Deborin :

« لقد كان لينين رجل العمل ، العمل السياسي ، القائد . ان اللينينية هي الماركسية الثورية[2] »

---

(١) باعتبار ان هذه الفئات غير قابلة بصورة عامة لتعريف اقتصادي صارم (راجع المختارات ، المجلد الثاني ، صفحة ٤٨ ومابعدها ، ص ٢٧٢ - ٢٧٨ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ ، ص ٥٣٣ و ٥٤٣ .. الخ .

(٢) Deborine, Lenin, der Kumfende Materialist, Wien - Berlin 1924 p. 9 - 13

لا . ان النزعة العملية التي تؤكد على هذا النحو ، بالتناقض مع « النزعة النظرية » لدى الماركسيين الآخرين وماركس نفسه ، لاتصور الا جزءا من الحقيقة .

هل نعرف اذن ، مع ستالين في كتابه (مسائل اللينينية) ، مذهب لينين بالنظرية والعمل ، باستراتيجية دكتاتورية البروليتاريا وتكتيكها ؛ نعم ، والى حدما، وفقط الى حد ما . مع هذا التحفظ ، ان نظرية دكتاتورية البروليتاريا ينبغي ان تؤخذ في كل تعقيدها وفي تبعيتها للصيرورة التاريخيـــة ، للاوضاع المشخصة . على ان نضيف صراحة ان عمـل لينين يتخطى هذا المظهر السياسي ، الذي هو رهن بطريقته ولايحكمها.

لقد كان لينين فيلسوفاً ايضاً . وفكره الفلسفي في رأينا ، هو الذي يقدم لنا واسطة العقد في اعماله ويجعلها مفهومة .

في عام ١٩٢٤ ، بعد موت لينين بقليل ، عرف ستالين اسلوب الفقيد الكبير ، وذلك بعبارات يمكن ان تدعو اليوم للدهشة . لندعه يتكلم :

« ماهي السمات المميزة لهذا الاسلوب ؟ ماهي خصائصه ؟ ان هـــذه الخصائص تتلخص في اثنتين :

أ ـ الاندفاع الثوري الروسي

ب ـ الحس العملي الامريكي . فالاندفاع الثوري الروسي هو الترياق ضد الجمود والروتين ، والحس العملي الامريكي هو القوة الجامحة التي لاتعرف الحواجز ولاتعترف عليها[1] » .

---

(١) ستالين ، محاضرات في جامعة سفيردلوفسك Sverdlovsk في كتابه مبادىء اللينينية، المنشورات الاجتماعية، باريس، ١٩٤٦ صفحة ٩٠ Principes du Léninisme, Ed. Soc

- ١ -

الظروف التاريخيّة لللينينية

مات ماركس عام ١٨٨٤ ، وخلف عمله ناقصا .

ونحن في غنى عن الالحاح على هذه الواقعة (١) . فخلفاء ماركس سيجدون انفسهم امام حقائق لم يستطع هذا ان يبدأ بتحليلها او تعميق هذا التحليل. ستكون لهم كوسيلة عمل آثار ضخمة وان تكن ناقصة ، تكوّن بآن واحد ، حين يقتضي الامر كلًا ، يعني بكلية موضوعية (هي المجتمع وصورته ولكنها جزئية مع ذلك .

ان ماركس لم يستطـــع كتابة المطول في المنطق والمنهجية الديالكتيكية وحسب ، ولا تاريخ الفلسفة الذي كان ينوي كتابته (٢) ، بل انه لم يتمكن من انهاء (رأس المال) . وقد نشر انجلز ، بعد موت ماركس، القسمين الاخيرين منه ، نقلا عن المسودات (ناقصة ، وتنطوي على فروق) التي خلفها صديقه . وبناء على شهادة انجلز فان كارل ماركس كان ، عند موته ، يدرك ببصيرته قرب ميلاد عصر تاريخي جديد يتصف بشكل خاص بانتقال مركز الثورة العالمية « الى الشرق »

---

(١) وبصورة خاصة اليوم ، عام ١٩٥٦ . فبعض مظاهر مايسمى غالبا « الجدانوفية » و « الستالينية » كان يمكن ان تكون مستحيلة لو ان ماركس تابع عمله كفيلسوف ورجل نظرية سياسية (حاشية تموز - يوليو - ١٩٥٦).

(٢) تبعا لذكريات لا فارج Lafargue وبصورة خاصة تبعا لرسالة ماركس الى العامل الفيلسوف الالماني ديتزجن Dietzgen التي نشرها هذا (Sâmtliche Schriften) كذلك بناء على رسالة ماركس الى انجلز بتاريخ ١٤ كانون الثاني - يناير - ١٨٥٨ ؛ المشار اليها فيما سبق .

فأقدم على تعلم اللغة الروسية وتجميع بيانات ومراجع واسعة عن المشكلات الروسية ، وبصوره خاصة المسائل الزراعية . فماركس ، بعد ان درس نمو الرأسمالية ، بصورة خاصة بالاستناد الى انجلترا) والتاريخ الانجليزي ، كان يقدر ان المسائل المتعلقة بالزراعة ينبغي ان تدرس بالا ستناد الى الوقائع الروسية . وكان معلوماً ان لينين سيتناول ، منذ مؤلفاته الاولى ، ويوسع هذا التحليل ، الذي تخلى عنه لسوء الحظ مؤسس الماركسية بعد ان أعد خطوطه الأولى (القسم الاخير من رأس المال ، المجلدان ١٣ و ١٤ ترجمة موليتور) .

وعاش انجلز بعد ماركس عقدا من السنين : ما يكفي ليشهد النمو الفريد للاحزاب الاشتراكية - الديموقراطية الغربية ونجاحها الانتخابي ، ويشهد كذلك سيطرة النفوذ الماركسي فى هذه الاحزاب وفي الاممية الثانية . (اما في الاممية الاولى ، التي غابت بشكل غامض حوالي ١٨٧٨ ، فإن الماركسية لم تستطع ان تتغلب على فوضوية باكونين ، والبرودونية ، وعلى انصار فرديناند لاسال في المانيا) .

غير ان انجلز عاش مدة كافية من الزمن ليلمح فى هذه الاحزاب الاعراض الاولى للتفسخ : الانتهازية ، مختلف انواع التوفيق ، البرلمانية البرجوازية ، تشويه النظرية الماركسية ، الانقسامات والانشقاقات ، التخلي والتراجع ...

لنستعرض بسرعة هذه الفترة التي سبقت اللينينية ، وبشرت بها ، وأعدتها وجعلتها ضرورية .

ان انتصارات الجيش البروسي والنمو الصناعي (المتأخر والسريع) الذي أعقبها ، هزت بحق المانيا القديمة ، التي وقفت في وجه اندفاعة ١٨٤٨ . إلا انها لم تدمر (كما كان يمكن ان تفعله وعلى طريقة الدهماء ، ثورة ديموقراطية بورجوازية تأتي « من الاسفل ») ، الاطر القديمة ورواسب الاقطاع .

فتسلط الاقطاعيين أصبح غير محتمل حتى بالنسبة للحكومة البسمار كية . فاتخذت بعض التدابير ، ولكنها تدابير جزئية ، ضدهم . وتركت سليمة ، اوتقريبا ، الاساس الاقتصادي والاجتماعي لنفوذهم السياسي : الملكية العقارية . في ذاك الوقت انتقل صراع الطبقات بين البورجوازية والطبقة العاملة الى المقام الاول في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وحل محل الصراع بين البورجوازيين والاقطاعيين. وتحولت القاعدة الاقتصادية والاجتماعية للدولة ، فالملكية التي حمت مدة طويلة الاريستوقراطية ضد البورجوازية تحولت الى حماية الطبقات المالكة في مجموعها ضد الطبقة العاملة .

ونتيجة لذلك ظهرت « بونابرتية » قليلة التوافق مع بعض رواسب النزعة الاقليمية الاقطاعية (تعدد العملات ، التشريعات في الدول الصغيرة . . العقبات في وجه المواصلات والتجارة) . وهكذا تابعت بروسيا وألمانيا ، بشكل بونابرتية بسمار كية ، « ثورة من فوق » . ولو سار كل شيء على ما يرام ، كما كان يقول انجلز ساخراً عام ١٨٨٥ ، لشاهدنا بروسيا والمانيا حوالي عام ١٩٠٠ في النقطة التي كانت فيها فرنسا قبل عشرات السنين .

إلا ان الحركة العمالية في المانيا[١] كانت تفيد مع ذلك من الحس النظري المرتفع في هذا البلد .

---

(١) انشئت المنظمات الاولى في ليبزنغ عام ١٨٦١ من قبل Bebel و W . Liebknecht . والد Karl Liebknecht. وفي عام ١٨٦٣ أسس لاسال « الرابطة العامة للعمال الالمان » ووجهها نحو الاصلاحية تحت ستار كتابات متطرفة (قانون الاجور الحديدي) مما استتبع اول انشقاق وتأسيس الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي في المانيا ، في آب – اغسطس – ١٨٦٩ في مدينة ايزناخ Eisenach . وقام صراع شديد بين انصار الحزب وانصار لاسال (رغم موت لاسال الذي قتل في مبارزة عام ١٨٦٤)=

فالعمال الالمان

« احتفظوا بالحس النظري الذي تلاشى من المانيا المسماة مثقفة . ولو لم تكن الفلسفة الالمانية قد وجدت من قبل ، وبصورة خاصة فلسفة هيجل لما وجدت الاشتراكية العلمية الالمانية . وبدون الحس النظري للعمال لما كان هؤلاء قادرين على تمثل هذه الاشتراكية العلمية [١] »

ويتابع انجلز فيقول إن الحركة الالمانية التي ولدت متأخرة استفادت من الاسهام النظري والتجربة العلمية للحركات الأجنبية ، لاسيما في فرنسا وفي انجلترة. فتستطيع بذلك تصحيح أخطائها ونقاط ضعفها .

وبالرغم من هذه المزايا لاحظ انجلز وأشار منذ ١٨٨٧ الى «تبرجز» الحزب . وكان ما يزال يأمل في وقف هذا الاتجاه .

« ان الحزب يتبرجز . تلك هي آفة الاحزاب ، منذ اللحظة التي يمكن أن توجد فيها [٢] » .

ومن ثم ينتقد بشدة ، وبصورة خاصة فيما يتعلق بالحزب الفرنسي، الفصل بين النظرية والتطبيق ، بين الأهداف النهائية والعمل السياسي المباشر ، وكذلك الاستخفاف بالمسائل المشخصة ، تلك :

= وفي عام ١٨٧٥ عقد اجتماع ومؤتمر للتوحيد (غوتا ، أيار - مايو - ١٨٧٥) . ورغم ماركس (الحواشي) وانجلز ، فان انصار الحزب قدموا لانصار لاسال تنازلات كبيرة . وفي عام ١٨٩٠ ألغي قانون بسمارك الاستثنائي الذي كان موجهاً ضد جميع الاشتراكيين ، وتم وضع برنامج جديد ، نقح إثر تدخل انجلز ، وأقر في ارفورت (تشرين الاول - اكتوبر - ١٨٩١) .

(١) انجلز ، مقدمة لـ « حرب الفلاحين » ١٨٧٤، نص تناوله لينين و علق عليه في: « ما العمل » صفحة ١٩٣ - ١٩٥ .

(٢) Briefe von F. Engels über die franzosische Arbeiterpartei, Neue Zeit, XIX, 1. 426.

« التي تحتل جدول الأعمال في كل أزمة سياسية وكل حدث »[1]

فالانتهازيون بدأوا « يخفون » نصوص ماركس وانجلز (لاسيما الحواشي التي نشرت في Vorwaerts في شباط - فبراير - ١٨٩١ ، تحت عنوان : نقد برنامج غوتا)

ففي رسالة من انجلز بتاريخ ٣ نيسان - ابريل ١٨٩٥ (قبيل موته) يحتج على اجتزاء مقدمته لمقالات ماركس حول صراع الطبقات في فرنسا (١٨٤٨ - ١٨٥٠ ، اجتزاء قصد منه إنقاذ الانتهازية السياسية .

وعلى هذا النحو سهر انجلز أكثر من عشر سنوات على الحركة العمالية الثورية الدولية ، وبصورة خاصة الحركة الألمانية . وكان يرجو أن يعينها على تجاوز الصعوبات ، إلا أنه لقي أنواع المعارضة .

وتوفي انجلز . ووقت وفاته ، باشر لينين في روسيا القيصرية تأليفه وعمله .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أحرز الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني نجاحاً انتخابياً ضخماً ، بعد نهاية البونابارتية البسماركية ، وفي أطار المانيا الامبراطورية والامبريالية الناشئة . (حصل الاشتراكيون الديموقراطيون في انتخابات ١٩٠٣ ، على الأغلبية المطلقة في ١٣ دائرة انتخابية ، أي أكثر من ٥٠٪ من الأصوات ، كما حصلوا في ٤٦ دائرة على ٤٠ - ٥٠ ٪ من الأصوات) .

آنذاك ظهرت في المانيا اتجاهات متباينة وعبرت عن نفسها وتزايدت عمقاً ، وهي اتجاهات أعدت لتصبح تناقضات .

---

(١) المرجع السابق .

ولا بد من معرفة هذه الاتجاهات ، لأنها ستظهر في الحركة الثورية في سائر البلاد ، وستقوم اللينينية ضدها (ضد مجموعها) . غير أن لينين لم يكتب إلا عرضاً ضد الاتجاهات المماثلة التي ظهرت في الحركة الفرنسية . ذلك أن هذه الحركة ، منذ أيام كبار الاشتراكيين الطوبائيين ، **لم تتألق أبداً** في مجال البحث النظري . فقد عانت (حسب لينين نفسه) من آفتين كبريين : الجملة المجردة ، والكلمات المرصوفة الثورية اليسارية ، وهما آفتان تتلاقيان . وما من مذهب ظهر ليحاول الرد بوضوح على المسائل الجديدة التي تطرح نفسها، بصورة متزايدة الشمول وباستمرار .

حين كانت أحزاب الغرب الاشتراكية تحرز مثل هذه الانتصارات ، بدأت – في رأي لينين – مرحلة تاريخية جديدة . ولكن على نحو يختلف كلياً عما كان يفكر فيه الاشتراكيون الغربيون باحلامهم عن تحقيق التقدم والتطور ، والاشتراكية عن طريق البرلمانية وحدها .

وعلى عكس النظريين الذين كانوا يتحمسون أمام عصر النور والتقدم الذي كانوا يظنون أنفسهم قد دخلوه ، فان لينين سيصرح أن مرحلة رجعية قد سادت أوربا ، منذ عهد الكومونة في باريس ، بصورة تكاد تكون متصلة (راجع كتاب : اسلوبان (تكتيكان) ، الجزء ١ صفحة ٤٣٠) .

وقد بدت الأعراض الأولى « للتوتر الدولي » في مطلع القرن العشرين . واتجه العالم الى حرب عالمية ستسبب انهيار هذه الأممية الثانية التي سيقول عنها زعماؤها إنها كانت « أداة سلم » (سلم وحسب ، لا ثورة) – أما لينين فيرى أن هذه « التوترات » معناها ، بالعكس ، أن عهد الثورات قد بدأ . وبهذا المعنى سيحلل الاحداث ، وينجز تحليله في نظريته عن **الامبريالية** ، مردداً بلا كلل فكرة أن الماركسية ليست عقيدة ثابتة ، بل مرشداً للعمل . وهذا يعني أنه حين يحلل

الوقائع ذاتها ، والاحداث ذاتها ، التي تناولها النظريون الآخرون للحركة العمالية والاشتراكية ، فان تحليله سيختلف أكثر فأكثر عن تحليلهم .

وفي المانيا ظهرت **ثلاثة اتجاهات رئيسية** ، تفاقمت التباينات فيما بينهما حتى تفجرت ، ولعبت دوراً من الأهمية الأولى في التاريخ السياسي للقرن العشرين :

أ ـ تيار يميني ، يسمى « **تحريفي** » وفيه عملت مؤثرات الليبرالية البورجوازية وتغلغلت فيه بحيث أفضت الى تصفية الماركسية .

فالتحريفية ، وبذورها موجودة منذ زمن طويل (منذ برامج غوتا وأرفورت) نالت تعبيرها النظري ، والفلسفي والسياسي سنة ١٨٩٩ ، في كتاب برنشتاين Bernstein « الفرضيات المسبقة للاشتراكية » . هاجم برنشتاين صراحة مبادىء الماركسية : المادية الفلسفية ـ الديالكتيك ـ نظرية القيمة ـ نظرية تفاقم التناقضات في الرأسمالية ـ نظرية الانتقال الى الاشتراكية عن طريق ثورة سياسية وفترة انتقالية للتحويل الثوري للعلاقات الاجتماعية ـ نظرية الاتجاه الى تركز رأس المال وافتقار البروليتاريا . وقد اقترح برنشتاين تحويل الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي الى حزب اصلاحي ، يعمل فقط وبشكل صريح عن طريق الوسائل المشروعة والبرلمانية .

وكان يهاجم بشكل خاص الديالكتيك ، مرجعاً ديالكتيكية ماركس الى ديالكتيكية هيجل ، معتبراً اياها النقطة الضعيفة في الماركسية ، بل وفخاً أيضاً . وكان يجب ، قبل مناقشة المسائل التي طرحتها الماركسية ، استبعاد هذا الوحش المنتمي الى القرون الوسطى ، والجدير بالسيميائيين ، هذا Hokuspokus (كلمة مستعارة من ـ ليلة مالبرجيس ، من كتاب فاوست لغوته)

« ان ما قام به ماركس وانجلز من أمر عظيم إنما قاما به لابواسطة الديالكتيك الهيجلي ، بل رغم أنف الديالكتيك[1]» .

ولم يكن برنشتاين يرى في الديالكتيك غير سلسلة وهمية من الاعتبارات المجردة ، تغفـــل « الخصائص النوعية للاشياء[2] »، وهو اذ ينكر موضوعية الديالكتيك في تاريخ المجتمع ، يرفضها من باب اولى في الطبيعة . ولذلك كان يهاجم انجلز ويجهد نفسه لفصل أعمال انجلزعن أعمال ماركس . وكان يقترح ايضاً أن يحل محـل المادية ، باعتبارها « فرضية مسبقة » أو الأساس الفلسفي للحركة الاشتراكية ، مذهب الشك الصرف ، مذهب اللاأدرية ، فلسفة كانت ، باعتبار انها الأرض الوحيدة الصلبة في الفلسفة . وكان يعلم ان المادية والروحية هما في الأصل شكلان للميتافيزياء ، لايختلفان عن بعضهما الا في التعبير :

« إن المادية المحضة المطلقة هي روحية مثل المثالية المحضة والمطلقه[2]»

وكان يبحث للاشتراكية عن نظرية في المعرفة تستطيع ان تستغني عن « الروح الثورية للماركسية » ، كما يقول لينين : الديالكتيك . كان يريد أيضـاً أن يقصر هذه « الروح » على الاخلاق، أخلاق تتوافق مع الليبرالية البورجوازية وتطلعاتها وآمالهـــا المبهمة . وفي حدود ما كان يسلم بوجود علم اشتراكي أو اشتراكية علمية (في الاقتصاد السياسي ، في التاريخ) ، كان يؤكد أن هـذا العلم لا شأن له بالصراع السياسي وسلوك الحركة العمالية . (المقـــال ذاته) . فالماركسية ، باعتبارها علماً ، هي « غير منحازة » ، فوق الطبقات والاحزاب .

---

(١) المرجع السالف الذكر، صفحة ٢٦

(٢) Abstrahieren von den Spezifischen Besonderheiten der Dinge
cf. Neue Zeit 1899, 17 , II , p . 329

(٣) NeueZeit, 16,II. p.227, 1898 تحت عنوان ذي دلالة اذ كانبرنشتاين يزعم انه ينتقل بنظريتهمن اللحظة الايديولوجية الى اللحظة الواقعية .

ولئن شددنا على كتاب برنشتاين فلأنه يتضمن منذ ذاك الحين معظم الحجج ، ان لم نقل كلها ، التي استخدمت حتى أيامنا هذه ضد الماركسية . ذلك ان لينين ، في صفحات عديدة ، وحتى عندما لا يسمي برنشتاين ، ويهاجم المواقف المماثلة في روسيا ، قد استهدف التحريفية البرنشتاينية ، بمضامينها ونتائجها .

والخلاصة إن الثورة بالمعنى الذي قصده ماركس لم تكن في نظر التحريفية ، سوى حلم ، طوباوية . فما الهدف السياسي الوحيد ؟ انه الحصول على اكثر من ٥٠٪ من الاصوات ، والتوصل الى « الاشتراكية » ، دون انقطاع ، ودون تحول في العلاقات الاجتماعية (علاقات الانتاج) .

ب - **تيار وسط** (« يسمى ارثوذكسياً » . ولنشدد كثيراً على هذه التسمية ، لأن الوسطيين ، كانوا يعتبرون انفسهم الماركسيين الوحيدين . والواقع ان لينين لم يكن ماركسياً بالمعنى الذي قصدوه . وهانحن قد بدأنا هنا نلتقط عملية التسوية والوصل بين الماركسية واللينينية)

لقد كان الارثوذكسيون ، يعتبرون ان الماركسية بالاساس نظرية **اقتصادية** (او نظرية **تاريخية** ، او **سوسيولوجية**) . وبعبارة اخرى فقد كانوا يحصرونها في اطار متفاوت الضيق لعلم من العلوم .

وهم اذ يعتقدون انهم يدافعون عن الماركسية ، بل ويتمسكون عقائديا بتأكيدات ماركس عن الارتباط بين القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج (وبالتالي عن الارتباط الوثيق بين العامل الاقتصادي والعامل السياسي ، بين النمو الصناعي وقدرة البروليتاريا على العمل) انما كانوا يتجهون الى رفض الماركسية كفلسفة ، ومفهوم للعالم .

وعلى سبيل المثال فان مهرنج Franz Mehring (الذي يبقى عمله كمؤرخ لماركس جديراً بأعظم الاهتمام) كان يتحدث بشيء من السخرية ، في كتاب عن تاريخ

الفلسفة [1] عن الفلسفة ذاتهـــا و « تعقيداتها الضبابية » . وفي رأي مهرنج و « الارثوذكسيين » الذين يتمسكون تمسكاً حرفياً ويفسرون تفسيراً ضيقاً ، بعض تعابير ماركس وانجلز عن نهاية الفلسفة (التأملية) ، لم تعد ثمة فلسفة ، وبالتالي لافلسفة ماركسية . ان الماركسية والبروليتاريا الصاعدة تلغيان الفلسفة الكلاسيكية التقليدية ، وفي الوقت ذاته كل فلسفة .

ان لهذا اهمية اساسية ، فمنذ ذاك الحين اصبح كل ترد للماركسية ، وكل مسخ ، وكل كبح لاندفاعها الثوري انما يتجلى باحتقار الفلسفة ، واهمالهـــا وتحقيرها ، وترديها ، احتقار لاشعوري او متخف احياناً : فنستبدل بالفلسفة تاريخ الفلسفة ، - كما فعل مهرنج - ونعتقد أننا نحافظ على مقامها . وبهذا المعنى سيبدو لنا لينين كمجدد للفلسفة الماركسية وللماركسية الفلسفية ضد « الارثوذكس »

ان هؤلاء كانوا يحافظون على الديالكتيك ، بل ويدافعون عنهـــا ضد « التحريفيين » . غير انهم كانوا يفهمونها كطريقة صرفـة (مغفلين او مقللين من شأن محتوى هذه الطريقة اذ يفصلونها عن مضامينها الفلسفية : المنطق (الصوري والديالكتيكي) - نظرية المعرفة - مفهوم العلم ، بحيث يلاحظ لينين ان اعداء الماركسية يرون بصورة أفضل من « الارثوذكسيين » الاسس الفلسفيـــة الماركسية . (مؤلفات لينين ، الطبعة الروسية ، ١٩٢٩ ، المجلد الثامن عشر ، ص ٥٣ ، ٥٤) وهي المادية والديالكتيك . وينوه لينين بالالمانيين بنو اردمان Benno Erdmann وارنست ترالتش Ernest Traltzche .. الخ .

لقد كان الارثوذكسيون ، في الوقت الذي كانت علوم الطبيعـة تحقق تقدماً خارقاً ، ينصرفون عنها . كانوا يردون الديالكتيك الى فلسفة للتاريخ او المجتمع .

---

(١) Zur geschichte der Philosophie, Gesammelte Schriften , VI heraus gegeben, von A. Thalheimer. Berlin, 1933 .

وبينما كان لينين يرى ان منهج العلوم مظهر بالغ الاهمية ، ولكنه تابع ، في نظرية المعرفة والديالكتيك ، فان منهج العلوم اصبح في نظر « الارثوذكسيين » اساسياً . وكانوا يطبقونه بالدرجة الأولى على الماضي ، مؤلفين كتباً ممتازة ، إلا انها منفصلة عن الحياة ، عن الواقع الراهن ، عن صراع الطبقات ، عن الجدل السياسي . (مثلا كتاب مهرنج ، Lessing - Legende او كتاب كاوتسكي Kautsky عن « توماس موروس » .

واصبحت الديالكتيك لدى الارثوذكس ، بعد ان أفرغت على هذا النحو من مضمونها ، (ببطء على صعيد الحياة الفردية ، ولكن بسرعة كبيرة على الصعيد التاريخي) ، نوعاً من الانتقائية أو السفسطائية . « فالتركيب » ، « اتحاد المتضادات » ، كانا يتيحان محاولات للتوفيق والمصالحة يطلقون عليها « ديالكتيك » . وكان الوضع الفلسفي يتعقد ، بسبب ظهور « الهيجلية الجديدة » آنذاك في المانيا . وبصورة اعم ، فقد كانت الفترة آنذاك في الفكر الالماني ، فترة صعود اللاعقلانية . وكان على الماركسيين ان يكافحوا ضدها بصورة مجدية ومتماسكة . فالهيجلية الجديدة كانت فعلا تقدم الديالكتيك على انها لاعقلانية وصوفية في اساسها . « فالارثوذكسيون » احياناً ، وهم الذين يدافعون صورياً عن الديالكتيك الماركسية - يرفضون هيجل جملة ، اذ يعتبرون الهيجلية الجديدة قد افسدته ، واحياناً اخرى يتحالفون مع الهيجلية الجديدة ، بحجة النضال ضد مناهضة التحريفية . هكذا فعل مهرنج اذ ، بفصله الديالكتيك عن المادية (باعتبارها مجرد مادية عامية ميكانيكية) ورده الديالكتيك الى الطبيعة ، كان يستهدف فصل انجلز عن ماركس ، والمادية **التاريخية** عن المادية **الديالكتيكية**[1] . اي انه كان يقع في التحريفية

---

(١) راجع بصورة خاصة gesammelte Schriften VI, pp. 247 et 237

حين كان يظن انه يحاربها . وكان في الوقت ذاته يتراجع امام الهيجلية الجديدة واللاعقلانية .

وسيتناول لينين في اعماله الفلسفية هذه المسائل في مجموعها ويبدأ « عملية ايضاح » متعمقة فيا يتعلق بهيجل، والهيجلية والديالكتيك الهيجلي وعلاقتها بالماركسية ..

على هذا النحو يتجه « الارثودكسيون » ، منذ البداية، منذتبلوراتجاههم . الى رد الماركسية الى مذهب تطوري . هذا بالرغم من كفاءاتهم ؛ وبالرغم من حسن نيتهم الثورية ، بالرغم من ثقافتهم الواسعة ومعارفهم .

وعلى هذا النحو لم يتوصلوا كنظريين سياسيين الى ايجاد رد مرض على السؤال « اصلاحات ام ثورة » ؟ وانتهوا الى الفصل بينها، الى معارضتهابعضها ، مما يحول المسألة الى ثنائية، ويسهم في شق الحركة الى يمين ويسار متطرف . بينما كان ماركس يرى ان الاصلاحات الحقيقية الهامة (لا السطحية او المقصود منها تغطية مصالح الطبقة البورجوازية) هي نتائج ، تابعة ولكنها مفيدة ، لعمل البروليتاريا الثوري في مسيرتها نحو الاشتراكية .

وهكذا يتأرجح هؤلاء النظريون « الوسطيون » بين اليسار واليمين ، مؤثرين السير في الاتجاه الاخير .

انهم يسمحون بتكون اتجاهات كان يمكن لنضال ايديولوجي يقاد على شكل صحيح وبحزم ان يلجمها منذالبداية (مثال ذلك اتجاه سومبارت Sombart الذي كان يرى ان هيجل وماركس قد أسسا التطورية التاريخية ، وان ماركس قد انحرف بتأثير الاشتراكيين الطوبائيين الفرنسيين) .

ان الصفة الواضحة الثابتة اي الثورية للعلم ، كما هو شأن صفة الديالكتيك والفلسفة ، تتلاشى عندهؤلاء الوسطيين ، والارثوذكسيين . فالفكر ، لا حزب له ، في

رأيهم . وقراءة الازمنة الحديثة Die Neue Zeit ، وهي الصحيفة الرسمية للاشتراكية الديموقراطية الالمانية ، التي يوجهها « الارثوذكسيون » ، تثبت ذلك . فبحجة المناقشة الحرة تنشر « الازمنة الحديثة » حملات عنيفة ضد الماركسية . يتساءل كونراد شميت Konrad Schmidt ، مثلا ، في اعمدة صحيفة الازمنة الحديثة لمـــاذا لايمكن لفلسفة كانت ان تتوافق مع « العامل الاقتصادي » كما اكتشفه ماركس ، ومـاهي العلاقة بين هذا « العـامل الاقتصادي » والمادية الاقتصادية والتاريخية لدى ماركس [١] . ومنذ عام ١٨٩٦ اطلق كونراد شميت شعار (العودة الى كانت) ، مرتبطا في ذلك بالفلسفة الرسميـــة ، الجامعية ، البورجوازية ، الخاضعة للسلطات الامبراطورية ، المنزلقة نحو اللاعقلانية . وتم ذلك بدوي كبير داخل الاشتراكية الديموقراطية . فاوتوباوير Oto Bauer ، الذي كان يعتبر قائدا للارثوذكسية ، كان من انصار الكانتية الجديدة ، شأن ماكس ادلر Max Adler الذي كان يسعى وراء « تركيب » بين الـكانتية والماركسية .

ان النظرية الماركسية الـكاذبة عن « العامل الاقتصادي تقودنا الى الخطأ الاخير ـ الذي فضحه لينين ـ ، الى آخر النظرة الوحيدة الطرف في الفكر الارثوذكسي .

فكثيرون منهم كانوا يفسرون الماركسية على انها نظرية **اقتصادية** . ان ماركس ، في رأيهم ، قد اكتشف قبل كل شيء جانب الاهمية (في التاريخ والمجتمع) للنشاط الاقتصادي ، والحياة الاقتصادية ، والعامل الاقتصادي . وهم بذلك يفصلون العامل الاقتصادي عن الاجتماعي ، وعن السياسي . واذ انهم يضخمون ويعزلون الاقتصادي (العامل الاقتصادي) ، ويعرفون (قاعدة) المجتمع

---

(١) راجع Neue Zeit, 17, 1, p. 334

استناداً للعامل الاقتصادي وحده ، انما ينتهون الى اهمال العامل الاجتماعي، واخيرا الى اعتبار « البنى الفوقية » كشيء قليل الاهمية - او على الضد من ذلك ، الى عزلها ودراستها منفردة. ان الرابطة الحية والديالكتيكية بين هذه العناصر والمظاهر للنمو التاريخي تتلاشى . فضلا عن ان « الارثوذكسيين» لم يكن لديهم دائما فكرة واضحة عن الاقتصاد السياسي . وكانوا يقصرونه بوعي متفاوت على دراسة الانتاج والقوى الانتاجية . ويتجهون بذلك الى اهمال علاقات الانتاج ، العلاقات الاجتماعية ، وبالتالي الصراعات الطبقية الحقيقية ، وانعكاساتها على الاقتصاد من جهة ، وعلى السياسة من جهة اخرى . والنتيجة الرئيسية التي تترتب على هذه « الحتمية الاقتصادية » ، التي سيوجه اليها لينين نقدا متعمقا : **« مادامت القوى الانتاجية تحدد العلاقات الاجتماعية والبنى الفوقية السياسية ، فلندعها تفعل ذلك.** ولنساعد على نموها ضمن أطر الرأسمالية . اما الثورة فستنطلق من ذاتها ، ان لم يكن من اجلنا ، فعلى الاقل من اجل اولادنا او احفادنا . إنها ستنطلق بصورة عفوية من القوى الانتاجية اعتبارا من مستوى معين . اما الظروف السياسية فستتحقق بشكل تطوري باعتبارها تعبيرا عن القوى الانتاجية في مستواها الرفيع ، يرافق هذا المستوى النمو (الكمي والنوعي) للطبقة العاملة ، في الديموقراطية البورجوازية .

ونتيجة رئيسية اخرى : ليس ثمة ، ولا يمكن ان يكون ثمة احتمال ثوري اشتراكي في بلد متأخر . وكل محاولة في هذا الاتجاه تصبح خطأ . فيجب التريث حتى يحدث نمو القوى الانتاجية « موضوعيا » شروط التحويل الاجتماعي والسياسي ، ويجب بالتالي مساعدة هذا التطور ونصح المضطهَدين بالصبر، بل اكثر من ذلك يجب مطالبتهم بالمؤازرة .

ان الارثوذكسية الماركسية انتهت اذن الى المواقف التي يهاجمها لينين بشدة تحت تسميات **التيار الاقتصادي والتيار المادي الاقتصادي والتيار**

الموضوعي . وقد عارض موقف التريث « الموضوعي » هذا بقوة وعنف بالموقف الثوري الذي سيميز البلشفيك (الروس) من المنشفيك .

ج ـ **الموقف المتطرف (اليساري)** . ان تصنيفنا للاتجاهات يتسم بشيء من الصنعة والتبسيط ، كما هو شأن كل تصنيف ، فهو يعنى فيما بعد لا بالفكر والانتقادات اللينينية وحسب ، بل بالاحداث التاريخية التالية التي وضعت الاتجاهات بعنف وجها لوجه . فحين باشر لينين في العمل والتفكير لم يكن الوضع واضحاً كانت اشد انواع الفوضى مستحكمة . وكان تردي الماركسية في الاممية الثانية (في جميع الاتجاهات التي برزت فيها) يتم ببطء ، بصورة ، رغم ان فطنة انجلز أدركت اسبابه وفضحتها .

ان شخصيات بارزة ، مازالت اعمالها ذات شأن جزئيا ، مثل مهرنج وكاوتسكي ، كانت تقف في الجناح اليساري . إلا ان علينا ان نصنفها « كوسطيين » . اما « اليساريون » ، من امثال ليبكنخت او روزا لوكسمبرغ ، فقد وجدوا من هم اكثر يسارية منهم واشد تطرفا . ولينين في كتابه **« اليسارية ، مرض الشيوعية الطفولي »** يثني عليها لاعترافها باهمية العمل البرلماني ضد المتطرفين الذين كانوا ينكرونه .

كانت روزا لوكسبرغ وكارل ليبكنخت ثوريين عظيمين ، اثنين من أبطال الثورة . ومنذ ٤ أب ـ اغسطس ـ ١٩١٤ اقدمت روزا لوكسبرغ على اعلان ان الاممية الاشتراكية لم تعد سوى « جثة متفسخة . » وكان لينين يكن على الدوام لروزا لوكسبرغ اعظم الاعجاب ، ويعترف بأن اليسار الالماني الثوري كان يقود بلاوهن صراع الطبقات ، الصراع السياسي .

غير ان روزا لوكسمبرغ أسست مدرسة حقيقية ، اتجاهاً ماركسياً : هو اللوكسمبرغية . فينبغي معرفة تفكيرها ، لأن اللينينية انما تكونت جزئياً ضد اللوكسمبرغية .

وقد تعارض الاتجاهان حول معظم المسائل : تنظيم الحزب ـ التكتيك والستراتيجية الثوريتين . نظرية الامبريالية ـ المسألة القومية والاستعمارية . . . وسواها .

وفي جميع المسائل المطروحة للمناقشة كانت روزا لوكسمبرغ تمثل نوعا من البلانكية المجددة ، « نزعة عفوية » رفضها البلشفيك منذ قامت البلشفية .

كان هذا الموقف يقوم على رؤيا شؤم للتاريخ : على توقع انهيار الرأسمالية ويمكن التحدث عندها او عند كيبكنخت ، لا عند ماركس اولينين ، عن «نبوءة» او نظرة تنبئية eschatologie ، وهما تعبيران يشيران الى الاعلان عن حادث وحيد وحاسم ، عن نهاية للتاريخ مع مجيء عالم جديد كلياً .

ففي نظريتها عن تراكم رأس المال ، كانت ترى ان هذا التراكم يتم على حساب الفئات الاجتماعية الخارجة عن الرأسمالية : كالفلاحين والشعوب المستعمرة والاقطاع . وهي تذهب الى انه لا السوق الداخلية في المجتمع البورجوازي ، ولا استغلال البروليتاريا يتيحان تراكما عريضا لرأس المال (اعادة انتاج ، على مستوى المجتمع بكامله ، لرأس مال مستثمر اكبر من رأس المال الاصلي) .

النتيجة : ما ان تستنزف السوق الخارجة عن الرأسمالية ، حتى يتعين على الرأسمالية هذه ان تنهار في ازمة نهائية .

وعفوية الجماهير المستغَلة (البروليتارية) تكفي لتحويل هذه الازمة النهائية الى ثورة . فالعامل الذاتي (الوعي السياسي) ينضم بصورة آلية ، عفوية ، الى الوضع الثوري الموضوعي ـ ولن يكون ثمة مخرج آخر غير الثورة . وبالتالي فانه ما من رابطة ديالكتيكية بين الموضوعي والذاتي ، بين العفوية والمعرفة ، بين الجماهير والحزب السياسي الثوري . وبالتالي فليس ثمة مسألة فلاحية ، استعمارية ،

قومية تهم الحركة الثورية ، مادامت الثورة ستكون عالمية وشاملة في وقتها .

لقد اطلق لينين ضدها ، وضد الماركسي الروسي بليخانوف Plekhanov كلمته المأثورة : يستحيل فهم **رأس المال** حقاً دون قراءة هيجل وفهمه ، دون تمثل الطريقة الديالكتيكية ..

ان روزا لوكسمبورغ لم تدرك حركة الرأسمالية بمجموعها، (لأنها لم تحللها بطريقة ديالكتيكية)، هذه الحركة التي هي موضوع ماركس في **رأس المال** . انها لم تفهم دور **التجريد العلمي** ، الذي يستخلص من داخل كل مظهر أ، الذي يصوغ مفاهيم ومقولات مجردة ، لكنها مبنية على الواقع ، ليعود بعد ذلك الى المشخص ويلتقطه في كليته البالغة التعقيد ، في حركته وقوانينه الكامنة وراء الظواهر .

وعلى هذا النحو استخلص ماركس مفاهيم شديدة التجريد ، دقيقة جداً ، وبعيدة جدا **في الظاهر** عن الظواهر الواقعية ، كمفهوم **قيمة التبادل** . ثم يعود الى الظاهرات ، فيقيم العلاقة بين القيمة والسعر ، ويدرس تشكل الاسعار في مجموع المجتمع الرأسمالي وتوزيع « الدخول » فيه .

انه يعزل هذا المجتمع الرأسمالي ، انه ينظر اليه **بتجريد** أولاً وافتراضاً فيقصره على البروليتاريا والبورجوازية . (ولا يلبث أن يصحح هذا التجريد عن طريق **تاريخ** تشكل البروليتاريا والبورجوازية داخل نظام **الاقطاع والفلاحية**) .

وفي نهاية دراسته (التي لم تتم) يحلل ، لا مجرد الانتاج وتداول السلع في داخل الرأسمالية ، من حيث هي كذلك ، بل علاقات الانتاج بالفئات الاجتماعية التي لا يمكن ردها الى البورجوازية او البروليتاريا : الملاكين العقاريين (ذوي المنشأ الاقطاعي) ، الفلاحين ، الحرفيين والتجار .. وسواهم .

أما روزا لوكسمبورغ فقد ظلت في نطاق التجريد . لقد طرحت مشكلة منطقية » : « من يستهلك فائض الانتاج الناجم عن العمل واستغلال البروليتاريا ،

وهو فائض لا تستطيع استهلاكه البروليتاريا ولا البورجوازية ؟ انهم أشخاص آخرون [١] . »

وهي تغفل الحركة **الداخلية** للرأسمالية وأزماتها ، وبصورة خاصة تدهور القيمة ، والتدمير وبالتالي التجديد لجزء من رأس المال الثابت الموجود - وهي ظاهرات أزلية ولكنها تتضاعف بالازمات والحروب . وبذلك فانها تحل تناقضاً خارجياً محل التناقضات **الداخلية** : فهي ترى أن الرأسمالية تعيش فقط داخل اللارأسمالية وبواسطتها . من هنا جاءت نظريتها عن الامبريالية كفترة شؤم للرأسمالية في علاقتها بالبيئة الخارجية ، اللا - رأسمالية . ومن هنا ايضاتقييمها لهذه الامبريالية، لا باعتبارها توسعاً للرأسمالية وفي الوقت ذاته تفسخاً داخلياً وازمة عامة، بل كقدر ومشارفة للازمة النهائية .

بيد ان اليسارية تولد الانتهازية والموقف اليميني . فلئن لم تسقط الرأسمالية ، فلأن السوق الخارجية ما يزال مفتوحا . فلننتظر النهاية اذن . ولا نبحثن بصورة مشخصة وضع الشعوب المتأخرة والامم المضطهدة والفلاحين . . وغيرهم،

كان كارل ليبكنخت رجل عمل عظيماً اكثر مما كان مفكرا نظرياً . ومع ذلك فقد خلف كتابات نظرية ، ولم تكن « تحريفيته اليسارية » أقل إثارة للقلق ، بالنسبة للفكر الثوري ، من « التحريفية اليمينية » لبرنشتاين .

يرى ليبكنخت ان النظرية الماركسية في القيمة مثلا ، ليست نظرية علمية ، ولا حقيقة ، ولا معرفة . وكان يعتبرها في أساسها ضرباً من الايديولوجية، اداة في الصراع ، « حقيقة طبقية ».

وكان يرى ان ماركس قد أعطى رداً اجتماعياً على سلسلة من الاسئلة

---

(١) cf. Die Akkumo dés kapit, gesàmmelte Werke, 1923vi, pp. 398et sp.
حيث تتهم ماركس بأنه خلف هيكلا فارغا عن التراكم المتزايد .

الاقتصادية . فنظرية القيمة تمثل « حقيقة طبقية » مع ضرب من الغموض او الاختلاط في كلمة « قيمة » . وبذلـــك يحول ماركس الى حقيقة (طبقية) مرحلة معينة من صراع الطبقات ، واقعة تاريخية واجتماعية ، واقعة سياسية . وقضيةالبروليتاريالم تكن تطرح نفسها اذن لدىليبكنخت اقتصادياً ، ووضعها لم يكن يفسر بقوانين اقتصادية (القوانين الرأسمالية) ، بل مباشرة على الصعيد السياسي . وتفسير وضع العمال لم يكن يرتبط بالانتاج ، وبعلاقـات الانتاج ، وبنمط الانتاج (الرأسمالي) ، بل يرتبط في النهـاية بتوزيـع المنتجات . وبذلك فان سوسيولوجيا كارل ليبكنخت كانت ترتـــد الى سوسيولوجيا سياسية . وتلتقي يساريته مع انتهازية اليمين ، على صعيد النظرية السياسية [1] على الاقل .

لقد كان ليبكنخت من الناحية الفلسفية ، مثل يمينيي الحركة ، يعتنق نوعا من الكانتية ، ممتزجة بمذهب ارادي ثوري وبنظرية مشحونة بالكارثة « باشفية متطرفة » . وكان يعتبر مبدأ السببية ضربا من تحصيل الحاصل ، « شكلا من تفكير تحصيل الحاصل » . والطبيعة نفسها لم تكن في نظره الا محصلة اشكال العقل مطبقة على الاحساسات ، سواء كان الامر الزمان او المكان او القوانين .

وهو ، اذ يبشر مع روزا لوكسمبرغ ، بانهيار الرأسمالية كضرب من كارثة شاملة ومن الانقطاع المطلق ، فانه كان يعتبر ان هذه القطيعة الكاملة يجب ان تغير كل شيء : اشكال التفكير ، الى جانب اشكال الحياة الاجتماعية والسياسية . وفي بعض النصوص يدفع ليبكنخت نظرية الكارثة الى ابعد حدود نتائجها . ان الفلسفة ، والفن ، بل والعلم القديم ستزول مع اشكال التفكير القديمة . فمن المستحيل بالنسبة اليه ان يتصور المرء مسبقا ما ستتمخض عنه الثورة . وكل محاولة تستخدم

---

(١) النصوص في Archiv für Sozîalwissenschafti und Sozialpolitik, Band, 46

الاشكال المحكوم عليها لا تعني الا شيئا واحدا: محاولة انقاذ هذه الاشكال. وهو يعرف السياسة الكبرى بأنها فن المستحيل.

« إن اقوى السياسات، واكثرها بساطة ليست سوى فن المستحيل[1] »

هذه النظرية، « التنبؤية » بل والمتطلعة الى نهاية العالم في الكارثة، تقرب بين هذا الثوري واللاعقلانيين مثل نيتشه. انها تقوده الى رؤية للتاريخ والفلسفة تدعو الى العجب لدى ماركسي. فافلوطين Plotin وجيوردانو وبرونو Giordano Bruno، وسبينوزا Spinoza، وغوته goethe يتمتعون في نظر ليبكنخت بمثل الاهمية التي يتمتع بها ماركس، اما هيجل فليس موضع بحث اصلا. وبحجة عدم الوقوع في المادية الآلية، فانه كان يعتبر الافكار والايديولوجيات تارة كاسباب، وتارة اخرى كنتائج، للتغيرات الاقتصادية. وبذلك تنقلب النظرية الديالكتيكية للتفاعل وللكلية الى تشوش. والحقيقة ان الماركسية، في نظر ليبكنخت، بوصفها لا تعدو ان تكون ايديولوجية ترتبط بمرحلة، واداة في الصراع، حقيقة طبقية لا حقيقة علمية، ويجب ان تزول مع سواها في الكارثة الثورية.

هذه الخلافات، والمناقشات ما تزال تعبر، بالنسبة لنا، عن حياة ايديولوجية نظرية زاخرة، خصوصا وانها تحتوي على معظم الحجج التي أدلي بها منذ خمسين عاما في المجادلات حول الماركسية.

لم يكن لينين ينعي على الاشتراكيين الالمان، قادة الاممية الثانية، خلافاتهم، بل كان يعتبر، على العكس من ذلك، ان الاتجاهات وصراع الاتجاهات لها مدلول، ومحتوى، واساس عميق — لأنها تقابل مشكلات ومصالح متباينة وفئات وطبقات اجتماعية مختلفة.

(١) Reden und Aufsätze, Hambourg 1951,p,358

ان ما كان عليه ان ينقده عند الماركسيين « الغربيين » هو اذن تشوش المواقف بشكل مستعص ، والانتقال الطائش من اليسارية الى الموقف اليميني . ففي روسيا ، وبدفع منه خاصة ، جرى الفصل بين الاتجاهات بوضوح أشد وبسرعة اكبر مما حدث في الغرب .

ولكن ما كان ينبغي عليه بالطبع ان ينقده ويهاجمه بشدة اكبر انما هو العجز العام لجميع الاتجاهات عن ايجاد ود على الاسئلة الملحة والمشخصة . عجز كان يمهد لعجز الاممية امام الحرب ، وانهيارها عام ١٩١٤ . وهذا الفشل السياسي الرهيب لم يكن سببه الوحيد زعماء الاممية وافكارهم واعمالهم ،اذ كانوا هم ايضا النتيجة والتمهيد .

من اين جاء هذا العجز ؟ ليس من الناس ،او ليس من الناس وحدهم ، بل من **الواقع الموضوعي**. فالاتجاهات الموجودة في الاشتراكية «الغربية» كانت تعكس ، في نظر لينين ، التمايزات القائمة في داخل المجتمع والبروليتاريا نفسها ، وكذلك فقدان ازمة ثورية في هذه البلاد الصناعية المتقدمة .

ان قادة الاممية الاشتراكية - الديموقراطية ، الذين كان معظمهم شديدي الموهبة والاطلاع والنشاط ، لم يكونوا يفكرون ولا يعملون في شروط تاريخية يمكن ان تجعل من الثورة - التي كان كثير منهم من انصارها الصميميين - ممكنة . وحين انفجرت الثورة في بلد آخر - بلد متأخر هو روسيا - فان هؤلاء القادة انفسهم لم يفهموا اهمية هذا الحدث وعبره التاريخية ونتائجه .

لقد كان هؤلاء الرجال يقفون في منتصف الطريق بين المرحلة الثورية لعام ١٨٤٨ ، المرحلة التي شهدت ميلاد الماركسية ، ثم انتصار البورجوازية ونموها ، والتي كانت الحركة الديموقراطية الليبرالية ماتزال تمتزج فيها بالحركة العمالية ، ومرحلة الامبريالية ، والحروب العالمية ، والثورات وتفسخ الرأسمالية .

اذن فالمناقشات التي كانت هي حياة الاممية الثانية رافقها تدهور ،وتفكك

في الفكر الماركسي . لقد كانت الماركسية تتمزق الى اشلاء نتيجة تدهور عفوي ، وكان الماركسيون يقتسمون الفتات ، بقايا منفصلة فقدت الحياة بمجرد انفصالها عن المجموع .

كثيراً ما أشار لينين الى ذلك ، بسخرية لاذعة واحيانا مهينة ، بحيث انه استطاع ان يفهم ويفسر خصومه ، او اصدقاءه القدامى وقد اصبحوا خصوما له . بينما لم يستطيعوا هم فهمه ، ولم يتوصلوا الى تفسيره ، وكانوا يعتبرونه ضالا .

ولكي نفهم جيدا تكون اللينينية ، علينا ان ندرك جيدا كيف طغى تدهور الفكر الماركسي وتفككه شيئاً فشيئا على مختلف قطاعات المعرفة والعمل ، وكيف برز فكر لينين في هذا الركام من الاطلال المتناثرة ، ممسكا من جديد بالعناصر المفككة لاعادة تكوين مجموع جديد ، هو اللينينية .

ولنكرر إن الناس الذين كان يحاربهم لينين كانوا يعرفون الماركسية معرفة ممتازة ، ولم يكن يتردد على شفاههم اوتحت ريشتهم الا اقتباسات ممتازة عن ماركس ، وكان بعضهم يحفظه عن ظهر قلب . وفي عام ١٩٠٢ اورد لينين في كتاب « **ماالعمل** ؟ فقرة حاسمة من كاوتسكي ، الذي يعتبره حجة . وفي دراساته عن المسألة الزراعية ، فيمابعد ، استند باستمرار الى كتاب Die Agrafrage (١٨٩٩) لكاوتسكي نفسه ، وهو احد القلائل بين الاشتراكيين الديموقراطيين في الاممية الثانية الذين درسوا المسألة الفلاحية . وفي وقت لاحق ايضا ، فان لينين في مستهل مؤلفه العظيم الاخير « **اليسارية ، مرض الشيوعية الطفولي** » يشير بسخرية تدل على الاستحسان الى مقال قديم لكاوتسكي ليضع هذا في موضع المتناقض مع نفسه .

« **ان مركز الثورة ينتقل من الغرب الى الشرق** » .

ان خطأ كاوتسكي انه لم يفهم ويطبق الطريقة الماركسية ، بصورة حية ،

على الوضع المتغير ، الجديد ، انه لم يفهم ان هذا الوضع كان يقتضي ، لاالتخلي واعادة النظر في المبادىء ، ولا التمسك بها ارثودكسيا ، بل تحليلا جديدا، وتعميقا للمبادىء ، للطريقة ، للمذهب في مجمله .

ففي اللحظة بالذات التي أصبحت فيها الماركسية - الطبقة العاملة موجهة بالماركسية - قوة سياسية ، فانها لم تعد كافية بالشكل الذي صاغها ماركس وانجلز . وحين كانت الحركة الثورية ، في البلاد الرأسمالية الكبيرة المتقدمة ، تضمحل وتنحرف او تتشتت (موقتا ولكن بصورة اكيدة) ،وحين كانت البلاد « المتأخرة » تظهر على المسرح - ،كان لابد من الرجوع مجدداً الى المبادىء للتثبت منها وتوسيعها .

في هذه الظروف لم يكن صراع الاتجاهات والانشقاقات مفيداً وحسب ، بل انه كان محتوماً ولازما[1].

واذ يوجز لينين تفكيره حول هذه النقطة في مقال بتاريخ اول آذار (مارس) ١٩١٩ [2] فانه يكتب قائلا :

« لقد كانت انجلترة ، حسب تعبير انجلز ، البلد النموذجي لبورجوازية ، خلقت الى جانب اريستوقراطية متبرجزة ، الفئة العليا الأشد تبرجزا من البروليتاريا . وهكذا فان البلد الرأسمالي المتقدم تأخر عشرات من السنين حسب مفهوم الصراع الثوري للبروليتاريا . وتبدو فرنسا وكأنها استنزفت قوى البروليتاريا فيها بتمردات بطولية فانتقلت الهيمنة على الحركة العمالية ، في الاممية ، الى المانيا حوالي ١٨٧٠ ، حين كان هذا

---

(١) لينين : المؤلفات المختارة ، الجزء الاولى ص ٧٣٠ الخ

(٢) لينين : الاممية الثالثة ومركزها في التاريخ ، منشور في العدد ١ من «الأممية الشيوعية » المؤلفات المختارة الجزء الثاني ص٥٧٠ الخ .

البلد لا يزال متأخراً اقتصادياً عن انجلترة وفرنسا ، وحين سبقت المانيا اقتصاديا هذين البلدين ، فان الحزب العمالي الماركسي في المانيا ، الذي كان حزباً نموذجياً للعالم كله ، وجد نفسه تحت قيادة قبضة من الانذال » ..

ويضيف :

« ان التاريخ العالمي يتجه بصورة لا راد لها نحو دكتاتورية البروليتاريا . إلا انه لايتجه نحو هدفه في سبل موحدة ، بسيطة، ومستقيمة. .. ان الجماهير العمالية في جميع البلاد أدركت بغريزتها اهمية السوفيتات كسلاح نضال للبروليتاريا وكشكل للدولة البروليتارية . إلا ان «الزعماء» الذين أفسدتهم الانتهازية استمروا، ومازالوا، يجلون الديموقراطية البورجوازية إذ يسمونها « الديموقراطية » عامة .. فهل ندهش اذا كان تحقيق دكتاتورية البروليتاريا قد كشف قبل كل شيء التناقض بين تأخر روسيا والقفزة التي أنجزتها من فوق الديموقراطية البورجوازية ؟ لقد كان ادعى الى الدهشة ان يمنحنا التاريخ شكلاً جديداً للديموقراطية لايستتبع سلسلة من التناقضات .. لقد أتيح لي ان اردد غالباً: بالمقارنة مع البلاد المتقدمة ، فانه كان أيسر على الروس ان يبدأوا الثورة البروليتارية الكبرى ، ولكنه سيكون أصعب عليهم ان يكملوها ، ان يقودوها الى النصر النهائي ... ».

اننا ، من هذا المقطع الممتاز ، نستخلص، وان يكن ذلك سابقاً للأوان بعض الشيء ، كثرة معانيه .

ان النمو التاريخي، وان يكن له معنى ، واتجاها وقوانين ، ينطوي على التواءات متعددة وعلى ماهو غير متوقع . وثمة تفـــاوتات في النمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . فالمستوى الاقتصادي (درجة نمو القوى الانتاجية) لا يحدد بصورة آلية ، ميكانيكية ، عفوية ، القوى الاجتماعية الفاعلة والاشكال السياسية (كما كان يظن « الاقتصاديون » الماركسيون باسم ماركس) . غير انه عندما

تكون اشكال سياسية جديدة على قاعدة اقتصادية متأخرة (على مستوى ضعيف من نمو القوى الانتاجية) ، فان هذه الحادثة تستتبع صعوبات ، ومشاكل وتناقضات . وهذا لاينفي ان هذه الاشكال السياسية الجديدة هي بدورها فاعلة ، ذات قيمة تاريخية وعالمية . والمهم هو معرفة المتناقضات والسيطرة عليها لحلها . . .

ففي روسيا القيصرية إذن ولد لينين ، ونشط ، وفكر ، وهو واضع نظرية دكتاتورية البروليتاريا ومنظمها ، ومحلل الامبريالية والعهد التاريخي الحديث الذي بدأ في مطلع القرن العشرين .

ولنلح مرة أخرى (باسم اللينينية ذاتها !) على هذه المفارقة الظاهرية التي تكذب الماركسية المقتصرة على مفهوم « اقتصادي » ، او مفهوم تاريخي ، أو مفهوم سوسيولوجي ، كلها سطحية .

فروسيا ليست بلداً امبريالياً كبيراً ، كما هي حال انجلترة مثلًا . وبصورة أدق ، فان الامبريالية القيصرية الروسية قديمة الجذور . وقبل نمو الرأسمالية في أوربا ـ وفي روسيا ـ كانت القيصرية تضطهد شعوبا وامما ، وجزءا من أسية . كان ذلك إمبريالية اقطاعية ـ عسكرية ، لا امبريالية بالمعنى الدقيق الذي اعطاها اياه لينين عام ١٩١٧ ، معنى يقوم على سيطرة رأس المال المالي ، على تصدير رؤوس الاموال .. الخ .

ولم تكن روسيا ذاك العهد دولة صناعية عظيمة . فقد كانت تستورد رؤوس اموال (قروض دولة ، قروضا خاصة وتثميرات) ، تسرب رأس المال الاجنبي اليها ، وسيطر على فروع بكاملها في الصناعة ، وسيطر بصورة خاصة على الصناعة الثقيلة ، وتصرف بالحكام .

فالشعب الروسي كان يعاني بالتالي وفي آن واحد من امبريالية دولته (الاقطاعية - العسكرية)، ومن الامبريالية الاجنبية (المالية). وهو لم يجن، من التوسع الرأسمالي أقل فتات او اقل مغنم. وليس في روسيا بروليتاريا متبرجزة، ولا اريستوقراطية بروليتارية، بل ولا طبقة متوسطة هامة كما في الغرب.

مما يعني ان **التناقضات كانت تتراكم** في روسيا القيصرية، تناقضات وفدت من الماضي، من الاقطاع وحالة التأخر (الاقتصادي والاجتماعي والسياسي) للبلد، وتناقضات وفدت من الحاضر، من الرأسمالية الاجنبية أو الوطنية.

فالشعب الروسي كان يعاني استغلالاً مزدوجاً أو مثلثاً: من الاقطاعيين والدولة القيصرية - من البورجوازية الروسية - من بورجوازية البلاد «المتقدمة» التي توظف رساميل. فشُلّ النمو الاقتصادي، وجمدت البنيـــة الاجتماعية والبنى القومية.

ما الذي ترتب ذلك؟ ان البروليتاريا الروسية، التي كانت تنوء تحت ضغط هائل، اصبحت أكثر بروليتاريات العالم ثورية، وان الشعب في مجموعه، وبصورة خاصة الفلاحين، كان يمكنهم، وكان عليهم، ان يدعموها...

وها كم كيف يصف التاريخ الرسمي للثورة الروسية وللحزب البلشفي روسيا القيصرية في زمن حداثة لينين [١].

« دخلت روسيا في وقت متأخر طريق النمو الرأسمالي. وحتى عام

---

(١) تاريخ الحزب الشيوعي (البلشفي) هذا كتب باشراف ستالين، وقد اعاد النظر فيه المؤرخون السوفيات. ويبدو ان الصفحات المقتبسة ماتزال صالحة (حاشية بتاريخ تموز - يوليو - ١٩٥٦).

١٨٦٠ لم يكن في روسيا الا عدد قليل من المصانع ،وكان الاقتصادالاقطاعي مسيطراً . وفي عهد القنانة لم يكن ممكناً للصناعة أن تعرف نهضة حقيقية. فالعمل غير الحر ، القن ،كان ذا انتاجية ضعيفة . وفي عام ١٨٦١ اضطرت الحكومة القيصرية ، التي أضعفتها الهزيمة العسكرية التي لحقت بها في حرب القرم والثورات الفلاحية ضد المالكين العقاريين ، الى الغاء نظام القنانة .

غير أن المالكين العقاريين ، حتى بعد الغاء القنانة ، استمروا في اضطهاد الفلاحين . وفي فترة « التحرير » سلبوهم جزءاً كبيراً من الارض التي كانوا يتصرفون فيها من قبل . وارغم الفلاحون، من أجل « تحريرهم »، على دفع فدية للمالكين العقاريين تبلغ حوالي ملياري روبل .

وبعد الغاء القنانة ، كان على الفلاحين ان يستأجروا الارض من المالك العقاري بأقسى الشروط . فبالاضافة الى قيمة الايجار بالنقد ، كان المالك غالباً مايلزم الفلاحين بالعمل مجاناً ، مع ادواتهم وخيولهم ، في ارض السيد . هذا هو ماكان يسمى خدمة العمل ، أي « السخرة » . وكثيراً ماكان الفلاح مضطراً الى دفع بدل الايجار الى المالك العقاري عيناً،مايعادل نصف المحصول .

وبالتالي فقد بقيت الحالة على وجه التقريب على ماكانت عليه فيظل القنانة ، مع فارق أن الفلاح اصبح حراً فيما يتعلق بشخصه ،إذ لم يعدممكناً بيعه أو شراؤه كشيء .

لقدكان المالكون العقاريون يستنزفون بشكل بالغ المشروعات الفلاحية المتأخرة بكل وسائل النهب (ايجارات وغرامات) . وكان الاذلال الذي يفرضه المالكون العقاريون على جمهور الفلاحين الكبير يمنع

هؤلاء من تحسين استثماراتهم. ومن هنا تأخر الزراعة، الذي كان يستتبع غالباً محاصيل رديئة او القحط.

لقد كانت رواسب الاقتصاد الاقطاعي، والضرائب الباهظة، وتعويضات الفدية المدفوعة الى المالكين العقاريين والتي كثيراً ما كانت تتجاوز دخل الاستثمارات الزراعية، تسبب خراب جماهير الفلاحين وتجبر الفلاحين على مغادرة قريتهم للسعي في مكان آخر عن مورد رزق. كانوا يذهبون ويؤجرون انفسهم في المعامل والمصانع، وبذلك كان ارباب المعامل يحصلون على يد عاملة رخيصة.

وكان يجثم على صدر العمال والفلاحين جيش بكامله من رجال الدرك والشرطة والحراس يتولون حماية القيصر والرأسماليين والمالكين العقاريين ضد العمال، ضد المستغَلين. وبقيت العقوبات الجسدية نافذة حتى عام ١٩٠٣. ورغم ان القنانة كانت قد أُلغيت، فان الفلاحين كانوا يُجلدون بالسياط لأتفه خطأ، ولعدم دفع الضرائب. وكانت الشرطة والقوزاق يضربون بالعصي العمال، ولاسيما اثناء الاضرابات، عندما كان هؤلاء يتوقفون عن العمل، اذ لم يعودوا يحتملون اضطهاد ارباب المعامل. ولم يكن العمال والفلاحون يتمتعون بأي حق سياسي في روسيا القيصرية.

كانت القوميات العديدة غير الروسية المحرومة من أي حق تقاسي جميع صنوف الاذلال والمهانة. وكانت الحكومة القيصرية تعود السكان الروس على النظر الى السكان الأصليين في المناطق القومية اجناساً ادنى مرتبة، تسميهم رسمياً «الغرباء» وتسلط ضدهم الازدراء والحقد. كانت الحكومة القيصرية تذكي عن عمد الأحقاد القومية، تحرض

الشعوب ضد بعضها ، وتنظم مذابح ضد اليهود ، ومذابح بين التتار والأرمن في قفقاسيا الشرقية .

وفي المناطق القومية كانت مناصب الدولة كلها ، او على وجه التقريب ، يشغلها الموظفون الروس . كانت الأعمال كلها تجري باللغة الروسية . وكان محرماً اصدار صحف او كتب باللغات القومية ، كما كان استخدام اللغة الأم للتعليم محرمـــاً في المدارس . كانت الحكومة القيصرية تسعى الى خنق جميع مظاهر الحياة القومية ، وتتابع سياسة « ترويس » تفرضها على القوميات غير الروسية .

وبعد الغاء القنانة كان نمو الرأسمالية الصناعية سريعاً في روسيا ، رغم رواسب القنانة التي كانت ماتزال تعرقل سيرها وفي مدى خمس وعشرين سنة من ١٨٦٥ الى ١٨٩٠ ، ارتفع عدد العمال ، في المصانع الكبرى والمعامل والسكك الحديدية وحدها من ، ٧٠٦٠٠٠ الى ١,٤٣٣,٠٠٠ ، أي انه زاد اكثر من الضعف .

اما الصناعة الثقيلة الرأسمالية فقد نمت بسرعة اكبر في التسعينيات وفي نهاية هذا العقد من الزمن ، واذا اقتصرنا على المقاطعـــات الخمسين في روسيا الاوربية ، فقد ازداد عـــدد العمال في المصانع الكبيرة والمعامل في الصناعة المنجمية والسكك الحديدية ، فبلغ ٢٢٠٧٠٠٠ عامل ، و ٢٧٩٢٠٠٠ لروسيا كلها .

هذه البروليتاريا الصناعية الحديثة ، تتميز كلياً عن عمال المصانع في عهد القنانة ، كما تتميز عن عمال الصناعة الحرفية الصغيرة او غيرها ، سواء بتركزها في المشروعات الرأسمالية الكبرى ام بنزعتها النضالية الثورية .

لقد كانت النهضة الصناعية في التسعينيات مدينة ، بالدرجة الاولى ،

الى النمو الكبير للسكك الحديدية . فقد كانت السكك الحديدية تحتاج الى كمية ضخمة من المعدن (من اجل السكك، والقاطرات والعربات)، وتستهلك كمية متزايدة في حجمها من المحروقات، من الفحم والنفط، وبالتالي فقد نمت الصناعة التعدينية وصناعة المحروقات .

وفي روسيا قبل الثورة، كما في جميع البلاد الرأسمالية، كان يعقب سنوات النهضة الصناعية سنوات ازمات وركود .

وبالرغم من ان نمو الرأسمالية كان سريعاً في روسيا، منذ الغاء القنانة، فان التطور الاقتصادي في هذا البلد كان متأخراً بشكل محسوس عن تطور البلاد الرأسمالية الاخرى . فالاغلبية الساحقة من السكان كانت ماتزال تنصرف الى الزراعة . وقد أورد لينين في كتابه (النمو الرأسمالي في روسيا) ارقاما مستقاة من احصاء ١٨٩٧ . لقد كان حوالي خمسة اسداس السكان يشتغلون في الزراعة، بينما كان حوالي السدس فقط يعمل في الصناعة الكبيرة والصغيرة، والتجارة، والسكك الحديدية، والنقل المائي، وورش البناء، واستغلال الغابات . .

ونتيجة لذلك فان روسيا كانت بلد البورجوازية الصغيرة، رغم ان الرأسمالية فيها كانت في طور النمو، أي بلداً ماتزال تسيطر فيه الملكية الصغيرة، والاستغلال الزراعي الصغير الفردي ذو المردود الضعيف .

وكانت الرأسمالية لاتنمو في المدن وحدها، بل وفي الريف ايضاً . كانت طبقة الفلاحين، الطبقة الاكثر عدداً في روسيا قبل الثورة، تتفسخ وتتمايز . فمن داخل طبقة الفلاحين الاكثر يسراً كانت تبرز فئة عليا، فئة الكولاك، البورجوازية الريفية . ومن جهة اخرى فقد كان الخراب يصيب كثيراً من الفلاحين . وكان يشاهد في الريف تزايد عدد الفلاحين الفقراء الكادحين

وشبه الكادحين ، اما الفلاحون المتوسطون فقد كان عددهم يتناقص كل عام.

في عام ١٩٠٣ كانت روسيا تعد عشرة ملايين عائلة ريفية . وقد قدر لينين في نشرته (الى طبقة الفلاحين الفقيرة) انه ، من اصل هذا العدد ؛ يوجد على الاقل ثلاثة ملايين ونصف المليون لايملكون حصاناً وكان الفلاحون الفقراء يقومون ، عادة ، بزراعة قطعة من الارض تافهة ، ويؤجرون الباقي الى الكولاك ، ويذهبون بأنفسهم الى السعي في محل آخر كسباً للعيش . كان الفلاحون الفقراء ، بحكم وضعهم ، أقرب من أي آخر الى البروليتاريا . وكان لينين يسميهم البروليتاريين الريفيين او شبه البروليتاريين .

ومن جهة اخرى فان مليوناً ونصف من العائلات الفلاحية الغنية ، الكولاك ، (من اصل عشرة ملايين عائلة ريفية) كانوا قد سطوا على نصف مجموع اراضي الفلاحين القابلة للزراعة . كانت هذه البورجوازية الريفية تثري ، وتتحول الى رأسماليين زراعيين .

ومنذ السبعينيات ، وبصورة خاصة في الثمانينيات من القرن الماضي ، استيقظت الطبقة العاملة في روسيا وبدأت النضال ضد الرأسماليين . فقد كانت حالة العمال ، في روسيا القيصرية ، شاقة جداً . وبين ١٨٨٠ و ١٨٩٠ كان يوم العمل في المصانع والمعامل لا يقل عن اثني عشر ساعة ونصف ، وقد بلغ في صناعة النسيج اربع عشرة الى خمس عشرة ساعة . وكانت اليد العاملة النسائية والاطفال تستغل على نطاق واسع . فكان الاطفال يقدمون عدداً من الساعات مماثلا للعدد الذي يقدمه البالغون ، الا انهم ، كالنساء ، يقبضون اجراً أقل بشكل محسوس . وكانت الاجور منخفضة جداً . كان اكثرية العمال يكسبون من ٧ الى ٨ روبلات في الشهر . وكان العمال الافضل أجرا في معامل التعدين والمصاهر لايكسبون اكثر من ٣٥ روبلا في الشهر .

ولم تكن هناك أية حماية للعمل : مما أدى الى وقوع عدد كبير من العاهات والحوادث المميتة . وليس من تأمين على العمال ، اما الاسعاف الطبي فكان مأجوراً . وكانت ظروف السكن شاقة جدا . ففي البراكات يتكدس ١٠ الى ١٢ عامل . وكثيراً ما كان ارباب المعامل يسرقون العمال، بأن يضطروهم الى ان يشتروا من مخازن ارباب العمل منتجات كانوا يجعلونهم يدفعون ثلاثة اضعاف قيمتها ، وكانوا يسلبونهم عن طريق ارهاقهم بالغرامات.

بدأ العمال بالتفاهم فيما بينهم ، وكانوا يقدمون مشتركين مطالبات الى رب العمل لتحسين حالتهم الميؤوس منها ، وكانوا يتركون العمل ، ويعلنون الاضراب . ان الاضرابات الاولى في السبعينيات والثمانينيات كانت دوافعها الغرامات الباهظة ، والسرقة والغش التي كان العمال ضحيتها حين دفع اجورهم ، وكذلك تخفيض الاجور .

وفي اثناء الاضرابات الاولى كان العمال ،مدفوعين باليأس، يحطمون احياناً الآلات ، ويكسرون زجاج مباني المعمل ، وينهبون مخازن ارباب العمل ومكاتبهم .

غير ان العمال المتقدمين بدأوا يدركون انه لابد ، للنضال بصورة مجدية ضد الرأسمالية ، من التنظيم . فظهرت منظمات عمالية .

ففي عام ١٨٧٥ تأسس في اوديسا « اتحاد عمال روسيا الجنوبية » . وقد استمر هذا التنظيم العمالي الاول ثمان او تسع سنوات . ومن ثم قضت عليه الحكومة القيصرية . وفي عام ١٨٧٨ تأسس في بطرسبورغ . «اتحاد العمال الروس في الشمال » ..

وكان الاتحاد يعد مئتي عضواً ، وعددا مماثلا من المؤيدين . وبدأ يشترك في الاضرابات العمالية وتوجيهها . وقضت عليه ايضاً الحكومة القيصرية.

غير أن الحركة العمالية استمرت في التعاظم ، ممتدة أكثر فأكثر الى مناطق جديدة . واتسمت الثمانينيات بعدد كبير من الاضرابات . ففي خلال خمس سنوات (١٨٨١ - ١٨٨٦) وقـــع أكثر من ثمانية واربعين اضرابا اشترك فيها ٨٠٠٠٠ مضرب وانطوى الاضراب الذي انفجر عام ١٨٨٥ في معمل Morozov d' Orékhovo – Zouévo على أهمية خاصة في تاريخ الحركة الثورية ... .

فقد قمع الاضراب بالقوة المسلحة . واعتقل أكثر من ١٠٠ عامل ، احيل عشرات منهم الى القضاء .

ووقعت اضرابات مماثلة عام ١٨٨٥ في معامل Ivanovo–Voznessensk

وفي السنة التالية اضطرت الحكومة القيصرية الى اصدار قانون بشأن الغرامات وقضى هذا القانون بأن تستخدم المبالغ الناجمة عن الغرامات في سد حاجات العمال أنفسهم ... » .

ينبغي ألا يستنتج من هذه اللوحة الدرامية ، أن مهمة الثوريين كانت سهلة ، وان الوضع السياسي كان يبدو مبسطاً ، وأن السلطة القيصرية كان يمكن انتزاعها كالفطر . لا . فقد كانت الدولة الاقطاعية – العسكرية تتصرف بجهاز بيروقراطي ضخم ، وجيش كبير ، وشرطة نشيطة ، تنفـــذ حتى الى صفوف الثوريين . كما كانت هذه الدولة تملك مرتكزات فعالة ، سواء في داخل البلد (طبقة النبلاء ، والكنيسة الارثوذكسية) أم في خارجهـــا ، لدى الاوساط الحاكمة في البلاد الرأسمالية .

غير ان الصفة البارزة تاريخيا ، في ذاك الوقت ، لـــلوضع في روسيا ، نشأت عن تراكم المتناقضات ، مما يعني بالضبط ان الامر ينطوي على كثير من التعقيد .

لقد كانت الدولة القيصرية ترتكز قبل كل شيء على المالكين العقاريين. غير ان هذه الدولة ما كانت تستطيع معارضة نمو الرأسمالية (والبورجوازية بالتالي) ، والا بقيت في منتهى التأخر الاقتصادي ، وافتقرت الى موارد لجهازها، ووقعت كليا تحت سيطرة رأس المال الاجنبي . فلم يكن في وسعها اذن ان تتحلل من منح البورجوازية بعض التنازلات ، وكان هدفها ، الواعي الى حد ما والمعلن (منذ ستوليبين Stolypine وسنوات ١٩٠٥ - ١٩١٠) تحقيق عملية واسعة في روسيا من نمط بونابارتي وبسماركي : النهوض بمسؤولية النمو الرأسمالي للبلد ، القيام من فوق بثورة محدودة في الاقتصاد و ببعض التنازلات السياسية ، الحفاظ على مصالح طبقة النبلاء ، ودمج البورجوازية بجهاز الدولة عن طريق السير المشروع لنوع من البرلمانية . ولكن الامور تغيرت منذ بسمارك . والاوضاع التاريخية لا تتكرر مرتين . وهذا يدل على شيء بالغ الاهمية : حين تحاول طبقة او طبقات حاكمة ان « تتكيف » ، وان تنمي القوى الانتاجية مع احتفاظها بعلاقات الانتاج السابقة والمؤسسات او البنى الفوقية السياسية ، فان هذا « التكيف » سرعان ما يصطدم بحدوده .

ورغم التنازلات (الظاهرة،والتي كثيرا ما استردتها الرجعية الاقطاعية، رجعية المئة السود) التي منحتها السلطة القيصرية ، فان البورجوازيةالروسية كانت في موقف المعارضة . كانت منقسمة الى اتجاهات : فقسم كان يطمح الى ملكية دستورية ، وقسم آخر كان يريـــد ديموقراطية على الطريقة الغربية (جمهورية برلمانية) . وبعبارة اخرى كانت البورجوازية،في روسيا ،تهيء ثورة بورجوازية على طريقة الثورة الفرنسية ، مع تناقضات ومشاكل لا يمكن إلا ان تكون اكثر حدة . (١)

---

(١) راجع لينين:اسلوبان (تكتيكان) ، المؤلفـــات المختارة ، الجزء الاول ، صفحة ٤٢١ .

غير أن الطبقة العاملة كانت آنذاك (رغم ضعفها العددي بالنسبة الى البلاد الصناعية الكبرى) ، أقوى بكثير ، أكثر تركزاً وأكثر نشاطاً مما كان الأمر عليه في فرنسا عام ١٧٩٨ ، بل وعام ١٨٤٨ . مرة أخرى : ان الاوضاع لا تتكرر مرتين بصورة متماثلة . كان التاريخ قد تقدم . ولم تكن البورجوازية الروسية قادرة على شيء دون البروليتاريا . ولكن هل كانت البروليتاريا تستطيع فعل شيء مستقل خاص بها ؟ هل كانت تستطيع جر البورجوازية وتجاوزها ؟ تلك كانت المشكلة السياسية .

أما فيما يتعلق بالجماهير الفلاحية ،فقد كانت تختمر في حالة ثورة متوطنة . كان « الشعبيون »أو الاشتراكيون - الثوريون يمثلون تطلعات طبقة الفلاحين ، أي مصادرة الاقطاعيين ، تأميم أو اشتراكية الارض ، (نقاط هامة كانوا يضيفون اليها تحقيق اشتراكية فلاحية ، في إطار القرية ، بالعودة الى المجتمع الريفي القديم) .

وعلىهذا النحو كانت جميع الطبقات والفئات الاجتماعية في الشعب الروسي تملك التعبير السياسي الصريح ، المباشر ، الواضح ما أمكن ذلك : حزبها .

إن هذا التحليل الموجز يتيح لنا أن نجد هنا ، بشكل جديد ، فكرة بالغة الأهمية

فمن وجهة النظر الماركسية «الارثوذكسية» كان الوضع الروسي مذهلا. وبالتأكيد لم يتوقع ماركس ثورة بروليتارية الا في البلاد الرأسمالية المتقدمة ، مع بروليتاريا قوية جداً كما ونوعا ، مع قوى انتاجية في مستوى مرتفع وتقنية متفوقة .. الخ .

فها هو بلد متأخر يصبح مركز حركة ثورية واسعة . ويحدث ذلك حين كانت الحركة تتراخى في البلاد الأكثر تقدماً ، على أية حال دون أن يحس بذلك بوضوح في هذه البلاد . ما الذي كان يمكن أن يقوله الماركسيون

« الارثوذكسيون » الذين يستخدمون الماركسية كعقيدة لا كمرشد؟، ان الثورة الروسية يجب أن تكون ثورة بورجوازية (ديموقراطية) مماثلة لثورة ١٧٨٩ - ١٧٩٣ في فرنسا — وان البروليتاريا يجب أن تكون قوة مساندة ومساعـــدة للبورجوازية ، حتى يأتي اليوم البعيد الذي تدق فيه ساعتها ، اذ تكون روسيا قد اصبحت ، تحت القيادة البورجوازية ، دولة صناعية عظمى .

اما لو جرت الأمور على غير هذا النحو ، فان ماركس وانجلز يكونان على خطأ . ويجب عند ذاك ايجاد صيغة ثورية تختلف عن صيغتهما ، صيغة روسية نوعيا ، متكيفة نوعيا مع البلاد المتأخرة التي تسيطر فيها الزراعة (كتلك الصيغة التي كان يقترحها الشعبيون والاشتراكيون الثوريون) .

ان لينين سيرد على هؤلاء بما مفاده : « لا ، ان ماركس وانجلز لم يخطئا . فليس ثمة صيغة خاصة للبلاد المتأخرة . ان الثورة التي تتهيأ في روسيا - وفي القارات الاخرى - ستتخذ من الماركسية مرشدا لها ، ومن البروليتاريا القوة القائدة . ان رجعة الى الوراء باتجاه تقاليد الشيوع الفلاحية - الحية قطعاً في البلاد المتأخرة ، والتي تزداد حيوية بقدر ماهي متأخرة - لاتحل أية مشكلة . هذه الرجعة الى الوراء طوباوية اولا ، ثم انها ، بقدر ماتحققها ، تخلق الشروط لرأسمالية اقوى واسرع نمواً من تلك التي تشق طريقها بصعوبة في روسيا القيصرية ، عبر رواسب الاقطاع . انها ستفضي الى تشكل متسارع لبورجوازية ريفية تسيطر على القرى على اساس وسائل الانتاج المتملكة فردياً - أدوات وماشية .. الخ ، على أساس الاستثمار ، لا على أساس الملكية العقارية . ان الفلاحين يكونون قوة ثورية حقيقية ، تتمايز تبعاً للفئات التي تكون طبقة الفلاحين . ومع ذلك فان البروليتاريا وحـــدها ، وهي الطبقة الثورية حتى النهاية ، تستطيع أن تحرك وتوجه وتقود تحولا اجتماعياً حقيقياً » .

كان على لينين ان يرد ايضاً على الارثود كسيين بقوله : « لا . ان ماركس وانجلز لم يخطئا . الا ان الثورة الديموقراطية والديموقراطية ليستا كيانات صرفة قائمة بذاتها خارج الزمان والمكان ، خارج التاريخ والاوضاع الواقعية . ليس بين الديموقراطية والاشتراكية قطيعة مطلقة «سور صيني» ، الا انه ليس بينها ايضا تماثل او اختلاط او مجرد استمرار . ان الثورة الديموقراطية البورجوازية لها حدود ، إلا ان هذه الحدود ليست مقررة مسبقا . ومع انها محددة فهي ليست كذلك منطقيا ، تجريديا . فالمحتوى الاقتصادي ، كالشكل السياسي ، اللذان ينبثقان من الثورة الديموقراطية البورجوازية ، يتوقفان على القوى الاجتماعية التي تحققها . يمكن دفع هذه الثورة اذن بعيداً الى حد ما ، الى ديموقراطية فعلية الى حد ما . وكلما مررنا بعيدا في طريق الديموقراطية الفعلية – حتى البورجوازية – اصبح اكثر سهولة الانتقال نحو تحويل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، اي نحو الاشتراكية ، وسياسيا نحو شكل من الديموقراطية اكثر ارتقاء واتساعا . ويجب اذن ان تتدخل الطبقة العاملة منذ قيام الثورة الديموقراطية البورجوازية ، باهدافها الخاصة وعملها المستقل ، وحزبها السياسي . بل انه يجب ان تلعب في الثورة دورا مسيطرا ، قائدا ، دون ان يؤدي ذلك الى نسيان طبقة الفلاحين والقوى الاجتماعية التي تنطوي عليها والاستخفاف بها ... »

والخلاصة ، ان الثورة التي كانت تتهيأ في روسيا كان يمكن ويجب ان تكون البروليتاريا الروسية قوتها الرئيسية ، حتى في حدود الديموقراطية البرجوازية – وكان باستطاعتها ان تصبح كذلك ، في أفضل الشروط التاريخية ، وبالحد الأدنى من العنف والأضرار – الثورة البروليتارية التي توقعها وبشر بها ماركس .

ومع ذلك ، فلنلح على نقطة حاسمة : ان صراع الطبقات عند البروليتاريا

الروسية، وممارسة هذا الصراع، باعتبارهما كذلك، كان يمكن تفسيرهما كلياً وتوجيههما استناداً الى الماركسية « الارثوذكسية » ، مما كان يفضي الى الفصل بين الثورة الديموقراطية والثورة الاشتراكية بفترة ميتة كان يمكن البرجعية أن تفيد منها ، أو كان يفضي ذلك الى مزجهما وخلطهما ، كما لو كان أحدهما يغلف الآخر . وفي كلا الحالين تصبح البروليتاريا الروسية قوة مساندة، غير مستقلة ، في إثر البورجوازية ، تلعب لعبتها ، وتترك لهذه أن « تقطف ثمار النصر » .

ماذا قدم لينين ؟ لقد قدم تحليلاً تطورياً لمجموع المجتمع الروسي ولنموه التاريخي – تحليلا جديداً سيقوده بالنتيجة الى تحليل جديد للوضع العالمي نفسه .

لقد وضع ماركس في المقام الأول تحليل التناقضات في الواقع التاريخي والاجتماعي ، وكذلك لمراحل الانتقال المعقدة والانتقال ، عبر التناقضات ، من واقع الى آخر . وبكلمة موجزة فقد استخدم ماركس الطريقة الديالكتيكية بتطبيقها على الحركة بمجموعها وعلى الصيرورة الكلية للمجتمع . هذه الطريقة جددها لينين ، وعمقها، بتطبيقها على دراسة الوقائع الجديدة منظوراً اليها في مجموع حركتها، في صيرورتها الكلية .

ويمكن على هذا النحو ادراك كيف ولماذا انفصل لينين عن الماركسية « الارثوذكسية» ، المتجمدة في الحرف والعقيدة ، وقد تجاوزها التاريخ ، مع احتفاظه بجوهر الماركسية . هذا ما سيكون الماركسية – اللينينية .

كان الشعبيون والاشتراكيون – الديموقراطيون ، في الحركة الثورية الروسية، يمثلون اليسارية . وكانوا يستخدمون طرقاً إرهابية فردية (اغتيالات وتخريب) ، ويعلنون عن استحالة نمو الرأسمالية في روسيا، وعن انهيار القيصرية والبورجوازية والدولة والحركة البروليتارية بآن معاً .

وكان لانتهازية اليمين ايضاً ممثلون معروفون : «الماركسيون الشرعيون» ،

« الاقتصاديون» ، ستروفيه Strouvé .. وغيره ، كانوا ينادون بنمو القوى الانتاجية في صالحها .

أما الوسط « الارثودكسي» فقد كان بليخانوف Plekhanov أبرز قادته. وعلينا أن نفرد له هنا بعض الصفحات . لعب بليخانوف دوراً تاريخياً (شأن كاوتسكي ، الذي يشابهه في جوانب متعددة ، رغم أنه لم يعلق نفس الاهتمام على القضايا الفلاحية ، التي تابع كاوتسكي دراستها الماركسية الى درجة متقدمة) . إن بليخانوف يبقى اسماً عظيماً في الماركسية ، ولئن لم يصبح الزعيم الثوري الروسي الأول (اذ وجد قبله تشرنيشفسكي Thchernichevsky وآخرون أيضاً) ، فقد كان له فضل ادخال الماركسية الى روسيا، وكتابة دراسات ممتازة (ما تزال صالحة جزئياً) ، وتنظيم أول مجموعة ماركسية روسية في المنفى بجنيف ، منذ ١٨٨٥ .

أتى من الحركة الشعبية ، وانتقل الى الماركسية ، فعرف كيف يوجه الى أصدقائه السابقين نقداً عنيفاً وعلمياً بآن واحد ، نقــداً صحيحاً موضوعياً وفعالا . وحدث هذا بالضبط حين أصبحت الطبقة العاملة الروسية قوة اجتماعية وسياسية - وحين تفنن الشعبيون في المقابلة بين أبطالهم (الارهابيين ، الذين كانت شجاعتهم الفردية أمراً لا يمكن نكرانه) ، وبين استكانة الجماهير والجموع ، بموجب هذه النظرية الاخلاقية كانوا يرفضون الماركسية .

نازعهم بليخانوف على اللقب الذي منحوه لأنفسهم ، لقب « اشتراكيين - ثوريين » . ودلل ضدهم (وهو تدليل سيتابعه لينين) ان الرأسمالية تنمو في روسيا في جميع مظاهرها : توسع السوق ، والانتــاج الصناعي .. وسوى ذلك . واذن فان البورجوازية والبروليتاريا ، في نطاق الرأسمالية ، تتكاثران عدداً ، ونفوذاً ، وقوة سياسية . أما المسألة الأخلاقية فمسألة غير جوهرية : اذ يستحيل وقف هذا النمو .

أما الشيوع الفلاحي أو شيوع القرية (مير) ، فكيف يستطيع أن يقدم أساساً للاشتراكية ، وهو قد كان في ابان انحلاله آنذاك ، وكان متغيراً تغيراً عميقاً بفعل التدابير الادارية القيصرية ، ونمو الانتاج التجاري والبورجوازية في الريف ؟

ان هذا النقد السليم لاوهام الشعبيين بصدد الحركة الفلاحية قاد على أية حال بليخانوف الى سوء تقدير المسائل الريفية .

وفضلاً عن ذلك فقد أخطأ فهم أهميـة الديالكتيك كطريقة و كنظرية للمعرفة الموضوعية . فقد قلل من شأن هيجل وبالغ في تقدير فروبياخ كمصـدر للماركسية . وكان يظن ، مثل مهرنج، إن ماركس وانجلز لم يمرا وحسب « بمرحلة فروبياخية » (وهو أمر يبالغ في تأثير هذا الفيلسوف) ، بل انهما ظلا في مواقعهما. وبينما كان مهرنج يسعى لاستخلاص فلسفة للتاريخ متحررة من المذهب الطبيعي فان بليخانوف كان ، على العكس ، يريد ان يكون وفيـاً للمادية . ونتج عن ذلك ، حوالي عام ١٩١٠، جدل شهير بينه وبين مهرنج . وبتعارضهما ، كان هذان الماركسيان يقفان على صعيد واحد ، إذ كانا يريدان فصل الماركسية الى شقين : من جهة فلسفة للطبيعة، ومن جهة أخرى فلسفة للتاريخ أو سوسيولوجيا . وبليخانوف، برفضـه الديالكتيك،أسلم نفسه الى مادية وسوسيولوجيا ساذجتين « عاميتين » .

ومع أن بليخانوف ظهر قبل لينين ، فمن الخطأ أن نعتبر هذا الأخير بأنه مكمل له ومريد . ذلك أن لينين يرتبط مباشرة بماركس وانجلز ، وبهيجل .

وتظهر الخلافات بين بليخانوف ولينين في وقت مبكر . منـذ ظهور (ما العمل ؟) — ١٩٠٢ — ومنذ البرنامج الذي كتبه بليخانوف عام ١٩٠٢ — للحزب الاشتراكي - الديموقراطي الروسي . وفي عام ١٩٠٧ ، في الطبعة الثانية

من دراسته الكبيرة عن (نمو الرأسمالية في روسيا) وجه لينين ضد طريقة بليخانوف حاشية هامة واستأنف الهجوم في (المادية والتجريبية النقدية) ولكن الاشارة الاكثر وضوحاً جاءت في (الدفاتر الفلسفية) :

« لقد أهمل بليخانوف واستخف بالمنطق الكبير «علم المنطق» لهيجل . لقد كتب آلاف الصفحات عن الفلسفة ، ولا شيء عن منطق هيجل » .

وعلينا اخيراً أن نضيف هنا بضعة كلمات عن تروتسكي ، نظراً لأن « التروتسكية » مثلت مدة طويلة من الزمن تياراً أو اتجاهاً في الفكر والعمل الثوريين .

لقد بدأ تروتسكي يتخذ موقفاً شخصياً في مؤتمرات الحزب الاشتراكي – الديموقراطي الروسي في وقت واحد تقريباً مع لينين ، حوالي عام ١٩٠٣ (المؤتمر الثاني ، الذي شهد تزايد حدة الخلافات بين اولئك الذين كانوا يتبنون مواقع لينين ، البلشفيك أو جماعة الأغلبية – والمنشفيك ، جماعة الأقلية ، القريبين من الاشتراكية الغربية الوسطية او اليمينية . غير أن المقارنة تقتضي بعض التحفظات ، لأن بليخانوف الارثوذكسي كان آنذاك الى جانب لينين ...) . في ذاك الوقت لم تكن اللينينية بعد مذهباً متكاملا ، وكانت الاختلافات تنصب على مسائل نظرية (عالجها لينين في « ما العمل ؟ ») ، وايضاً ، وبصورة خاصة ، على مسائل عملية تتعلق بالتنظيم والأنظمة . فقد كان لينين يريد حزبا اشتراكياً - ديموقراطياً منظماً بقوة ومنضبطاً ، تكون بنيته الاجتماعية بروليتارية بشكل خاص ، ويقوده أناس تمثلوا الاشتراكية العلمية ، يناضل أعضاؤه – الثوريون العاملون – انطلاقاً من برنامجه في المنظمات الخارجية على اختلافها . أما المنشفيك فكانوا يميلون الى فتح باب الدخول للحزب عريضاً ، عن طريق تراخي الانضباط وواجبات المناضلين ، وكذلك بتصورهم الحزب مكتفياً بذاته .

اتخذ تروتسكي ، حول هذه النقطة ، موقعاً متوسطاً . فقد كان يريد ان يكون ثورياً فعالاً ، بالمعنى الماركسي للكلمة ، اذن مع الطبقة العاملة الثورية . ولكنه كان يرفض ، كما فعل لينين ، تعليق أهمية بالغـــة على المسائل الفلاحية . كان ينكر على الفلاحين أية قدرة ثورية ، وبصورة خاصة في الثورة الاشتراكية والبروليتارية .

كتب ماركس عام ١٨٥٠ في رسالة الى رابطة الشيوعيين جملة مأثورة :

« ان مصالحنا ومهامنا هي في ان نجعل الثورة دائمة » .

من هـــذه الجملة ، مأخوذة بحرفيتها ، استخلص تروتسكي نظرية ، اسمها الثورة الدائمة . ففي رأيه أن الطبقة الثورية يجب أن تكافح بلا توقف ، في جميع بقاع الأرض ، غير عابئة إلا في أضيق الحدود بالطبقات الأخرى ، وبالتحالفات والتوفيقات الممكنة ، وبالتالي بالاوضاع المشخصة . نظرية الثورة البروليتارية الدائمة هـذه أدت به (لاسيما بعد موت لينين) الى اتخاذ موقف سياسي . وانتهى الى اعتبار الثورة الروسية — التي لعب فيها دوراً لا نكران فيه — لا كسبيل الى بناء الاشتراكية في هـــذا البلد ، بل كوسيلة وقاعدة لخلق جيش أحمر يحمل الثورة الدائمة الى العالم بأسره . ومن هنا القطيعة مع الحزب البلشفي الذي تولى ستالين قيادته . وحتى ذاك الحين (١٩٢٦) كان تروتسكي قد قبل بتصنيع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، بـــل ويعتبره غير سريع بشكل كاف . ان ميوله الى إضفاء الطابع العسكري على الاقتصاد والنقابات كان قـد كبحها لينين . وكان من المحتم أن تتم القطيعة حول المسألة الفلاحيـــة . ففي نظر تروتسكي ان التصنيع السريع و « التراكم الاشتراكي » ، في بـلد كالاتحاد السوفياتي ، لا يمكن ان يتحققا الا على حساب جماهير الفلاحين العاجزين عن تحويل بنيتهم وعلاقاتهم الانتاجية . وبالتالي فان

دكتاتورية البروليتاريا يجب أن تفرض على هذه الجماهير ، بقصد دمج جزء منها في البروليتاريا الصناعية ، واستخدام الأجزاء الأخرى مصدراً للتراكم .

ينبغي إذن أن نفهم أن اللينينية قد تكونت ضد اتجاهات الاشتراكية - الديموقراطية ، في عهد الاممية الثانية ، ولم تكن مجرد اتجاه منها . لم تكن لونا من ألوان « الاتجاه الوسطي » تقف ضد تطرف اليسار وانتهازية اليمين .
اننا نرى فعلاً من الصفحات السابقة (وهي تلخص بايجاز كبير عهداً معقداً) .

ان الفكر الثوري ، الماركسي والاشتراكي ، قد فتح آنذاك مروحة واسعة تنطلق من اليمين الى يسار يمعن في الجرأة ، من الانتهازية الى التطرف .

ويدرك المرء بسرعة ان اليمين انضم الى تيارات واتجاهـــات الفكر البورجوازي المعادي للماركسية (المثالية ، الكانتية الجديدة ، اللاعقلانية او التجريبية البحتة .. وسوى ذلك) . في هذا الجانب تظهر منطقة مختلطة (وبعبارة أقسى : مستنقع ايديولوجي) تتبادل فيه المؤثرات وتختلط . فالفكر البورجوازي يمارس تأثيراً على الفكر الماركسي ، وهذا يمارس بدوره جاذبية واغراء على الفكر البورجوازي ، الذي يحاول ان يحتل هذا الموضوع اوذاك لمصادرته من الماركسيين ، دون ان يتوقف لهذا السبب عن مهاجمة الماركسية والاشتراكية العلمية والتوقعات الشيوعية .

وبنظرة أدق ندرك ان النزعة المتطرفة كانت - ومازال - تلتقي مع الفكر البورجوازي في ذاك العهد والوقت ، وبذلك تغلق حلقات السلسلة . لقد كان ليبكنخت بطلا من ابطال الثورة ، وقدم نيتشه للفكر الحديث مزيجاً غير مستقر وخطراً من الشعر والفلسفة ، من النزعة الانسانية والاستخفـــاف الفاشي المبكر بالبشر . إلا انه بين نزعة الشؤم لدى ليبكنخت ، وورومنطيقيته

المفرطة ، وبين تشاؤم نيتشه المأساوي ، يوجد، رغم الفروق العميقة في النيـــة والعمل والمحتوى) توافق غامض[1] . وكان من أفكار لينين الكبيرة ان فضول الكلام ، والاخطاء ،والناميات الايديولوجية القائمة على تحليل سيء الوضـــع المشخص ، تلتقي في نهاية المطاف ، وانها تقع في نقطة الانطلاق اما في اليمين او في اليسار .

وسنلح ، فيا سبق ، وما سيأتي ، بقوة على الشخصية الفعـــالة ، وعلى الافـكار : على الفلسفة . لايعني ذلك ان نفصل الشخصيات (الافراد العظام) الفعالة عن ظروفها ، عن الاوضاع والملابسات ، عن حركة التاريـخ ، عن الجماهير او الطبقات، لايعني ذلك ان نعتبر الفلسفة وكأنها حاسمة . بيدانه يبقى صحيحاً ان تحليل عقدة التناقضات التي يغلفها دوماً وضع مشخص يحدد العمل الذي يليه. فالتناقضات موضوعية ، أي معطاة في التطبيق ، كما هي الحال في المشكلات . فالتحليل يحل العقدة ، ويقدم الخيط الواصل الذي يخرج عنه العمل التطبيقي الجديد . اما الفلسفة ، فتكشف ـ على ارفع مستوى ـ نمط التفكـــير والعمل لدى الناس .

---

(١) ان تفحصاً اكثر تفصيلا للفكر الحديث الفرنسي يؤكد ، في اعتقادنا ، هذا التحليل الاولي ، ولنأخذ سوريل Sorel مثالا . فلأنه كان واضع نظرية العنف ، كان يبدو انه يقف الى اقصى اليسار في الاتجاه الثوري « المحض » . الا انه في الواقع كان يرتبط فلسفيا ببرغسون ، وألهم موسوليني والفاشية مبـــاشرة ، بسبب تقديسه المجرد للارادة « المحضة » والعنف ، وكذلك بسبب تقديسه غير العقلاني للاساطير ، باعتبارها كذلك (نظرية الاضراب العام) . وتطورت النقابية الثورية «المتطرفة » هي ايضاًنحو موقف اصلاحي يميني .

ان معظم المواقف والمناقشات والمجادلات التي احدثت ضجة في فرنسا منذ بضع سنوات كررت حججاً ومواقف ظهرت في المانيا وروسيا في عهد الاممية الثانية. ومامن شك في ان تمحيصها المفصل لايقدم لنا أي جديد .

وكما أشرنا من قبل ـ تبعاً للينين ـ فان عهد الاممية الثانية كان عهد سلم (نسبي) ، ونمو سلمي (نسبياً) للرأسمالية ، وتحول الرأسمالية هذه الى امبريالية ، واذن عهد تحضير بطيء (نسبياً) للتفجرات المقبلة وتسارع التاريخ .

وتنوع الافكار ، والمواقف ، والاتجاهات ، والمواقع الايديولوجية ، يقابل الى حد ما هذا الهدوء النسبي وفي هذه الفترة الطويلة « السابقة للحرب » لم تكن المشاكل الحادة بعد مطروحة . ورغم شدة الصراعـــات السياسية على المستوى البرلماني فان الأممية الثانية كانت تغط في خمود هنيء كان على الحرب ان تضع نهاية له . ولم يكن مفكروها ، المصابون بالانتقائية بل والهواية ، يسعون الى التنبؤ واستجلاء المشكلات الاساسية والقوى الاجتماعية العميقة . لقد كانوا يشتبكون في مجادلات بيزنطية . مثال ذلك ، لقد انتهى نظريو وممارسو البرلمانية من الاشتراكية ـ الديموقراطية الى ان الثورة البروليتارية بالمعنى الذي اعطاه ماركس مستحيلة وغير مرغوب فيها بآن واحد . كانوا يقولون ، بعكس تحليلات ماركس (التي يفهمونها بالمقابل فهماً سيئاً ، كأنهم لم يقرأوا ابداً القسم الثالث من رأس المال) ، ان المجتمع البورجوازي لن يرتد ابداً الى مواجهة ثنائية بين أقلية ضئيلة من كبار الرأسماليين وجمهور ضخم من البروليتاريين ، وان البروليتاريا ذاتها قد لاتكون ابداً الاغلبية المطلقة في المجتمع . وهذا صحيح ، ولكنهم كانوا بذلك ينغلقون على انفسهم في ثنائية كاذبة . **فاما** اننا نملك ٥١٪ من الاصوات ، وعند ذاك نستطيع انجاز الثورة ـ تحويل العلاقات الاجتماعية ـ بالطريق السياسي المشروع ، بالبرلمانية البورجوازية وحدها . **واما** اننا لانملك ٥١٪ من الاصوات ، فلا تستطيع البروليتاريا العمل ثوريا . واذ انها اقلية فانها تنطلق مهزومة ، خصوصاً وانها تفتقر الى الاطر والتقنية ، والادارات المؤهلة . وفضلا عن ان

الصراع البرلماني يمكن ان يحل بنجاح ، في حدود الممكن ، محل العمل فوق - البرلماني .

ويرفض لينين واللينينية صراحة هذه الثنائية . ويستند هذا الرفض اولاً الى تحليل تاريخي للثورات . فالثوريون - الذين يمثلون طبقة او عدة طبقات مرتبطة موقتاً ببعضها - لم ينتظروا ابداً ان تكون لهم اغلبية ، وان يمثلوها . وكان يكفي دائماً ان يكون الظرف السياسي ، اي مجموع العلاقات بين الطبقات والقوى في مجتمع معين في ظرف تاريخي معين ، مواتياً لهم . كذلك عمل الثوريون البورجوازيون لعام ١٧٨٩ . فهل كانت البورجوازية تملك الاغلبية في فرنسا إذ ذاك ؛ هل كانت وراء عناصرها الطلائعية من جمهوريين وديموقراطيين ، اكثرية واعية ؟ بالتأكيد لا ، خصوصاً في بداية الثورة . إلا انه كان يجثم فوق فرنسا جهاز للدولة من اصل اقطاعي ، وتجددت اقطاعيته بعمق خلال القرن الثامن عشر ، رغم المحاولات الاصلاحية . لقد اثارت هذه الدولة ضدها معظم الفلاحين والحرفيين والعمال ، لاسباب متنوعة ومختلفة جد الاختلاف عن الاسباب الخاصة بالبورجوازية . فضلا عن انه ما من أحد ، في ذاك الوقت ، كان يعرف بوضوح الاسباب الاكثر عمقا ، وموضوعية ، للحركة الثورية ، أعني العقبات التي كانت تضعها رواسب الاقطاع في وجه النمو الاقتصادي والاجتماعي ان هذه الاسباب الموضوعية كانت تتجلى ايديولوجياً . غير ان البورجوازية عرفت كيف تمسك بالظرف التاريخي وتحقق ثوريا خطوة واسعة الى الامام ، في جميع المستويات (الاقتصادية ، والاجتماعية ، والادارية ، والسياسية ، والثقافية) . ولو ان اليعاقبة انتظروا حتى تمثل البورجوازية بصفتها هذه ، عن وعي وموضوعياً ، اغلبية - بينما هي من الناحية الموضوعية تمثل مصالح هذه الاغلبية - لما كان هناك مذهب يعاقبة ، ولا ثورة فرنسية ، ولا ديموقراطية ، ولكان باستطاعة سلطة الدولة ان توقف الحركة وتمنعها

وتثبتها ، ولتجمدت القوى الانتاجية (الاقتصادية) والقوى الاجتماعية

ان هذا لا يعني ان اللينينية أحلت محل نظرية الاغلبية نظرية الاقلية الفعالة (نظرية فوضوية او بلانكية) . لا . ذلك ان اقلية منفصلة عن اوسع الجماهير تبقى، في نظر لينين، عاجزة . انه أقام مقام الثنائية المنوه عنها آنفاً نظرية **الأزمة الثورية** المتفردة ابداً ، المتجددة ابداً، في انتظام النمو التاريخي[1] العام.

ولكن ، قد يعترض على هذا القول ، بأن وضع البروليتاريا الحديثة ، يختلف عن وضع البورجوازية عام ١٧٨٩ . فهذه ، وان كانت تحمل التقدم ، وان كانت تمثل موقتاً مصالح المجتمع بأسره ، مع تمثيلها مصالحها النوعية الطبقية ، ما كانت تستطيع ان تصبح اغلبية مطلقة في المجتمع الرأسمالي . واذن فاما ان ماركس على حق ، وعلينا ان ننتظر الوقت المناسب ، او ان ماركس قد أخطأ ، ولنتخل عن فكرة التحويل الثوري للعلاقات الاجتماعية وعن سياسة مستقلة لعمل الطبقة العاملة تتم عن طريقها .

يجيب لينين بالنفي. ان السلطة المضطهدة — سلطة القيصرية الاقطاعية ، سلطة البورجوازية — تثير ضد نفسها لا البروليتاريا وحدها ، بل سائر الطبقات الاجتماعية التي تعيش الى جانبها ، بل ممتزجة بها وفق خطوط غير واضحة الحدود الى حد ما (الفلاحين ، الحرفيين ، المثقفين ، الموظفين الصغار والمتوسطين، صغار التجار ، وسواهم) . ان السلطة المضطهدة تحرك ضد نفسها الشعب بكامله، بما فيه البروليتاريا ، الطبقة الوحيدة الثورية حتى النهاية ، ولكنها ليست القوة الاجتماعية الثورية الوحيدة . ان السلطة المضطهدة ذاتها تثير ضد نفسها الشعوب المضطهَدة في المستعمرات وشبه المستعمرات ، اي أمماً بكاملها . فاذا هز ظرف سياسي هذه

---

(١) راجع احد المقالات الاخيرة التي كتبها لينين: « حول ثورتنا »، المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، ص ١٠٢٣ .

السلطة ، فهل تدع البروليتاريا هذا الظرف يمر دون ان تتدخل كقوة رئيسية؟ هل تبقى سلبية ؟ ان من يفكر على هذا النحو ليس عاجزاً ومنافقاً وحسب ، كما يرى لينين ، انه ينتقل « موضوعياً » ، (ولولم يعرف ذلك بوضوح)، الى خدمة مناهضة الثورة .

ان لينين واللينينية يردان الى ضرب من النفاق والبيزنطية السياسيين الثنائيات التالية : اغلبية أو اقلية اصلاحات او تحويلات عمل برلماني او فوق برلماني وسواها . ففي الحياة العمليه ؛ والسياسية ، مثل هذه الثنائيات لاتوجد الا نادراً ، وقد لاتوجد ابداً . انها تنتج عن مشكلات أسيء طرحها فكل مشكلة واقعية موضوعياً لها حل . وليس من وضع لامخرج له . ان الطبقة العاملة الثورية تستخدم جميع الوسائل ، واحدة بعد اخرى ، تبعاً للظروف . ولاتستخدم الوسائل ذاتها في ظروف متماثلة. فهذه ليست سوى وسائل متنوعة في خدمة هدف وحيد : التحويل الثوري لعلاقات الانتاج الاجتماعية ان الثوريين - اولئك الذين يريدون تغيير العالم بدلا من القبول به او تفسيره - لا ينغلقون على انفسهم مسبقاً في هذه الصيغة او تلك . وليس هذا لأنهم يرفضون المعرفة لمصلحة مذهب تجريبي سياسي ، بل على العكس ، باسم المعرفة ، التي هي على الدوام معرفة المشخص المتحرك

صحيح،من جهة اخرى، ان هناك تاريخياً ورغم بعض الشبه، فرقاً عميقاً بين الثورة الديموقراطية البورجوازية والثورة الاشتراكية البروليتارية (وهنا نواجه مشكلة سنلتقي بها مرات عديدة ، هي مسألة العلاقات الدقيقة بين الديموقراطية والاشتراكية **والانتقال** بينهما . ان الثورة البورجوازية تكرس تحولا للعلاقات الاجتماعية تحقق جزئياً من قبل ، وكان عميقاً في القرن الثامن عشر في فرنسا وفي اوربا ان عليها بصفة خاصة ان تؤدي، بمساعدة الجماهير، عملاً سلبياً[1] ، بينما

(١) لينين ، المرجع السابق ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٦٩ .

تتقدم الثورة البروليتارية سياسيا وتتيح تحويل علاقات الانتاج الرأسمالية الى علاقات انتاج اشتراكية . ان عليها ان تقوم بعمل ايجابي ، ان تنظم نموا . فمن الممكن اذن للبروليتاريا القائدة . ان تكف عن كونها بروليتاريا ، وان تتجاوز نفسها ، بصفتها كذلك ، في الاشتراكية - وذلك بتنميتها للقوى الانتاجية - في اللحظة ذاتها التي تصبح فيها أغلبية السكان العاملين .

ولخص لينين في نهاية حياته في كتابه (اليسارية ، مرض الشيوعية الطفولي) ، فكرته على هـــذا النحو ، مبينـا فائدة الثورة ، واهميتها التاريخية العالمية :

« ان البلشفية موجودة كتيار من الافكار السياسية وكحزب سياسي منذ عام ١٩٠٣ .. على اساس متين ، اذا لزم الامر ، من النظرية الماركسية ان صحة هذه النظرية الثورية - وهذه النظرية وحدها - قد برهنت عليها لا التجربة الشاملة للقرن التاسع عشر بأسره وحسب ، بل وبصفة خاصة تجربة تأرجح ، وتردد ، واخطاء وخيبة الفكر الثوري في روسيا . والحق ان الماركسية ، النظرية الثورية الوحيدة الصحيحة ، قد دفعت روسيا ثمنها نصف قرن من الالام والتضحيات الفريدة ، من الخيبة ، من الاختبارات ، من المقارنة مع تجربة اوربا ... لقد عاشت البلشفية تاريخا عمليا عمره خمسة عشر عاما (١٩٠٣ - ١٩١٧) كان ، من حيث إغناء التجربة ، لا مثيل له في العالم .

فما من بلد عاش ، ولو على وجه التقريب ، حياة غنية بهذا القدر فيما يتعلق بالتجربة الثورية ، وبالسرعة التي تعاقبت فيها الاشكال العديدة التنوع للحركة ، المشروعة وغير المشروعة ، السلمية او العاصفة ، حركة نواد او جماهيرية ، برلمانية او ارهابية . وما من بلد قد شهد ، في فترة زمنية

قصيرة كهذه ، تركزا كهذا غنياً بالاشكال ، بالتلونات، بالطرق ، في صراع جميع طبقات المجتمع المعاصر ، صراع كان ينضج بسرعة خاصة .. نتيجة تأخر البلد والنير القيصري الساحق .

سنوات التحضير للثورة (١٩٠٣ - ١٩٠٥)

يحس المرء في كل مكان باقتراب العاصفة الكبرى . تخمر واعداد داخل جميع طبقات المجتمع في الخارج ،تطرح صحافة المهاجرين بصورة نظرية جميع المسائل الاساسية للثورة . ممثلو الطبقات الثلاث الاساسية - في صراع شديد الاحتدام تتواجه فيه البرامج والتكتيكات-يستبقون ويهيئون الصراع الثوري المقبل ...

سنوات الثورة (١٩٠٥ - ١٩٠٧)

جميع الطبقات تؤكد ذاتها علنا . . لولا التجربة العامة لعام ١٩٠٥ لكان انتصار اكتوبر - تشرين الاول - ١٩١٧ مستحيلا .

سنوات الرجعية (١٩٠٧ - ١٩١٠)

انتصرت القيصرية سحقت الاحزاب الثورية او المعارضة . خور ، قنوط ، انشقاقات ، تفتت - ارتداد ، ميوعة ... تصوف .. وفي الوقت ذاته ، لقنت الهزيمة الكبرى الاحزاب والطبقة الثورية درسا حقيقيا ، ودرسا في الديالكتيك التاريخية .

سنوات النهضة (١٩١٠ - ١٩١٤)

الحرب الامبريالية العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٧)

الثورة الروسية الثانية (من شباط - فبراير - الى تشرين الاول - اكتوبر - ١٩١٧) .[1]

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة . الجزء الثاني ، صفحة ٦٩٥ وما بعدها

لقد سبق لنا ان استخدمنا ، في هذا الفصل التمهيدي ، كلمة تغضب بلا شك بعض القراء ، هي كلمة « موضوعي » .

ويساء احيانا استخدام هذه الكلمة في تقييم او تفسير الناس والافكار بصورة نهائية وعقائديا . وحتى خارج هذه الاساءة الممكنة، فثمة شيء من العنت في حكم يصدر استنادا الى نتيجة الاعمال الفردية او الجماعية ، لا استنادا الى النيات والمشاعر او الاماني . في ذلك نوع من الاهانة لكرامة الانسان ، لحياته الداخلية ، لحريته خصوصا واننا معتادون ، مدة قرن ونصف من الفردية والاخلاق الكانتية ، على احترام « حسن النية » ، والحكم على الاشخاص حسبما يفكرون ويقولون عن انفسهم : حسب النية .

ومع ذلك ...

ومع ذلك ألسنا مضطرون ، عمليا ، في العمل ، دائما على ان نضع انفسنا على صعيد آخر ، ان نستخدم معيارا موضوعيا ؟ ان جهنم ، كما يقال ، مفروشة بالنيات الحسنة ...

انه لمن الخطأ ان نستنتج من استخدام كلمة « موضوعي » ، المرتبطة بالطريقة الماركسية في التحليل ، وبأسسها المادية ، ان لينين واللينينية يهملان « الذاتي » . بالعكس ، ان لينين ألح دائما على الوعي والمعرفة ، وعلى دورهما . لقد أبرزهما لينين بينما كان ماركسيون آخرون (بصورة خاصة « الاقتصاديون » و « الموضوعيون ») يهملونها .

يقول لينين إن علينا ان نعمق معرفة الحقائق والاوضاع حتى تتبدد الاوهام الذاتية للبشر ، للجماهير ، للشعوب . وهذا بالذات لأن العامل او اللحظة الذاتية ذو اهميـــة بالغة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، في الازمة الثورية . يجب ، بالنقد الجذري لايديولوجيات الطبقات الحاكمة ، ان نوقظ

ونعمق الوعي (الذي يتعرض دوما من دون مساندةهذه المعرفة النقدية ، للاغفاء او الانزلاق الى جانب الايديولوجيات المناهضة للثورة) . وبعبارة اخرى ، ان الوعي العفوي او العملي ضروري ، ولكنه غير كاف . انه لايكتفي بذاته من حيث انه يحتاج الى غذاء ، هو المعرفة ، ليصبح بحق وعيا سياسيا ومنظمة سياسية - الحزب - يجب ان توجهه وترشده ، اذ عليه ان يعود الى الممارسة والعمل . واذن « **فلا حركة ثورية بدون نظرية سياسية** » . وما من وضع ثوري دون شروط معقدة تغلف الوعي و العامل الذاتي في جميع مظاهره (معرفة الوضع وتحليله - الوعي السياسي ، التنظيم ، الحزب - الضمير الاخلاقي: التفاني ، البطولة الثورية للجماهير والافراد .. الخ) .

إن الثورة حدث وواقع اجتماعي « كلي » ، يسبب ويعبر في الوقت ذاته عن انقلاب في المجتمع حتى أعماقه ، أعماقه التي كانت مختفية حتى ذاك الحين بما فيها من أشكال دقيقة من وعي وايديولوجيا وكل ثورة ظاهرة وحيدة، خاصة بهذا العصر ، بذاك البلد . انها لا تحدث إلا في ظرف لا يتكرر ابدا تماما . ورغم ذلك ، فان للثورات **قوانين** ، كما يؤكد لينين .

«ها هو القانون الاساسي للثورات ، الذي تؤكده جميع الثورات ، وبخاصة الثورات الروسية الثلاث في القرن العشرين . لايكفي ، كي تحدث الثورة ، ان تعي الجماهير المستغَلة والمضطهَدة استحالة العيش كما في السابق وان تطالب بالتغيير . بل يجب ، كي تحدث الثورة ، ألا يتمكن المستغِلون من ان يعيشوا ويحكموا كما في السابق . ان الثورة مستحيلة من دون ازمة قومية عامة »[1].

فالعامل الذاتي اساسي اذن كمعرفة و كوعي لوضع ما . وهكذا ، وآنذاك ، يتحول الى عمل حاسم . انه عنصر او لحظة من لحظات الوضع ،

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، صفحة ٧٠١

ولكنه ليس سوى عنصر، لحظة، والموضوعي يتحول الى ذاتي، وبالعكس. ان للموضوعي السبـــق، الا ان الذاتي يرتكس على الموضوعي، فهو موضوعي (واقعي) بمعنى ما. فالتفاعل يحدث بين حدين غير متساويـين، ليست لهما نفس الدرجة من الواقعية والنمو، ليسا متناظرين. لذا لا يسير الموضوعي والذاتي، بالضرورة، بخطوة واحـــدة، وبنسق واحد. ومن هنا خطر تأخر الوعي والمعرفة، وهو تأخر ليس بالضرورة ـ القـــانون ـ بل مجازفة يجب ان يتحصن ضدها نشاط الثوريين النظري والعملي. فينبغي اذن، في كل وضع، تحليل العلاقة: موضوعي ـ ذاتي، من بين عناصر ومظاهر الوضع الاخرى.

هذا التحليل الديالكتيكي للعلاقات والتفاعلات والنزاعات بين الموضوعي والذاتي، يعمق النظرية الماركسية التي ترى أن البشر يصنعون تاريخهم، بما عليه (الشروط الموضوعية)، وبما يفكرون فيه (أفكار يحاولون من خلالها وبواسطتها حل مشكلاتهم)، واذن فان ذلك يحدث في حدود هـذه الشروط وهذه الأفكار، واذن أخيراً يحدث هـذا على نحو آخر ـ الى درجة ما ـ غير ما كانوا يريدون او يتمنون ان يفعلوه.

كان ماركس يؤكد في (الايديولوجية الالمانية): «اننا ننطلق من البشر الفعليين، من نشاطهم العقلي».

وينتج عن ذلك أن انسانا يعمل **ذاتياً** بدوافع رجعية (مثلا اقطاعي في بلد متأخر،) يمكن أن يكون له **موضوعيا** وبصورة موقتة على الأقل، دور ثوري. كما أن تدبيراً ثورياً **في الظاهر ومن ناحية ذاتية** (مثلًا، اندماج بين شعب صغير وبلد امبريالي باسم وحدة الشعوب والاممية ـ او اتحاد من بـــلاد رأسمالية .. الخ) يمكن أن يكون رجعياً من وجهة **موضوعية**.

لقد بدأنا نكتشف الاغناء اللينيني لطريقة ماركس الديالكتيكية.

- ٢ -

حياة لينين

نال لينين امتيازاً فريداً ، على الأقل فيما يخصنا نحن الذين نحاول ، في باريس وليون أو بوردو ، فهم عصرنا .

ان لينين ، إذ دخل التاريخ ، دخل الاسطورة فملايين البشر في جميع البلاد مروا ، منذ موته ، امامالتابوت الزجاجي الذي يرقد فيه ، محنطاً ، مرئياً، في موسكو . وعمله الثوري لمصلحة الشعوب المضطهدة في الأمبراطورية القيصرية القديمة ، لمصلحة الشعوب المستعمرة أو شبه المستعمرة في العالم بأسره ، وصله بجماعات انسانية تمثل جميع عصور التطور التاريخي ، من الرحل وشبه البدائيين الآسيويين الى البروليتاريا ، الى أحدث طبقة المثقفين .. الانتلجانسيا .

ولذلك فثمة فلكلور لينيني واسع ، يتكون من أغان وقصائد وملاحم، في لغات لا تحصى .

غير أن لينين ينتمي كلياً ، في الوقت ذاته ، الى العهد المعاصر . فلو انه ظلحياً لبلغ فيعام١٩٥٥ الخامسة والثمانين من العمر . ولئن خصه الـ « تشوفاش Tchouvaches » او القرغز Kirghiz بجوقات وقصائد ملحمية ، فان ماياكوفسكي Maïakovski اهداه قصائد بأسلوب «حديث جداً». لقد صور لينين فوتوغرافياً وسينمائياً ، كما سجل صوته . وأشخاص عديدون ، ما يزالون احياء ، عرفوه ، وتحدثوا اليه ، ويتذكرونه . ليس ذلك في موسكو وحدها ، بل في باريس ولندن. ذلك ان لينينالمنفي طاف أوروباءالتي كان يعرف ويتحدث ويكتب جميع

لغاتها الهامة . لقد كانت ثقافته على هذا النحو اوربية بكل ما في معنى هذه الكلمة من قوة وصحة [1] .

فنحن نعرف اذن حياته يوماً بيوم تقريباً . وسيبين ذلك فيما بعد نص مقتبس عن تاريخ أحلك أيام الثورة . والطريف في الأمر أن الاسطورة والحقيقة تختلطان أحياناً .

وهكذا يروى في كابري (ايطاليا) ان البلاشفة كانوا يحضرون للاجتماع سراً في الجزيرة ، في عهد لم تكن الجزيرة فيه قد اصبحت مقصد السياح . ويزعمون ان المغني الروسي الشهير شليابين Chaliapine كان يحضر هذه الاجتماعات مع لينين ، وأنه كان يغني في نهاية كل اجتماع ، وانه جاء وقت اصبح يستحيل فيه الغناء في كابري ، لأن الشرطة المحلية كانت تشتبه في قيام المغنين بنشاط هدام[2] .

ومنذ سنوات قليلة ، في لندن ، كان مكتبي عجوز شبه أصم يتذكر لينين : « لقد كان يحضر للعمل في هذه الزاوية . كان سيداً هادئاً تماماً ، يطلب

---

(١) من هنا كثير من الصعوبات يواجهها المترجون لبعض النصوص كالدفاتر الفلسفية ، حيث تمتزج الجمل والاقتباسات بالروسية والالمانية والفرنسية والانكليزية واللاتينية واليونانية !

(٢) توجد واقعة تاريخية حقيقية وراء نشوء هذه الاسطورة . فقد كان يتحلق حول جوركي Gorki ،الذي أقام مدة طويلة في الجزيرة الايطالية ، جماعة من الاشتراكيين الديموقراطيين المثاليين ، يطلق عليهم « اوتزوفيين Otzovistes » ، بناة الرب ، كان ينضم اليها بعض البلاشفة .

وكان لينين ، الذي احتفظ بمراسلات وديةمع جوركي ، يحارب ، مع ذلك ،بقسوة الاتجاه الصوفي لدى بناة الرب . وفي عام ١٩٠٩ طلب الى اعضاء هذه الجماعة الحضور الى باريس للمداولة معه .

كومة من الكتب ، ثم لا يعود يتحرك حتى ساعة الاغلاق . ويقال أنه إثار دويا كبيراً منذ ذاك الحين » .

وفي باريس نفسها ، يتذكر لينين لا سياسيون مثل مارسيل كاشان Marcel cachin وحسب ، بل وكتاب . وهكذا فان الشاعر الشهير تريستان تزارا Tristan Tzara يتذكر أنه التقى بلينين في سويسرة ، عام ١٩١٧ (فيما كان لينين يجمع قوى الثورة الروسية ، وحين كان الشاعر الشاب يتأهب لعرض شكل شعري جديد عن التطرف ، عن النفي الفوضوي للثقافة البورجوازية ، عن الدادائية ، ويرجح أن لينين ما كان ليقره !) . ولعب الشاعر الهدام الشطرنج مع رجل الدولة الثوري وتغلب عليه . ويضيف تريستان تزارا مازحاً : « غير ان لينين لم يكن آنذاك لينين .. » .

تتفق جميع الشهادات وتصوره « شخصاً هادئاً » ، « عاديا » جداً في الظاهر ، مسيطراً على نفسه تماماً ، بسيطاً ، متواضعاً كلياً ، مرتديا لباساً بسيطاً ، يحب حياة الدأب والهدوء ، والكتب ... والصيد بالصنارة .

هذا الثوري لم يكون لنفسه شخصية ، او وضعاً ، او زركشة ثورية على غرار بيرون او غاريبالدي ، او « الفوضويين » الروس القدماء (الشعبيين ، المثقفين « اصدقاء الشعب » منحنين عليه لإنهاضه ، واعضاء في منظمات سرية ارهابية) كما نعرفهم من خلال الروائيين . فأسلوبه يختلف جذرياً عن اسلوب رجال القرن التاسع عشر .

وحتى لو قارناه بماركس (الذي كان لزواجه بـ جيني فون وستفالين Jenny von westphalén جانب عاطفي ورومانتيكي مؤثر جداً) فان حياة لينين « الخاصة » ترجع الى لاشيء تقريباً . فقد اصبحت مساعدته كروبسكايا kroupskaia رفيقة حياته ، وتبعته في المنفى ، وعاشت معه منذ ١٨٩٤ حتى موته .

ومع ذلك فلو اننا وصفنا لينين الثوري كشخص يلبس السترة والعمرة ، يزدان وجهه بشارب صغير ولحية قصيرة ، وله رأس مغولي بعض الشيء وعينان مقطبتان ، وهو يخفي وراء جبهته العريضة قنبلة الفكر الثوري ليقذف بها في حينها على العالم ، لكنا قدمنا عنه صورة جد تافهة .

لقد كنا نقول ان الشهود والمؤرخين استطاعوا اعادة تكوين نشاط لينين يوماً بيوم ، ساعة بساعة تقريباً ، في الفترات الهامة على الاقل .

وفيما يلي ، تبعاً للتاريخ الرسمي للثورة الروسية ، كيف قضى صيف ١٩١٧ ، والرواية فيها حيوية فيلم مغامرات . وسنورد هنا هذه الصفحات على سبيل التوضيح . ومن ثم نتناول ، من بدايتها ، قصة حياة لينين [1] .

« كان خريف عام ١٩١٧ يشارف على النهاية . في الخنادق كان الوحل ، والرطوبة . ملايين من الجنود ، في الجبهة ، يلعنون الحكومة الموقتة ، يتساءلون وقلوبهم منقبضة قلقاً : هل سيبقون حقاً شتاء رابعاً ؟ كانت السماء في الريف تنار ليلاً بضوء الحرائق . كان الجرس يقرع منذراً . واذ ان الفلاحين العاملين لم يعودوا يأملون في ان يتسلموا الارض من يد الحكومة الموقتة البورجوازية ، فقد راحوا يشعلون النار في اراضي النبلاء ، ويستولون على اراضي الاقطاعيين ، ويقتسمون الماشية . وفي المدن كانت الاضرابات العمالية تتعاقب ، وتتسع كموجات المد الصاعد . ان ثورة كانت تقترب ، تنبأ بها لينين اذ كان ينتظرها ويهيء لها .

وبعد اطلاق النار على مظاهرة تموز (يوليو) ١٩١٧ انتقل لينين ، الى العمل السري ، اذ كانت قوى مناهضة الثورة تطارده عن كثب وفي الايام

---

(١) تاريخ الحرب الاهلية في الاتحاد السوفياتي ، الجزء الثاني ، دعوة لينين الى التمرد ، صفحات ٩ - ١٦ ، منشورات اللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٦

الاولى اختبأ في بتروغراد في مسكن متواضع لبلشفي عجوز ، س . اليلويف S. Allilouev ، في الشارع ١٠ من روجد ستفنسكايا رقم ١٧ أ وكان رئيس الحزب البلشفي يشغل في الطابق الرابع حجرة صغيرة ذات نافذة وحيدة .

كانت الحكومة الموقتة قد وعدت بمنح مكافأة لمن يلقي القبض على لينين . وكان المخبرون يرمون شباكهم حول جميع المناضلين المعروفين الذين كانوا يؤمنون الاتصال بفلاديمير ايليتش Vladimir Ilitch ، وكان من السهل أن يتعقبوا أثره . وفي ١١ تموز (يوليو) انتقل لينين الى خارج المدينة في قرية صغيرة تقع بجوار سستروتسك Sestroretsk .

واستقر لينين في رازليف Raziiv الى جوار المحطة كان يوجد بيت صغير فيه حظيرة تعلوها شونة لتخزين العلف . كان هناك سلم يؤدي اليها . وقد وضع في الشونة طاولة وكرسيان هنا اختار لينين مقره . إلا ان الخطر كان ماثلا حتى خارج المدينة . فحواليها كان يحوم مصطافون وموظفون وضباط ، يبثون بكثرة شائعات عن هرب لينين المزعوم الى المانيا وعند ذاك آثر فلاديمير ايليتش أن يختبيء في مكان أكثر أمانا ، في الغابة . فوراء المحطة ، على شاطيء بحيرة صغيرة ، كان يمتد مرج . كان المكان مقفرا ومنزويا ، والمصطافون نادرين . ولم يكن يسكن في الجوار الا حصادون . وعلى هيئة حاصد ، مزودا ببطاقة هوية باسم قسطنطين بتروفيتش ايفانوف ، جاء لينين الى هنا . وفي بقعة جرداء ، في جوف مطحنة للعلف ، هيأ اقرب رفاق لينين في السلاح نوعاً من الكوخ الصغير لاقامة زعيمهم . والى هذا المكان كانوا يأتونه بالصحف والرسائل . كان لينين محتجباً وراء شجرة برية ، قريباً من نار وقودها الحطب ، يغلي عليها قليل من الشاي ، يكتب مقالاته ؛ التي ترسل بانتظام الى بتروغراد . واحيانا ، عند المساء، كان يُسمع ضجيج المجاديف انهم ممثلو اللجنة المركزية يعبرون البحيرة قادمين للقاء لينين .

وذات يوم جاء سيرجو اوردجونيكدزي Sergo Ordjonikidzi الى لينين لتلقي توجيهاته . عبر البحيرة، واجتاز الزيزفون الكثيف وخرج الى مكان مضيء. فظهر شخص متوسط القامة من وراء مطحنة العلف وحيا اوردجونيكدزي وبينما كان هذا يحاول متابعة طريقه ، ربت المجهول على كتفه :

ـ حسنا ، ايها الرفيق سيرجو ، ألا تعرفني ؟

لقد كان لينين ، دون لحية او شوارب ، لايمكن التعرف اليه .

بقي سيرجو عدة ساعات في كوخ لينين ، واطلعه بتفصيل على نشاط اللجنة المركزية .

ارسل فلاديمير ايليتش مع اوردجونيكدزي تعليمات عما ينبغي عمله ومن أعماق عزلته وجه لينين باستمرار اعمال المؤتمر السادس للحزب البلشفي .

ولكن هنا ايضاً ، في الغابة ، لم يعرف ايليتش طعم الراحة . فعملاء الحكومة كانوا يحومون في المناطق المجاورة ، يفتشون التجمعات العمالية . وفي احدى الليالي استيقظ لينين على صوت اطـــلاق نار عن قرب . كانت الطلقات تتتابع ، مدوية . واستنتج لينين قائـــلا : « لقد افتضح امري » . فغادر الكوخ ، وولج الغابة . غير ان هذا الانذار كان خاطئاً . وقد عرف فيما بعد أن ضباطا طلابا حاصروا معمل سيستروريتسك ، منـــذرين العمال بالقاء سلاحهم .

وفي نهاية تموز (يوليو) قررت اللجنة المركزية للحزب سفر لينين الى فنلندة . وكلف اوردجو نيكدزي بتنظيم الرحلة . واستعان لهذا الغرض بمناضلين متمرسين في العمل السري .

وضعت خطة الرحلة . وكانت الرقابة المستمرة الموجهة الى لينين تجعل انتقاله صعبا . ففكر اولا في العبور الى فنلندة مشيا على الاقدام . فذهب أناس

للاستكشاف على طول الحدود . وحدث ان كانت الجوازات تراقب في كل مكان بدقة شديدة . فكان من الضروري التخلي عن الخطة الاصلية . تقرر عندئذ اجتياز الحدود على قاطرة من قطار الضواحي بمعونة هوغو جالافا Hugo Jalava ، العامـــل الميكانيكي في الخطوط الحديدية الفنلندية . وأبلغ لينين بهـــذه الخطة فأقرها .

كانت الخطة على النحو التالي : الوصول الى محطة رازليف Razliv ، ركوب القطار حتى محطة اودلنايا Oudelnaïa ، قرب بتروغراد . من هناك يسافر لينين ، باعتباره سائقاً ، في قاطرة ، هـــذه المرة ، على الخط الفنلندي غير أنه تقرر في اللحظة الأخيرة ، اختصاراً للمسافة ، الذهاب مشياً الى محطة ليفاشوفو Lévachovo ، التي تبعد اثني عشر كيلو متراً تقريباً . وكان ينبغي اجتياز الغابة فسلكوا على الطريقة الهندية درباً ضيقاً يكاد لا يرى .

كان الظلام مخيماً ،وإذ أن المسافرين كانوا يتوجهون بصعوبة في العتمة ، فقد ضلوا ، ووصلوا الى منطقة حريق في الغابة . كان التراب العضوي يلتهب ،ناشراً رائحة حريق خانقة . وتاه الرفاق طويلاً ، مهددين بالانزلاق الى التراب المشتعل . وبلغوا النهر بصعوبة كبيرة . وبعد ان خلعوا أحذيتهم ، اجتازوا النهر خوضاً ، يغمرهم الماء الجليدي حتى الركب وها هو صفير قاطرة يمزق الظلمات . كانت الساعة حوالي الواحدة صباحاً . وقريباً من المحطة كان يهرول طلاب ، وطلاب ضباط بسلاحهم . وكان ثمة فانوس وحيد ينير الرصيف بضوء باهت . وكان لينين قد انزوى اسفل الطريق . ويذهب الرفاق الذين يلازمونه للاستكشاف : فيقبض على أحدهم ، ثمة دورية طلبت اليه اوراقه وادخلته المحطة . وإذ أن الشبان المكلفين بحراسة المحطة ، وهم قليلو الخبرة ، قد لحقوا برفيقهم بجموعهم ،فقد خلا الرصيف من الناس . آنذاك وصل القطار وقفز لينين الى عربة المؤخرة ، وفي إثره قفز

الى القطار رفيقه اينو رهجا Eino Rahja ، وهو بلشفي فنلندي . وبعد فحص الأوراق ، أطلق الطلاب الضباط (اليونكرز) سراح أسيرهم .

وفي وقت متأخر من الليل وصل لينين ورفيقه الى محطة اودلنايا . كانت السماء مضاءة بشعلة بتروغراد الليلية المجاورة . فقضى المسافران ليلتهما لدى فنلندي من معارفهما . وفي اليوم التالي ، كانا في المحطة حسب الاتفاق . اقترب قطار فنلندة . كان يقود القاطرة الميكانيكي Jalava جالافا ، فقاد القطار بعيداً جداً عن المحطة وأوقفه قرب تقاطع السكة مع طريق ، فصعد لينين الى القاطرة،وأمسك بالرفش ممارساً مباشرة وظائفه كسائق .

في بيلواوستروف Béloostrov – محطة على الحدود – كانت مليشيا الحكومة الموقتة تنتظر القطار . ففتشت القطار ، عربة بعد اخرى ، فاحصة بعناية الاوراق ومتفحصة وجوه المسافرين . هاهم جواسيس الحكومة يقتربون كثيراً من القاطرة ، وبعد دقيقة سيقبض الجواسيس على لينين غير ان الميكانيكي جالافا لم يفقد رشده : ففصل القاطرة بسرعة معلناً انه يريد التزود بالمياه . وتنقضي الدقائق ، وانتظر الناس دقات الجرس الثانية . وتململ سائق القطار على الرصيف ، واضطرب وصفر لم تكن هناك قاطرة . ولم يعد جالافا القاطرة بسرعة الا بعد دقة الجرس الثالثة . وانطلق القطار مجتازاً حدود فنلندة . وهكذا استحال على جواسيس كرنسكي تفتيش القاطرة .

أمضى لينين بعض الوقت في قرية ياكولا Jakola الصغيرة ، التي تبعد اثني عشر كيلو متراً عن محطة تيريوكي Terijoki . ووجد لينين هنا صعوبة في المحافظة على الاتصال بمنظمات الحزب المركزية ، فكان ينبغي العثور على ملجأ في المدينة . ووجد سكنا اميناً في هلسنجفورس Helsingfors ، لدى رئيس

الميليشيا العمالية ، الذي يشغل بحكم وظيفته المعاون الأول لرئيس الشرطة في المدينة، وأصبح هو نفسه فيما بعد رئيساً لهذه الشرطة . من كان يمكن أن يشك في أن موظفاً حكومياً كبيراً كهذا يخبيء رئيس البلاشفة ؟

كان صاحب المسكن ينتظر لينين في الشارع . واقتربا معاً من المنزل . وبحذر سبر فلاديمير ايليتش الشارع ، ودخل بعد أن تثبت من أن أحداً لا يراقبه. واستعلم لينين قبل كل شيء عن كيف يمكنه تلقي الصحف . وطلب أن يؤتى له يومياً بكل صحف بتروغراد،وأن ينظم ارسال بريده المنتظم من هـذه المدينة . وانكب لينين على الصحف بكل نشاط ، وكان مضيفه قد تعب ونام .

وفي السكون المخيم على الغرفة كان ما يزال يسمع لمدة طويلة صريرريشة وخشخشة أوراق الصحف . كان الدفتر الموضوع أمام لينين يحمل هذا العنوان : **الدولة والثورة** . لقد كان فلاديمير ايليتش يكتب المؤلف الذي أصبح فيما بعد واحدة من أهم وثائق البلشفية .

ولد فلاديمير ايليتش اوليانوف (الذي حمل حوالي عـــام ١٩٠٠ الاسم المستعار لينين) في ١٠ نيسان (ابريل) ١٨٧٠ في سمبرسك Simbirsk ، المسماة اليوم اوليانوفسك Oulianovsk ، على نهر الفولجا [١].

كان والده استاذ رياضيات وفيزياء،ثم مفتشاً ومديراً للمدارس في مقاطعة سمبرسك ، نال القاب النبل خلال حياة جامعية طويلة ومجدة . ومات في مطـلع عام ١٨٨٦ . أما أمه ، ماري الكسندروفنا بلانك ، فابنـة طبيب ، على جانب

---

(١) استناداً الى وثائق ومنشورات معهد ماركس – انجلز – لينين في موسكو . وسنثبت في الحواشي أسماء مؤلفات لينين ، مع تاريخها ، ونضيف اليها خلاصة موجزة ؛ خصوصاً عندما يتعلق الامر بمقالات هامة لن تدرس فيما بعد ، وذلك تفـــاديا للتكرار عندما سنتناول مؤلفات لينين ذاتها ومظاهر الفكر اللينيني .

عظيم من الثقافة ،تتكلم عدة لغات ، موهوبة في الموسيقى ، ربت أولادها تربية ممتازة ، وقد أصبحوا على أية حال ، جميعاً ،ثوريين .

أتم لينين دراسة لامعة في ثانوية سمبر سك . وكان خلال عطلاته يجوب المقاطعات ، وبخاصة المقاطعات الفلاحية على الفولجا ، وكان في وسعه أن يلاحظ بؤس الفلاحين واضطهاد القيصرية للقوميات العديدة ، التتار والتشوفاش .. الخ . وفي الثانوية ايضاً كان اضطهاد الفكر سائداً ،تنظمه « وزارة التعتيم العام» كما سيقول لينين فيما بعد .

ومنذ بداية مراهقته قرأ لينين مؤلفـــات الكتاب « الممنوعين » : دوبروليوبوف Dobrolioubov ، وبيساريف Pissarev ، وبصورة خاصـــة تشرنيشفسكي ، الذي أثر فيه تأثيراً عميقاًفيروايته (ما العمل ؟) . وكان لأخيه الكسندر ايضـــاً أثر عظيم عليـــه . فقـــد كان يدرس في بطر سبورغ ، وجلب منها« رأس المال» (الجزء الأول) ، الذي قرأه لينين عام ١٨٨٥ ، وكان في الخامسة عشرة من عمره . وفي عام ١٨٨٧ اعتقل هذا الأخ الأكبر ، وكان عضواً في المنظمة الارهابية « للشعبيين » وأدين ، ونفذ حكم الاعدام فيه بتاريخ ٨ أيار (مايو) . وبهذه المناسبة تخلى كل المجتمع (الليبرالي) في المدينة عن اسرة اوليانوف ، وأدرك الشاب جبن وعجز « الثوريين » الليبراليين الديموقراطيين . فاصبح ، هو ايضاً ، ثوريا ، غير أنـــه لم يتبع خطى أخيه الأكبر في طريق الارهاب الفردي و « الحركة الشعبية » . فقد استشف منذ ذاك الحين طريقاً ووسائل سياسية أخرى .

وبعد أن تخرج فلاديمير ايليتش من الثانوية حاملا المدالية الذهبية كأحسن تلميذ ، انتسب الى كليـة حقوق قازان في ١٣ آب (اغسطس) ١٨٨٧ .

وإثر تطبيق « نظام جامعي جديد » اشد رجعية من النظم السابقة ، تحرك الشباب الجامعيون ، وأصبح لينين المقبل مباشرة مركز حلقة « هدامة » .

وفي ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٨٧ تظاهر طلاب قازان بعنف ، وفي الليلة التالية اعتقلت الشرطة الشاب اوليانوف .

قال له مفوض الشرطة الذي كان يستجوبه :

ـ إنكم تتمردون بينما ينتصب أمامكم سور

فاجاب فلاديمير ايليتش ، باستخفاف : ــ انه سور عفن ، دفعة بالاصبع تكفيه ، وها هو على الارض .

وفي ٥ كانون الاول (ديسمبر) ، طرد من الجامعة ، وبعد يومين أرسل الى الإقامة الجبرية في كوكوشينو Kokouchino . ولحقت به أخته ، حنه Anna التي سبق أن نفيت الى سبريا ، وصدر عفو عنها . ومنذ ذاك الحين لم تنفك الشرطة عن مراقبة لينين وعائلته ، فقد أصبحت اقل حركاتهم موضوع تقارير معللة ، احتفظ ببعضها في المحفوظات ، ويرجع اليوم اليها المؤرخون .

تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٨٨ : لينين ، وقد سمح له بالعودة الى قازان ، لا يستطيع العودة الى الجامعة ولا الحصول على جواز للسفر الى الخارج . فانصرف الى دراسة ماركس وانضم الى حلقة نظمها ن . فيدوسيف N. Fedossiev ، وهو شاب ماركسي لامع مات بعد قليل من ذاك الوقت في المنفى ، في سبريا . لم يكن لينين اذن الماركسي الأول ، بل أحد أوائل الماركسيين الروس . ففي ذاك الوقت كان أغلب المثقفين الروس مايزالون متأثرين بالحركة الشعبية ، ويتحمسون لأبطال الارهاب . وقد كتب لينين بهذا الشأن : «**لقد كان عليهم كي يتحرروا من اغراء هذا التقليد البطولي ، ان يناضلوا ضده ، ويخرجوا على أناس كانوا يكنون لهم اعظم التقدير**» .

وفي عام ١٨٨٩ يستقر فلاديمير ايليتش مع عائلته في سمارة Samara

وانضم الى حلقة شعبية ، تحدث فيهـــا وانتقد المؤلفين الشعبيين (بخاصة ميكايلوفسكي Mikailovski) ، وشرح كتاب ماركس المسمى « بؤس الفلسفة». ولم يلبث جزء كبير من الاعضاء ،وبصورةخاصة قادة هذه الحلقة، ان تبنوا وجهة نظره واصبحوا ماركسيين .

كان المذهب الشعبي» يقوم اساساً على الاشادة بالفلاح الروسي ، وبالثورة بواسطةالفلاحين ومن اجلهم، وبالاشتراكية عن طريق الشيوع الفلاحي (مير) ومن أجلها. فالنظرية الشعبية كانت تعزو اذن أصالة تامة لروسيا والمجتمع الروسي والثورة الروسية ، ومن هنا عدم توافقها مع الماركسية . في ذاك العهد ومن أجل توجيه نقد افضل للسوسيولوجيا الشعبية ، قام لينين بنفسه بما نسميه تحقيقـــات اجتماعية . فدرس، خلال خمسة فصول صيف متتابعة ، قرى المنطقة يساعده شعبيون انقلبوا الى ماركسيين ، وثبت فلاديمير ايليتش على بطاقات نتائج « تحقيق حسب المساكن » . وقد أكد هذا البحث نتائج دراساته النظرية ، وعنـد ذاك كتب مقاله الأول ، المخصص للمسألة الفلاحية [١] .

وفي عام ١٨٩٠ سمح له بتقديم امتحـان الحقوق في بطرسبورغ . وكان امام فلاديمير ايليتش سنة واحدة لاستيعاب برامج اربـع سنوات جامعية . وفي ذاك الصيف بنى لنفسه ، في قرية ألا كايفكا Alakaevka مكتب عمل من الاغصان والحشيش في آخر ممر من الزيزفون ، ولم يعد يخرج منه . واجتاز الامتحانات ،

---

(١) كتاب : الافعال الاقتصادية الجديدة في الحياة الفلاحية . كتب سنة ١٨٩٣ ولم ينشر ، وعثر عليه فيما بعد .

«ان النظريات المعروضة فيه تذهب الى ابعد بكثير مما قيل بشأنها في المقال . ان التمايز بين منتجنا الصغير يبدو لي حادثاً اساسياً يفسر رأسماليتنا في المدن ورأسماليتنا الكبرى . ان هذه الاخيرة تهدم اسطورة التشكل الخاص» . (المؤلفات الكاملة ، الجزء ٣٣ ، ص ١٥) .

فنال وحده ، دون سائر المتقدمين ، أعلى تقدير . رغم ان اخته الصغرى اولغا Olga ،التي كان يحبها كثيراً، ماتت فجأة ، وهو في غمرة دورة الامتحانات .

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٩٢ انتسب لينين الى نقابة المحاماة في سمارة واصبح محامي الضعفاء والفقراء والفلاحين. وكان أول زبائنه فلاحاً اتهم بالتجديف على « الله والعذراء والثالوث » لقوله إن القيصر لم يحسن تصريف الامور . .

وفي عام ١٨٩٣ وصل الى بطرسبورغ ، والتقى بحلقات ماركسية هامة تضم اعضاء من العمال ، ولكن دون رابطة فيما بينها وبين الحركات المطالبة بحقوق الطبقة العاملة . كانت هذه الحلقات تضيع نفسها في مناقشات مجردة ، « فأنعشها »[1] فلاديمير اوليانوف . كان يشرح «بأسلوب فاتن » النظريات الماركسية، ويربط بينها وبين الواقع الروسي والمصالح المتصارعة ، والاهداف السياسية. **«لقد كنا نلاحظ ماركسية حية »** (ذكريات زوجته ، ن. كروبسكايا ، ١٩٣٣ ، صفحة ١٢ من الطبعة الروسية) .

وقد استمر سكان موسكو يتذكرون مدة من الزمن سهرة غير مشروعة نظمها الشعبيون لمناسبة انعقاد مؤتمر للاطباء . فقد تحدث فلاديمير اوليانوف في جو من السكوت الجليدي . وفي ختام حديثه انتقل جميع الشبان الحاضرين من الحركة الشعبية الى الماركسية .

وبوضوح اكثر فاكثر ادرك فلاديمير ايليتش ، بشكل مشخص ،الوضع

---

(١) مقال حول « مسألة الاسواق » ، نشر فقط عام ١٩٣٧ . كان الشعبيون يؤكدون ان الرأسمالية ، بتدميرها الفلاحين ، تضيق السوق الوطنية . واذن فهي تدمر شروطها الخاصة للتنمية . وقد رد عليها لينين بنظريات ماركس الخاصة بتحول الاقتصاد الطبيعي الى اقتصاد تجاري، وتحول هذا الاخير الى رأسمالية صناعية ، كتسلسل لنمو الرأسمالية.

الاقتصادي والسياسي في روسيا[1] . ان الرأسمالية الصناعية ، أي البورجوازية ، تقوى بتهديمها الاقتصاد الفلاحي الطبيعي القديم ، وتنميتها ظروفها الموضوعية الخاصة ، الانتاج التجاري . ان البورجوازية تدعي انها ثورية ، الا انها لم تعد بورجوازية ١٧٨٩ . انها تريد السلطة ، ولكنها مستعدة للتحالف مع الرجعية ضد البروليتاريا . وهذه الأخيرة، وهي وحدها الثورية حقاً ، ستجد حلفاءها الحقيقيين لا في البورجوازية الليبرالية ، بل بين الفلاحين . ومع ذلك فان الفلاحين لا يستطيعون تحريك الثورة وتحقيقها وتحديد اهدافها السياسية ، كما ظن الشعبيون. ان الطبقة العاملة يجب ان تمسك مصيرها بيدها ، وتقود الثورة وتدفعها الى ابعد مايمكن، جارةً معها الفئات المتأخرة او المتبرجزة من الفلاحين . بذلك ينتقل **التحالف الثوري للعمال والفلاحين** الى موضوع اهتمام يومي . غير انه لا بد لتحقيقه وقيادته ، من حزب ماركسي يجمع العمال في قوة سياسية مستقلة لها هدفها الخاص : الاشتراكية . وعلى الاشتراكيين ، اعضاء الحلقات الماركسية (مثقفين او غير مثقفين) اذن ان يصرفوا كل انتباههم ونشاطهم الى الطبقة العاملة .

وسينذر لينين نفسه لهذه المهام العملية ، لهذا العمل التنظيمي الثوري ، دون ان يتخلى مع ذلك عن ابحاثه النظرية والاقتصادية و « الاجتماعية » والفلسفية . واصبح ماركسياً بتصميم متزايد ، أي مادياً ديالكتيكياً . وكتب آنذاك جملته المأثورة :

---

(١) كتاب «من هم اصدقاء الشعب» (١٨٩٤) قيل عنه انه بيان الحزب الماركسي الثوري في روسيا . ان الحركة الشعبية تتفسخ بالضرورة لانها تمثل - تحت ستار الثورية - مصالح الفلاحين الميسورين (الكولاك) ، الذين يسيطرون على الحياة الاقتصادية في هذه القرى التي يراد اعتبارها اطراً للاشتراكية القائمة على الشيوع .

« إن المادية تفترض موقفاً متحزباً ، لأنها تضطرنا ، من أجل تقييم كل حدث ، ان نضع انفسنا علناً وبوضوح من وجهة نظر جماعة اجتماعية معينة » .

اي – كما تبرهن بقية النص – تحليل مصالح هذه الجماعة واتجاهاتها بوصفها **قوة اجتماعية تحليلا موضوعياً** ، علميا .

وفي آخر ١٨٩٤ التقى كروبسكايا ، شابة جامعية ، ستصبح شريكته . واشترك آنذاك في اجتماعات عمالية ، وكتب منشورات اثناء الاضرابات ، وصاغ المطالب[1] ، واهتم بأبسط الوقائع واكثرها تكراراً في الحياة اليومية للعمال .

وفي ١٨٩٥ انعقد مؤتمر مندوبي الحلقات والجماعات الاشتراكيـــة – الديموقراطية . وفيه بدأ لينين المعركة ضد « الاقتصاديين » الصرف ، الذين كانوا يريدون قصر تطلعات الطبقة العمالية على المطالب المباشرة والاصلاحات الاقتصادية .

وقرر المؤتمر ارسال ممثل الى الخارج ، للاتصال بالجماعة الماركسية « تحرير العمل » ، التي تعمل في سويسرة . وفي ٢٥ نيسان (ابريل) ١٨٩٥ سافر لينين ، والتقى بليخانوف ، وسرعان ما اختلف معه منذ ذلك الحين حول نقاط كثيرة ، وبصورة خاصة حول المسألة الفلاحية . فقد كان بليخانوف يقدر فعلا ان الطبقة العاملة يجب ان تتخذ من الليبراليين الديمقراطيين البورجوازيين حلفاء سياسيين ، لا من الفلاحين .

---

(١) كراس : شرح قانون الغرامات المقتطعة في المعامل من اجور العمال ، وهو كراس يعلق – باسلوب ماركسي – على احكام قانونية .

لم يستطع لينين ان يلتقي انجلز ، الذي كان في ذاك الحين مريضاً جداً[١]، فأقام في برلين وباريس ، حيث درس الحركة العمالية . وفي ٧ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٥ عاد الى روسيا ، مأخوذاً ، **« حتى الالم الجسماني»** ، بالتناقض بين ضعف تنظيم الاشتراكيين والعمال الروس ، وجسامة مهامهم التاريخية .

وتوصل آنئذ الى دمج الحلقات الماركسية المناضلة في بطرسبورغ (حوالي العشرين) في « اتحاد نضالي » شديد الانضباط . وحقق هذا الاتحاد الاندماج بين الفكر الاشتراكي والحركة العمالية : انه نواة الحزب الماركسي الثوري . وسرعان مامد الاتحاد نفوذه وأعد اصدار صحيفة[٢] .

وفي ليلة ٨ الى ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٥ حطمت الشرطة مقر الاتحاد، واوقفت لينين، فقضى اربعة عشر شهراً في السجن ، حيث تمكن من ان يعمل[٣]. كان يكتب بالحليب ، بين سطور الكتب التى يسمح له بمطالعتها . وكان ، لئلا يفاجأ ، يصنع محابر صغيرة من لب الخبز ، ويبلعها عند اول شعور بالخطر . وكان يقول مازحاً : **« لقد أكلت اليوم ست محابر »** .

واذ حكم عليه بالنفي فقد استطاع ، قبل سفره ، ان يهاجم « النزعة الاقتصادية » التي تفسد من بقي في الاتحاد . « فالشبان » ،اذيعارضون «الشيوخ»

---

(١) مقال لينين المنشور بالفرنسية في مختارات : ماركس - انجلز - الماركسية المنشورات الاجتماعية ص ٤٩ ومايليها .

و«رسائل لينين الى عائلته» (الطبعة الروسية ، ١٩٣٤) تتضمن تفاصيل عديدة. وقد افرد كراس خاص عنوانه : لينين في باريس ، عن اقامة لينين في فرنسا .

(٢) ثلاث مقالات للينين : مقال عن انجلز ، وافتتاحية الى العمال الروس ومقال ناقد : ماذا يفكر وزراؤنا ؟

(٣) كتاب : مشروع برنامج للحزب الاشتراكي - الديموقراطي .

كانوا يتطلعون الى منظمة نقابية بحتة ، وقد أرادوا انشاء «صناديق عمالية» والتخلي عن النضال السياسي ، والتزام المشروعية الصارمة . فانتقدهم لينين بعنف .

وفي ٤ آذار (مارس) ١٨٩٧ وصل لينين الى سيبيريا، الى كرانويارسك Kranoïarsk أولا (حيث أعاره تاجر غني ليبرالي كتبا[١]) ، ثم قرية شوشنسكوي Chouchenskoie (ينيسي Ienisséi) . هنا أتم مؤلفه : « نمو الرأسمالية في روسيا » ، وهو يجوب الريف السيبيري ، دارسا شروط حياة الفلاحين ، يعينهم بمعلوماته القانونية ، ويصيد ، ويلعب الشطرنج او يتزحلق عند الاقتضاء .

واضافة الى مؤلفه الكبير كتب آنذاك اكثر من ثلاثين دراسة ومقالا ،[٢] لاسيما النشرة الهامة : « مهام الاشتراكيين ــ الديموقراطيين الروس » . وقد أعلن فيها حتمية الازمة الاقتصادية والسياسية ، وانهيار النظام الاستبدادي المطلق البوليسي[٣] .

وهو ، الى ذلك ، يقرأ هليفسيوس ، وهولباخ ، وكانت ، ثم ، بغضب كتابات التحريفيين (برنشتاين) ، و « الاقتصاديين » . ان تأثير هؤلاء الاخيرين

---

(١) مقال عن « الرومانتيكية الاقتصادية » يبين فيه كيف ان الشعبيين الذين يظنون انفسهم افذاذا ويقنعون انفسهم بطابع أصالة روسيا بالنسبة للغرب ، انما يكرورن اطروحات سيسموندي .

(٢) منها : لأي تراث نتنكر ؟ الرأسمالية في الاقتصاد الريفي . احتجاج الاشتراكيين ــ الديموقراطيين في روسيا، وغيرها .

(٣) « على الاشتراكيين ــ الديموقراطيين ان يعملوا بحيث تكون البروليتاريا الروسية ، عند الانهيار ، اكثر وعياً واتحاداً ، فاهمة مهامها ، وقادرة على توجيه ضربة الى طبقة الرأسماليين التي تجمع ارباحاً مفرطة ، قادرة على دخول المعركة الحاسمة ، على رأس الديموقراطية الروسية ، ضد الحكم الاستبدادي المطلق » (مهام الاشتراكيين الديموقراطيين ، السطور الاخيرة) .

الذين كتب ضدهم « احتجاجاً » قوياً منع المؤتمر التأسيسي في منسك Minsk (آذار – مارس – ١٨٩٨) من تأسيس حزب سياسي حقيقي .

وفي ذاك الوقت بدأ لينين ، بعد أن قرأ و كرر قراءة جميع مؤلفات ماركس وانجلز المنشورة ، بطرح قضايا جديدة ، ويستكشف وقائع جديدة ، وخصوصاً جدد : انه « منعطف » في التاريخ .

« اننا لا نعتبر نظرية ماركس كلاماً مكتملاً ، لا يتغير . اننا نعتقد، على العكس ، ان هذه النظرية قد ارست فقط الاحجار الأساسية للعلم ، علم ينبغي على الاشتراكيين ان يعمقوه في جميع الاتجاهات اذا ارادوا ألا تتجاوزهم الحياة . اننا نعتقد ، فيما يتعلق بالاشتراكيين الروس ، ان صياغة مستقلة لنظرية ماركس أمر بالغ الضرورة » (المؤلفات الكاملة ، الجزء الثاني ، صفحة ٤٩٢) .

وبالرغم من عدم وجود سبيل تاريخي منفصل لروسيا ، خارج الرأسمالية والثورة البروليتارية ، فان ثمة تجربة خاصة ، واعداداً نوعياً لنظرية وممارسة الحركة العمالية الدولية . غير أن هذا الاعداد الخاص يتضمن الرجوع الى أكثر نظريات ماركس ثورية . وبينما كان « الاقتصاديون » الانتهاريون ، التحريفيون ، يرفضون النظرية الماركسية في «الإفقار» ،فان لينين قد أعادها الى المقام الأول . اذ ينبغي أن نحدد موضوع أهداف صراع الطبقات : الحصول أولاً على الحرية السياسية (هدف ديموقرطي) ، ثم الاشتراكية (هدف بروليتاري صرف) .

وتشير نصوص عديدة في تلك الفترة الى ان لينين كان يرى تصاعد العهد الجديد العاصف المتقلب ،دون ان يحلله آنذاك كلياً وان يصفه علمياً ، هذا العهد الذي ستحتل فيه روسيا وطبقتها البروليتارية الثورية مركز الصدارة

ويكتشفان طريقهما الى الاشتراكية . لقد كان النمو « الهادىء » (نسبياً) للرأسمالية يبلغ نهايته ، كما بلغت نهايتها في الوقت ذاته اللحظة التاريخية التي تسيطر فيها البورجوازية - البرجوازية الثورية :

كان لينين يؤكد في الايسكرا (الجزء الخامس ، صفحة ٣٤٠، الطبعة الروسية) .

« ان عهد آخر الحركات الثورية البورجوازية ، وعهد رجعية جامحة وتوتر بالغ لجميع القوى عشية الثورة ، كانا باديين بجلاء »

إن مركز الثورة العالمية كان ينتقل نحو الشرق ، كما تحسس بذلك ماركس من قبل ، لا نحو روسيا وحسب ، بل الى أبعد من ذلك :

« ان التاريخ يوكل لنا مهمة فورية ، أشد المهام ثورية على الاطلاق ... ان تحطيم الحاجز الأقوى للرجعية الأوربية ، وللرجعية الآسيوية ، يجعل من البروليتاريا الروسية طليعة البروليتاريا الثورية الدولية. . . » .

١٩٠٠ ، ان فلاديميرايليتش ، الذي فقد القدرة على النوم حسب رواية كروبسكايا ، اذ كان يشكو من البطالة ،قد ترك منفاه وسرعان ما أعد صحيفة سياسية ،« صحيفة ايسكرا المقبلة » ، (الشرارة) .

الا أن الشرطة اعتقلته من جديد واعلن رئيس الاوخرانا Okhrana ، الكولونل زوباتوف Zoupatov ، في تقريره : « **ليس في الثورة من هو أعظم من اوليانوف ... فيجب فصل رأسه عن جسده**» . وكان لينين ،عند اعتقاله ، يحمل وثيقة بالغة الأهمية مكتوبة بالحبر السري على فاتورة . وأهملت الشرطة هذه الفاتورة . فأفرج عنه لعدم توافر الادلة . وفي ١٦ تموز (يوليو) ١٩٠٠ ، غادر روسيا .

ولم يكن اعداد الايسكرا (التي كان لينين يعدها عمل حياته) يمضي دون مصاعب . فخلافاته مع بليخانوف وسائر الماركسيين الروس كانت تتفاقم . وتشير ملاحظة كتبها لينين معلنة عن صدور الصحيفة (اكتوبر – تشرين الاول – ١٩٠٠) ، الى أن الايسكرا ستقود **« نضالاً لاهوادة فيه ضد التخبط الايديولوجي والطرق البسيطة في التنظيم ، ضد الاقتصاديين ، ضد البرنشتاينيين والتحريفيين . . . فقبل أن نتحد ، ومن أجل أن نتحد ، علينا اولا ان نحدد أنفسنا »** .

وظهر العدد الأول من الايسكرا في ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٠ .

وبدأت ازمة اقتصادية خطيرة تنتشر أصابت روسيا بعمق . فتعددت الاضرابات والمظاهرات والحركات الفلاحية . وبدأت ايسكرا ومقالات لينين تلعب دوراً هاماً . وفي أيار (مايو) ١٩٠١ ظهر ، في العدد الرابع من ايسكرا ، مقال : « من أين نبدأ » ، وتمهيد لكراس : « ما العمل ؟ » . وفيه يعالج لينين ويوسع ويعمق نظرياته عن ضرورة الحزب السياسي الماركسي ، القادر على أن يقود بصورة فعالة حركات الجماهير الشعبية والطبقة العاملة . ولم يكتف لينين بالنظرية ، بل أصبح ، ان صح التعبير ، مربي الثورة . فكان يكوّن أطر الحزب المقبل ، ويراسل جميع المناضلين الباقين في روسيا ، ويسيطر على المنظمة كلها . مما مكن ستالين أن يصرح فيما بعد أن لينين لم يكن مجرد قائد وحسب بل **« منشيء الحزب »** .

وفي تلك الفترة اتخذ فلاديمير ايليتش اوليانوف اسماً مستعاراً : لينين [1] .

واصبح عقد مؤتمر ثان لهذا الحزب الاشتراكي - الديموقراطي (الذي لم يكن

---

(١) وقع به على المقال المنشور ١٩٠١ في مجلة « Zaria عن (الاصلاح الزراعي وانتقادات ماركس) . مقالات اخرى ظهرت في تلك الفترة : برنامج الاشتراكية – الديموقراطية الروسية ، وهانيبالو الليبرالية ، موجهاً ضد البورجوازية الليبرالية .

موجوداً الا في تفكير لينين وعمله) أمراً لابد منـه . وانتشر مشروع برنامج وضعه بليخانوف، فوجه اليه لينين نقداً قاسياً . اذ قال إن برنامج بليخانوف ، من الناحية الاقتصادية ، لا يعدو ان يكون اشادة غير مباشرة بالرأسمالية ، وكتابا مبسطاً في دراسة نموها الاقتصادي يهمـــل الجانب الاجتماعي : خراب المنتجين الصغار وافتقار الجماهير ، ومن الناحية السياسية فان البرنامج يهمل الدور القيادي للطبقة العاملة في الثورة الديموقراطية ، وضرورة دكتاتورية البروليتاريا للانتقال الى الاشتراكية . ان البرنامج البليخانوفي « يذيب » الطبقة العاملة واهدافها الخاصة « في جماهير الشغيلة ».

وحين كان لينين يبرز النضال السياسي للطبقة العاملة ودكتاتوريتها إذ يهاجم التحالف غير المشروط مع الليبراليين ، الذي كان يخشى ان يمنحهم السلطة دون ان تحقق الثورة الديموقراطية خطوة الى الامام باتجاه الاشتراكية — كان يعود الى نظريات التحالف مع الفلاحين . كان يدرس المسائل الزراعية في العالم كله ، ويجمع وثائق ضخمة ، متتبعاً كل ماينشر [1] .

كان الانشقاق محتوماً ، بل ووشيكا في الاشتراكية — الديموقراطيـة الروسية . وعجل في موعده تأسيس الحزب « الاشتراكي ـ الثوري » (مطلع ١٩٠٢) الذي كان استمراراً للحركة الشعبية السابقة .

---

(١) بما في ذلك الاحصاءات الامريكية والالمانية والروسية.. وسواها المستخدمة في المقالات والبرنامج الزراعي . ثمة صراعان طبقيان في الريف في روسيا : احدهما صراع العمال الزراعيين ضد البورجوازية الريفية ، والآخر صراع جميع الفلاحين ضد مالكي الارض . وهذا هو الصراع الأهم في الوقت الراهن . ان على الفلاحين ان يقضوا على رواسب الاقطاع . ويجب المطالبة برد الاراضي التي احتكرها الاقطاعيون .غير ان هذا لايكفي : اذ يجب ايضاً تأميم الارض لتسليمها الى الفلاحين .

وبعد أن اقام لينين في مونيخ ثم في لندن ، غادر انجلترة في نيسان (ابريل) ١٩٠٣ ، متجهاً الى جنيف ، حيث كان يتجمع مندوبو المؤتمر الثاني للحزب العمالي الاشتراكي – الديموقراطي الروسي . افتتح المؤتمر في ١٧ تموز (يوليو) ١٩٠٣ في بروكسل ، وتدخلت الشرطة البلجيكية فانتقل المؤتمر الى لندن . وفيه تقابلت الآراء والنظريات المتعارضة . ووجد كثير من المندوبين ان « الجو ثقيل » . اما بالنسبة للينين فان هذه المناقشة المفتوحة ، والتي اتضحت من خلالها وتقابلت اتجاهات وسياسات ممكنة ، تمثل على العكس شيئاً آخر غير « المماحكة بين المثقفين » .

بيد ان المعركة السياسية قد احتدمت ، لاحول مسائل التحليل الاقتصادي او البرنامج السياسي ، بقدر مااحتدمت حول مسائل .. التنظيم . فبعضهم ، وهم الانتهازيون الملتفون حول مارتوف Martov كانو ايرون ان القبول ببرنامج الحزب ودفع الاشتراك يكفي لمنح صفة العضو للمنضم . اما الآخرون ، انصار « الشرارة » الذين يقودهم لينين ، فقد كانوا يطالبون بشرط اضافي : ان على عضو الحزب ان يناضل فعلياً في احدى منظمات الحزب او التي يديرها الحزب .

وحول هذه المسألة العملية انشق البلاشفه (انصار الاغلبية الذين تبعوا لينين) و « المنشفيك » (انصار الاقلية) . اما بليخانوف ، الذي ناصر في البداية انصار الشرارة ولينين ، فقد بدل موقفه فجأة . واذ كان يدير « الشرارة » فقد اضطر لينين ان ينسحب من لجنة التحرير . وهكذا حين انتصر « اتجاه الشرارة » في المؤتمر وتغلب على « المنشفية » فان الصحيفة التي صدرت اصبحت « شرارة » منشفيك . ونجم عن ذلك فوضى كبيرة وصعوبات جسيمة امام لينين ، ذلك ان « المنشفيك » ، وان كانوا اقلية كما يدل اسمهم ، اصبحوا المسيطرين ،

لا على « الشرارة » وحدها ، بل وعلى اللجنة المركزية . وكانت الاممية الثانية تؤيدهم .

وعند ذاك خاض لينين النضال ضد الاقلية باسم الاغلبية « البلشفيك ». فعقد مؤتمراً للمندوبين البلاشفة ، الذين عقدوا بدورهم في روسيا مؤتمرات اقليمية. وأكدت هذه المؤتمرات الاتجاه « البلشفي » ، وظهرت صحيفة Vpériod « الى الامام » (كانون الاول - ديسمبر - ١٩٠٤) . وكتب لينين : « تشجعوا ! لقد بُعثنا » .

في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥ انفجرت الثورة في روسيا ، وهي الثورة الاولى منذ كومونة باريس .

وقد كتب لينين في صحيفة « الى الامام » قبل بضعة ايام من اندلاع الثورة: « **ان استسلام بورت - ارتور هو فاتحة استسلام القيصرية** » . ومن جنيف كان يتتبع - بصعوبة - الاحداث الروسية ، عن طريق تتبع الصحافة الأوربية. وقرأ وكرر قراءة ماركس وانجلز والمقالات عن التمرد المسلح . وصرح ان كل يوم من ايام الثورة يعلم أكثر من سنوات من التطور ؛ « **إلا أن علينا أن نعرف كيف نعلم الثورة شيئاً ما** »[1] .

وفي نيسان (ابريل) ١٩٠٥ افتتح في لندن المؤتمر الثالث للحزب العمالي الاشتراكي- الديموقراطي الروسي ، وقدمهدت له سلسلة من المقالات كتبها لينين ، وسيطر عليه البلاشفة كليا . وأقر المؤتمر الخط اللينيني : التدخل الفعال للطبقة

(١) مقال « المهام الجديدة والقوى الجديدة » شباط - فبراير - ١٩٠٥ . الشعار « الاستراتيجي » للبروليتاريا في الثورة الديموقراطية البورجوازية التي يجب ان تقضي على القيصرية : دكتاتورية ديموقراطية ثورية للبروليتاريا والفلاحين . ويناشد لينين المناضلين الاشتراكيين - الديموقراطيين (البلاشفة) ان يبذلوا في هذا الاتجاه الحد الاعظم من المبادرات .

العاملة في الثورة الديموقراطية البورجوازية للحصول على نصرها الكامل واتساعها وتعميقها – تحويل الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة بروليتارية . (تلك هي نظرية « الثورة غير المتقطعة » والتي يجب تمييزها بعناية من « الثورة الدائمة » التي بدا فعلا في البداية انها تختلط بها) . أما المنشفيك فقد كانوا ، هم ، يريدون ان تساند البروليتاريا البورجوازية الليبرالية ، بمساعدتها على تنمية روسيا **اقتصاديا** ، الى أن يحين الوقت الذي تنمو فيه البروليتاريا كما ونوعا ، فتؤلف أغلبية السكان وتتولى ادارة الأمور ديموقراطيا .

وقد توضحت افكار لينين التي سبق أن عبر عنها في « ما العمل ؟ » في مقال « خطوة الى الأمام وخطوتان الى الوراء » ومقال « خطتان » (تكتيكان) « ايار – مايو – ١٩٠٤ وآب – اغسطس – ١٩٠٥ . وتوسع النقد الموجه الى المنشفية الروسية والاتجاه « الاقتصادي » ليشمل الاممية الثانية كلها . فهذه ، كما يقول لينين ، تربط الحركة العمالية بالحركة الليبرالية البورجوازية . والليبرالية التي اصبحت بالية بوصفها قوة سياسية ، تتجلى مجدداً في الانتهازية . أما البروليتاريا ، فعلى العكس ، ينبغي ان تلعب دوراً مسيطراً في الثورة الديموقراطية (البورجوازية) ذاتها ، حيثما لم تتحقق بعد ، كما هي الحال في روسيا . وينبغي ان تصبح البروليتاريا قائدة هذه الثورة ، ولو أنها ليست اشتراكية في جوهرها . وبدلاً من أن تسير في ركاب الديموقراطيين البورجوازيين ، فان عليها ان تساندهم بصورة فعالة ، وان تدفعهم الى الامام وتتجاوزهم وتعزلهم سياسياً بتحالفها مع الجماهير العريضة للفلاحين .

هذه النظرية يمكن ان تحمل اسم « لينينية » او « ماركسية – لينينية » لأنها تبدو نظرية جديدة على الفكر والسياسة الماركسية ، رغم اننا نجد لدى ماركس وانجلز عناصرها وبذورها وأسسها .

ولئن استطاعت الحركة الثورية الروسية احباط محاولات الالهاء والاصلاحات الظاهرية (دوما بوليغين Boulyguine او « الدوما الأول ») وتخطيها وتجاوزها فان الفضل في أكثر ذلك يعود الى عمل لينين . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٥ تأسست عفوياً اولى **السوفيتات** (مجالس مندوبين عن العمال والفلاحين والجنود) . وسرعان ما استشف لينين دورها المرتقب ، فكتب مقالاً (لم ينشر آنذاك ، وعثر عليه فيما بعد) يعرفها بأنها في آن واحد نواة حكومة ثورة ، وجهاز للتمرد ، ومركز للقيادة السياسية والدكتاتورية الثورية قادر على تحقيق برنامج الثورة **الديمقراطية البورجوازية** (الحرية السياسية العامة ، جمعية تأسيسية منتخبة بالاقتراع العام ، تسليح الشعب ، تحرير القوميات المضطهدة ، يوم العمل من ثماني ساعات للعمال ، الأرض للفلاحين) .

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٥ . استطاع لينين العودة الى روسيا . فتولى ادارة الصحيفة المشروعة Novoïajizn [(١)] ، وعقد في تامر سفورس Tammersfors (فنلندة) مؤتمر البلاشفة الاول . وقدم لينين تقريراً جامعاً عن الوضع السياسي وتقريراً عن المسألة الزراعية .

وفشل التمرد فاعلن المنشفيك ، مع بليخانوف ، انه : « **ما كان ينبغي القيام بالثورة** » . أما لينين ، فعلى العكس من ذلك ، ما انفك يعتبر ان الثورة المقهورة كانت تهيء الثورة المنتصرة ، وانها منها بمثابة « التجربة العامة » (راجع بصورة خاصة : رسائل من بعيد ، الجزء الأول، صفحة ٨٨٩ ومايليها) . وهاجم بعنف الكاديت (الدستوريين الديمقراطيين) ، الذين كان يعتبرهم أشبه

---

(١) مقالات : حول اعادة تنظيم الحزب . البروليتاريا وطبقة الفلاحين .

« بآكلي جيفة الثورة » ، مسؤولين جزئياً بسبب أوهامهم البرلمانية ومناوراتهم الانهزامية .

« ومنذ ذلك الحين ارتبطت الخلافات حول السوفيتات بمسألة الدكتاتورية » (المؤلفات الكاملة ، الجزء الخامس والعشرون ، صفحة ٤٣٣ والجزء التاسع ، صفحة ١١٦ - ١١٧) .

وقد رد الفشل الخلافات بين البلشفيك والمنشفيك الى المقام الثاني ، فضلاً عن ان المؤتمر البلشفي في تامر سفورس كان قد صوت على قرار بالوحدة. وفي نيسان (ابريل) ١٩٠٦ عقد في ستوكهولم مؤتمر للتوحيد . غير ان هذه الوحدة بقيت شكلية . فقد احتفظ المنشفيك ببرنامجهم الزراعي (تمليك الأرض للبلديات لا تأميمها . وهم ، بهذا المعنى ، كانوا امتداداً للحركة الشعبية ولافكار « الاشتراكيين - الثوريين ») . وكانوا بصورة خاصة مازالوا يغذون الأمل ويثقون في « الاصلاحات » الليبرالية التي منحتها القيصرية ، في دوما الدولة باعتباره اداة برلمانية للتعبير والتحرر ، اي اداة ديموقراطية ، وكان لابد من « الرجعية الستوليبينية » لتبديد هـــذه الاوهام . ولنلاحظ ان لينين وقف ، قبل انتخابات الدوما (المسمى الدوما الثاني) ، في آن واحد ضد المقاطعة وضد مساندة المرشحين الكاديت (انصار الدستور ووزارة مسؤولة امام الدوما) . وكان لينين ، مع تقويته الجهاز والنشاط غير الشرعيين للبلاشفة ، يقف مع استخدام المشروعية (اي مع المعركة الانتخابية) مع تقديم مرشحين اشتراكيين - ديمقراطيين ، ومع الكتلة الانتخابية ، لا مع البورجوازيين الليبراليين ، بل مع الديموقراطيين صغـــار البورجوازيين والفلاحين .

وفي المؤتمر الخامس للحزب العمالي الاشتراكي - الديموقراطي الروسي (لندن ، نيسان - ايار ، ابريل - مايو ١٩٠٧) تغلب الاتجاه البلشفي من جديد

على طول الخط ، وبذلك تحقق ماتنبأ به لينين . وبعد انحسار « الموجة الثورية » وفشل التمرد ، بعد عهد التنازلات والإصلاحات الظاهرية ، فرضت الحكومة القيصرية سيطرتها بشراسة . لقد بدأت الردة « السوداء » (الستوليبينية) فحُلّ الدوما وأوقف النواب الاشتراكيون ـ الديموقراطيون (انقلاب ٣ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٠٧) . وأعقب الهجوم والفشل عهد الانسحاب الدفاعي للثورة . وفي آب (اغسطس) ١٩٠٧ حضر لينين المؤتمر الاشتراكي الدولي المنعقد في شتوتغارت Stuttgart ، وأيد ، مع روزا لوكسمبورغ ، قراراً يؤكد ان على الاشتراكيين ألا يكتفوا بالنضال ضد اندلاع الحرب ، بل ان يحولوا الحرب الى ثورة . ثم عاد الى فنلندة ، ومنها الى الخارج بسبب ملاحقة الشرطة له . وكان عليه ان يسير على الجليد ليصل الى القارب الذي ينتظره ، فانهار الجليد تحت قدميه ، وكاد ان يهلك .

١٥ كانون الأول - ديسمبر - ١٩٠٧ استقر لينين في جنيف . وبدأ آنذاك أقسى فترة في حياته : القمع ، الرجعية ، القنوط العام ، الخلافات ، الخيانات ، ثم الحرب .

ولكن لينين وقف صامداً « **صلداً كالصخرة** » (لينين ، المؤلفات ، الجزء الثاني عشر ، صفحة ١٢٦) . كانت هذه الفترة الصعبة من أخصب فترات حياته . فمن كل جانب ، وحتى بين حاشيته ، كان النقد قائماً والهجوم يوجه الى المادية ، الى الماركسية . كل ذلك تحت ستار الدفاع عنها ، واكمالها ووضعها في مستوى الفكر والعلم « الحديثين » . ان ثمة ماركسيين وبلاشفة ، تنكروا للطريقة المادية ، واصبحوا مثاليين ، بله متصوفين (الباحثون عن الربّ) . واعلن هؤلاء المتصوفون ان « الإيمان بحقيقة العالم الخارجي » والديالكتيك هما في الواقع من

من التصوف . فرد لينين في نيسان (ابريل) ١٩٠٨ ، لمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة ماركس ، بالمقال الهام : « الماركسية والتحريفية — المؤلفات المختارة ، الجزء الأول ، صفحة ٧٣ وما يليها »، وبصورة خاصة بمؤلفه الفلسفي : «المادية والتجريبية النقدية» (الذي أنجز في تشرين الأول–اكتوبر–١٩٠٨ونشر في أيار – مايو –١٩٠٩). وقال هو إنه مر في مرحلة من « النشوة الفلسفية » ، (رسالة الى جوركي ، آذار - مارس - ١٩٠٨ . المؤلفات الكاملة ،الجزء الثاني عشر صفحة ١٨٩) . ومن ثم أخذ بمراجعة كشف ثورة ١٩٠٥ بدقة فوجده إيجابياً . وإنْ لم تخلُ من الأخطاء والأوهام والعيوب ،وبخاصة فان التحالف بين العمال والفلاحين لم يكن فعليا ، وقاد هؤلاء الاخيرون عملهم بصورة عفوية .

« بصورة مشتتة غير منظمة . ولم تستطع الطبقة العاملة ان تقوم بعمل حاسم . إلا انها استطاعت ، بالرغم من ذلك،ان تحتل مركز السيطرة في الحركة : لقد تخلصت من الليبرالية ، وتعلمت كيف تناضل ثورياً . ان الشعب الروسي لم يعد ما كان عليه قبل عام ١٩٠٥ ... ان البروليتاريا ستقوده الى النصر » .

وعاد لينين، بلا كلل ، الى المسألة الفلاحية :

« ان الخاصة القومية لثورتنا ، هي المسألة الزراعية [١] »

ويرى لينين ان الثورة الروسية ، رغم هذه الخاصة القومية ، قد اتخذت منذ ١٩٠٥ معنى دولياً ، وتاريخياً ، عالمياً ، معنى كان يرفض التسليم به باصرار قادة الاممية الاشتراكية . انها الثورة الأولى في العهد الجديد . وكان يؤكد بين

---

(١) مقالات متفرقة غير منشورة (باستثناء واحد منها) عثر عليها فيما بعد . والمؤلف الشامل عن المسألة والبرنامج الزراعي صادرته الشرطة في المطبعة واحرقت المخطوطة !

١٩٠٨ و ١٩١٢ ان المهام الموضوعية للثورة الروسية لم تتحقق بعـد . واذن فان القوى الاجتماعية العميقة ماتزال تعمل . ان ثورة جديدة يشرق فجرها ، ستجد البروليتاريا اكثرَ قوة ونضجا ، وكذلك الفلاحين [١] .

كان هذا هو موقف لينين النظري ، اذ كان يعد نفسه ويعد الطبقةالعاملة الروسية لمعارك جديدة، في الوقت الذي كان يقود فيه الانسحاب الاستراتيجي . وبعد ذلك بسنوات استطاع أن يلخص الوضع على النحو التالي :

« بين جميـع الاحزاب الثورية او احزاب المعارضة التي عانت الفشل، كان البلاشفة هم الذين انسحبوا بأفضل نظـام ، وبأدنى حد من الخسائر في جيشهم (المؤلفات الكاملة ، الجزء الخامس والعشرون ، صفحة ١٧٧) .

وغدت باريس مركز الهجرة السياسية الروسية . وبذلك قاد لينين من باريس النضال ضد جميـع « دعاة التصفية » [٢] . وامضى فيهـا سنوات عديدة يعيش حياة منظمة تمامـــا . فكان يذهب كل صباح من حديقة مون سوري Montsouris الى المكتبة الوطنية على دراجـة . وذهب ذات يوم الى جوفيزي Juvisy ليشهد طيران احدى اولى الطائرات ، وفي طريق عودته صدمته سيارة ، ولم يتوفر له الوقت الا ليقفز ، بعد ان سحقت دراجته . وفي عـام ١٩١١ نظم مدرسة ماركسية في لونجومو Longjumeau شرح فيها بصورة خاصة المسألةالريفية.

---

(١) « الاصـــلاح الستوليبيني » : يستطيـع الفلاحون ان ينسحبوا من شيوع الارض (مير) . ويجب تسليمهم أرضاً موحدة otroub, Khoutorv . وانتهز الكولاك هذا « الاصلاح »، على نحو مافعل اصحاب الاقطاعات الواسعة ، بالاصلاحات» السابقة. فخسر مليون من صغار الفلاحين نصيبهم من الأرض لمصلحة الكولاك .

(٢) بما فيهم « الاوتزوفيون » ، التفاصيل في الكراسة التي سبق التنويه بهـا ، لينين في باريس .

وكان يحضر بانتظام اجتماعات مكتب الاممية الاشتراكية ، ويتابع مكافحة الانتهازية . وبقي على اتصال بروسيا عن طريق رسل، سيصبح بعضهم مثل اوردجو نيكدزي قادة .

وفي كانون الثاني (يناير)١٩١٢ عقد « مؤتمر براغ »، المؤتمر السادس للحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي الروسي. وفي تقرير لينين عن الوضع العام حلل فشل السياسة الستوليبينية واستئناف الحركة الثورية ، ودفع الى المقام الأول مسائل التنظيم : تكوين « خلايا » الحزب ، في روسيا ، بصورة غير مشروعة – محاطة بشبكة ، واسعة جهد الامكان ، من المنظمات المشروعة .

وبين تقرير لينين ايضاً ان الأممية الثانية واحزابها ستتفكك ، لأن الصراع يزداد حدة بين التيار الثوري والتيار الاصلاحي .

ويمكن تأريخ تأسيس الحزب البلشفي بمؤتمر براغ ، اذ حتى ذاك الحين لم تكن البلشفية ، التي يقودها لينين ، إلا اتجاهاً ، تياراً في الاشتراكية الدولية. وفي براغ أصبحت البلشفية حزبا . ورغم معارضة الاتجاهات الروسية الأخرى والأممية بأمرها تقريباً ، فقد تغلب لينين : لقد أنشأ « حزبا من نموذج جديد ».

في نيسان (ابريل) ١٩١٢ حدثت مجزرة قامت بها الشرطة والقوات القيصرية بين عمال لينا (مناجم ذهب في سبريا) . فأضرب مئات الألوف من البروليتاريين الروس وتظاهروا في الأول من أيار (مايو) . ومرة أخرى تحققت تنبؤات لينين . فغادر باريس متجهاً الى كراكوفيا Cracovie ، ومنها أدار بيسر اكثر البرافدا Pravda التي أسست بصوره مشروعة في نيسان(ابريل) ١٩١٢ . وتوصل الى ان ينشر فيها مقالات « مشروعة » ، إلا أنها حازمة جداً .

« ان الطبقة العاملة لاتفنى ، بل تكبر وتصبح أكثر قوة وأشد بأساً.

انها ترص صفوفها ، تتعلم وتنصقل في المعركة . اننـا متشائمون فيما يتعلق بالقنانة والرأسمالية والملكية الصغيرة ، الا اننـا شديدو التفاؤل فيما يتعلق بمستقبل الحركة العمالية » (الجزء السادس عشر ، صفحة ٤٩٨) .

ان فترة « النهضة الثورية » ، وانتخابات الدوما الرابع ، اقتضت اجتماع المناضلين البلاشفة . وتم ذلك في كراكوفيا في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ . وقدم لينين ما أسماه « الأسس الثلاثة » للعمل ، وهي الشعارات الثلاثة الأساسية في ذاك الوقت : جمهورية ديموقراطية مع حرية سياسية كاملة — مصادرة أراضي المالكين العقاريين — يوم العمل من ثماني ساعات .

ونجح المؤتمر نجاحاً تاماً . إلا أن القادة الرئيسيين (ستالين ، سفيردلوف Sverdlov) اعتقلوا اثنـاء عودتهم الى روسيا . ولكن هذه الضربة القاسية لم تمنع لينين من الاستمرار في عمله . فأعد بصورة خاصة مشروع قانون عن القوميات في الامبراطورية القيصرية ، وخطة خطاب حول المسألة الزراعية ، وسلمها الى النواب البلاشفة الستة في الدوما ، الذين جاؤا لزيارته . وذكرهم بالحاح ان الدوما ليس بالنسبة لهم الا منبرا ، وانـه لايجوز الاعتماد على المؤسسات الديموقراطية الكاذبة للحصول على شيء جوهري أيا كان . وفي ذاك الوقت انتقلت المسألة القومية الى المقام الاول ، بسبب طغيان التيار القومي الشوفيني المتطرف في اوربا ، وبخاصة التيار القومي لروسيا — الكبرى في الامبراطورية القيصرية ، وكذلك بسبب انكار الجناح اليساري في الأممية الثانية (روزا لوكسمبورغ) للمسألة القومية ، وترويج الجناح اليميني « لحلول » رفضها لينين : (« كالاستقلال الذاتي الوطني الثقافي »)[1] . ونشر ستالين آنذاك دراسة عن الماركسية والمسألة القومية

---

(١) مقالان : ملاحظات نقدية حول المسألة القومية (١٩١٣) وحول حق الشعوب في تقرير مصيرها (شباط — فبراير) ١٩١٤ .

أقرها لينين (المؤلفات الكاملة ، الجزء السادس عشر ، صفحة ٣٢٨) .

وفي نيسان (ابريل) ١٩١٤ زجت الشرطة النمساوية لينين في السجن في نوفي ـ تارج Nowy - Targ (غاليسيا)،واطلقت سراحه حين كانت الاوخرانا، التي كانت تتبع الجيش القيصري الزاحف في غاليسيا، تستهدف اعتقاله. فانتقل الى سويسرة واقام في زوريخ . وفي ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ انعقد ، في غابة قرب برن ، الاجتماع الاول (غير المشروع) للبلاشفة اثناء الحرب . وأقر الاجتماع « النظريات حول الحرب » . وقد استبعد لينين الايديولوجيات والتعقيدات القانونية والمناورات الدبلوماسية التي سبقت الحرب وأعدت لها مع تغطية هذا الاعداد ، وحدد خصائصها الموضوعية. وقد استخدم نظريات كلوزويتز Clausewitz الشهيرة: ليست الحرب الا امتداداً ، بوسائل اخرى ، لسياسة السلام . والبلاد المتحاربة هي قوى امبريالية . ومنذ فترة السلم كانت سياسات التوسع الامبريالي تصطدم ببعضها. فالحرب تتصف اذن بكونها حرباً أمبريالية ، حرباً بين امبرياليات، بين بورجوازيات امبريالية . وانهارت الاممية الثانية لأن الانتهازية والبرلمانية نخرتا فيها. ان على الحركة العمالية ، بدلا من ان تتبع البورجوازية في سياستها ، ان تنتصب في وجهها ، وتناضل في آن واحد ضد القومية البورجوازية وخيانة الاشتراكيين ـ الديموقراطيين . وعلى الطبقة العاملة الروسية ، بصورة خاصة ، ان تتمنى هزيمة القيصرية عام ١٩١٤ كما في عام ١٩٠٥ ، وان تحول على أية حال الحرب الامبريالية الى حرب ضد الاقطاعية والبورجوازية الروسية الكبيرة . وقد طرح لينين اذن شعار : « تحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية »[1] ضد شعار : « الدفاع عن الوطن (البورجوازي) » .

---

(١) نظريات حول الحرب . بيان: الحرب والاشتراكية – الديموقراطية الروسية. راجع الجزء الثامن عشر ، ص ٦٦ . سلسلة مقالات (ضد التيار) .

وفي سويسرة جمع لينين حوله بعض المنفيين . وفي الواقـــع كان شبه معزول ، مقطوع عن روسيا ، حيث دمرت جميع المنظمات البلشفية ، والمناضلون اما سجناء او منفيون . يعوزهم المـال . ففي نهاية ١٩١٤ كان في صندوق الحزب ، لنشر صحيفة (غير مشروعة حتى في سويسرة) ١٦٠ فرنـكا . ووجد لينين نفسه مهدداً بالجوع . أسوأ من ذلك : كان يتوقع الطرد « بسبب انتهاكه الحياد » ، ويتوقع تسليمه الى السلطات الفرنسية والروسية . وبالرغم من ذلك ظهرت في اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ صحيفة « الاشتراكي - الديمقراطي » واعقبتها في عام ١٩١٥ مجلة « الشيوعي » .

« لقد اصبـح عملنا السياسي اشق مائة مرة مما كان عليه ، الا اننا سنتابعه بالرغم من ذلك » .

وفعلا أعيد تكوين مكتب (غـــير مشروع) للحزب الشيوعي في بطرسبورغ ، توصل الى اقامة مراسلات متصلة مع لينين ، وانعقد مؤتمر (غير مشروع) في برن في شباط (فبراير) ١٩١٥ . وفكر لينين منذ ذاك الحين في تأسيس أممية (الأممية الثالثة) . ورغم العقبات العديدة ، نجح في دعوة مؤتمر اشتراكي ايطالي - روسي في ليغانو Lugano (في ايلول - سبتمبر - ١٩١٤) ، ثم مؤتمراً للنساء الاشتراكيات (اذار - مارس - ١٩١٥) ، كما نجح في التحدث في مؤتمر الاحزاب الاشتراكية لدول الاتفاق الودي (شباط - فبراير - ١٩١٥) ، وأثارت هذه الاحاديث نقمة عنيفة .

« هذا هو قدري ، معركة نضال بعد اخرى ، ضد الحماقة والاسفاف السياسي ! كل هذا منذ ١٨٩٣ .. ولن أغير هذا القدر من اجل « سلم » مع هذه الشخصيات التافهة » . (رسالة الى اينيس ارمان Inés Armand **، كانون الاول - ديسمبر - ١٩١٦) .**

واخيرا ، في ٢٣ آب ـ اغسطس ١٩١٥ انعقد في سويسرة مؤتمر سميرفالد Zimmerwaid المشهور ، الذي ضم اقليات « اليسار » لجميع الاحزاب الاشتراكية الاوربية . وشهد المؤتمر بدوره صداما بين يمين ، ويسار بقيادة لينين . وحدد « اليسار في سميرفالد » مواقعه في اعلان ، « الحرب العالمية ومهام الاشتراكية ـ الديموقراطية » ، وفي مشروع بيان أكد فيه لينين .. « اننا نعد بالآحاد ، وستصبح عماقريب ملايين » .

وفي كل هذه الفترة ، ورغم العقبات العديدة ، واصل لينين عمله النظري والفلسفي .[1] فبين بداية الحرب وحزيران (يونيو) ١٩١٦ أعد كتابه « الامبريالية ، أعلى مراحل الرأسمالية » (لم ينشر الا عام ١٩١٧) . وأخذ يتضح لديه اكثر فاكثر امكانية الثورة البروليتارية في بلد واحد ، امكانية بناء الاشتراكية في بلد واحد ، ليس هو بالضرورة أكثر البلاد تقدما ...

وفي مؤتمر سميرفالد الثاني ، المسمى مؤتمر كينتال (اسم البيت الريفي الذي عقد فيه في ايار ـ مايو ـ ١٩١٦) قوي نفوذ اليسار اللينيني . وكان لينين يرى ان الانشقاق الذي يفصل الانتهازيين و « الاشتراكيين ـ الشوفينيين » عن الحركة الثورية قد اصبح مفروضا . « **ان كل من يتردد حول هذه النقطة انما هو عدو للبروليتاريا** » . (اذار ـ مارس ـ ١٩١٦ ، الجزء التاسع العشرون صفحة ٢٢٣) . وخاض آنذاك الصراع ضد النزعة السلمية لدى بعض رجال « اليسار » ، ضد شعارهم بنزع السلاح الشامل ، الفوري الكامل . وطرح ضدهم التمييز بين

---

(١) مقال في موسوعة جرانات granat عن كارل ماكس . الدفاتر الفلسفية ، دفاتر عن كلوزويتز . معطيات جديدة عن قوانين نمو الرأسمالية في الزراعة ، وهو مؤلف لم ينجز ، طبع منه القسم المخصص للولايات المتحدة الامريكية عام ١٩١٧ ، ٢٠ دفتر ملاحظات عن الامبريالية . مقال عن « الولايات المتحدة الاوربية » وسوى ذلك .

الحروب العادلة وغير العادلة ، بين الحروب الامبريالية وحروب التحرير . فانصار السلم الكلي ، الذين يظنون انفسهم ثوريين ، ماهم الاطوباويون . إنهم يأملون في الغاء الحرب في النظام الرأسمالي ، تحت سيطرة الامبرياليين . إنهم بذلك إنما ينزعون ، معنويا وعمليا ، سلاح البروليتاريين .

« ان طبقة مضطهَدة لا تسعى لتعلم استعمال السلاح ، وحيازته ، ان مثل هذه الطبقة تستحق الاستعباد». ان الطبقة الحاكمة تتسلح دوماً. **«إن شعارنا هو : تسليح البروليتاريا ، بقصد التغلب على البورجوازية ومصادرتها ونزع سلاحها »** (الجزء الاول . صفحة ٨٩٩ ومابعدها) .

وفي الوقت الذي هاجم فيه النزعة الى السلام والاوهام الليبرالية فانه هاجم ايضا اولائك الذين يتخلون عن الشعارات والمطالب **الديمقراطية** : الجمهورية، الحرية السياسية ، حق الامم في تقرير مصيرها . اذ مادام سكان الكرة الارضية ينقسمون الى جزئين متفاوتين - بعض الامم المضطهِدة ، وكتلة من الشعوب المضطهَدة ، كيف يمكن اهمال المسألة القومية ؟

كان ماركس وانجلز قد اعلنا بصورة قاطعة : **«ان شعبا يضطهد شعوبا اخرى لايمكن ان يكون حرا »** .

وعلى هذا النحو واصل لينين ، بأسلوب جديد ، النضال الذي ماانفك يخوضه على جبهتين او عدة جبهات .

ومع ذلك فقد افلس « سميرفالد » . اذ انضم يمين سميرفالد الى « الاشتراكية - الشوفينية » (راجع عن « افلاس » سميرفالد ، المؤلفات الكاملة ، الجزء التاسع عشر ، صفحة ٤٠١ - ٤٠٢) . واذ أن لينين اصبح شبه منعزل من جديد ، فقد ضاعف هجماته .

« **اني اعلم بكل تأكيد ان مسألة برنامج وتكتيك لاشتراكية جديدة ، لماركسية ثورية حقا ، لا ماركسية كاوتسكي القذر ، موجودة في كل مكان على جدول الاعمال** » .

وفي ١٩١٦ ، كما في ١٩١٤ ، كان لينين هو الوحيد ، في الظاهر ، الذي اعتقد ان المستقبل له ، أعني للماركسية الثورية . وفي ١٩١٤ خدمت موجة الشوفينية والاشتراكية ـ الشوفينية الحكومات الامبريالية . ففي عام ١٩١٦ كانت قوى المتحاربين قد أنهكت ، وتصاعد التذمر . فكانت « الاشتراكية ـ السلمية » ماتزال تخدم الحكومات نفسها ، لتهدئة الشعوب ، وخداعها بالامل في سلم « عادل » يضع نهاية « لآخر الحروب » ، وهو ليس في حقيقته الا اتفاقا موقتا بين القوى الامبريالية .

وحين التقى فعلا هذان التياران من الحركة الاشتراكية الاوربية ، عاود لينين الاهتمام بمسألة الدولة ودكتاتورية البروليتاريا . فاعاد قراءة وتسجيل كل ما كتبه ماركس وانجلز عن الدولة ، وهذه الملاحظات توجد في « دفتر ازرق الجلد » يعود تاريخه الى الفترة ذاتها التي وضع فيها دفاتر كثيرة بملاحظات اخرى سبقت الاشارة اليها ، كما وضع فيها الخطوط الاساسية « للدولة والثورة » .

ولم ينفك يكرر ان الحرب تعجل الثورة ، وان دكتاتورية البورجوازية الشديدة الوضوح اثناء الحرب (اذ انضمت عناصر « الليبراليين » و« الاشتراكيين » في « اتحاد مقدس » مـــع أكثر العناصر رجعية) جعلت من دكتاتورية البروليتاريا ضرورة اكثر من أي وقت مضى .

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ تحدث لينين الى الشبيبـة العمالية في زوريخ ، فقال : « **ان سكون الموت الذي يخيم حالياً في اوربا لا يمكن ان يخدعنا ، ان اوربا تتمخض عن ثورة** » . (الجزء التاسع عشر ، صفحة ٣٥٧) .

وفي « رسائل من بعيد » و « نظريات آذار ـمارس ـ» أخذ لينين يحلل احداث روسيا . فانتقد بعنف بالغ الحكومة « الثورية » الموقتة ، التي وصفها بأنها حكومة بورجوازية ، امبريالية في جوهرها ، ترغب في مواصلة الحرب الى نهايتها اذ عجزت القيصرية عن مواصلتها . واعتبر (كما في ١٩٠٥) السوفييتات التي تألفت بصورة عفوية « **نواة حكومة عمالية**» . وعرض مرة أخرى فكرة الثورة غير المتقطعة : ثورة ديموقراطية تندفع الى ابعد ما يمكن ، ثم تحويل الثورة الديموقراطية (البورجوازية) الى ثورة اشتراكية .

« ان استقلال حزبنا وسيادته الذاتية هما النذيران » .

وحدد لينين ، في « رسالة الى العمال السويسريين » الأهداف الأولى (الديمقراطية) لعمل البلاشفة : السلم الفوري ـ تحرير الشعوب المضطهدة .

« بذلك يصبح تحول الحرب الامبريالية الى حرب اهلية امراً واقعاً .عاشت الثورة البروليتارية في اوربا » . (المؤلفات الكاملة ، الجزء العشرون ، صفحة ٧٠) .

نيسان (ابريل) ١٩١٧ . وفق لينين ، بعد مفاوضات شاقة، الى مغادرة سويسرة . وبالرغم من ان روسيا وحكومتها الموقتة، التي كان يشترك فيها الاشتراكيون - الديموقراطيون ، مايزالان حليفين للاتفاق الودي ، فان الحكومتين الفرنسية والانجليزية رفضتا السماح بمرور البلاشفة . آنذاك ، ووفقاً لتعاليمه التكتيكية ، استخدم لينين التناقضات القائمة بين الخصوم . ووافقت الحكومة الالمانية على المرور اذ ارادت ان تلعب لعبة ذكية وهي شديدة الغبطة باعادة عناصر « هدامة » الى روسيا . وقد تولى سويسريون اجراء المفاوضات ، وثبتت الشروط المتفق عليها في محضر خاص : عربة قطار مقفلة ، تتمتع بالحصانة الاقليمية خلال السفر ، اعادة عدد من الالمان المعتقلين في روسيا مساو عدد

المهاجرين الذين سمح لهم بالعبور . تلك هي قضية « العربة المقفلة » الشهيرة التي استخدمت كثيراً فيما بعد ضد البلشفية ولينين .

وفي المحطة (على خط فنلندة) كان جمهور ضخم يهتف للزعيم البلشفي ، ويحمله كقائد منتصر ، وكان الممثلون الرسميون للمنشفيك حاضرين ، اذ لم يستطيعوا التغيب : فالحكومة القائمة « ثورية » ، والديموقراطية الكاملة سائدة . واخذوا بالقاء خطب ترحيب ، فلم يصغ لينين اليهم ، وأبعدهم ، وخرج من المحطة ، وركب عربة مدرعة والقى خطابه الاول في روسيا التي تحررت من القيصرية « **تحويل الثورة البورجوازية الى ثورة اشتراكية** » . واجتاز المدينة في العربة المدرعة ، ليذهب الى مقر الحزب البلشفي . كانت المصابيح الكشافة تنير الطريق ، وعمال بتروغراد يقومون بدور « حرس الشرف » على طول مسيرة الموكب .

وفي اليوم التالي اجتمع مسؤولو الحزب في قصر توريد Tauride . فقدم لينين نظريات نيسان (ابريل) ، اذ قال إن الوضع السياسي يتميز بازدواج السلطة . فالى جانب الحكومة الموقتة توجد سلطة اخرى ، حكومة اخرى ، هي السوفييتات . وتمثل الاولى دكتاتورية البورجوازية ، اما السوفييتات فتمثل الدكتاتورية الديموقراطية للعمال والفلاحين (ولنلاحظ انها ليست دكتاتورية البروليتاريا) . هذا الازدواج في السلطة لا يمكن أن يستمر :

« ان الامر الفريد في الاوضاع الروسية الراهنة ، هو الانتقال من المرحلة الاولى للثورة ـ التي منحت السلطة للبورجوازية نتيجة عدم كفاية درجة الوعي والتنظيم لدى البروليتاريا ـ الى المرحلة الثانية منها التي تنقل السلطة الى البروليتاريا والفلاحين الفقراء » .

من هنا جاءت شعارات نظريات نيسان : الانتقال من سلطة الدولة الى السوفيتات ـ اقامة جمهورية **سوفياتية** .

هكذا اكتشف لينين في الوقائع ، (في « عفوية الجماهير ») ، بداية شكل سياسي فريد ، استخلصه ، وصاغ مفهومه ، واقترحه بعد الصياغة كبرنامج .

لقد سبق له ان وسع الماركسية بنظرية الثورة وبناء الاشتراكية في بلد واحد . وهاهو يضيف هنا « اكتشافاً » جديداً للماركسية السابقة . فالسوفيتات ، وهي شكل سياسي فريد ، ستحل في روسيا محل **الجمهورية البرلمانية** ، باعتبار انها شكل سياسي يتيح الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، شكل من الديموقراطية البروليتارية ومن دكتاتورية البروليتاريا .

ان نظريات نيسان (ابريل) ، (والتي يجب ان نلح عليها هنا لأنه لايمكن فهم سير الاحداث وحياة لينين بغير ذلك ، تؤكد ان الحرب التي تتابعها الحكومة الموقتة ماتزال **امبريالية** ، بسبب الصفة **البورجوازية** لهذه الحكومة . ولن تنقلب الى حرب ثورية الا اذا انتقلت سلطة الدولة الى البروليتاريا ، والا اذا كان الامر يتعلق بالدفاع عن المكتسبات الفعلية للثورة . ومن جهة اخرى فان السلطة البروليتارية تضع نصب عينيها قبل كل شيء إنهاء الحرب بسلم ديموقراطي . اذن « **فلا مساندة للحكومة الموقتة** » . غير انه ، في نيسان (ابريل) ١٩١٧ ، لم يكن الامر يتعلق باسقاطها . لماذا ؟ **لأن** السوفيتات القائمة تساندها . فهذه السوفيتات ، التي نشأت بصورة عفوية ، لم تعرف بعد حقيقة طبيعتها السياسية ، أي وظيفتها ، والازدواج **الجوهري في** السلطة الذي يضعها في موقف المعارض للحكومة الموقتة . وهذه السوفيتات التي يسيطر عليها المنشفيك ، كانت مهددة بالاجهاض ، كنواة لدكتاتورية العمال والفلاحين ضد البورجوازية . فمهمة البلاشفة إذن : عزل المنشفيك و « الاشتراكيين

ـ الثوريين » عن الجماهير ـ الحصول على الأغلبية في السوفيتات لتنمية نواة السلطة الجديدة فيها ، **البرنامج** : سلم فوري ، مصادرة أراضي الاقطاعيين ، تأميم الأرض ـ دمج المصارف في مصرف وطني تشرف عليـــه السوفيتات ـ رقابة عمالية على الانتاج والتوزيع .

واقترحت النظريات أيضاً تغيير اسم الحزب . ولكي يقطع كل علاقة مع « الاشتراكية ـ الديموقراطية ، الانتهازية والبرلمانية ، كان يرى أن على الحزب البلشفي أن يستمد اسمه من هدفه النهائي : الشيوعية . ومن هنا تسميته : « الحزب الشيوعي » . ثم ان هذه النظريات دفعت هذه الأفكار الى نهايتها فاقترحت انشاء اممية ثالثة : الاممية الشيوعية .

وأعلن المنشفيك ان لينين يهذي ، وانه اصبح مأفوناً والواقع انه كان يتقدم بحـــذر ، معارضاً في اللجنة المركزية البلشفية اولئك الذين كانوا يريدون اسقاط الحكومة فوراً ، واولئك الذين كانوا يعلنون ان روسيا لم تنضج بعد للاشتراكية . وتمسك امام مؤتمر نيسان للحزب البلشفي بشعار : « **السلطة كلها للسوفيتات** » ، (رغم ان البلاشفة ما زالوا فيها اقلية) . وقد بين للمندوبين ، وأيدته في ذلك الأغلبيـــة ، ان الثورة ستتوسع اذ ينضم الفلاحون الفقراء الى البروليتاريا ضد البورجوازية (بما فيها البورجوازية الريفية « الكولاك » ، وان الفلاحين المتوسطين سيكونون على وجه الاجمال مشلولين) .

وفي هذه الفترة بذل لينين جهوداً جبـــارة : مقالاً يومياً في البرافدا ، خطباً في المعامـــل ، وفي اجتماعات الجنود ، وفي المؤتمرات . وفي المؤتمر الاول لسوفيتات روسيا اعلن القائد المنشفيكي تسيرتلي Tseretelli ان حكومة ائتلاف مع الديموقراطيين البورجوازيين تستطيع وحدها الاحتفاظ

بالسلطة ، وان الثورة الروسية ستنتهي الى الفناء بدون هـذا التحالف مع البورجوازية الليبرالية ، وانه ما من حزب يقبل تحمل مسؤوليات السلطة بغير هذه الشروط . ومن مكانه قال لينين : « **ان هذا الحزب موجود** ».وكان ذلك « **بمثابة هزيم الرعد في سماء صافية** » .

وفي تموز (يوليو) ١٩١٧ ظنت الحكومة الموقتة انها قوية بحيث تبدأ قمعا صارماً . فشجعت المقامات العليا الحملات التأديبية التي يقوم بها (اليونكرز) الطلاب الضباط ، وهم اشد الرجعيين تطرفا،ضد المناضلين البلاشفة ، ضد البرافدا ومقر الحزب . وتأسست « رابطة ضد البلشفية » ، مدعومة بصورة غير رسمية ، وقررت اغتيال لينين . فانتقل الى العمل غير المشروع ، وتخلص مرات عديدة بمهارة من اليونكرز ، والشرطة النظامية ، و « العملاء السريين » المكلفين بمطاردته . واختلقت ضده قضية « خيانة عظمى » مبنية على شهادات كاذبة .

وهنـا تقع الحوادث التي سبق ذكرها في الفقرة المقتبسة من « تاريخ الثورة » .

وفي هذا الصيف ، ١٩١٧ ، كان الوضع السياسي فريداً ، مضطرباً . ان ثورة ٥ آذار (مارس) قد تفسخت . الا أن نفوذ البلاشفة قد اتسع وتضخم . وكل قمع او محاولة اغتيال تثير استنكاراً شديداً . . ان الحركة الثورية للجنود والعمال ، بل والفلاحين ، لم تفتر ، ولم يتحقق أي هدف مشخص من اهداف الثورة ، مما نجم عنه في آن واحد غلبة التردد وامكانية موجة ثورية جديدة . ولم يستطع البلاشفة الحصول على الاغلبية في السوفيتات ، حتى مع شعار : «السلطة كلها للسوفيتات » . فازدواج السلطة انتهى لصالح الحكومة التي ألحقت بذاتهـا السوفيتات القائمة . ولم يعد موضوع بحث استلام هذه السوفيتات للسلطة ، رغم ان طبيعتها ، أي جوهرها الموضوعي ، لم تتغير .

لذلك اقترح لينين في آب (اغسطس) التخلي عن شعار « السلطة كلها للسوفيتات » ، وأضاف هذا التوضيح البالغ الاهمية : ان هذا لا يعني التنازل عن النضال من اجل سلطة السوفيتات .

« ان السوفيتات يمكن ويجب ان تظهر في الثورة الجديدة ، ولكنها ليست سوفيتات اليوم ، التي هي هيئات توفيق مع البورجوازية ». ان على البروليتاريا « **ذاتها ان تستلم السلطة** .. » (الجزء الواحد والعشرون، صفحة ٣٨).

ووفقاً لتحليل لينين وتوجيهاته فقد سحب الحزب البلشفي ، المجتمع في بتروغراد بصورة شبه مشروعة (آب – اغسطس – ١٩١٧) شعار : « السلطة كلها للسوفيتات » ، وأحل محله شعار : « استيلاء البروليتاريا على السلطة وهي متحالفة مع الفلاحين » .

وفي مقال « هل سيحتفظ البلاشفة بالسلطة ؟ » أشار لينين منذ ذاك الحين ، الى التدابير الواجب اتخاذها ، فور الاستيلاء على السلطة ، لبناء الدولة الجديدة سياسياً ، واقامة هذا البناء على تدابير اقتصادية ملائمة .

« وما لم يسيطر الخوف على البلاشفة فليس ثمة قوة في العالم تمنعهم من الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها حتى انتصار الثورة الاشتراكية الشاملة » .

وفي آب (اغسطس) ظنت مناهضة الثورة ان ساعتها قد دقت : فحاول الجنرال كورنيلوف Kornilov القيام بانقلاب . ولم يكن في وسع الحكومة الموقتة ان تصمد بعد ان أصابها الضعف وفقدان الاعتبار ، لولم يدعُ البلاشفة الجنودَ والبحارة والعمال الى المقاومة . وأتاح الانقلاب الفاشل الرجعية العسكرية حدوث « الانعطاف » الذي كان يترقبه لينين . فالجماهير وبخاصة الفلاحون الوسط ، الذين كانوا مترددين حتى ذاك الحين ، قـــد انفصلوا عن المنشفيك

والليبراليين . وانتقل اهم السوفيتات « في بتروغراد وموسكو » الى ايـدي البلاشفة . لقـــد اقتربت الساعة . فاعتقد لينين وكتب ، ان النصر مضمون مادامت الجماهير قد اقتنعت «بخبرتها الخاصة» بصحة شعارات البلاشفة (المؤلفات الكاملة ، الجزء الواحد والعشرون ، صفحة ١٩٣ - ١٩٧ ، ورسائل الى اللجنة المركزية) . وعاد شعار « **السلطة كلها للسوفيتات** » الى المقام الاول .

ومن عزلته لم ينقطع لينين عـن تحليل العقبات والاخطار واستعدادات مناهضة للثورة . فقد تبين اعراض الكارثة الوشيكة - المجاعة ، وتفتت الاقتصاد واقترح وسائل تفاديها (المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، صفحة ٩٢ وما يليها) وفي ايلول (سبتمبر) فوتت الديموقراطية الروسية والسوفيتات الفرصة الاخيرة لتطور الثورة سلمياً (المرجع ذاته : الجزء الثاني ، صفحة ١٤٩) .

وكتب آنئذ «**ان الازمة ناضجة ... ان مستقبل الثورة الروسية ... مستقبل الثورة البروليتارية الأممية في خطر . . . ان التريث جريمة . . فالتمرد هو شعار اليوم . وكل تقاعس يعادل الموت» (المؤلفات الكاملة ، صفحات ٢٣٩ و ٢٩٠ و ٢٩٣ الجزء الواحد والعشرون) .**

ودرس تركيب قوى الخصوم ، ورسم على وجـه الاجمال خطة عمليات التمرد . لقد اعتبر ان التمرد فن - جزء من الفن العسكري - إلا انه يجب ان يعتمد ، لا على مؤامرة ، ولا على حزب ، بل على الاندفاع الثوري للشعب .

« تطويق بتروغراد وعزلها بهجوم مشترك مـن الاسطول والعمال والقوات ... احتلال مقاسم الهاتف ومراكز البرق والمحطات والجسور بأي ثمن والاحتفاظ بها . . . تأليف وحدات متفانية ، شعارها : نفنى حتى الاخير ولا نسمح بمرور العدو » .

وترك لمعاونيه من الزعماء واعضاء اللجنة المركزية قيادة العمليات .

وفي ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر ـ السادس من نوفمبر) شاءت الحكومة ان تأخذ المبادرة . فمنعت صدور الصحيفة الرسمية للحزب وارسلت وحدات مدرعة لتأمين تنفيذ الامر . فتحرك الجنود والحراس الحمر . وفي الساعة الحادية عشرة ظهرت Rabotchi Part تحمل الدعوة الى التمرد . كان لينين يستعجل الامور ليستبق وصول القوات الموالية للحكومة التي طلبتها من الجبهة على وجه السرعة .

ووقعت المقاسم والمحطات والجسور في ايدي البلاشفة المتمردين . وفي اليوم التالي ، في الساعة العاشرة صباحا ، وزعت رسالة حررها لينين ، « **الى المواطنين الروس ..** » معلنة ان السلطة قد انتقلت الى السوفيتات . وفي النهار اجتمع سوفيات بتروغراد وهتف للينين . وفي المساء انعقد المؤتمر الثاني للسوفيتات . وفي الليل سقط قصر الشتاء ، مقر الحكومة الموقتة ، واراد لينين آنذاك ان يستريح بعض لحظات . غير انه لم يستطع النوم ، فنهض ليحرر المرسوم الذي يمنح الارض الى الفلاحين . ثم توجه الى العمال الروس :

« امسكوا بمقاليد الدولة . وأقيموا النظام الثوري » .

وبدأت آنذاك فترة نشاط مضاعف للقادة البلاشفة ، اذ كان يجب حل مشاكل لا حصر لها : اقتصادية وسياسية وعسكرية ودبلوماسية وادارية وثقافية وسواها. فالحزب ، والجماهير التي تتبعه ، لم يكونوا يملكون اية خبرة في السلطة وقليل من المعرفة . وكان على لينين ان يجيب على كل شيء وينهض بكل شيء . لقد كان بالامس خارج القانون ، وهاهو يرأس ويوجه مجلس مفوضي الشعب ، ويستقبل البعثات ، ويطلع على الوضع العسكري ، بل ويقود شخصيا عمليات ضد « الكرنسكيين » . ويصوره مؤرخوه هادئا ، حتى في أشد ساعات الخطر ، واثقاً على الدوام :

« لن يكتب النصر الا لمن يضع ثقته في الشعب ، مـــن يغوص في الينبوع الحي لعبقوية الشعب الخلاقة » (المؤلفات الكاملة ، الجزء الثاني والعشرون ، ص ٤٨)

وخلال بضعة ايام زال النظام القديم ،بجميـع نتائجه الاجتماعية والاخلاقية والسيكولوجية ، بـــل في أسسه الموضوعية ومؤسساته : رواسب القنانة ، الملكية العقارية الاقطاعية ، النظام شبه الاقطاعي للطبقات ، التفاوت بين المرأة والرجل ، اضطهاد الاقليات القومية ، المركز الممتاز رسميا للكنيسة .. وسوى ذلك. وفي نفس الوقت الذي كانت تجري فيه تصفية جبارة لماضي القرون الوسطى كان يجري تأميم المصارف ، والسكك الحديدية ، والصناعة الثقيلة ، وتقام الرقابة العمالية على الانتاج والتوزيع .وهكذا كانت تتحقق ثورتان : الثورة الديموقراطية البورجوازية ، التي تقابل ثورة ١٧٨٩ - ١٧٩٣ في فرنسا الموجهة ضد الاقطاع مدفوعة الى نتائجها الاخيرة ، وبداية ، او المقدمات الموضوعية ، او شروط التحويل الاشتراكي لعلاقات الانتاج الاجتماعية .

وهنا تمس الحاجة الى دراسة اوسع بكثـــير - مؤلف او مؤلفين - لعرض التدابير التي اتخذها لينين والنصوص التي كتبها وأعدها بنفسه ووقعها. وانشر من بينها الى :

- إحداث المجلس الاعلى للاقتصاد الوطني ، المكلف باعداد التخطيط .
- مرسوم تأميم الصناعة (٢٨ حزيران - يونيو - ١٩١٨) .
- « اعلان حقوق شعوب روسيا » واحداث مفوضية لشؤون القوميات (عهد بها الى ستالين)
- احداث « اللجنة الاستثنائية لمكافحة مناهضة الثورة »،« تشيكا» يديرها دزرجنسكي Dzerjinski .

- مرسوم احداث الجيش الاحمر .

- « اعلان حقوق الشعب العامل »، الخطوط الاساسية للدستور السوفياتي

- التدابير المتعلقة بالحرب والسلم .

ونظراً لأهمية هذه التدابير ، فلنتوقف لحظة عندها . اتخذ لينين مجموعتين من التدابير ، بشكل يبدو غـــير منطقي في الظاهر ، الا انه يطابق في الحقيقة اسلوبه في طرح المسائل ديالكتيكيا ، فهو يؤكد من جهة ان مسألة الحرب والسلم تطرح بصيغة جديدة منذ الاستيلاء على السلطة :

« يجب ألا نعتقد انه لن تقع حرب دفاعية . فهذه يمكن ان تفرض علينا .. انما من انصار الدفاع الوطني بعد ٢٥ تشرين الاول « اكتوبر » ١٩١٧ . لقد حصلنا على حق الدفاع عن الوطن . ونحن من انصار الدفاع عن الوطن الاشتراكي .. اننا سننهض كرجل واحد للذود عن جمهورية السوفيتات » « راجع المؤلفات الكامـــلة ، الجزء الثالث والعشرون ، صفحة ١٣ - ٣٤ »

غير انه دخل في الوقت ذاته في مفاوضات من اجل السلم . وناشدمرسوم السلم « ٢٦ اكتوبر اي ٨ نوفمبر ٢٦ تشرين الاول أي ٨ تشرين الثاني » :

« الشعوب والحكومات ان تدخل فوراً في مباحثات من اجل سلم ديموقراطي عادل » .

وفي ليـــلة ٩ « ٢٢ » نوفمبر - تشرين الثاني - صدر امر عن طريق خط هاتفي مباشر الى هيئة اركان الحرب بوقف اطلاق النار والتفاوض في سبيل الهدنة . فرفض القائد الاعلى دوكانين Doukhanine اطاعة لينين ، رئيس مجلس مفوضي الشعب . انها لحظة صعبة : ماذا سيفعل الاثنـــا عشر مليوناً من الجنود المعبأين ؟ انتقل لينين الى المركز الرئيسي للاسلكي ، وعزل بأمر خاص

القائد الاعلى ، وتوجه مباشرة الى جنود الجبهة . ونجحت هذه «**القفزة في المجهول**» حسب تعبيره .

وواجهت الزعيم البلشفي ايام صعبة اخرى اثناء مفاوضات بريست ـ لتوفسك . فقد كانت الشروط التي قدمتها هيئة الاركان والحكومة الالمانيتان مدمرة ، بحيث ان كثيرين (ومنهم تروتسكي ،رئيس الوفدالسوفياتي فيبريست ـ لتوفسك وبوخارين) ، كانوا يرون وجوب رفضهاواعلان الحرب الثوريةالشاملة . اما لينين ، فعلى العكس ، كان يعتقد انه يجب قبول هذه الشروط ، وشروطاً اقسى منها في سبيل ترسيخ الثورة :

« ان شعبا عرف كيف يقيم سلطة السوفيتات لايمكن ان يفنى »
(الجزء الثاني والعشرون ، صفحة ٤٠١) .

وكان لينين ، في ذاك الوقت ، مايزال يأمل ان تمتد الحركة الروسية الى اوربا بأسرها وتفجر الثورة في البلاد المتقدمة .

وفي ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ « أي ١٠ شباط ـ فبراير » رفض تروتسكي توقيع مشروع الصلح (مما كان يتفق منطقياً تماماً ونظريته في « الثورة الدائمة ») ، وأيدته اللجنة المركزية للحزب رغم لينين . وفي ١٨شباط (فبراير) استأنف الجيش الالماني الهجوم على طول الجبهة . وفي ليلة ١٨ ـ ١٩ قبل لينين ، ببرقية طيرت بالاذاعة ، الشروط الالمانية . وفي الوقت ذاته اتخذ تدابير من شأنها ان تواجه الغازي ، خلال ايام قليلة ، بصحراء « الارض المحترقة »، وتنشىء من فلول الجيش القيصري الجيش الاحمر الجديد . وفي ٢٣ شباط اوقف الزحف الالماني بين بسكوف Pskov ونارفا Narva . وكان التردد يسيطر على الحكومة الثورية واللجنة المركزية للحزب البلشفي . هل تواصل الحرب الثورية ؟ ام يقبل

بالشروط المفروضة ، وهي شروط اقسى مما كانت عليه في الشهر السابق. وتوصل لينين ، بصعوبة ، الى فرض سياسته السلمية :

« ان الاسلوب الثوري الجامح يستطيع وحده ان يدفع روسيا الى الحرب . اما انا ، فلن ابقى لحظة واحدة لا في الحكومة ولا في اللجنة المركزية ، اذا ماتغلبت سياسة الاسلوب المنمق » . (البرافدا ، ٢٣ شباط - فبراير - الجزء الثاني والعشرون ، صفحة ٢٧٦) .

لم يكن على لينين ان يجابه فقط مناهضي الثورة ، والمنشفيك و « الاشتراكيين - الديموقراطيين » (الذين كانوا يعدون ضده المؤامرة التي سينفذونها فيما بعد) ، ولكنه كان يجابه داخل حزبه ، الحزب البلشفي ، لدى كل تحول في الوضع ، معارضة مزدوجة : معارضة من اليمين (بوخارين ، وزينوفيف وكامنيف) ، ومعارضة من اليسار (تروتسكي) . فقد ظل بعضهم من أنصار الائتلاف الحكومي مع المنشفيك ، أي اجراء توفيق مع المنشفية والبورجوازية . أما الآخرون فكانوا يطالبون بالمغامرة : الحرب الثورية العالمية .

بيد أن المؤتمر الاستثنائي للحزب (آذار - مارس - ١٩١٨)، وبعده بأيام قلائل المؤتمر الاستثنائي للسوفيتات ، أقر السياسة اللينينية :

« ان الجمهورية الاتحادية لروسيا اذ تدين حروب اللصوصية ، تعترف بحق وواجب الدفاع عن الوطن الاشتراكي ... ان واجب الجماهير هو ان تبذل جميع قواها لتعيد بناء القدرة الدفاعية عن البلاد وتزيدها ، لاعادة بناء قوتها العسكرية » . (قرار . أقره مؤتمر السوفيتات ، الجزء الثاني والعشرون ، صفحة ٤١٠ - ٤١١) .

وفي أيار – حزيران (مايو – يونيو) ١٩١٨ قفزت مسألة بعنف الى المقام الأول : مسألة التموين . لقد اتضح خطر المجاعة وينبغي الحصول على القمح للمدن ، وللجيش :

« ان النضال في سبيل القمح ، هو النضال في سبيل الاشتراكية ».

وفي الواقع فان هذا الوضع الحرج ، تحت قيادة لينين ، خدم نمو الثورة . فلئن فقد القمح فلأن « الكولاك » (كبار الفلاحين) قد احتفظوا به وضاربوا عليه . ونمو الثورة يقتضي بالضبط النضال ضد الكولاك ، اذ تنتقل بذلك من الدكتاتورية الديموقراطية (للعمال والفلاحين بصورة عامة ، ضد الاقطاعية والبورجوازية الامبريالية) الى دكتاتورية البروليتاريا ، التي يساندها صغار الفلاحين ، ضد البورجوازية كلها ، مدنية وريفية :

« ايها الرفاق العمال ، ان الثوره في وضع حرج . وانتم وحدكم تستطيعون انقاذ الثورة . ان عشرات الألوف من عمال النخبة ، من العمال الطلائعيين ، المتفانين في سبيل الاشتراكية ، الذين لايمكن ان يسقطوا في اغراء كأس من الخمر او يسرقوا ، والقادرين على تكوين قوة فولاذية ضد الكولاك والمضاربين واللصوص والمختلسين والمخربين ، ان هذا هو مايلزمنا » . (الجزء الثالث والعشرون ، صفحة ٢٥) .

وانتقل المناضلون العمال الى الريف ، فنظموا لجاناً من الفلاحين الفقراء (احدثت بمرسوم ١١ حزيران – يونيو) . فلئن احتفظ الكولاك بقمحهم ، فسيؤخذ منهم القمح والأرض :

« ان الكولاك هم ألد أعداء السلطة السوفياتية . حرباً بلا هوادة ضدهم » . (الجزء الثالث والعشرون ، صفحة ٢٠٦ – ٢٠٧) .

وضمت المعارضة السياسية « الاشتراكيين . الثوريين اليساريين » (حزب « فلاحي » اشترك في الحكم مدة من الزمن الى جانب البلاشفة)، و « الشيوعيين اليساريين ».وفي المؤتمر الخامس للسوفيتات« تموز - يوليو - ١٩١٨ » اقترح المعارضون خرق صلح بريست - لتوفسك وانهاء الحملة ضد الكولاك بآن واحد . فرفض لينين واشبعهم تندراً عنيفاً بهم،وقال في المؤتمر ان قضيتهم خاسرة امام الشعب ، وان نوبات الهستريا التي تنتابهم لن تحطم دكتاتورية البروليتاريا، ولا تحالفها مع الفلاحين الفقراء ضد الكولاك .

وفي ٦ تموز - يوليو - قام « الاشتراكيون - الثوريون اليساريون » بمحاولة تمرد . واغتالوا ، بأمل إشعال الحرب ، سفير المانيا ميرباخ Mirbaeh . ونجحوا فقط في تقوية دكتارية البروليتاريا التي كانت تنتشر باطراد لتشمل جميع الميادين . ويرد لينين بمنتهى الصرامة .

« لنصف التمرد بلا هوادة ... اننا على قيد شعرة من الحرب ... يجب أن نسحق هؤلاء المغامرين البؤساء ، الهستريين ، الذين اصبحوا أدوات في مناهضة الثورة » .

واذا قام الألمان (الذين كانوا يطلبون ادخال قواتهم الى موسكو بحجة حماية سفارتهم) بشن الحرب ، فستكون حرباً ثورية لاهوادة فيها وهبّة الجماهير ، حتى آخر رجل وآخر نفس (الجزء الثالث والعشرون ، صفحة ١٤٣) .

وخلال هذه الأيام الرهيبة صدق مؤتمر السوفيتات على دستور الجمهورية الاشتراكية الاتحادية لسوفيتات روسيا .

وكان قد بدأ تدخل امبرياليي التحالف الودي الذين دفعوا بالقوات التشيكوسلوفاكية ضد الجمهورية الجديدة :

« صراع طبقي وحروب اهلية قد تغلغلا في السكان حتى الاعماق .. ان البورجوازية تبذل جميع جهودها لاسقاطنا ... ولكننا نؤمن جازمين بأننا سنتجنب مصير الثورات الفاشلة ، واننـــا سننتصر على البورجوازية » .
(رسالة الى كلارا زيتكين Clara Zetkin ، تموز - يوليو -١٩١٨، الجزء الحادي والعشرون ، صفحة ٢٤٩) .

صيف - خريف ١٩١٨ . انهارت المانيا ، غير أن مناهضة الثورة في الخارج والداخل اتخذت موقف الهجوم فتدخلت انجلترا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة . وسقط ثلاثة ارباع البلد في أيدي الأجانب أو أعوانهم . وفي الجزء الذي ظل سوفياتياً اندلعت ثورات الكولاك وساد الجوع .

أعلن لينين ان « الوطن الاشتراكي في خطر » . وجعل محور النشاط السياسي كله شعار : « كل شيء من أجل الحرب ، كل شيء للجبهة ، كلنا الى السلاح » . وللحفاظ على التوتر الاستثنائي لدى الطبقة العاملة الروسية فقد خطب لينين في المعامل ثلاث أو أربع مرات كل يوم ، دون أن ينقطع عن ترؤس مجلس مفوضي الشعب واللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي .

ونُظم الجيش الروسي لخوض حرب طويلة . ففرضت الخدمة العسكرية الالزامية وألغي مبدأ انتخاب الرؤساء العسكريين من الشعب المسلح ، وانشئت مدارس لتكوين الاطر ، ونال المفوضون السياسيون لدى الجيوش اهمية عظيمة . فأصبح الجيش الأحمر جيشاً نظامياً ، منضبطاً انضباطاً صارما، لا يختلف عن سائر الجيوش الا بصفته السياسية البينة . وفي تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٨ رسم لينين للبلاد والسوفيتات والحزب المهمة التالية : أن يوجد في ربيع ١٩١٩ ثلاثة ملايين رجل تحت السلاح . وهذا البرنامج ، الضخم بالنسبة للبلد والطبقة العاملة ، تم انجازه . وتحولت روسيا السوفياتية الى معسكر صامد ، ولم يعد

للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية إلا هدف واحد : كسب الحرب. ومع ذلك فان الثورة (الاقتصادية والاجتماعية) لم تتراجع . فقد امتدت الرقابة والتأميم بعد الصناعة الثقيلة الى الصناعة المتوسطة ، بل والصغيرة . وفرض حصر على تجارة القمح ، وحرم القانون التجارة الخاصة في المنتجات الغذائية . وأقيمت مصلحة للعمل العام ، تعطي وحدها الحق في التموين . ان البورجوازية الروسية لن تكسب شيئاً من مناهضة الثورة . بالعكس . فالفكرة الثابتة لدى لينين ، الرد على مناهضة الثورة بتعميق الثورة . وقد أمسك بيديه جميع خيوط الادارة، وجميع مقاليد السلطة، منقطعاً بشكل خاص الى المسألة التي يعتبرها هي الاساسية، مسألة المواد الغذائية تارة ، والستراتيجية العسكرية تارة أخرى .

وفي ٣٠ آب (أغسطس) ١٩١٨ ، كان قد تحدث أمام عمال حي باسماني Basmanny ، وبعد الاجتماع، وحين كان يتوجه الى سيارته ، أطلق عليه الارهابي الاشتراكي ــ الثوري دورا كابلان Dora kaplan عـدة عيارات، مسننة ومسمومة ، أصيب باثنين منها .

بلـغ الهيجان أشده . ورد الارهاب الاحمر على الارهاب الابيض . وواصـل لينين ، من سريره ، وهو في خطر الموت ، العمل . وبعث برد الى تشكيلات الجيش الاحمر التي كانت تهاجم سمبرسك ، وكانت قد أبرقت متمنية له الشفاء ، قائلا : «ان الاستيلاء على المدينة التي ولدت فيهـا هو خير بلسم لجروحي» .

وفي ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) أمكنـه استئناف حضور اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي ، وفي ١٧ منه ترأس مجلس مفوضي الشعب . ولـكي يستجم كتب بحث : «الثورة البروليتارية وكاوتسكي المرتد» (تشرين الاول ـ اكتوبر ـ ١٩١٨) .

واحتفالاً بالذكرى السنوية الأولى للثورة قدم كشفاً بانجازاتها وتقدمها : من الرقابة العمالية الى ادارة العمال للصناعة – من مصادرة الاقطاعيين ومن الصراع العام لطبقة الفلاحين من اجل الارض الى تنظيم الفلاحين الفقراء ضد الكولاك – ومن الجيش السابق والحرس الاحمر الى الجيش الاحمر – ومن السوفيتات الاولى الى الدستور السوفياتي . وقال لينين انه كشف ايجابي لا مثيل له ، رغم الوضع العسكري المهدد بالكارثة . ان الشعار قد بقي : «النصر او القبر » (الجزء الثالث والعشرون ، صفحة ٢٧٥) .

وفي أشد الفترات سوءاً ، انقلب الوضع فجأة . ففي نهاية عام ١٩١٨ انتقل الجيش الاحمر الى الهجوم ضد الاميرال كولتشالك Koltchaik الذي يسانده الحلف الودي وفي ١٣ تشرين الثاني – نوفمبر – ١٩١٨ كان في وسع لينين ان يعلن في رسالة الى جميع شعوب روسيا ان معاهدة بريست – ليتوفسك التي سقطت « تحت ضربات البروليتاريين الثوريين الالمان والروس » قد ألغيت . واحتل الجيش الاحمر من جديد اكرانيا وبيلوروسيا وبلاد البلطيق .

وفي ٢ آذار (مارس) ١٩١٩ افتتح في الكريملين المؤتمر التأسيسي للاممية الشيوعية (١) او «الكومنترن »، وأعقبه المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي البلشفي . وفي هذا الأخير تناول لينين مرة أخرى المسألة الفلاحية ، وحدد الشعار الضروري لهذه الفترة :

« الوصول الى تفاهم مع الفلاح المتوسط ، دون التخلي لحظة واحدة عن الصراع ضد الكولاك ، بالاستناد باصرار الى الفلاحين الفقراء » .
(الجزء الثالث والعشرون صفحة ٢٩٤)

---

(١) حلت عام ١٩٤٣

وبالفعل فان الصعوبات في هذه الفترة ،وفي البلاد نفسها، كانت تأتي من الفلاحين المتوسطين .انهم يترددون ويتأرجحون . فالتدابير التي اتخذت ضد الكولاك أرعبتهم . بل اكثر من ذلك : انهم ،بقدرما ستفادوا من هذه التدابير وزادوا خيراتهم على حساب الكولاك كانوا « يتكولكون » . وحتى في مؤتمر الحزب ركزت المعارضة المزدوجة من اليمين واليسار جهدها على هذه المسألة . فمعارضة اليمين (بوخارين) ارادت ان تلغي من البرنامج كل ما يتعلق بالفلاح المتوسط ،وخطر اعادة قيام الرأسمالية انطلاقــا من الانتاج التجاري الصغير . ومعارضة اليسار (تروتسكي) ، التي قبلت في النهاية بالتحالف مع البروليتاريا الريفية (الفلاحين الفقراء) ، أنكرت امكانية دمج الفلاح المتوسط في بناء الاشتراكية . (ممايعني إن هذا البناء مستحيل في روسيا ، نظرا لاهمية هؤلاء الفلاحين المتوسطين ،وهي اهمية ازدادت بالتدابير المتخذة ضــد المالكين العقاريين والكولاك !) .
وهكذا اتسعت المعركة السياسية في الوقت الذي كان فيه الوضع العسكري والدولي يتحسن . ولينين ما يزال يناضل ، ودوما على عدة جبهات .

« **يجب ان نضع انفسنا ، تجاه الفلاح المتوسط ، في موقع التحالف الوثيق ..**

« ان تنظيم الجمعيات والتعاونيات الزراعية للانتاج، ينبغي ان يتم بالاقناع .

« **ليس ثمة اكثر سخفا من العنف في العلاقات مع الفلاح المتوسط** » .

واصبحت المسألة المركزية مسألة التجهيز والمكننة الزراعية .

« **لو كان في استطاعتنا غدا ان نورد ١٠٠٠٠٠ جرار من النوع الاول ، مع المحروقات وقطع الغيـار .. لقال الفلاح المتوسط : انـي مع الشيوعية .**» (**الجزء** الرابع والعشرون ، صفحة ١١٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠) .

وامام المؤتمر نفسه ، عاد لينين الى المسائل العسكرية :

« **لاول مرة في العالم أنشئت قوة مسلحة تعرف لماذا تحارب** » .

تلك هي ،في رأيه ، السمة المميزة للجيش الاحمر ، الذي ينبغي ان ينتظم في جيش نظامي ، اكثرانضباطامنالجيوش التي يجب ان ينتصر عليها . وبعد ان تجاوزت الاحداث والوضع نظريات الشعب المسلح ،والمليشيا العمالية ، والجيش الثوري الذي ينتخب رؤساءه ـ كان على لينين ان يناضل ، خلال شهور ،وبصورة خاصة في مؤتمر الحزب ، ضد « معارضةعسكرية » تحتفظبهذه الافكار البالية . وبعد ان سمى التحالف الودي الاميرال كولتشالك ، وصيا اعلى على روسيا ، قام هذا بهجوم معاكس خطر . ورد لينين : انضباط حديدي ، نظام عسكري ، نظام ثوري في جميع الميادين . اما المتخاذلون فسيرمون بالرصاص .

« ليوضع فوراً حد ، مهما كلف الثمن ، لهوس الاجتماعات . . يجب ان يقام في كل مجال الانضباط العسكري » .

وفي منتصف ١٩١٩ طرد كولتشالك الى سيبريا ، وحطمت غارة الجنرال يودنتيش Joudénitch في مؤخرة الثورة ـ بتروغراد ـواستخلصت « رسالة موجهة الى العمال والفلاحين » دروس هذه الانتصارات :

« يلزمنا جيش احمر قوي . ان تقديم كل العون المستطاع للجيش الاحمر هو الواجب الاول والاساسي والرئيسي لكل عامل وفلاح . . ان الجيش الاحمر لايمكن ان يكون قوياً مالم تملك الدولة احتياطياً كبيراً من القمح . . من الضروري التقيد بالنظام الثوري . . ان الـذين يشجعون الرجعية الكولتشالكية هم المنشفيك والاشتراكيون الثوريون . . لقد آن ان يحكم على الاحزاب باعمالها لاباقوالها . . فليسقط المترددون . . نضال لايلين ضد رأس المال ، تحالف الفلاحين العاملين مع الطبقة العاملة » . (الجزء الرابع والعشرون ، صفحة ٤٣١ و ٤٣٦) .

وما أن غلب كولتشالك حتى أثار الحلفاء محاولة أخيرة ، آخر امتحان للثورة .

فقوات دنيكين Dénikine ، المنطلقة من الجنوب ، تهدد موسكو .

وكتب لينين : « تتميز روسيا في انها، في احلك ساعاتها ، **يوجد فيها على الدام جماهير احتياطية ، قوى جديدة ، عندما توشك السابقة على النضوب ... وفي الحرب فان النصر من نصيب البلد الذي يملك مزيداً من الموارد المادية ، والذي تبرهن جماهيره الشعبية العميقة عن تصميم اكبر** » .

(الجزء الرابع والعشرون ، صفحة ١٧٦ و ٤١٣)

ان الحرب امتحان للقوى الاقتصادية وقدرة على التنظيم لكل أمة . انا سننتصر ونستمر في انتصارنا لأننا نملك خلفية منيعة (المرجع ذاته ، صفحة ٥٤٤)

وبقي لينين على اتصال بخط هاتفي مباشر مع كل جبهة ، وكل هيئة أركان ، ليفحص خطط العمليات ويزور المعامل ويتحدث الى العمال ويشرح لهم الأمور بسعة صدر ...

وعندما انتهت الحرب بانتصار الجيوش الثورية ترسخ نفوذ الحزب البلشفي نهائياً في روسيا . فالهجوم المعاكس العنيف الذي شنته البورجوازية لم يؤد اذن إلا الى تعجيل إنجاز المهام التي حددتها الماركسية لفترة دكتاتورية البروليتاريا القاسية العنيفة . فاثناء الحرب الأهلية لم يكن باستطاعة هذه الدكتاتورية ان تمارس سلطتها الا متحررة من كل قيد، معطّلة كل مشروعية . إن النصر يشرى بمثل هذا الثمن : إقامة دولة شديدة المركزية ، التخلي عن النظريات الماركسية واللينينية حول الشعب المسلح،حول إلغاء الموظفين،حول فناء الدولة البروليتارية (راجع الدولة والثورة ، الجزء الثاني ، صفحة ١٧٩ و ١٩٥ وسواهما .) أما عن

أثر لينين ، كقائد سياسي ، وواضع استراتيجية الثورة ، واقتصادي ، رجل علم وعمل ، فقد تجاوز منذ ذلك الحين حدود روسيا ليمتد على مقياس عالمي .

والشهود العديدون لنشاطه في تلك السنوات الحرجة يصفونه بأنه كان قادراً بآن واحد على السيطرة على مجمل المسائل والاهتمام بأدق التفاصيل ، ليصل فيها الى جملتها . كان يجمع الحماس الثوري الى الحس العملي ، الى حس «الجدوى» . وكان عمله ووقته منظمين بشكل صارم . فحين يصل الى المجالس واللجان العديدة التي يرأسها او يديرها ، تفتتح الجلسة تماماً في الساعة المحددة ، ويكون العمل معداً . كان يتطلب من المقررين والخطباء الايجاز ، وحس الواقع ، ومقترحات مختصرة ودقيقة . وعندما يكون لينين حاضراً ، فان أخطر المسائل وأكثرها تعقيداً تحل وكأنها بمعجزة . كان يقدم لا الوضوح وحده ، بل التفاؤل والثقة ، وضربا من المرح يسري الى الآخرين . وقد صرح انجليزي شهد جلسة برئاسة لينين أن « قهقهته كانت قهقهة القوة » .

فالمصاعب ، وهموم الحرب الأهلية ، لم تكن تمنعه من التفكير بالمسائل العلمية ، من الاهتمام بمصير العلماء . وقد أمر في أوج المجاعة بتخصيص جرايات للكلاب التي كان بافلوف Pavlov يتابع تجاربه عليها .

كان يجد الوقت لكتابة رسائل شخصية الى المناضلين المرضى ، الى اولئك الذي تصيبهم الحرب في عواطفهم . كان يتحدث بإلفة الى الوفود التي تطلب مقابلته ، وبصورة خاصة مندوبات النساء ، لأنه كان يعلق أهمية جد خاصة على مشاركة النساء في الثورة . وكان يقول : « عندما تفهم ملايين من النساء ما هي الاشتراكية ويشاركن في بنائها ، تتحقق المهام التاريخية للثورة » .

وحتى في أكثر فترات الحرب تأزماً كان يلتمس الراحة في قراءة الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة . وقد عثر على بطاقة مكتبة كان يطلب بها ان تعار له ، بصفة

استثنائية ولليلة واحدة ، مؤلفات زيلر Zeller وغومبرز Gomperz عن الفلسفة اليونانية .

وكان لينين يعرف كيف يتدخل شخصياً لإثارة الحماس الثوري . وقد حيا بفرح كبير أيام « السبت الشيوعي » (١٩١٩ — ١٩٢٠) التي وافق العمال الروس فيها على تقديم عمل مجاني لاعادة تعمير الوطن الاشتراكي الذي خربته الحرب . فقد رأى لينين فيها عنصراً جديداً ،مبادرة باتجاه الانتاجية الاشتراكية، الانضباط الاشتراكي للعمل ، وخلق شروط جديدة ـ اشتراكية في الاقتصاد والحياة . (مقال المبادرة العظيمة ، المؤلفات المختارة . الجزء الثاني ، صفحة ٥٧٩ — ٦٠٢) .

وفي اليوم الأول من ايار (مايو) ١٩٢٠ أعلن في مجموع البلاد « سبت شيوعي » ، واشترك لينين في رفع الانقاض من ساحة الكريملين .

وقد روى شاهد : « رأينـا رجلا قصير القامة بلباس العمل ، يقف الى جوار علم الكلية العسكرية . لقد كان فلاديمير ايليتش . وعزفت الموسيقى نشيد الأممية ، ودوت المدافع . فانصرفنا عندئذ الى العمل مع فلاديمير ايليتش ، وكنا نخلي الساحة من الانقاض التي تملأها . وقد حمل فلاديميرايليتش على كتفيه أعمدة ، وجر عربة وسحب احجاراً » (رواية تلميذ من الكلية العسكرية) .

ولكي تبنى الاشتراكية ،فان« جبهة العمل » لا تقل أهمية ، في نظر لينين، عن الجبهة العسكرية ، والبطولة في العمل جديرة بنفس التقدير الذي تستحقه الشجاعة . وما أن تنتهي الحرب وتكسب حتى تصبح«جبهة العمل »هي الاساسية . فشعار : « الموت لا الاستسلام » قد انتقل من جبهة نضال الى جبهة نضال أخرى . (المؤلفات الكاملة ، الجزء الخامس والعشرون ، صفحة ٢٥) .

وفي تلك الفترة ، ووفقاً لأسلوبه ، حدد لينين ارتباط المسائل والاهداف

التي يجب بلوغها : أولاً اعادة النقل ، ثم مسألة المواد الغذائية ، فكهربة البلد والتخطيط المتلازمين ببعضها ، غير أن هذه المسائل الاقتصادية ما كانت لتنفصل في رأيه عن التحويلات في العلاقات الاجتماعية . وكان يكرر باصرار :

« ان نوجد انضباطاً جديداً للعمل ، واشكالا جديدة للعلاقات الاجتماعية بين الناس ، اشكالاً وطرقاً جديدة للمشاركة في العمل ، تلك هي المهمة الأكثر نبلاً والأكثر غنى . انها ستستغرق سنوات وعشرات السنين » . « الجزء الخامس والعشرون ، صفحة ١٥١ » .

وكان لينين يرى ، كوسيلة أساسية تتضمن الهدف المراد بلوغه ، اشراك الجماهير نفسها في مراقبة الاقتصاد وادارة الدولة . ووفقاً لتوجيهات لينين تحولت مفوضية رقابة الدولة الى تفتيش عمالي وفلاحي .

وكتب لينين الى ستالين : **« الهدف: اشراك الجمهور العامل،وبصورة خاصة النساء ، في التفتيش » (١٩٢٠)**.

وفي السنة ذاتها عقد المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية ، الذي أعد له لينين بعناية . « اليسارية ، مرض الشيوعيةالطفولي – اطروحات حول المسألةالريفية، حول المسألة القومية والاستعمارية .. وسواها » . وخطب بلغات متعددة . أمام المؤتمر ، حاثاً المندوبين على تمثل دروس الثورة الروسية ، التي كان يقدر ، أكثر من أي وقت مضى ، أن لها معنى تاريخياً وأهمية دولية وبالمقابل . كان يعتقد أن الحركة الثورية العالمية « ستمسك بخناق » البورجوازية لمنعها من ضرب الثورة الروسية (الجزء الخامس والعشرون ، ص ٤٠٥)

وفي تشرين الثاني – نوفمبر – ١٩٢٠ عقد موتمر للبلاشفة صرح لينين فيه أن : **« البروليتاريا التي انتصرت في الحرب قادرة ايضاً على اقامة العهد والجهاز الشيوعيين »**.

وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٠ ، عرض لينين ، في المؤتمر الثامن للسوفيتات ، خطة إعادة التنظيم والتنمية الاقتصادية ، وهي خطة تمنح الاولوية للصناعة الثقيلة والكهربة ، وتتضمن مكننة الزراعة ، وإخضاعها للنظام الجماعي . هذه الخطة المسماة (G. O. E. L. R. O) (خطة الدولة لكهربة روسيا) أعدت تحت اشراف لينين الشخصي من قبل مائتي اختصاصي في جميع فروع الانتاج والعلم .

« اذا ما غطيت روسيا بشبكة متلاحمة من المحطات الكهربائية والمؤسسات التكنية الضخمة ، فان بناءنا للاقتصادالشيوعي سيصبح نموذجاً لاوروبا وآسيا » (الجزء السادس والعشرون ، صفحة ٤٨) .

ولينين ، اذ حدد للبروليتاريا الروسية هدافاً بعيدة ومهاماً يعرف انها جسيمة ، لم يكن يغفل وضع البلد الاقتصادي ، وحالته المتأخرة ، والدمار الذي تراكم بسبب الحرب . إلا أن الثورة كانت قد أقامت بنى فوقية (ايديولوجية وسياسية) ، وبعض العلاقات الاجتماعية متقدمة على القوى الانتاجية وسائر علاقات الانتاج . والبناء الفوقي ، والعلاقات الاجتماعية الجديدة يمكن انترتكس على القوى الانتاجية ، وعلى مجمل البناء الاجتماعي . كان في وسعها ، بقيادة الحزب البلشفي ، ورغم المصاعب والعقبات ، ان تنشيء قاعدة جديدة ، وطرازاً جديداً من الانتاج ، عن طريق القضاء على معوقات نمو القوى الانتاجية ، وتمكينها من النمو نمواً غير محدود . وعلى أية حال فقد كان يجب حل التناقض بين البنى الفوقية السياسية الجديدة من جهة (سلطة السوفيتات ، دكتاتورية البروليتاريا) وحالة القوى الانتاجية ، والامتدادات والرواسب العديدة للقاعدة القديمة ، ولعلاقات الانتاج القديمة من جهة أخرى . فأما أن تزول البنى الفوقية ، بانهيار السلطة السوفياتية ودكتاتورية البروليتاريا او تتوصل الدولة السوفياتية ، السلطة السوفياتية

ودكتاتورية البروليتاريا الى حل المشكلات واقامة التوافق الضروري بين البنى الفوقية والقاعدة ، بين العلاقات الاجتماعية والقوى الانتاجية . وبذلك ينمو ، انطلاقاً من هذه التجربة ، المفهوم الماركسي **للبنى الفوقية** .

ان الطاقة الخلاقة للجماهير العاملة ، للشعب بأسره ، تستطيع وحدها ان تتيح وتحقق التحولات في المجتمع . هذا المفهوم الماثل منذ زمن بعيد في تفكير لينين وعمله ، ماانفك يتضح . فالجماهير ، القوى الاجتماعية ، تخزن احتياطات من القوة الخلاقة . ودور الحزب ، كوسيط بين المعرفة والعمل ، ليس في الحلول محل الجماهير والقوى الاجتماعية ، بل في حفز وتوجيه طاقاتها . ان البروليتاريا والفلاحين الفقراء قادرون على الوعي ، والتعلق بالمثل الاعلى الثوري ، ونكران الذات . وذلك منذ ان يعرف الحزب كيف يقنعهم بصحة برنامج يعنى بامكاناتهم . وينتشر الوعي والمعرفة من الطليعة الى الجماهير العميقة ، فيوقظ فيها امكانات غير متوقعة . هذه الامكانات لها مظهر اخلاقي ومظهر سياسي . فالرقابة العمالية ، وحتى الانضباط ، وحس المسؤوليات تسير معاً . ودكتاتورية البروليتاريا لايمكن ان يكون لها الا هذا المعنى التاريخي : حفز النشاط الخلاق لدى البروليتاريا ، نشاط يحولها هي ايضاً اذ يتيح لها ان تكون اشكالاً راقية من العمل والحياة العملية للعامل . واذا مااستمرت الثورة وانتصرت ، فان الفضل يرتد الى الوعي الرفيع للطليعة والجماهير ، وتفانيها ، وضبط النفس ، وروح البذل ، وبكلمة واحدة الى بطولتها .

وهنا ايضاً لاقى لينين المعارضة المزدوجة من اليمين واليسار . فمعارضة اليمين كانت ترى أن خطة التصنيع والكهربة طموحة جداً . بينما كان « شيوعيو اليسار » يريدون مجرد تحويل النقابات الى اجهزة للدولة والغاء كل فرق بين الجماهير

والطليعة ، والعمل عن طريق المراسيم . وكانت الفئة المسماة فئة « المركزية الديموقراطية » ترفض مبدأ المسؤولية الشخصية لقادة الصناعة والنقل .

وقامت مناقشة كبرى حول دور النقابات ووظيفتها في دكتاتورية البروليتاريا . ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يرد فيها لينين بقوة على هجمات « التروتسكية » التي كانت تتبلور شيئاً فشيئاً في مذهب . غير ان الجدل اتخذ ، للمرة الاولى من غير شك ، شكلا عنيفاً جداً ، لأن الامر كان يتعلق - بشكل متزايد الوضوح - بمسائل عملية ، ذات اهمية بالغة وفورية ، كان يتعلق ببناء الاشتراكية في بلد واحد : هو روسيا . فاتهم لينين ، في تشرين الثاني وكانون الاول (نوفمبر - ديسمبر) ، (في جلسة اللجنة المركزية ، اجتماع مندوبي البلاشفة الى المؤتمر الثامن للسوفييتات) التروتسكيين بتحويل النقابات الى منظمات عسكرية ، وبالتالي بعزل الجماهير البروليتارية نفسها عن الحزب وتحريضها ضد دكتاتورية البروليتاريا . واتهم ايضاً الاتجاه « اليميني » بترك الجماهير لعفويتها ، وتخليه عن القيادة السياسية ، وقطعه بطريقته الخاصة الروابط القائمة بين البروليتاريا وطليعتها . وفي مقال عنوانه « ازمة الحزب » وكراس « مرة أخرى عن النقابات » - راجع المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ص ٩٢٦ ومايليها - شرح لينين دور النقابات « كمدارس للشيوعية » ، مدرسة اتحاد وتضامن ، مدرسة لادارة الدولة والتسيير الاقتصادي . وأبان ايضاً ان في ذلك تناقضات حقيقية ، اذ ينبغي على النقابات ان تدافع في آن واحد عن مصالح العمال الآنية ، وتأخذ في نظر الاعتبار المصالح غير الآنية : مقتضيات الاقتصاد القومي في مجمله . والجهة القادرة على حل هذه المشاكل لايمكن ان تكون الا الحزب .

ان النقاش الذي دار حول النقابات يؤكد مانعرفه من قبل عن فكر لينين فهو ينطلق دائماً من المبادىء المنهجية والنظرية ، من اكثر المفاهيم نضجاً ليعود

الى التطبيق ،الى الوضع المشخص ،ويأخذه في نظر الاعتبار ، وينمي هذه المفاهيم.

وأبان لينين ، خلال هذا الجدل ، ان المعارضة « من اليمـــين او اليسار على السواء » تكشف أولا ، جهلها الديالكتيك . فاليمينيون ينزلقون الى « الانتقائية » واليساريون الى التقريرية . وتضمن النص الموجه ضد بوخارين عرضاً ممتازاً للعلاقات بين المنطق والديالكتيك ، عرضاً يكمل « الدفاتر الفلسفية » .

ويطرح لينين آنذاك في المقام الاول ، وكمظهر اساسي للوضـــع وحدة الحزب . غير انه لاحاجة بنا الى ان نشير الى انه عمل على رد اقتراح في المؤتمر العاشر تقدم به ريازانوف Riazanov كان يحرم على الاقليات في الحزب ان يكون لها برنامج خاص وان تعرض هذا البرنامج على المؤتمر والحزب في مجمله .

ولئن ألح على وحدة الحزب فلأن هذه الوحدة كانت تبدو له ضرورية اكثر فأكثر لحل المشاكل الناجمة عن التناقضات التي تتكشف ، وبخاصة التناقضات بين « القديم » و « الجديد » في الواقع السوفياتي نفسه .

ذلك ان البلد كان ينتقل من حالة الحرب ، من « شيوعية الحرب » ، الى اعادة التعمير والتنمية الاقتصادية ،الى التخطيط ، الى الكهربة . .

وعلاقة البروليتاريا بجماهير الفلاحين لايمكن الا ان تتغير ، لأن محتوى تحالفها - الذي يجب الحفاظ عليه - يتغير . وهذا التحالف الذي كان موجها في السابق ضد المالكين العقاريين والبورجوازية ، ينبغي ان يتوجه نحو مهمة ايجابية ، نحو بناء الاشتراكية .

فالسياسة الاقتصادية الجديدة .N. E. P لم يكن مبعثها الوحيد في فكر لينين صعوبات الانتقال من اقتصاد الحرب الى بناء الاشتراكية، وضرورة تقديم تنازلات الى الرأسمالية . ففي أعماق السياسة الاقتصادية الجديدة ، كان المحتوى السياسي هو التحالف الاقتصادي للطبقة العاملة وجماهير الفلاحين في بناء الاشتراكية .

وكان هذا ينطوي على تنازلات للانتاج التجاري الصغير . « فاقتطاع الفائض » وهو تدبير يرتبط بـ « شيوعية الحرب » استبدل به ضريبة عينيـة ، متناقصة . واستطاع بذلك الفلاحون ان يتصرفوا بحرية في فوائضهم . ومن هنا حرية التجارة وعودة محتومة الرأسمالية ، رافقت ارتفاع انتاجية العمل الزراعي . غـــير ان نمو الزراعة اذ يسهل نمو صناعة الدولة ، فان هذه بدورها تطرد الرأسمالية الخاصة الآخذة في التكون من جديد ، وعلى هذا النحو يمكن للتراكم الاشتراكي ان يتحقق ، بنسق سريـع (وذلك ضد معارضة اليمين) دون ان يترتب على ذلك ارهاق الفلاحين وتحقيق هذا التراكم على حسابهم (وذلك ضد معارضة اليسار) .

كانت السياسة الاقتصادية الجديدة تنطوي اذن على انسحاب استراتيجي بالنسبة للاهداف السابقة ، وحلت خطة طويلة الاجل محل فكرة تحقيق الاشتراكية بصورة فورية او سريعة . لقد كان لينين والحزب البلشفي يجريان انعطافاً ، اعتبرته المعارضة هزيمة ، بل وفشلا نهائياً . اما في الواقع فقد كان الامر في نظر لينين توفيقاً خصبا ، بالمعنى الذي حدده في مؤلفه « اليسارية ، مرض الشيوعية الطفولي » (راجع الضريبة العينية ، المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، صفحة ٨٥٠ - ٨٨٧)

لقد كان للسياسة الاقتصادية الجديدة اذن ، في نظر لينين ، معنى تاريخي ونظري كبير . فقد كانت تعني بصورة خاصة ان البروليتاريا تجد نفسها ، وقد اصبحت طبقة مسيطرة ، امام تناقضات عميقة جديدة دوما . ولدى البروليتاريا وسائل حلها . وفي مثل هذه الظروف الموضوعية ، يتضح ان الحزب هو اهم هذه الوسائل واقواها . والنمو المتناسق والتدريجي للمجتمع منظوراً اليه ككل - وتحقيق التوافق بين البنى الفوقية والاساس - يتطلب هو ايضا حل المشكلات العديدة ويتحقق عبر صراعات . فالعامل **الذاتي** أي الافكار والمعارف والبنى الفوقية والدولة ، وبكلمة واحدة العنصر **السياسي** ، يصبح حاسماً . ولكن الحزب

يركز هذه العناصر ويسيطر عليها . وكلما اصبحت المسائل اكثر تعقيداً ، وكلما عمقت التناقضات ، ازدادت اهمية الحزب – بوصفه شكلا راقياً « للعامل الذاتي » والمعرفة الموضوعية – ولعبت وحدة الحزب و « الروح الحزبية » دوراً حاسماً. فالحزب لايصبح هدفاً ، غاية بذاته ، ضربا من المطلق ،كمايفكر الشراح السطحيون و « انصار اللينينية » المتشيعون لها او نقادها[1] . بل يبقى الحزب وسيطاً بين الهدف والواقع ، بين الفكرة واللحظة ، بين المعرفة والجماهير ، بين العفوية والوعي المطلع .. وما الى ذلك . ولكنه يصبح العضو الاساسي لهذا النقل والعامل الفعال الحاسم .

لقد كانت السياسة الاقتصادية الجديدة تنطوي على صراع لاهوادة فيه ، صراع حتى الموت ،في روسيا الثورية وفي ظل دكتاتورية البروليتاريا ، بين الرأسمالية والاشتراكية . وفي ١٩٢٠ كان لينين يطرح المشكلة : « لمن الغلبة ؟ » . ولكي تنتصر الاشتراكية كان يدعو الحزب الى دعم الدكتاتورية واساسها : تحالف العمال وجماهير الفلاحين ، وبخاصة الاحتفاظ بمقاليد السيطرة على الاقتصاد ، واستخدامها في اتجاه تقدم سريع ، اقتصادي واجتماعي . (راجع الجزء السابع والعشرين ، صفحة ٢٣١ – ٢٣٨) .

وكان يبين ان السياسة الاقتصادية الجديدة ، باعتبارها توفيقاً ثورياً ، تطلبته الظروف التاريخية للتحالف بين الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين ، تطرح

---

(١) راجع الكتاب الحديث ، وهو حسن الاطلاع شديد التحيز ، لـ ه . شامبر Chambre « الماركسية في الاتحاد السوفياتي» ، منشورات Seuil ، ١٩٥٥ بصورة خاصة عن لينين ، واللينينية والتحزب ، صفحة ٣٥ – ٥٠ .

مسائل ستواجه جميع الاحزاب الثورية ، في جميع البلاد ، آجلا ام عاجلا .

« **إنها مهمة ستطرح على جميع الاشتراكيين** » .

وفي رأيه ان السياسة الاقتصادية الجديد ، باعتبارها تراجعا موقتا ، قد تعطي « **جبهة اوسع من اجل الهجوم في مستقبل قريب** » . هذا الهجوم الجديد ، اذ يحقق التحويل الاشتراكي في الزراعة ، يشترط اولا زيادة القوى الانتاجية ، واقامة صناعة ثقيلة قادرة على تزويد الفلاحين بالجرارات والمحروقات والاسمدة ، وسواها .

وتحت اشراف لينين انشئت آنذاك « لجنة خطة الدولة » (غوسبلان) هدفها تحسين الخطة ، وتأمين تنفيذها وفق متطلبات بناء الاشتراكية والقوانين العامة للاقتصاد السياسي . وتولى لينين شخصياً تنفيذ خطة الكهربة (اولى المحطات التي بنيت : كاشيرا Kachira وفولخوف Volkhov) . وكتب بنفسه التعليمات الى السلطات المحلية « مهمة مجلس العمل والدفاع » ، حول مساهمتها في التنمية الاقتصادية . ومع انه كان يدفع من فوق فانه ما انفك يعطي اعظم الاهمية للحركة النابعة من تحت ، لمشاعر الجماهير وتطلعاتها . كان يتحادث مع العمال والفلاحين، ويكتب لهم شخصيا ، او يتلقى رسائل عديدة يطلع عليها بعناية بالغة . وكان يقول : يجب ان نتعلم من الجماهير ، مع تعليمنا لها :

« **لانستطيع ممارسة السلطة الابشرط التعبير بدقة عما يشعر به الشعب** »[1] .

وكان يكافح البيروقراطية والمعاملات الورقية ويطالب الهيئات القيادية باحالة « **الجريمة البيروقراطية** » الى المحاكم ، ويبدو بلا رحمة ازاء

---

(١) لينين ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الرابعة ، الجزء السابع والعشرون ، ٢٥٦

الذين يبددون او يتلفون الثروات العامة ، حتى لو كانوا من العمال . وكان يضع المبادرة فوق سائر الصفات . وهكذا فانه كان يبلغ نهاية الفكرة الثورية : ان على الناس ، بمافيهم البروليتاريون واعضاء الحزب ، ان يغيروا ما بأنفسهم ليغيروا العالم ، وبالعكس . لقد كان التحويل الاخلاقي والايديولوجي في رأيه مظهرا اساسيا من مظاهر التحويل العملي والاجتماعي . عالم جديد ، انسان جديد ، وعي جديد ، هكذا تتحدد الاشتراكية في نظره .

« يكفي مشاهدة كيف نجمتع ونعمل لكي نرى ان اوبلوموف Oblomov العجوز مايزال حيا ، وانه يجب غسله وهزه وحكه طويلا ليخرج منه شيء » . [1]

وفي عملية تحويل الانسان ذاته ينبغي على الحزب ان يلعب دورا اساسياً . كتب لينين يقول إننا الحزب الحكومي الوحيد في العالم الذي يعنى بنوعية اعضائه ، لابعددهم وحسب . ووفق توجيهاته اصبحت شروط القبول اكثر صرامة . ففترة طويلة من « الاختبار للجدد » قد اصبحت الزامية للمرشحين لعضوية الحزب ، وتختصر المدة الى ستة اشهر للعمال الذين عملوا اكثر من عشر سنوات في الصناعة الكبيرة . وقد جرت حركات تطهير ، فصلت من الحزب العناصر « البيروقراطية ، السيئة ، والمائعة . وكان لينين يعتبر حركات التطهير هذه « **مكاسب هامة للثورة** » [2] .

---

(١) لينين ، المرجع ذاته ، الجزء الرابع والعشرون ، صفحة ٤٨٤ . واو بلوموف بطل من ابطال الكاتب الروائي grontcharov . يمثل « النموذج » السلبي لروسيا القديمة : المالك العقاري ، وروتينه ، وكسله ، واكتفاءه بالقليل .

(٢) لينين ، المؤلفات الطبعة الروسية الرابعة ، الجزء السابع والعشرون ، صفحة ١٣

« ان ماحصلنا عليه مجدداً في هذا المؤتمر هو الدليل الحي على ان اعداءنا كانوا مخطئين اذ يكررون ان حزبنا قد شاخ ، وانه فقد مرونة الفكر والجسم » .[1]

ولم يكن هذا ليمنعه من ان يردد ابداً ان الشيوعيين ماتزال تنقصهم الثقافة ، والحس العملي ، وحس الاعمال . ففي عهدالسياسة الاقتصادية الجديدة ، اذ تمت المبادلات التجارية بين المدن والريف، كان على الشيوعيين أن « يمارسوا التجارة» بأشكال جديدة ، تتطلب حسا ناميا فيالتسيير والادارة والمحاسبة. كما ان تطبيق سياسة القوميات (التنظيم الاتحادي لشعوب مرتبطة بحرية) يجعل من الحزب البلشفي الرباط الرئيسي بين شعوب اتحاد الجمهوريات السوفياتية ، دعامة الوحدة ، والتخطيط . . وسواهما . ان المهام كانت تتراكم :

« مراقبة الناس ، مراقبة تنفيذ المهام ، هنا تتمركز عقدة العمل، عقدة السياسة[2]» .

كانت بنية لينين الجسمية متينة جداً مكنته من ان يعيش بعد الجراح التي اصابته في ١٩١٨ ان يستأنف عملا شاقاً . الا ان صحته ساءت ، في شتـــاء ١٩٢١ - ١٩٢٢ ، بصورة نهائية. وفي ايار (مايو) ١٩٢٢ اصابته نوبة اولى ادت الى شلل الجانب الأيمن وبداية عجز في النطق وفي صيف ١٩٢٢ اصابه تحسن مكنه من استئناف بعض النشاط .

(١) لينين ، المرجع المذكور ، الجزء السابع والعشرون ، صفحة ٢٧١
(٢) لينين ، المرجع ذاته ، الجزء السابع والعشرون ، صفحة ١٧٩

وفي ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) تحدث امام اللجنة المركزية التنفيذية للسوفيتات . فأعلن ان روسيا الجديدة تنطلق من مستوى ادنى بكثير من البلاد الرأسمالية المتقدمة ، إلا انها ستلحق بها وتتجاوزها سريعاً .

وفي ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) قدم لينين ، في المؤتمر الرابع للأممية ، كشف السياسة الاقتصادية الجديدة .

« ان لدينا الدليل على اننا كدولة قادرون على تنظيم تداول السلع وتنمية الزراعة والصناعة ، والمضي الى الامام » .

واعلن ان الدولة السوفياتية قداستطاعت ان تجمع ، في ثمانية عشر شهراً ، عشرين مليونا من الروبلات الذهبية ، خصصت لتنمية الصناعة الثقيلة .

« اننا نعلم اننا اذا لم ننقذ الصناعة الثقيلة فلن نستطيع بناء اية صناعة ، وسننتهي كبلد مستقل .. لقد تسلمنا السلطة باسم العمال ، ولدينا امامنا هدف ، اقامة النظام الاشتراكي انطلاقاً من هذه السلطة »[١] .

وانهى لينين خطابه (الذي القاه بالالمانية) بصعوبة .

وبعد ثمانية أيام خطب امام سوفيات موسكو ، ليعلن :

« لقد ادخلنا الاشتراكية في الحياة اليومية ، وينبغي ان نحقق ذاتنا فيها . تلك هي مهمتنا اليوم . انهامهمة عصرنا » .

وكانت هذه آخر تظاهرة عامة للينين ، وخطابه الاخير . ففي ١٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٢ عمل للمرة الاخيرة في مكتبه بالكريملين . الا انه استطاع في مطلع عام ١٩٢٣ ان يملي سلسلة من المقالات الهامة : مسودات

---

(١) لينين ، المؤلفات الطبعة الروسية ، الجزء السابع والعشرين ، صفحة ٣٥٠ .

المفكرة »[١] ، حول ثورتنا ـ كيف ننظم التفتيش العمالي والفلاحي . من الافضل أقل شرط ان[٢] . احسن . (ان نحقق القليل لكن بصورة اجود) .

• في النصوص الاخيرة نبه لينين بالحاح الى الخطر الكبير الذي يهدد المجتمع السوفياتي وبناء الاشتراكية ، وهو البيروقراطية [٣] . ويشير الى المسائل الجديدة :

« ان وجهة نظرنا في الاشتراكية قد تغيرت جذرياً . ففي الماضي كنا نركز نشاطنا على النضال السياسي ، والثورة والاستيلاء على السلطة . اما اليوم فان مركز النشاط قد تغير . انه ينصب على العمل السلمي للتنظيم الثقافي . . . هذه الثورة الثقافيـــة تتجلى بالنسبة لنا في صعوبات لاتصدق »[٤]

« ان الامور في جهاز دولتنا بدرجة من السوء ، ان لم نقل انها مقيتة ، بحيث يترتب علينا اولا ان نفكر جديا كيف نكافح اخطاءه . . . ويكفينا ، كي نبدأ ، ان تكون لدينا ثقافة بورجوازية حقيقيـة ، ان نعرف كيف نتخلص من النماذج التي توصف بشكل خاص بالثقافات السابقة لبورجوازية ، أعني الثقافة البيروقراطية او الاقطاعية »[٥] .

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، المنشورة باللغة الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٨ ، الجزء الثاني ، صفحة ١٠١٤ وما بعدها

(٢) لينين، الصفحات الاخيرة من الترجمة الفرنسية .

(٣) لينين ، المرجع ذاته ، الجزء الثاني ، صفحة ١٠١٣ ، ١٠٣١ . الخ .

(٤) لينين المرجع ذاته ، الجزء الثاني ، صفحة ١٠٢٠

(٥) لينين . المرجع ذاته ، الجزء الثاني ، صفحة ١٠٣٠

- ٣ -

فكر لينين الفلسفي

١ - المشكلات

لقد كان وضع الفكر الثوري والفكر الماركسي ، كما أتيح لنا ان نرى في فصل سابق ، في غاية التشوش في مطلع القرن .

وقد تفاقم التشوش بسبب ان « الارثوذكسيين » ، حماة الماركسية والديالكتيك ، كانوا يقفون في مواقع التقريرية (الدوغماتية) . كانوا يعتقدون انهم أقوياء فيها ، يتشبثون بها باصرار . فرجل مثل كاوتسكي كان يحفظ ماركس وانجلز عن ظهر قلب ، غير انه لم يكن يحس ، ولم يكن يعرف - بسبب انقطاع صلته بالحياة والممارسة - إن ثمة جديداً كان يظهر من مختلف الجوانب : في العلم ، في الاقتصاد ، في الحياة الاجتماعية والسياسية . وسينتقد لينين بشدة الدوغماتية الماركسية لكاوتسكي ، وهي دوغماتية لاتتوافق بالضبط مع **الديالكتيك** ، هذه النظرية التي ترى انه ليس في الطبيعة والمجتمع الا الصيرورة .

وقد ظل « الارثوذكسيون غير مبالين بالتغيرات الرائعة في علوم الطبيعة وبتغيرات المجتمع .

فالاكتشافات التي كانت تمهد مباشرة للفيزياء الذرية الراهنة (الجزيئات الالكترونية الخ) ، كانت تتحقق بدون الماركسيين ، بعيداً عن ابحاثهم وتحاليلهم . وهذه الاكتشافات كانت تهز المفاهيم السابقة عن المادة . فبين

الماركسيين كان هنـــاك من توقفوا عند مادية من طراز القرن الثامن عشر وطراز فويرباخ ، وآخرون تخلوا عن الماركسية . وآخرون ايضـاً انصرفوا الى انقاذ الديالكتيك الماركسية بحصرها في التاريخ وعلم الاجتماع ...

كيف أمكن قيام مثل هذا الوضع ؟ ان أسباب ذلك عديدة ، سواءفي تاريخ العلوم أم في تاريخ المجتمع والحركة الثورية ، وقد أوردنا بعضها . وقـد ميزها لينين وفحصها ونقدها ، واحداً واحداً ، دون اغفال أي منها (متبعاً في ذلك منهجاً ديكارتياً تحول بالديالكتيك) .

ومن الاسباب الكبيرة لذلك ان ماركس وانجلز لم يخلفا عرضاً كاملاً لفلسفتها ، « لمفهومهما عن العالم » .

هذا المفهوم عن العالم تشكل شأن اي واقع اوفكرة .

لقد تشكل ببطء ، ومـــع ذلك فقد نما أحياناً بشكل مفاجيء ، وبقفزات (كما في ١٨٤٨ مثـلاً – وفي ١٨٥٧ ، أثناء أزمة اقتصادية – وفي ١٨٧١ ، وهكذا) .

ولقد حاولنا ، في الكتاب الذي سبق هـــذا المؤلف (لمعرفة فكر ماركس ، منشورات بورداس) تتبع مراحل هذا التشكل . إلا أنه لايخطر لنا أن نخفي أن مثل هذا الجهد ليس كاملاً ، ويمكن اعادة النظر فيه . ولعـــل المناقشات – التي بدأت بالكاد – حول عدة نقاط هامة تلقي الضوء عليهـا . ان بذور المادية الديالكتيكية توجد منذ مؤلفات ماركس الاولى ، إلا ان هـذه ليست الا بذوراً . ومن جهة أخرى فان ماركس لم يستخدم قط صراحة تعبير « المادية الديالكتيكية » . ففي أي وقت يمكن اعتبارها قد تشكلت فعلا؟ولقد بدا لنا أنه يمكن اتخاذ سنة ١٨٥٨ كتأريخ . وليس هـذا لأن نصوصاً كثيرة قبل تلك السنة ، (وبخاصة البيان الشيوعي لعـــام ١٨٤٨) لا ترتبط مباشرة

بالمادية الديالكتيكية ، او لأن البـذور الأولى التي تضمنتها نظرية ماركس عن المادية القديمة (١٨٤١) لم تكن قد نمت منذ ذاك الحين ، بل لأن الديالكتيك، في تلك السنة بالذات ، قد نظر اليها ماركس **كطريقة علمية** وطبقها فعلاً على الاقتصاد السياسي والتاريخ ، وبالتالي اضافها الى المادية الفلسفية والتاريخية .

ها هو نص ماركس ، ومحله هنا بالذات ، وسنرى أن لينين ، رغبة منه في أن ينهل من ينابيع الماركسية ويعود الى الفكر الديالكتيكي في أسسه، يرجع الى ذات المؤلف الذي رجع اليـه ماركس ، وبالروح ذاتها : ان يستخرج من « **المنطق الهيجلي** » خميرتـه العقلية ، « نواته » او نفسه ، وان يحوله الى طريقة علمية .

« لقد قمت باكتشافات جميلة . لقد قذفت رغم كل شيء بمذهب الربح مثلما وجد حتى اليوم . وفي طريقة الاعداد خدمتني كثيراً صدفة بحتة : ذلك ان فريليغرات Freiligrath **اذ عثر على بعض مؤلفات هيجل تخص باكونين ، بعث بها الي . فتصفحت اذن مرة اخرى كتاب «المنطق» لهيجل. وعندما يصبح الوقت ملائماً لمثل هذه الأعمال فانني أريد أن أجعل في متناول الفهم المعادي ، في بضـع عشرة صفحة ، العنصر العقلاني في الطريقة التي اكتشفها هيجل وزيفها في الوقت ذاته »** . (رسالة ماركس الى انجلز بتاريخ ١٤ كانون الثـاني - يناير - ١٨٥٨ ، أكملت برسائل اول شباط - فبراير - و ٢ نيسان - ابريل - مع ردود انجلز في ٩ نيسان - ابريل - و ١٤ تموز - يوليو - .

وما من شك في أن الحركة الماركسية قد عانت كثيراً بسبب ان ماركس لم يكتب قط هذه الصفحات البضع عشرة .

صحيح ان انجلز قد خلف أكمل الشروح التي نملكها عن الماركسية ،

« Antiduhring » دياليكتيك الطبيعة »، غير أن هذه الشروح التي كتبت بقصد الجدل وتعليم المذهب، لا تذهب، للاسف، الى أعماق بعض المشكلات الصعبة (كمشكلة العلاقات بين المنطق والدياليكتيك) وقد لاحظ لينين ذلك: إذ يكتفي غالباً بضرب الأمثلة لعرض مباديء الدياليكتيك، بدلاً من صياغة المباديء والقوانين للعالم الموضوعي وللفكر على حد سواء. هذا ما قام به انجلز لغرض تربوي. ومن الظلم لانجلز من جهة أخرى ألا نضيف أن مقاطع كثيرة من مؤلفاته التي أعدها لثقافة ماركسية شعبية قد ذهبت شوطاً بعيداً في المجال الفلسفي. (راجع بصورة بصورة خاصة دياليكتيك الطبيعة، M. E. A.، ١٩٢٧، صفحة ١٥١ - ١٥٢ وما يليها).

ومما لاشك فيه أن لينين قد فكر في سد هذه الثغرة. هذا يفسر لنا الملاحظات المفصلة، التي اقتبسها عن كتاب (المنطق) لهيجل، وهي ملاحظات تملأ اهم « الدفاتر الفلسفية » فان هذا المشروع ظل في حالة مسودات، وحواشي يصعب على القارىء فهمها ان لم يكن فيلسوفاً محترفاً. وهي تلقي، بالشكل الذي هي فيه، اضواء ساطعة على لينين. وعمله، وعلى التاريخ الحديث والمعرفة الانسانية إجمالا.

وفي الواقع فان لينين، وبالذات في دفاتره الفلسفية، يشير الى ان الثغرة موضوع البحث، قد سدت، على نحو ما. اننا لا نملك عرضاً كاملًا على مستوى فلسفي مرض للطريقة الدياليكتيكية، لنظرية المعرفة، المنطق ولعلاقته بالدياليكتيك.

غير انه: « لئن لم يخلف ماركس مؤلفا في المنطق، فقد ترك لنا منطق « رأس المال »، وهذا ينبغي استخدامه الى الاعماق في هذه المسالة. واننا نجد، في رأس المال، المنطق والديالتيك والنظرية المادية في المعرفة مطبقة على علم. وغير مجد ان نستعمل ثلاث كلمات تدل على شيء واحد بذاته.

هكذا اخذ ماركس من هيجل ماهو صالح ، تملكه عن طريق السير به الى الامام ، (الدفاتر الفلسفية ، لينين ، مخطط منطق هيجل ، تبعاً للمنطق الصغير او منطق الموسوعة ، المؤلفات الكاملة ، الجزء الثاني عشر ٢٩١ ، وراجع ايضاً الجزء التاسع ، ص ١٣٩ و ١٧٧ و ٣٠٣) .

وما ذكره لينين عن رأس المال ، يمكن أن يقال أيضاً عن أهم مؤلفاته : ففيها فكره الفلسفي مغلفاً ، كامناً ، ان لم يكن صريحاً .

وتعاني مؤلفات انجلز الفلسفية من عيب آخر ، ليس مؤلفها عنه مسؤولا . فالوضع قد تغير منذ ان كتبت . لقد رأينا من قبل كيف توالدت الايديولوجيات والاوضاع الفلسفية في الحركة الماركسية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . هذا التنوع ، الذي يخفي تدهوراً ، لايمكن ان ينسب الى انجلز ، خاصة وأنـــه ناضل ضده الى أن مات ، وان جميع « التحريفيين » ، بلا استثناء ، بدأوا بالفصل بين انجلز وماركس ، لمهاجمة النزعة الطبيعية لدى انجلز ، ديالكتيك الطبيعة ؛ أي موضوعية الديالكتيك وشمولها . ومع ذلك فانه يمكن أن نستخلص ، من مؤلفات انجلز المذكورة (ما نشر منها آنذاك ، لأن بعضها « أخفي » لاسيما ما تعلق منه بعلوم الطبيعة) ، ان هذه النصوص لا تستجيب بشكل مرض للمشكلات الجديدة . اذ لم تكن فيها ، ولم تعد فيها ، القوة التي كان يمكن ان تمنع وقوع بعض الاخطاء والانحرافات . مما كان يتيح ـ منذ ذلك الحين ـ التحدث عن « شيخوخة » نظريات انجلز ومفاهيمه .

ما هي هذه المشكلات الجديدة ؟ كان يوجد بادىء ذي بدء تلك التي يطرحها تقدم علوم الطبيعة . غير ان ناقدي انجلز كانوا يؤثرون نقده والتخلي عن « مذهبه الطبيعي » على القيام بالبرنامج الذي رسمه في جملته المعروفة جيداً :

مع كل اكتشاف علمي كبير ، ومع كل تحول كبير في علوم الطبيعة ، ينبغي على المادية ان تراجع نفسها وتعمق ذاتها ، وتتحقق من مفاهيمها الاساسية، وتوسعها.

وكانت هناك أيضاً المشكلات المتأتية من الفكر والفلسفة غير الماركسيين .

وفي هذه النقطة كانت التغيرات ذات شأن . لخصها لينين على النحو التالي :

« **لقد وجه ماركس وانجلز بطبيعة الحال اهتمامهما الرئيسي الى اتمام الفلسفة المادية، أي المفهوم المادي للتاريخ ، لا الى نظرية المعرفة المادية . وتبعاً لذلك ، فانهما ، في مؤلفاتهما المادية الديالكتيكية ، قد ابرزا الدياليكتيك اكثر من المادية ، وألحا ، حين عالجا المادية التاريخية ، على الجانب التاريخي اكثر من الجانب المادي** ». «ان التعابير المبرزة هنا هي من فعل لينين وتعبير « نظرية المعرفة » - gnoséologie - انما يعني نظرية المعرفة والمنهجية العلمية » .

ويتابع لينين : إلا اننا دخلنا في عصر « **مختلف كلياً** ، **تخصصت فيه الفلسفة البورجوازية بشكل خاص في نظرية المعرفة والمنهجية العلمية . واذ تمثلت بشكل وحيد الطرف ومشوه بعض الاجزاء المكونة للديالكتيك (كالنسبة مثلا) وجهت اكثر اهتمامها الى الدفاع عن المثالية من تحت لا المثالية من فوق، او انشائها مجدداً** » . (المادية والتجريبية النقدية، صفحة ٣٠٣ .

وتشير هذه الجملة الى الفقرة التي سبقتها ، فالمثالية « **من فوق** » هي ، في رأي لينين ، مثالية اخلاقية او دينية ، والمثالية « **من تحت** » تبحث ، بصورة مثالية وميتافيزيائية ، في الطبيعة والعلم) .

وهكذا كان الفكر الماركسي يعاني ضعفاً مزدوجاً. فماركس وانجلز ، اللذان ألحا على الدياليكتيك، لم يخلفا رغم ذلك كتاباً مطولاً في المنطق، في المنهجية، في الدياليكتيك . انهما لم يواصلا ويعمقا بحث المادية . اما الفكر البورجوازي فكان يسعى لامتصاص الديالكتيك واحتكارها وتبنيها، وكان يوجه جهده بالضبط

ضد المادية ، ليصل الى اعادة البناء « من تحت » للمثالية الكلاسيكية ، او لشكل جديد من المثالية تشبه **المادية شكلاً** (لينين ، الصفحة ذاتها ، حول الوضعية والتجريبية النقدية او مذهب ماخ [١]) .

هذا الضعف المزدوج انتج تراخياً عاماً (وقد درسنا نتائجه ودلالته) . ان «الأرثودكسيين» انفسهم قد انكفأوا وراءالتاريخ وفلسفة التاريخ ، متخلين عن ديالكتيك الطبيعة ، والمادية «من تحت» ، مما نجم عن ذلك شيئاً فشيئاً التخلي الكامل عن الديالكتيك وتصفيتها « التحريفية » .

هذا التحليل للوضع الفلسفي في مطلع القرن سيفاجيء اولئك الذين — انصاراً كانوا للماركسية ام خصوماً لها — يتصورون انهم واجدون امامهم مذهباً متيناً ابدا ، ثابتاً ابداً ، محدداً تماماً ، مثبتاً [٢] تماماً .

غير ان هذه اللوحة او هذه الصورة لماركسية دوغماتية هي مزيفة ، بحيث ان الدوغماتية « الارثودكسية » في مطلع القرن العشرين ، اذ كانت تعتبر نفسها متينة ، ثابتة ومحددة تماماً ، قد أدت بالذات الى تردي الفكر الماركسي .

---

(١) سبق لنا ، لمناسبة المناقشات الفلسفية التي دارت في المانيا وروسيا منذ خمسين عاماً ، ان اشرنا الى تماثلها مع ما يدور حالياً في فرنسا .

والتماثل يستمر هنا : فالسيد مــيرلو — بونتي Merleau Ponty ، الاستاذ في الكوليج دي فرانس ، يجهد هو الآخر نفسه في تمثل الديالكتيك بشكل وحيــد الطرف ومشوه — وان يعيد تكوين مثالية « من تحت » الخ . وبصورة منطقية تماماً يهاجم لينين ، بسبب تناوله وتفصيله « المذهب الطبيعي » لانجلز وماركس . (مغامرات الديالكتيك ، باريس ، ١٩٥٥ ، صفحة ٨٩ وما بعدها) .

ولنسجل ان لينين كان يمكن ان يعدل تقييمه لعمل ماركس وانجلز الفلسفي لو انه اطلع على « ديالكتيك الطبيعة » .

(٢) المؤلف الذي اشتهر حديثاً في فرنسا للوكاتش (١٩٢٣) ينتمي هو ايضاً الى هذا العصر ، وهو بالضبط واحد من الشهادات الكبيرة الاهمية .

اننا لا نفتأ نكرر ان الفكر الماركسي قد انفصل، بفضل لينين، عن الجمود الارثوكسي وعن التحريفية بآن واحد وجعل المبادىء موضوع بحث . تلك هي مجموعة المشكلات التي تصدى لينين للرد عليها، وهي برنامج لم يكن ليستطيع انجازه دون ان يقوم بعودة الى المبادىء والينابيع ، والتعميق والشرح في الوقت ذاته .

لقد كان لينين (كما رأينا في الاقتباس السابق) واعياً تماماً لأهمية مهمته ، والحاحها ، وللأخطاء التي تهدد الفكر الثوري « الماركسي » . وسنرى فيما بعد علامات اخرى .

ولهذا ، فان كل عمل هام كان يحمل هذا الاهتمام المزدوج ، وهذه الحركة الداخلية المزدوجة : العودة الى المباديء النظرية والمنهجية للماركسية ، معالجتها مجدداً ، واعادة كامل قوتها لها وتطبيقها على الوقائع والمشكلات الجديدة التي كشفت عنها الممارسة والحياة ، بما يحل هذه المشكلات .

وللاسف فان لينين ، شأنه شأن ماركس وانجلز ، لم يعط ، حول بعض المشكلات الحاسمة فلسفياً ، الشروح الكاملة التي كنا نتمناها .

ورغم ان جميع مؤلفاته تتضمن « فلسفته » (اي نظرية المعرفة والمنطق والمنهجية الديالكتيكية) فانه لم يفرد للفلسفة الا مؤلفاً واحداً منشوراً ، هو « المادية والتجريبية النقدية » ١٩٠٨ ، بالاضافة الى المسودات القيمة المعروفة باسم « الدفاتر الفلسفية » .

واذ انه لم يشرح نظرياته الفلسفية فقد نجم عن ذلك عدد من النتائج والصعوبات والتشويش .

ولنضرب مثلين . ولنبدأ بنظرية **الانعكاس** . فهي تحمل الآن اسم لينين ، ويجري الحديث عن النظرية اللينينية للانعكاس . انها في الواقع موجودة من قبل لدى ماركس وانجلز ، بشكل غير صريح . ومن الواضح انه ، في نظرية

مادية ، لايمكن ان يطرح الشعور والتفكير كوقائع مستقلة او كجواهر مستقلة ، على غرار الكوجيتو الديكارتي (انا افكر ، اذن ، انا موجود ـ فانا اشارك بتفكيري في الجوهر المفكر « res cogitans ») . ومن المؤكد والمعروف ، فضلا عن ذلك ، ان نظرية الجوهر المفكر ، المثالي والميتافيزيائي ، تستتبع سلسلة من مشكلات لاحل لها ، لا سيما المشكلة الكلاسيكية في المعرفة : اذ ما العلاقة التي يمكن ان تقوم بين « الجوهر المفكر » (الفكر ، الفكر المطلق ، الشعور المتعالي كثيراً اوقليلًا) والواقع الحسي المادي ، كيف يمكنه ان يعرف هذا الواقع . ان المذاهب الفلسفية الكلاسيكية الكبرى ، بما فيها مذهب هيجل ، قد حاولت عبثاً حل هذه المشكلة . اما الفلسفة اللاحقة ، فرغبة منها في انقاذ المثالية ، انتهت الى اعتبار الشعور لا كجوهر بل كنفي للجوهر ، قوة سلبية مدمرة ، « سلبية » محضة ، « وجود » بحضور الكائن « الموجود » الواقعي ، تلك هي الوجودية المعاصرة ، أو على الأقل احد الوانها واتجاهاتها .

« ان النظرية الماركسية تتضمنها الصيغ الشهيرة :

« ليس شعور الناس هو الذي يحدد وجودهم ، بل بالعكس ، ان وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد شعورهم ... ان تجليات حياة الافراد هي التي تحددهم ... الخ » .

فالشعور ، والافكار ، والايديولوجيات البشرية ، تعكس اذن ماهم عليه الناس . هذا هو مبدأ النظرية . انها تطرح اولاً عدم ذاتية ، وعدم استقلال الافكار والايديولوجيات والشعور بوجه عام .

بعد هذا تبدأ المشكلات والصعوبات . ففي كتاب « الايديولوجيا الالمانية » كان ماركس وانجلز يلاحظان آنذاك ، (والملاحظة تفرض نفسها)

ان هذا « الانعكاس » ليس ابداً بسيطاً او آنياً او مباشراً ، وان الايديولوجيات هي « انعكاس » مبتور ، مقلوب ، مبتعد عن الواقع . ولولا ذلك لما كانت هذه ايديولوجيات ، بل معارف وعلوم . ان النظرية التي تربط الشعور بالكائن « الواقعي » ، كما هو شأن الانعكاس بما يعكسه ، سرعان ماتجد نفسها امام مشكلة ضخمة ، موروثة عن الفلسفة الكلاسيكية ، مشكلة الخطأ والوهم والظاهر . إلا ان الفلسفة الكلاسيكية كانت تعالجها في المطلق ، وتتساءل عبثاً كيف يمكن ان تخرج من تفكير مطلق ، وبالتالي صحيح مطلقاً ، (الاله ، الروح ، الفكرة) فكرة خاطئة ، ضحية ظواهر واوهام . ان المشكلة قد اصبحت تاريخية في رأي الماركسية . كيف تنشأ الايديولوجيات وكيف تنشأ المعرفة ؟ كيف ينفصل العلم عن الايديولوجيا ؟ كيف يولد الصحيح من الخطأ والخطأ من الصحيح ؟ ما العلاقة بين الظاهر والواقع ؟ كان ماركس وانجلز ، في مؤلفات عديدة ، وبخاصة في كتابهما « الايديولوجيا الالمانية » ، يشيران الى السبيل الواجب سلوكه لحل مشكلة الايديولوجيات . كانا يربطانها بتقسيم العمل ، بالفصل بين العمل العقلي والعمل المادي (العقلي الذي يفقد الاحتكاك بالواقع ، بالممارسة الخ) ، كانا يربطانها بمختلف النظم وطرز الانتاج التي اقامت طرز الانتاج والبنى الاجتماعية وسيطرت عليها ، كما يربطانها بانقسام المجتمع الى طبقات ، وهذه الطبقات تصوغ مصالحها في افكار ، في حقيقة ، في « قيم » اخلاقية اودينية ، مستخدمة بذلك ، باتجاه مصالحها (وبشكل متباين حسبما تكون في فترة صعودها او انحدارها) المعارف الواقعية المتأتية من الممارسة الاجتماعية ، من السيطرة المكتسبة على الطبيعة .

ان ماركس وانجلز لم يستنفدا هذه المسألة . **فمن الناحية التاريخية** ، وبالرغم من أن مؤلفاتهما تضمنت تحاليل عديدة مشخصة ، كان لابد من ان يستمر البحث

بعدهما عن اصل الايديولوجيات والاديان (المسيحية مثلاً) والفلسفات . اما من الناحية الفلسفية ، فكان لابد ايضاً من تحديد العلاقات بدقة متزايدةبين المقولات الكبرى للتفكير : الخطأ والحقيقة ، الظاهرة والقانون ، الظاهر والواقع ، المجرد والمشخص .. الخ . لقد بين ماركس وانجلز كيف ان العمل العقلي يجري بالضرورة عبر التجريد ، بابتعاده عن الواقع ، باغفال مجمل الحياة الاجتماعية .. الخ . إلا انهما في الوقت ذاته ، بينا بتطبيق طريقتهما ، ان التجريد العلمي لاغنى عنه ، وان المفاهيم والافكار والمقولات المجردة وحدها (مثل القيمة كمفهوم اومقولةاقتصادية : اذ كان ماركس يقول عنها إنها ذات نعومة لاهوتية) تسمح بالنفاذ الى الواقع المشخص ، وبالتالي بعكسه بصورة حقيقية . لقد خلف ماركس وانجلز اذن نوعاً من الثغرة بين النظرية التاريخية للانعكاس الايديولوجي الذي وضعا خطوطه الاساسية - ونظرية المعرفة ، نظرية الانعكاس الحقيقي للواقع . ومن هذه الثغرة بالضبط مر « الماركسيون » الذين كانوا يردون النظرية الى تاريخ للمعرفة ، الى تاريخ للايديولوجيات ، الى مذهب تاريخي اواجتماعي .

وقد ادرك لينين المشكلة تماماً . اذا اردنا ألا تتحطم النظرية الماركسية ، وان تجد مرتكزها في العلم - هذا اذا اردنا ألا تتملص منها شيئاً فشيئاً جميع قطاعات المعرفة - ينبغي ان نبين ان تاريخ الايديولوجيات يمتزج صميمياً (ديالكتيكياً) بالعملية التي ينتقل الناس بها من الجهل الى المعرفة . وينبغي اذن ألا يكون الانعكاس « او التفكير » مجرد انعكاس اجتماعي (بنية فوقية ايديولوجية) ، بل ، وفي الوقت ذاته ، وبصورة متناقضة ، انعكاساً للواقع وللعلم الخارجي. ينبغي ألا يعتبر التجريد نتاج تقسيم العمل وحسب ، وأداة المعرفة . وينبغي اذن ان نتناول من جديد مبادىء الماركسية تناولا فلسفياً ونعيدها الى اصولها ، هذه المبادىء كانت تفسر بطريقة جعلت الارثوذكسيين ينتقلون من

المقولات الاقتصادية (كتقسيم العمل) الى الايديولوجيات ، مهملين المقولات والمفاهيم الفلسفية [1] حصراً .

مما يحملنا على صياغة نظرية **الانعكاس** ، ولا يمكن ان يفهم هـذا التعبير بمعنى وحيد الطرف ، سواء كان الأمر احساسات أو مفاهيم مجردة - عن الفلسفة أو الدين - عن الفيزياء أو القانون - عن الايديولوجيات عامة والعلم - عن الفن وسواه .. الخ . وبعبارة أخرى فان نظرية الانعكاس ينبغي أن تتطور الى نظرية فلسفية متماسكة .

ان لينين ، في كتابه الفلسفي « المادية والتجريبية النقدية » ، Matérialisme et empirocriticisme قد رد النظرية الماركسية عن الانعكاس في اتجاه العالم الخارجي (الذي نبلغه عبر الممارسة الاجتماعية ، بحكم كونها «وسيطاً»، لا يعمل حسب الطريقة الكانتية كنوع من الحاجز بين الانسان والطبيعة ، بل يقيم بينهما رباطاً حياً) . ويقول لينين إن كلمة « مادة » تدل « **على الواقع الموضوعي المعطى للانسان في احساساته التي تنقل هـذا الواقع وتصوره فوتوغرافياً وتعكسه دون ان يكون وجوده تابعاً لها** » (المادية والتجريبية النقدية ، ص ١١٠) .

ان فكرة لينين واضحة جداً ، ونستطيع أن نقول إنها تفرض ذاتها ، وإنها ضرورية إذا كان العلم علماً ومعرفة للواقع الخارجي . فلكي يكون العلم ممكناً ينبغي ان تصلنا احساساتنا وصلاً واقعياً بالأشياء وان تعكسها . وبدون

---

(١) اننا نجد خطأ « الارثودكسيين » هذا عند بليخانوف ، كما نجده في قسم من مؤلفات لوكاتش G. Lukates الذي بالغ في اهمية تقسيم العمل ، والرقية الاقتصادية ، الخ . وانتقل احيانا ، مثل بليخانوف ، من المقولات الاقتصادية الى الايديولوجيا ، الى الفلسفة ، الى علم الجمال .

ذلك ينهار العلم كعلم ويرتد الى بناء، الى مجموعة اتفاقات. بذلك نقع في النسبية الصرفة، في الريبية، في اللاادرية، أو في الذاتية.

بيد ان صيغة لينين ليست كافية بذاتها. ففي الكتاب ذاته عرض بصورة لبقة وديالكتيكية عميقة حين كان يشرح فكرة انجلز، ان المعرفة الانسانية نسبية، لا على طريقة النسبية الصرفة، إذ ان كل معرفة تقريبية، مؤقتة، قابلة للتنقيح، آنية – ومع ذلك فهي تنطوي على شيء مطلق، لا مطلق لا نهاية لبعده وحسب، بل على محتوى حاضر: على نواة حقيقة سيعمل النمو اللاحق على استخلاصها ونشرها. فلا شيء مطلق، بل كل شيء نسبي: ثمة وحدة بين هذين الحدين المتناقضين. إن الديالكتيك، كما شرحها هيجل، تتضمن لحظات النسبية والنفي والريبة، إلا انها لا يمكن ردها الى المفهوم النسبي. إن الديالكتيك المادية لماركس وانجلز تحتضن النسبية، إلا انها لا ترتد اليها. (المادية والتجريبية النقدية، ص ١١٧).

بيد اننا لم نتبين بعد تماماً كيف ان معرفة نسبية يمكن ان تنطلق من احساسات تعكس الشيء الواقعي كما تفعل الصورة الفوتوغرافية أو النسخة.

فلكي تكون ثمة نسبية (ديالكتيكية) في الاحساس، ينبغي ان يكون ثمة ظاهر حتى في الاحساس، ينبغي ان يكون الاحساس ظاهرة لا مجرد نسخة عن الشيء. ينبغي ان يكون هناك تناقض، حتى في الاحساس وادراك الأشياء. ينبغي ان يكون ما هو مباشر (احساس، ادراك) من طبيعة بحيث لا نتوقف عند حدوده، وألا يحل التناقض (بين الظاهر والواقع، بين الظاهرة والماهية) إلا عن طريق وسيط أعلى: هو التفكير المجرد. ولكن هذا بدوره إذ فقد الواقع، رغم قدرته على ان ينفذ اليه، بصورة أعمق مما هو مباشر، ينبغي ألا ينفك عن العودة الى الواقع ليلتقطه ويبلغ – من خلال الظاهرات – القوانين والماهيات الموضوعية.

هكذا يعكس الواقعَ التفكير المجرد والمفاهيم المجردة ، ولكن بصورة تختلف عن الاحساسات : إذ انها تعكس الجوهري ، لا الظاهر .

ان هذه النظرية عن الانعكاس،المصاغة بصورة أوسع ،(لم نقدم منها هنا سوى جانب من بين جوانب عدة) موجودة في « دفاتر لينين الفلسفية ». وها هو أحد نصوصها البارزة . يقول لينين : حين يقارب العقل البشري الشيء المفرد ، في سبيل معرفته ، أي ليستخلص منه صوراً ومفاهيم مجردة :

« ليس هذا فعلا بسيطاً مباشراً ، ميتا،انه ليس انعكاساً في مرآة ،بل فعلا معقداً ، مزدوجا ، متعرجا – فعلا يتضمن امكانية الطيران بالخيال خارج الحياة . واكثر من ذلك ، انه يتضمن امكانية تحويل (غير مدرك ، لايشعر به الشخص) للمفهوم المجرد،للفكرة،وهي بدعة خيالية (وفي التحليل النهائي الاله) . ذلك انه يوجد في ابسط انواع التعميم وفي ابسط اشكال الفكرة العامة (كفكرة « الطاولة » مثلا) شيء من الخيال » (الدفاتر الفلسفية ، حواشي على كتاب ماوراء الطبيعة لارسطو).

ويميز لينين بعد ذلك بين الحلم الخصب وحلم اليقظة الفارغ . وكان من قبل قد ألح ، بمناسبة عرضه لنظرية المفهوم عند ارسطو، على عملية تكون المفهوم. فهذا ، بحكم كونه ينفصل عن المحسوس ، وينعزل بواسطة تجريدات كما يعزل شيئاً أو مجموعة أشياء ، فانه يتضمن ازدواجاً ، وتناقضاً ، وبالتالي امكانية نزعة مثالية .

هنا نجد اذن عناصر نظرية عميقة جداً (وديالكتيكية) عن **الانعكاس** .

ان **المفهوم** يعكس وحده بحق **الماهية** ، **القانون** ، لمجموعة ظاهرات .
انه وحده بالمعنى الدقيق للكلمة يمكن أن يكون **حقيقياً**، أي ، إنه وحده يمكن أن يكون **خطأً** (غير حقيقي) . وفوق ذلك اذا كان في محتواه – أي الماهية

التي يعكسها – حقيقيا ، بوصفه تجريداً منفصلا ومعزولا صورياً ، فهو أيضاً خطأ . وبمعنى ما اذن فهو صحيح وخطأ معاً . ثم انه بوصفه تجريداً يعكس أيضاً ضربا من النشاط الانساني ، من النشاط العقلي ، ذي اساس عملي واجتماعي . وهذا النشاط (بوصفه نشاطاً « متخصصا ») لايمر دون اخطار متواصلة ، فلكي ينفذ الى الواقع ينبغي عليه أن يبتعد عنه ، ان يترك ما هو مباشر . وهذا الازدواج الضروري يجعل الخطأ الايديولوجي ممكناً . فالايديولوجيا **تعكس** اذن الشروط الاجتماعية والتاريخية ، وانفصال العمل العقلي عن العمل المادي ، والاوضاع الطبقية . الا أن لها **في الوقت ذاته** شرطاً خاصا بها في تسلسل المعرفة. فهي ، بوصفها ضلالا ايديولوجيا وانعكاساً خاطئاً (مشوها ، مقلوبا) تنطلق من خطأ في الضبط ممكن ابداً اثناء الجهد المنطلق بما هو مباشر الى ما هو مجرد . ولكن حتى في الوهم ينبغي ان نميز بين اشياء كثيرة : بين الخيال والحلم (الذي يمكن أن يكون خصبا) – بين التخيل اليقظ وحلم اليقظة الفارغ .

أما الاحساس المباشر والشعور العفوي فهما صحيحان وخطأآن معاً . اي انهما ليسا صحيحين وليسا خطأين . فالامر كله يتعلق بما يستخلصه **التفكير** الذي يبلغ الانعكاس **الحقيقي** ، (المفهوم) ، عن طريق سلسلة من المحاولات الفكرية (من الوساطات) للظاهرات والظواهر المباشرة .

ومن المؤسف ان نظرية المعرفة هذه (وقد قدمناها هنا بخطوطها الاولى وسنعود اليها فيما بعد) هي نظرية بالغة التعقيد ، وقد ظلت مبعثرة في «الدفاتر» . لهذا السبب استطاع خصوم الماركسية (واحيانا الماركسيون ...) أن يأخذوا نظرية الانعكاس في ابسط صيغها ، ثم ان ينقضوها بسذاجة [١] . ورغم ان هذه

---

(١) كما فعل السيد ميرلو بونتي في نصوص عديدة ، وبخاصة في كتابه (مغامرات الديالكتيك) (Les Aventures de la Dialectique) ص ٩٢ : « ان على السيد لوفيفر ان يكتفي بأن يقدم الى قرائه احجية انعكاس فاعل » .

النظرية لم تشرح شرحاً عضوياً ، فهي موجودة بصورة ضمنيـــة في اولى مؤلفات لينين .

فهو في كتاب « من هم أصدقاء الشعب »١٨٩٤، يضع المنهج لكل علم يريد أن يكون علما ، ولكل « سوسيولوجيا » تريد ان تكون علمية . فكل علم ينبغي ان يتزود بعيار يسمح بالتمييز بين ما هو جوهري وبين ما هو ظاهر وظاهري ، بين القانون والعرض . بيد ان الشعور في المجتمع موجود في العلاقات الاجتماعية الايديولوجية ، في البنى الفوقية . مستحيل اذن ان ننطلق من الشعور كي نصل الى العلم . لامستحيل وحسب ، بل ان ثمة تناقضا بين الشعور والواقع الاجتماعي الموضوعي .

« لم يحدث ابدا – لا بالأمس ولا اليوم – ان تصور اعضاء الجماعة مجموع العلاقات الاجتماعية التي يعيشون في داخلها على انها شيء محدد » .

وعلى العكس فان الافراد يتكيفون بصورة لاشعورية مع هذه العلاقات ، وهم بعيدون عن ادراكها ، بحيث مثلاً :

« لم يظهر تفسير علاقات المبادلة التي حكمت حياة الناس طوال قرون الا في الايام الأخيرة » .

ثمة تناقض هنا بين الشعور وبين ما يتضمنه هذا الشعور .

« ان المادية ألغت هذا التناقض اذ دفعت بالتحليل حتى أصول هذه الافكار الاجتماعية » .

لقـــد أطلق ماركس فرضية (المادية التاريخية) اعتبرها لينين وكأنها محققة ، كأنها مثبتة علمياً بنتائجها ، أي كأنها حقيقة صحيحة معاً من كلا علم النفس وعلم الاجتماع .

« كان علماء الاجتماع يعانون حتى الآن مشقة في التمييز ، من خلال

شبكة الظاهرات الاجتماعية المعقدة ، بين الظاهرات الهامة والاخرى غير الهامة » .

فما داموا مقتصرين على العلاقـــات التي « تمر في شعور الافراد » لكي تتكون وقبل ان تتكون ، فهم لم يستطيعوا ان يكتشفوا ما هو جوهري ، القانون . ان اصحاب المذهب الذاتي (في علم الاجتماع وعلم النفس) اذ توقفوا عند هذه الظاهرات – في الشعور – لم يستطيعوا أن ينتقلوا

« من وصف الظاهرات الاجتماعية (وتقديرها من وجهة مثلهم الأعلى) الى تحليل علمي دقيق » (من هم اصدقاء الشعب؟ المؤلفات المختارة ، المجلد الأول ص ٩١ وما بعدها) .

ما هي اذن فرضية ماركس ؟ انها تقوم على طريقة ونظرية : التحليل المادي للمجتمع ولبناه الفوقية . ولا تختلف هذه الطريقة اختلافاً اساسياً عن طريقة العلوم الطبيعية ، الا بكونها توضح وتصوغ بصورة ديالكتيكية المبادىء التي لم تتم صياغتها حتى الآن ، والتي لم تبلغ بعد مستوى نظرية متماسكة للمعرفة . ان نظرية ماركس وانجلز ، خلافاً للتفسير الذي يعطيه « علماء الاجتماع » ويكافحه لينين ، (« العلماء الذاتيون ») ، لا تقوم على « مادية اقتصادية » ، بل على تحليل مادي للمجتمع في مجموعه ، من بنى فوقية – علاقات الانتاج بين الأفراد – علاقة الأفراد مع الطبيعة المادية . وهذا موضوع يختلف كلياً عن ذاك . ذلك أن « المادية الاقتصادية » ، التي صنعها علماء الاجتماع الذاتيون لمجابهة التحليل المادي ، تهمل مثلاً الاسس البيولوجية للمجتمع (العائلة وسواهـــا) . بينما الطريقة المادية الحقيقية ، لا تكتفي بأن تأخذ هذه بعين الاعتبار ، بل تحللها وتدخلها في قوانين تكتشفها . ان طريقة ماركس لا تنكر الشعور ولا البنى الفوقية ، انها على العكس ، تدرسها بوصفها ظاهرات يسمح تحليلها ببلوغ القانون .

ان للظاهرات قوانين اذن ، في الطبيعة ، كما في المجتمع . ان الظاهرة ليست هي القانون ، انها تتضمنه. غير ان تحليلا موضوعياً، يهشم الظاهرة ويفرز الجوهري مما هو عرضي منها، هو امر ضروري . ان الظاهرات تقدم سديماً (ظاهراً) تعمل المعرفة على ترتيبه . وقد اكتشف العلماء هـذه الطريقة في الطبيعة ، بالرغم من وجود الايديولوجيات ، بل وبمعارضتها ، اذ ان الايديولوجيات والتخصص قد حجبت عنهم الطابع المادي، وبخاصة الطابع الديالكتيكي، لطريقتهم . ماركس وحده قد اوصل هذه الطريقة الى علم المجتمع ، اذ صاغها بالنسبة لمجموع الواقع والمعرفة.

ان الشعور (المباشر) ، في المجتمع كما في الطبيعة ، ينتمي الى الظاهرات. فهو اذن ليس « ظاهرة ملحقة » . انـــه واقعي بوصفه **انعكاساً** لظاهرة ، وتجلياً لوقائع اكثر جوهرية ، يغلفها هو ، وينبغي علينا ان نبلغها كي نتوصل الى قوانين المجتمع . ان الشعور في المجتمع كما في الطبيعة سديمي ، لا قانون ظاهراً له ، لأنه يجب ان نحلـــه لنتوصل الى قوانينه . ان لينين لا يفصل الشعور بصفته السوسيولوجية او الاجتماعية عن الشعور بصفته البيولوجية او السكيولوجية . « المؤلفات ، المجلد الأول ، ص ٩٢ ، من هم اصدقاء الشعب » . فما هو صحيح بالنسبة للصفة الأولى صحيح ايضاً بالنسبة للثانية : **والوصف لا يكفي** بل يظل في نطاق المباشر ، الظاهري ، وفي نطاق سديم الظواهر والتجليات المتناقضة ..

ان ماركس ، اذ حلل المجتمع الرأسمالي في فترة المنافسة الحرة ، لم يكتف بأن يصف « وان ينقد » ظاهرات واشكال الشعور التي تنجم عن المنافسة (الانانية والشعور بالعزلة ، الافكار الاخلاقية والنزعة الفردية) ، رغم أنه فعل ذلك بحماسة ونقد جارح . ولكنه بلغ **الجوهر** الموضوعي لهذا المجتمع ، بلغ القوانين التي تجعل من هذا المجتمع شيئاً لا يرتد الى ذرات من الافراد عديمة الشكل، بل كلا بحال الصيرورة ، ذا تاريخ ، الخ ...

ان هذه الفرضيات النظرية ، المرتبطة بالنظرية المادية للمعرفة وبالطريقة الديالكتيكية ، قد طبقها لينين طوال حياته . ففي مؤلفاته عن الامبريالية ، والحرب والدولة ، بحث دوماً ، من خلال سديم الظاهرات ، عن قوانين هـذه الظاهرات ، ومن خلال مظاهرها عن جوهرها ، وتحت التناقضات السطحية عن التناقضات الاكثر عمقاً . ومن تشابك الافكار والايديولوجيات والمؤسسات والبرامج والنوايا الانسانية (الحسنة أو السيئة) ، اراد ان يكشف ماهو خبيء: المحتوى الموضوعي .

فكل كتاب تضمن اشارات مشخصة جداً ، تحوي في داخلها هـذه الطريقة (دون ان تفصح عنها) ، مثال :

« ان انشاء السكك الحديدية يبدو مشروعاً بسيطاً ؛ ديموقراطياً، ثقافياً ، حضارياً . . . والواقع ان الروابط الرأسمالية التي تربط بألف خيط هذه المشروعات بالملكية الفردية لوسائل الانتاج عامة هي التي جعلت من هذا الانشاء اداة اضطهاد . . » (مقدمة الطبعة الفرنسية والالمانية لكتاب **الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية**) .

على ان من الخطأ أن نحل « المادية الاقتصادية »،ولو بصورة غامضة، محل طريقة التحليل المادية . فهذه الطريقة الاخيرة ، كما قلنا ، لاتلغي الشعور ولا الافكار ولا جـدواها . انها تنكر فقط ان تختلط الظاهرات بالقانون ، اي بقانونها .

وعلى العكس فان لينين قد اعترف بالاهمية التاريخية للافكار والشعور، وبدورها الايجابي حين لاتؤثر في اتجاه الرجعية السياسية (حين لاتعود « بنى فوقية » لطراز الانتاج المدان) وحتى لو تضمنت قسطا من الوهم .

ومعلوم ان الليبراليين البورجوازيين و « الشعبيين » كانوا يعارضون الماركسية والثورة البروليتارية في روسيا .

« ان طوباوية الليبراليين تفسد شعور الجماهير الديموقراطي . ان طوباوية « الشعبيين » ، بعد أن افسدت شعورهم الاشتراكي ، قد اصبحت رفيق طريق ، والدلالة ، بل والتعبير ، الى حد ما ، عن انطلاقهم الديموقراطي . وديالكتيكية التـــاريخ هي ان الشعبيين و « تروفوديك » (الفلاحين الثوريين) يقترحون وينفذون ، كعلاج مناهض للرأسمالية ، اسلوباً رأسمالياً منبثقاً كليا عن الرأسمالية وعنيفا جدا لحل المسألة الزراعية في روسيا .. » .

(كتاب اسلوبان - تكتيكان - تشرين الاول - اكتوبر - ١٩١٢ - المؤلفات المختارة ، المجلد الثاني ، ص ٦٦٤ - ٦٦٥) .

من هذا التحليل البالغ الأهمية نجمت امكانية قيام تحالف سياسي بين العمال والفلاحين ، بين البلاشفة والاشتراكيين الثوريين في سنة ١٩١٧ . وهكذا يمكننا ان نلتقط الطابع الشديد المرونة والشديد الصلابة بآن واحد للديالكتيك اللينينية .

على ان هذا ليس سوى صورة أولى للعلاقة الديالكتيكية بين الظاهرة والقانون ، بين الظاهر والماهية ، بين التجلي والواقـــع العميق ، بين الشعور المباشر (وهو انعكاس ظاهري) والمعرفة ، بين الشكل والمحتوى ، الى آخر ما هنالك في النظرية الماركسية - اللينينية .

وسنعود الى ذلك حين نستعرض الدفاتر الفلسفية للينين .

حسبنا الآن ان نبين كيف ولماذا أقام لينين الماركسية كلياً (المادية الديالكتيكية) كمفهوم للعالم .

ب - الماركسية كمفهوم عن العالم

لقد جمع لينين - ان صح التعبير - في سلسلة من الكتابات عن ماركس والماركسية ، اجزاء المفهوم الماركسي عن العالم ، وهي اجزاء كان نظريو العهد المنتهي « عهد الأممية الثانية » قد تركوها متفرقة ، مبعثرة ، مشوهة .

وقد أبان ،استناداً الى ماركس والماركسية ، ان كل شيء لدى الانسان وان الحياة الاجتماعية ، والثقافية ، والمجتمع ، ان هذا كله **تاريخي** . والواقع ان كل شيء مكتسب ، وكل شيء ينال ، فكل ما هو انساني - حتى الشعور والمعرفة - تستطيع المعرفة الانسانية ان تتابع **تكونه** .

ومع ذلك فان المادية التاريخية والديالكتيكية لاترتد الى مفهوم تاريخي ، الى « مفهوم نسبية » . فالمشكلات التي تنشأ من فصل الطبيعة عن الثقافة ، والحياة عن المجتمع ، تأتي من تفكير غير ديالكتيكي . وهذا التفكير ،اذ يتحقق من وجود صراعات وتناقضات (بين الطبيعة والثقافة وسواهما) ،ينسى وحدة المتناقضات في صراعها ذاته ومن خلال هذا الصراع . فهو اذن يفصل ماهو موحد .

وبالنسبة لماركس والماركسية ، يعتبر فعل بني البشر في الطبيعة (القوى الانتاجية) الأساس والشرط الموضوعي للعلاقات الاجتماعية الصرفة (لعلاقات الناس ببعضهم : نمط الانتاج) . ومجموع هذه الأفعال يشكل اساس الأفكار والايديولوجيات ، واشكال الشعور والبنى الفوقية .

وهكذا فان الطابع التاريخي للعلاقات الاجتماعية لايمكن ان يكون موضوع جدل . إلا أن الفعل في الطبيعة والمعرفة ليسا ابداً خارج هذا الطابع التاريخي ،فهما جزء منه لايتجزأ ، فعال .

ان « مفكري » الاممية الثانية ، انتهازيين في السياسة ، مثاليين اوماديين عوام في الفلسفة ، قد شوهوا المفهوم الماركسي عن العالم والواقع الاجتماعي . لقد حولوه الى مفهوم تاريخي ، واقتصادي وسوسيولوجي ، وهي مفاهيم وحيدة الطرف ، غير ديالكتيكية ، وغير قادرة على الوقوف في وجه الايديولوجيا البورجوازية ، بل لقد سقطت تحت ضغط هذه .

فمن بين كتابات لينين ، التي أعاد بها للماركسية كليتها ، ينبغي ان نضع في الصف الأول مقاله الشهير عن **الينابيع الثلاثة والاقسام الثلاثة المكونة للماركسية** ، (المؤلفات المختارة ، المجلد الأول ، صفحة ٦٣ وما بعدها، المنشور عام ١٩١٣) .

« ان تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم الاجتماعي يبينان بوضوح تام أن الماركسية لاشبه لها بالنظرة الجزئية ، بمعنى مذهب منكفيء على ذاته ومتحجر ، انبثق على هامش الدرب الكبير لنمو الحضارة وقد اجاب ماركس عن الاسئلة التي اثارتها «الانسانية المتقدمة». وقام مذهبه كما لو كان « تكملة مباشرة وفورية **لمذاهب ابرز ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية** » .

فالماركسية اذن هي فلسفة وشيء آخر . هي اكثر من فلسفة : انها علم المجتمع ، وبرنامج للمستقبل قائم على هذا العلم . انها اكثر كمالا ، بل كمالها من نوع آخر بالقياس الى الفلسفات، اذ ترتبط بالعلم، وبالعمل المحول للطبيعة والمجتمع. فينابيعها الثلاثة هي بدورها العناصر الثلاثة التي تكونها ، وقد اجتمعت في «مفهوم متماسك عن العلم » جديد وتال في الوقت ذاته لخير ما ابدعته الانسانية من قبل .

ان « **المادية هي فلسفة الماركسية** » ، قد صيغت في القرن الثامن عشر

واغنتها مكتسبات الفلسفة الكلاسكية ، وفلسفة هيجل والديالكتيك ، « اعني نظرية التطور ، في أكمل وجوهها ، واعمقها ، واكثر تجرداً عن النزعـــة الجانبية ، نظرية نسبية المعارف الانسانية التي تعطينا صورة عن المادة وهي في نمو ازلي » . فالمادية التاريخية والديالكتيك لاتنفصلان ، « وكما ان معرفة الانسان تعكس الطبيعة الموجودة مستقلة عنه : ... فكذلك المعرفة الاجتماعية تعكس النظام الاقتصادي للمجتمع » .

وفي هذا المجال – اي دراسة النظام الاقتصادي – أكمل ماركس اعمال سميث وريكاردو ، واعطى نظرية القيمة (القيمة ـ العمل) اساساً علمياً مثلما اعطاها تفتحها الكامل . وحيث كان الاقتصاديون البورجوازيون يرون علاقات بين الاشياء (السلع ، المال ، رأس المال) فان ماركس قد اكتشف علاقات بين البشر .

« ان نظرية فائض القيمة تشكل حجر الزاوية في نظرية ماركس الاقتصادية » .

على أن الاشتراكية قبل ماركس ، أي الاشتراكية الطوباوية ، لم تستطع ان تبين لنا الحلول الصحيحة بالرغم من انتقادها وادانتها للمجتمع الرأسمالي آنذاك :

« ان صراع الطبقات هو اساس التطور وقوته المحركة ... فلقد كان الناس دائماً وسيظلون ابداً في ميدان السياسة مخدوعين سذجاً من الآخرين ومن انفسهم ، ماداموا لم يتعلموا أن يميزوا من وراء الجمل ، والتصريحات والوعود الاخلاقية والدينية ، والسياسية والاجتماعية ، بين مصالح هذه الطبقة او تلك »

هكذا نعود الى هذه الفكرة الرئيسية :

« ان المادية الفلسفية لماركس قد أبانت وحدها للبروليتاريا الطريق

الواجب اتباعها للخروج من العبودية الروحية التي كانت تعانيها حتى ذاك الحين الطبقات المضطهَدة » .

وفي مقال آخر ، يكمل هذا الاخير ، يشرح لينين « **المصير التاريخي لمذهب ماركس** » (المؤلفات ، المجلد الاول ، صفحة ٦٩ وما بعدها ، نشر عام ١٩١٣) . فالامر الاساسي في الماركسية هو انهـــا ألقت الضوء على الدور التاريخي العالمي للبروليتاريا . ان مذهب ماركس في الفترة الاولى لم يكن سوى واحد من فروع عديدة او اتجاهات عديدة للاشتراكية . ثم انتصر مذهب ماركس حتى عام ١٩٠٥ (الثورة الروسية الاولى) ، . « **وامتد امتدادا عرضانيا .. ان ديالكتيك التاريخ هي من الصحة بحيث ان انتصار الماركسية في المجال النظري قد أرغم خصومها على ان يتقنعوا باقنعة الماركسيين** » . وهكذا تنكرت الليبرالية العتيقة بزي الانتهازية الاشتراكية . الا ان فترة الثورات قد أتت ، وقد سبقت الثورة الروسية ثورات آسيا .

« ففي اعقاب آسيا ، بدأت اوربا بالتحرك ، ولكن لا على الطريقة الاسيوية . ان الفترة السلمية بين ١٨٧٢ – ١٩٠٤ قد انقضت الى غير رجعة ، وانفتحت امام اعيننا ازمة سياسية ... ان المرحلة التاريخية الـتي ستبدأ الآن ستحمل للماركسية ، مذهب البروليتاريا ، انتصاراً اكثر روعة » .

ج - المادية والتجريبية النقدية

أعلن لينين عن هذا الكتاب الهام في مقال ، نشره عام ١٩٠٨ ، تحت عنوان « **الماركسية والتحريفية** » ، وقد هاجم فيه بعنف جميع « **الوان التحريفية والانتهازية** » ، بعد أن ربطها بعضها ببعض ، ونقد اساسها النظري (اي **الفلسفي**) . فالاشتراكية السابقة على الماركسية قد دحرت . الا انها واصلت نضالها بوصفها تحريفا ، لا فوق ارضها الخاصة ، بل فوق ارض الماركسية الاكثر شمولا ، ومهما تكن اشكال التحريفية ، فلسفيا واقتصاديا وسياسيا ، فانها تستعين بمفاهيم ليبرالية مهترئة . ان ماهيتها تتجلى في هذه الكلمة « المجنحة » لبرنشتاين :

« **ان الهدف النهائي ليس شيئا . الحركة هي كل شيء .** » .

ومثل هذا يتيح تلونات في الموقف لا حصر لها ، مع إهمال المصالح الحيوية للبروليتاريا والسمات الاساسية للنظام الرأسمالي ، منظورا اليه كمجموعة . ان مسألة « الهدف النهائي » ، اعني مسألة السلطة ، تحدد في الواقع المراحل والوسائل - اعني الحركة - كما تحدد الانتهازية والتحريفية (سياسية أو فلسفية) . ان لهذه المواقف جذرا اجتماعيا ، الامر الذي يجعل منها ظاهرة عالمية ، لا مفر منها في المجتمع الرأسمالي ، ظاهرة اكثر عمقا من الخصائص القومية ودرجات نمو الرأسمالية فالى جانب البروليتاريا توجد في الواقع « الفئات الواسعة » للبورجوازية الصغيرة .

« **ان الانتاج الصغير قد ولّد وما يزال يولد الرأسمالية باستمرار** » .

ومن ناحية اخرى فان المنتجين الصغار ، الذين ولدوا على هذه الصورة ، يلقى بهم دوما في البروليتاريا . ان هذه ظاهرات متناقضة . ان الانتاج الصغير يحافظ على بقائه ، وبخاصة في بعض الفروع (الزراعة - وايضا الصناعة ، وسواهما) ، ومع ذلك فكل خطوة الى الامام نخطوها بفضل التقنية والعلم تهدد اساس الانتاج الصغير . والعلم الاقتصادي يحلل المظاهر المعقدة لهذه العمليات ، بينما نجد علم التحريفيين

المزيف يعمم بتحيز وقائع مأخوذة خارج ارتباطها بمجموع النظام الرأسمالي .

ويرى لينين ان فترة الرجعية الستوليبينية (كتب هذا المقال عام ١٩٠٨) ليست سوى فترة عابرة ، وان « **نضال الماركسية الثورية العقائدي ضد التحريفية** » ليس سوى تمهيد لمعارك البروليتاريا الكبرى « **في زحفها نحو النصر الشامل** » .

في ذلك الحين وزع لينين كراسة بسيطة ، موجهة « ضد التحريفيين » من انصار كانت وبركلي وهيوم الجدد ، وهم (انصار لكانت وبركلي وهيوم بشعور اولا شعور ، اي انهم مثاليون) - راجع المؤلفات المختارة ، المجلد الاول ، صفحة ٧٥ - ٧٦) .

لماذا اصبحت الكراسة المشار اليها سفرا كبيرا ؟ لأن الاتجاهات التحريفية وضغط الايديولوجيات البورجوازية قد أدت الى « **ازمة حقيقية للماركسية** » .

على ان ازمة الماركسية هذه لم يكن لها سوى وجه سلبي ، فمن تراخي الفكر الماركسي او من خلال الماركسية ذاتها كان يمكن رؤية ظاهرات اكثر عمقا . ان ثورة ١٩٠٥ لم تتمكن من الانتصار ، لفقدان الشعور السياسي بصورة خاصة . وفي السنوات التالية كانت « **ديالكتيك التطور التاريخي** » قد بلغت حداً اصبح الامر بالنسبة اليها ان تتمثل التجربة الثورية .

« لأن الماركسية ليست عقيدة ميتة ، ولا مذهباً مكتملا ، جاهزاً ثابتاً ، بل دليلا حياً للعمل ، فهي لاتستطيع الا ان تعكس التغير ، الفريد في سرعته ، لشروط الحياة الاجتماعية . ولقد نتج عن هذا التغير تفسخ عميق ، وبلبلة ، وتأرجح من مختلف الانواع ، وبكلمة واحدة ، ازمة داخلية خطيرة للماركسية ... ان اوسع فئات الجماهير ، التي لا تستطيع ان تتجنب الماركسية لصياغة مهامها ، قد تمثلتها في الفترة السابقة تمثلا جانبياً مشوهاً ... ان اعادة النظر بجميع القيم في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية قد أدى الى « اعادة النظر » بأكثر مبادىء الفلسفة الماركسية تجريداً وعمومية » .

وهكذا انتشر نفوذ الفلسفة البورجوازية (وخاصة فلسفة العلوم ، التي صاغها في النمسا ارنست ماخ الفيزيائي الفيلسوف معاً) بين الماركسيين كالوباء :

« واصبح موضوع بحث من جديد القيام بعمل جريء للدفاع عن مباديء الماركسية » (المختارات ، المجلد الاول ، ص ٥٧٧).

فكتاب لينين يجيب اذن عن أسئلة مطروحة ، في فترة تاريخية معينة ، وفي شروط اجتماعية محددة ، يطرحها أناس يعيشون في تلك المرحلة وهذه الشروط ، ويحاولون فهم ما يجري حولهم .

غير أن مرحلة التخمر والتحول التاريخيين الملحوظين بصورة غامضة (ان لم يكن من خلال التساؤلات والشكوك والازمات المتعددة الفردية او غير الفردية) ان هذه المرحلة التي تخفي تجلياتها السطحية معناها العميق ـ حسب رأي لينين ـ اي الانتقال من الرأسمالية الكلاسيكية الى الامبريالية ، ومن الانتهازية الى عصر الثورات ـ قد شهدت ايضاً تحولا عميقاً في علوم الطبيعة .

فالناس الذين يفكرون يتساءلون بآن واحد حول الطبيعة والمجتمع . انهم يمزجون بالضرورة بين هاتين المجموعتين من الاسئلة ، اذ أنهما لا يمكن ان تنفصلا فعلا . فيحدث اذن ان ترتكس الصعوبات في تفسير الاكتشافات الخاصة بالطبيعة على طريقة فهم التاريخ والمجتمع . وبالعكس .

وفي مطلع القرن العشرين ، كانت الفيزياء « الحديثة » التي بدأت آنذاك ارتيادها الخارق للاجسام المتناهية الصغر تهز المفهوم القديم عن « المادة » والطبيعة . كيف يمكننا الابقاء على مفهوم عن المادة محدد فقط بالعطالة ، بالكتلة ، بالشكل بالحركة ، بالمرونة ؟ ان علم الطاقة والنظريات الالكترونية كانت قد جعلت هذه المادية غير مفهومة ولا مقبولة . ومن المفارقة ان الفلاسفة ، « وفلاسفة العلوم » ، كانوا يقربون المادة من الانطباعات الحسية او من الاحساسات المتحركة ، بدلا من ان يفترضوها ، كما في السابق ، ثابتة خلف هذه الاحساسات . لقد محضوها صفات وحركة

ونسبية ، أعني انهم لم يسبغوا عليها الا « وجوداً » ظاهرياً . فكانوا يقولون، مع ماخ وحاشيته ، ان المادة ليست اكثر من مجرد الاحساسات التي تكشف عنها . فليس لها وجود خارج عنا . وبين الشيء والذات – الانا المفكرة –يوجد ترتيب ثالث ، شكل ثالث من الوجود ، هو بالنتيجة الوحيد الواقعي والمشخص ،المعطى لنا في الانطباع الحسي وعن طريقه ، كظاهرة،دون ان يضاف اليه شيء اويحذف منه شيء ، فبين المادية والروحية والمثالية ثمة طريق ثالثة ..

ان هذا الهجوم على المادية باسم الفيزياء « الاكثر حداثة » لم يخلُ من ترك أثره على مستوى العلوم الاجتماعية والتاريخية . فقد أفاد منه التحريفيون ، طبعاً ، في حججهم . وكانوا يجادلون بهدف التخلي عن المادية وعن الطريقة المادية في جميع الميادين .

كان ينبغي اذن التخلي عن المادية على طول الخط ، او اعادة النظر بها، وتعميقها ، (كما أعلن عن ذلك انجلز وفكر به) استناداً للاكتشافات الكبرى عن المادة .

وكانت تلك مهمة على قدر من الاهمية بحيث ان هذه الاكتشافات قد استتبعت - اضافة الى اسباب اخرى كثيرة – لامجرد « ازمة للماركسية » ، وتحريفية سياسية فلسفية وحسب ، بل « ازمة للعلم » ، للفيزياء ذاتها .

«اننا أمام انقاض المبادىء الحقيقية،امام انهيار للمبادىء الحقيقية»

(**هنري بوانكاري** H. Poincaré ، **استشهد به لينين**) .

ان المادة تتلاشى :

« ان واقعاً مستقلا استقلالا كلياً عن الفكر الذي يراه او يحس به هو امر مستحيل » (**هنري بوانكاريه ، قيمة العلم ، ص ٩ ، استشهد به لينين**) .

لم يبق هناك سوى معـــادلات (هي من بناء الفكر) و « مركبات » احساسات ..

لقد حلل لينين في كتابه اذن « أزمة العلم » المزعومة هذه ، او « أزمة الفيزياء الحديثة » .

ورغم ان الوثائق الضخمة التي طالعها تحمل تاريخ ١٩٠٨ ، وانـه عرف بالفرضيات الأولى عن الالكترون فقط (لا عن كوانتا بلانك ولا عن نسبية اينشتاين وامثالهما) فان ثمة ثقات ممتازين من الناحية العلمية (مثل لانجفان Langevin) اعتبروا ان للتحليل اللينيني اهمية مستمرة ، وقدروا ان هذا التحليل قد أكدته فيما بعد الاكتشافات ، فهو إذن مقبول من جانب الفيزيائيين بصفتهم العلمية .

« ان تلاشي المادة يعني ان الحد الذي كنا نبلغه في معرفتنا للمـادة قد تلاشى ، وان معرفتنا قد عمقت : فالخصائص التي كانت تبدو لنا في السابق مطلقة ، ثابتة ، اولية (كعدم التداخل والعطالة ، والكتلة) ، قد تلاشت وتبين اليوم انها نسبية ، وانها داخلة حصرا في بعض حالات المادة(ص٢٣٨) »

وبتعبير آخر ، ان « أزمة » العلم المزعومة ، أزمة الفيزياء، ليست سوى ظاهر ينطوي على واقع مزدوج ، على أزمـــة واقعية مزدوجة : أزمة المادية الميكانيكية (غير الديالكتيكية) — وازمة الايديولوجيا البورجوازية .

وقد اكتشف العلماء (الفيزيائيون) المادية الديالكتيكية :

« ان ماهية الأشياء او جوهرها هما بدورهما نسبيان .فهما لايعنيان سوى المعرفة العميقة التي يبلغها الانسان عن الاشياء : ولئن لم تتجاوز هذه المعرفة في الماضي حدود الذرة ، ولم تتجاوز اليوم الأثير أو الالكترون،فان المادية الديالكتيكية تلح على الطابع الانتقالي والنسبي والتقريبي لجميع صوى المعرفة المتزايدة عن الطبيعة بواسطة عـــلم الانسان . فالالكترون لاينضب معينه ، شأنه شأن الذرة . كما ان الطبيعة لانهائية..»(ص٢٣٩) .

وهكذا فان « **الفيزياء المعاصرة في حالة انتقال** » . انها قد «**ولدت المادية الديالكتيكية**» . غير ان العلماء لا يعلمون ذلك؛ فهم من ناحية يجهلون الديالكتيك (اضافة الى ان فلاسفتهم يتمثلونها بصورة شوهاء) . وهم من ناحية اخرى يحذرون من الديالكتيك ، باسم عقيدتهم الطبقية . انهم يتجهون إذن نحو المادية الديالكتيكية « فالأزمـة » ثورية ، انها تمثل **الثورة في الفيزياء** . بيد ان هؤلاء العلماء يتجهون نحو المادية الديالكتيكية رغماً عنهم بطريق ملتوية ، خطوة الى الامام واخرى الى الوراء ، دون ان يعرفوا ذلك . وهم أثناء ذلك ينهلون من المثالية ، لأن النسبية مثلا المفروضة على الفيزيائيين « **اضافـة الى جهلهم بالديالكتيك ، تؤدي حتماً الى المثالية** »، أعني الى انكار الطبيعة ، والمادة ، والعالم الخارجي ، والواقع المستقل للتفكير والشعور الانساني . والواقع ان علماء بورجوازيين هم الذين أتموا « الثورة الحديثة » في علوم الطبيعة (بينما أتم هذه الثورة ماركس في ميدان الفلسفة والعلم الاجتماعي) . فبفضل هذه العقول الكبيرة حققت الفيزياء قفزة الى الأمام — هذا بالرغم من كون المجتمع البورجوازي يقدم علائم تفسخ — ورغم ان الايديولوجيات البورجوازية قد أصبحت ايديولوجيات دفاعية ، وأوهاما طبقية غريبة عن الواقع . ومن بين التناقضات التي تقود هـــذا المجتمع الى نهايته تتجلى التناقضات بين الايديولوجيا والعلم ، بين الايديولوجيا والتطبيق ، بين الايديولوجيا والواقع .

هؤلاء العلماء محتاجون اذن الى ان « يفكروا في علمهم » . لأن اكتشافاتهم بذاتها لا تتعلق بافكارهم ، فهي ليست بنى **فوقية للمجتمع البورجوازي** ، انها معارف ، « **تعكس** » كما يقول لينين ، جزءاً من الواقع . مع ذلك فلا الفيزياء ، ولا المعارف الجزئية التي تبلغها ، تكفي او يمكن عزلها . ان الفيزياء علم متخصص ، والمعارف التي تبلغها هي جزئية . والفيزيائي يحرص على ان يظل ضمن اختصاصه ، وان يعتكف في داخله . ولكنه ، حتى حين « يفكر » ويبرر هذا الاعتكاف ، فهو في حاجة الى فلسفة ، الى

ايديولوجيا (وضعية، تجريبية) . ان العالم بحاجة الى ان يفكر في علمه، فالفلسفة والعلم لايمكن ان يفترقا . ماذا يحدث اذن ؟ ان البورجوازي يحاول « التفكير في علمه » استناداً الى افكار طبقته ، المثالية ، الصوفية ، والذاتية .. الخ . انه ، بصورة عفوية ، يحكم بأن امامه جسماً ينبغي عليه ان يدرسه : واقعاً مادياً . ولكن هذه المادية العفوية «الساذجة» للعلماء لاتكفي ، مثلما لا يكفي العلم والتقنيات المتخصصة التي ترتبط بها هذه المادية العفوية . فهي لم تبلغ بعد مستوى فلسفة متماسكة . فيمكنها اذن ، لو انبرت ، وأتي لها (من الخارج) بنظرية متماسكة عن المعرفة ، ان تتطور في اتجاه المادية الديالكتيكية . الا ان العالم يستطيع بدوره ان يعتمد على المثالية والصوفية والذاتية . فهو يشعر بذلك انه في وضع حرج ، فايديولوجيته وفلسفته تتصارعان مع قناعته « الساذجة » ، العفوية ، السابقة على الصياغة الفلسفية . ففي شروط مجتمع الطبقات وصراع الطبقات نجد ان التفسيرات المتناقضة (بعضها مادية ، والاخرى مثالية او مشوشة) للاكتشافات الواحدة ممكنة . ثم ان الايديولوجيا لاتستطيع ألا ترتكس على مناهج العلوم ، وعلى معالجة المفاهيم العلمية والمشكلات . ان الايديولوجيا البورجوازية المتناقضة مع العلم (المثالية التي تنكر موضوع العلم ذاته : أي الطبيعة المادية والحركة التي لايمكن ادراكها دون محمول مادي) تؤدي اذن الى ازمة « للعلم » . وهذه الأزمة كما قلنا ليست في الظاهر سوى ازمة داخلية للعلم ، ومردها ، في احد وجوهها الهامة ، الى تفاعل حتمي في تفكير العلماء بين البنى الفوقية الايديولوجية للمجتمع البورجوازي والمعارف الجديدة عن المادة :

«ولكن ألكم الحق في ان تتحدثوا عن هذه المادة ؟ اننا ننكر عليكم هذا الحق ! » .

مثل هذا يمكن ان يكون الاعتراض المسبق لفيلسوف حديث على غرار ماخ Mach .

ولهذا فان حجة لينين هنا تصبح فلسفياً على غاية من الاهمية . فهو قد بين ان مفهوم المادة يصبح مزدوجاً اثناء التحليل (دون ان تتمكن اشكالها او عناصرها من ان تنعزل عن بعضهااو تنفصل عن بعضها كلياً) . فثمة، من ناحية، المفهوم او المقولة **الفلسفية** ، ومن ناحية اخرى مفهوم المادة الخاصة بهذا العلم او ذاك ، كالفيزياء مثلاً ، اي المادة **النوعية** .

ان الخاصة الوحيدة للمادة **من الناحية الفلسفية** (وقبول هذه الخاصة يحدد المادية الفلسفية) هي كونها « **واقعاً موضوعياً وكونها موجودة خارج شعورنا** » (ص ٢٣٨) . ان الطبيعة لانهائية ، وهي موجودة بصورة لانهائية ، وهذا الاعتراف « **المطلق ، القطعي** » بوجودها ، خارج شعور الانسان واحساساته ، « **يميز المادية الديالكتيكية من اللاادرية والمثالية النسبية** ». (ص ٢٣٤) .

وبتعبير آخر ان المفهوم **الفلسفي** للمادة يطابق المفهوم القديم للموجود ، (متأثراً بالميتافيزياء). أما المادة فهي **ماهو** موجود قبل الشعور وخارجه . ومثل هذا المفهوم لايقول لنا ماهي ، بل فقط إنها موجودة . فالمفهوم الفلسفي للمادة هو بآن واحد اكثر المفاهيم خواء وتجريداً ، لأنـــه ليس له أي محتوى محدد ، وهو اكثرها غنى وامتلاء لأنه يدل على الطبيعة اللانهائية ، واللامتناهيةالعمق والمتعددة ضمن وحدتها .

ان لهذا المفهوم، او لهذه المقولةالفلسفية طابعاً شاملاً ، مطلقاً (بالرغم من كون هذا المطلق ليس ميتافيزيائياً) .

« لئن كان الواقع معطى لنا ،فينبغي ان نعزو له مفهوماً فلسفياً ، بيد ان هذا المفهوم قائم منذ زمن طويل ، انهمفهوم المادة ... والقول ان هذا المفهوم يمكن ان يشيخ ،هو نوع من الثرثرة السخيفة » (ص ١١٠) .

ينبغي أن نميز بعناية هذه المقولة الفلسفية للمعارف النسبية ، التقريبية ، المؤقتة ، المكتسبة من هذا العلم او ذاك (بما فيها الفيزياء) . ان لهذه المعارف تاريخاً ، وسرعان مايتجاوزها الزمن . فالمادة بمعنى **الفيزياء** كانت مزودة بعطالة ، ثم بطاقة ، لا المادة بالمعنى الفلسفي ، لأن المفهوم الفلسفي يناسب المادة معرّفة بصورة ميكانيكية مثلما يناسب المادة معرّفة بالطاقة الداخلية . ومعنى ذلك ان المفهوم الثاني **للفيزياء** قد تقدم عن المفهوم الأول ، وهو يمثل تعميقاً لمعرفتنا عن الطبيعة .

ان المعارف المكتسبة عن طريق مختلف العلوم النوعية لا يمكن ان تبلغ او تستنفد او تملأ ، ان صح التعبير (ليست هذه الكلمات سوى مجاز) المفهوم **الفلسفي** الا اذا بلغت المعرفة **المطلقة** ، اعني في ختام جهد وعمل **لانهائيين** .

ومع ذلك فعلى هذه الطريق اللامتناهية تقترب جميع المعارف النسبية تدريجيا من الحد اللامتناهي البعد ، كما يحدث للنقـــاط على منحنى رياضي حين تقترب من خط التماس . ان في كل معرفة نسبية « بذرة حقيقة » مطلقة . فهي **بآن واحد نسبية ومطلقة** . وهكذا فان الحقيقة المطلقة لا يمكن تصورها الا كنمو ومجموع لا نهاية له للحقائق النسبية . ثم ان هذه الحقائق النسبية هي معارف متزايدة العمق عن واقع موضوعي مستقل عن الفكر البشري . وكل حقيقة تتضمن ، **بغض النظر عن نسبيتها** ، عنصرا او بذرة من الحقيقة المطلقة (راجع المادية والتجريبية النقدية ، ص ٢٨٣) .

هكذا يتناول لينين من جديد المشكلة الفلسفية التي طرحها ماركس ، وخاصة انجلز . ان القضية العظمى للفلسفة ، وبصورة خاصة للفلسفة الحديثة ، هي مسألة العلاقة بين الكون والفكر ، بين الطبيعة والفكر ؛ أيها له الاولوية ، وما العنصر الثانوي التابع ؟ (راجع الصفحات ٨٢ و ٣٠٩ وغيرهما) .

حول هذه النقطة يتناول لينين نظرية انجلز من جديد . ان الجواب المقدم، بصورة غامضة او غير غامضة ، عن هذا السؤال الاساسي من قبل الفلاسفة، قد قسم هؤلاء الى معسكرين كبيرين : الماديين والمثاليين .

وهنا ، بخصوص المشكلة الفلسفية ، يجب ان نوضح السؤال بأن نطرحه كما فعل الفلاسفة الكلاسيكيون في القرن الثامن عشر : بركلي ، وديدرو . هل يعني ذلك ان بركلي فيلسوف اعظم من ديكارت او كانت ؟ لا ، إلا ان له الفضل التاريخي في انه دفع بالمثالية **الذاتية** الى نتائجها القصوى : انكار المادة والعالم الخارجي من حيث هو عالم خارجي [1] . كما ان المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر قد صاغت بوضوح تام **المسلمة المادية** .

هنا يشرح لينين فكرة انجلز ويوسعها .

ان المادية - كالمثالية - هي، من وجهة فلسفية، مسلمة . وتدل هذه الكلمة على تأكيد لامر لا يمكن البرهان عليه ، ولا حجج منطقية ممكنة له ، ومع ذلك فانه مطروح بالضرورة . وهناك مسلمتان ممكنتان، متساويتان في البدء من حيث كونهما مسلمتين ، وهما بوصفهما مسلمتين ، متعارضتان كليا : المسلمة المادية ، والمسلمة المثالية (راجع الصفحات ٥١ و ٥٥ و ٥٩ ، ١٠٧ الخ) .

لا يمكن ابداً البرهنة، بصورة منطقية، على المادية ولا على المثالية . يمكننا فقط ان نوضح المفهومين المتناقضين وان نبين تعارضهما . ينبغي اذن ان نعترف باهمية شخص كبركلي ، وان نعترف له اخيرا لكونه قد صاغ المسلمة المثالية . ذلك ان المسلمتين ترتقيان في قدمهما الى عشرات القرون ، غير ان كثيرين من الفلاسفة قد عملوا وما زالوا يعملون (وبخاصة التجريبية النقدية لماخ) ، على

---

(١) ان بركلي، مثل ماخ والمذهب الذاتي الحديث، لاينكر الاحساسات بطبيعة الحال.

تشويش السؤال ، وعلى البحث عن طريق ثالثـــة ، على القبول بالاحساسات او « التجربة » ، دون قبول المثالية ولا المادية .

ان التفكير الديالكتيكي يتجلى في مجالات اخرى « بلا ونعم » : نعم بمعنى ما ، ولا بمعنى آخر . ذلك انـه يحاول تحليل انتقال ، الانتقال من تناقض لآخر (مثال الحياة والموت) . غير ان القضية هنا هي قضية ثنائية . والجواب يأخذ الشكل المطلق لما يلي : « اما كذا واما كذا .. » . إما المثالية وإما المادية .

النتيجة : رغم ان هذه المشكلة اساسية من وجهة فلسفية ، فهي لا تحل في الفلسفة وعن طريقها فقط ، ان الفلسفة ترينا صراعا محتدما ، على مر التاريخ ، في الفلسفة وخارج الفلسفة - بين المادية والمثالية .

والصراع الفلسفي يرتبط بصراع الطبقات (في الفلسفة وخارج الفلسفة) . واتخاذ موقف فلسفي هو بصورة ضمنية او ظاهرية اتخاذ موقف من فريق ، فلا فلسفة دون فريق ، ولا فلسفة خارج الصراعات الواقعية بين البشر : بين الطبقات .

ان المادية ثورية بجوهرها . انها فلسفة الناس والطبقات الثوريين ، لأنها تقدم دوما عنصر تحليل مشخص . والمثالية بمجموعها رجعية : فقد كانت وما تزال في مجموعها فلسفة الناس والطبقات الرجعيين ، لانها تتيح وتبرر انكار المشكلات الحقيقية ، والتهرب والهرب .

فمعيار الممارسة وحده — الممارسة الثورية - يتيح اذن بيان معنى اتخاذ الموقف الفلسفي ، ويحول المسلمة الفلسفية الى شيء آخر غير مجرد مسلمة تعارض بشكل عقيم المسلمة المثالية في نقاش لا نهاية له . ان المسائل الفلسفية ، كما كان يقول ماركس في آرائه عن فويرباخ تحل في ميدان الممارسة .

ولئن كانت الممارسة كفيلة بحلها ، فانها مع ذلك ضرورية لإنارة الممارسة .

لأن فينا ، بصورة حقيقية وفي سبيلنا ، «**تناقضاً بين الجسمي والنفسي**»، وذلك حين نبدأ نفكر. (لينين ، ص٤١) . والمشكلة الفلسفية الأساسية لها اساس واقعي، في الحياة ، ولا تنطلق من مجرد ظاهر . فثمة تناقض حي لا يحق لنا أن نحذفه بالكلام، قد عبر عن نفسه في **المفاهيم الفلسفية** .

إن المثالية لا تدحض منطقياً . غير انه يمكن تبيان (وهذا ما فعله لينين) انها تتناقض مع كل ممارسة ، وأكثر من ذلك مع الممارسة الثورية . كما يمكن تبيان الى أي مدى تتعارض مع القناعة «الساذجة» للناس والعلماء . ويمكن تبيان معناها الطبقي، وكيف أن الايديولوجيات المضطهِدة كانت مثالية . ويمكن أن نردها الى السخف عندما نبين أنها تفضي الى الانانة ، بل الى فكرة ان لا وجود إلا للحظة الراهنة، « للانا » (راجع ص٦٧ ، ٧٧) . وبذلك نكافح ضد المثالية دون أن نهدمها ، دون أن ندحضها . إنها تتجدد باستمرار في أشكال جديدة . فكيف تدحض مسلمة او كيف تهدم ؟

وبالمقابل ، فان المادية لا يدلل عليها ، ولا يبرهن عنها . إن المادي يناضل من أجل موقفه ، من أجل فريقه . ان النقد المادي ينصب اساساً على الانتقائيات، والتوفيقات، والمثاليات، او الماديات « الخجلة » من نفسها التي لا تجرؤ على اعلان اسمها (يقول لينين ان مذهب كانت الذي يسلم « بالشيء في ذاته » إن هو إلا مادية « مخجلة » ، والتجريبية النقدية هي مثالية مخجلة ..) .

ولنكرر : ان صراع المتناقضات ووحدتها ، في نظر لينين ، من هذه الزاوية ، وفي اطار هذه القضية، يعبر عن نفسه في رفض صارم لكل من المفهومين للآخر . ان المثالية والمادية انما تعرفان الواحدة بالنسبة للأخرى ، الواحدة ضد الأخرى . ولهذا فاننا لانجد ، عندما يقع التشوش ، الا « **الفريق الحقير لما هو وسط** » ان الموقف الفلسفي موقف سياسي.

غير أننا نصل هنا الى نظرية لينين قلما وُضعت في مكانها .

إن التقابل ،أو التناقض،بين المادية والمثالية (بين المادة والشعور اوالفكر) ليس **مطلقاً** الا في بعض الحدود المحددة تماماً ، في منطقة واضحة الحدود : منطقة المشكلة **الفلسفية** الأولى أو الأساسية ، مشكلة المفاهيم والمقولات الفلسفية الأساسية .

أما خارج هذه الحدود ، فليس له الا اهمية نسبية . فهو ايضاً مطلق ونسبي بآن واحد . (راجع ص ١٢٥) .

ماذا تعني هذه النظرية التي يصعب فهمها بعض الشيء ؟

انها تعني ، في نظر لينين ، ان الفيلسوف عندما يريد **تصور** العالم ، عندما يريد الانسان العارف أن يفكر في العالم فلسفياً ،فانه لا يستطيع ان يستغني عن هذه المفاهيم ،التي هي بآن واحد مجردة جداً ومشخصة جداً : المادة ، الروح ، الوجود ، الفكر ، وما الى ذلك .

وبذلك ينتهي **بالضرورة** الى الأخذ المطلق بأخذ حدّين. مع ذلك اننا، في الواقع ، في الحياة ، نجد المادة والشعور ، الوجود والفكر ، ممتزجين امتزاجاً صميمياً، في وحدة (ديالكتيكية) . وهكذا فان كلًا منا هو بآن واحد (وان يكن ثمة نزاع) مادة وفكر ، طبيعة وشعور انساني [1] .

---

(١) وإذن فان حجة ميرلوبونتي ضد لينين لا أساس لها . فهذا الفيلسوف يعترف بأن لينين يكمل الفلسفة الكلاسيكية (راجع النص الذي سبقت الاشارة اليه في كتاب ، مغامرات الديالكتيك ، ص ٧٩) ، وهو يرى ان ذلك خطأ . ففي الفلسفة الكلاسيكية لايوجد الامعنيان لكلمة وجود : كشيء او كشعور صرف . بينما تكشف لنا التجربة (تجارب الجسم) نمطاً من الوجود ملتبساً ، لا هو شيء ولا هو شعور (راجع فنمنولوجيا الادراك ، ص ٢٣١ ، الخ) . غير ان لينين يرفض فكرة ان يستطيع الجسم « الملتبس » ان يفكر بنفسه او ان يكون مجال تفكير بهذه الصفة . ان الفلسفة تقع في مستوى المعرفة ، لا في مستوى ماهو مباشر وماهو ملتبس .

ولولا ذلك لما كان المادية **الديالكتيكية** من وجود !

ذلك لأننا ، حتى الآن ، في منطقة المشكلة الفلسفية الأساسية ، كنا نبحث في المادية والمثالية (في مفاهيمها ، في تناقضها **المطلق**) لا في المادية **الديالكتيكية** .

وثمة مذاهب أخرى تحجب وتشيع غموضاً في التناقض الاساسي، وتعتقد انها بذلك تحل المشكلة الفلسفية ، وذلك **بالغائها** .

ان المادية الديالكتيكية تتخطى المسألة عن طريق حلها . كيف ذلك ؟ عندما تبين تدريجياً (اذ لا يمكن الفصل بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية) **تشكل** الشعور ، تشكل التفكير الانساني .

إلا أن المادية التاريخية والديالكتيكية لا تنجز هذه المهمة الا ببطء ، مستعينة بجميع العلوم ، من الفيزياء او علم طبقات الارض الى تاريخ المجتمع ، والمعرفة ، والافكار. انها تعرف الشعور كانعكاس او تفكير في الوجود الطبيعي والاجتماعي للانسان ، كانعكاس لنشاطه العملي والاجتماعي ، اذن كانعكاس معقد ، يرتفع من الاحساس والادراك الى المعرفة والأفكار ، إذن كانعكاس هو نفسه فاعل .

ان اكتمال عمل المعرفة هذا يفترض اكتمال المعرفة كلها . ان هذا اذن ليس سوى حد الى مالا نهاية له، ومع ذلك فاننا نقترب منه .

وهذا يعني اننا لانستطيع ان نزيل من المسلمة المثالية كل مناسبة او ذريعة او حجة او ثغرة تتمكن هي من ان تتوضع فيها .

وهذا يعني ان المسلمة المادية لاتلغى بجرة قلم (او المادية بوصفها مسلمة اولى) ـ رغم اننا نتخطاها تدريجياً ، بوصفها مسلمة ، وذلك عن طريق العلم ،

ولانها ، هي وحدها ، تطابق المعرفة الموضوعية وتتيحها[1] . وهكذا فان المادية الديالكتيكية ليست - كالمذاهب الاخرى - جواباً عن المشكلة الفلسفية (راجع ص ٧٤) .

وهكذا تبقى المادية الديالكتيكية فلسفة ، بل انها توسع الفلسفة وتفتحها ، بقدر ماتجيب عن المشكلة الاساسية ، التي هي في الفكر الحديث من اكثر المشكلات الحاحاً ، وبقدر ماتتناول مجدداً المسلمة المادية القديمة وتعمقها وتغنيها .

الا انها لاتعود فلسفة (بالمعنى التقليدي) بقدر ماتحل المشكلة الفلسفية . فهي تربط الفلسفة بالعلوم ، بالعمل والممارسة ، باتخاذ موقف واع كلياً . انها تدريجياً تسلب المثالية كل أساس لها.

هكذا فان المادية الديالكتيكية جديدة إذ تتناول من جديد المادية القديمة (الفلسفة التقليدية) وترفعها الى مستوى اعلى ، وتتجاوزها تدريجياً . بذلك تكف عن الارتباط بمسلمة أولى ، فهي تشمل بالتدريج كل امتداد وعمق الممارسة الاجتماعية والمعرفة والعمل ، بما فيها اتخاذ موقف والأخذ به وهي بوصفها كذلك ذات موضوعية متعمقة تشمل حقيقتها وبرهانها . ان المسلمة المادية ، التي قدمت في البدء بسذاجة ، ثم انضجت وأغنيت ، تحقق ، مع المادية الديالكتيكية ، قفزة حاسمة الى الامام .

ولنعد الى الفلسفة الماضية . ان الفلاسفة ينقسمون الى معسكرين فقد كان ثمة ، ومايزال ، تياران كبيران في الفلسفة : المادي ، والمثالي . وكان (ومايزال) بين هذين التيارين صراع محتدم (راجع صص ٢١ ، ٨٢ الخ) .

---

(١) ربما امكن القول انها تتلاشى ، بوصفها مسلمة فلسفية ، ولكن بعد ان تكون قد اكتسبت مدلولها الفلسفي الكلي . على ان هذا ليس سوى تفسير للتفكير اللينيني .

هل كان لينين يريد ان يقول ان في وسعنا ان نضع على كل « مذهب » بطاقـــة ؟ وان المشكلة، هنا أيضاً ، مشكلة **تاريخ الفلسفة** ، تصاغ في ثنائية وبواسطة الثنائية ؟ وان كل « مذهب » هو إما مادي أو مثالي ؟ كلا . لقد خرجنا من منطقة الثنائية . وعلى العكس، فان صراع المتناقضات ووحدتها هنا ، في هذه المنطقة ، يتجليان في اشكال عديدة من المزيج ، والانتقالات التاريخية ، والمرور من احدهما الى الآخر ، كما يتجلى الصراع ايضا في جميع انواع التوفيق (مثل اللاادرية ، وهي نظرية تعتبر ان المعرفة مستحيلة – أو أنواع التزوير ، حين تظهر المثالية بمظهر المادية – او انواع الخطأ ، حين تحاول مادية « مخجلة » ان تظهر بمظهر المثالية) .

ان الصراع قد استمر منذ بدايات الفلسفة ، عبر تاريخها كله ، ونموها . ذلك ان ثمة نمواً في الفلسفة قد حدث ، بل وفي المثالية ، حتى في اشكالها الاكثر تعقيدا او الاكثر منطقية (حتى ديالكتيك هيجل المثالية) . واخيرا وبخاصة فقد حدث في تاريخ الفلسفة نمو في المـادية ، اغتناء ، يرتد في جزء منه الى صراعها ضد المثالية وعن طريق هذا الصراع ، وجزء منه الى نمو علوم الطبيعة وفعل الانسان في الطبيعة المادية وعن طريق هذا النمو .

هذا هو تاريخ الفلسفة في نظر لينين (اذ يكمل نظرات انجلز) .

وبذلك ننتقل الى المشكلة **الثالثة** في الفلسفة . ويميزها لينين عن سابقتيها بعناية كبيرة ، اذ ان لكل منها منطقتها ، وحدودها ، وتناقضاتها الخاصة بها . وكل منها مغلقة بالاخرى ، ومع ذلك فان كلا منها تحدد مجالاً متمايزاً عن سواه . فالمشكلة الاولى كانت هي المشكلة الاساسية الاولى ، كانت الثنائية الـــتي طرحها المفهومان « المادية ـ المثالية » . وكانت الثانية المسألة التاريخية : تشكل المفاهيم والمقولات الفلسفية ، والنزاع فيما بينها ، أي تاريخ المادية والمثالية . اما الثالثة فهي مشكلة المعرفة بمعناها الدقيق . هل تطابق مفاهيمنـا ومقولاتنا ،

وافكارنا ، شيئاً ما في الخارج ؟ هل يمكن ان يكون العالم معروفاً ؟

والحق اننا سبق ان وضعنا انفسنا في هذه المنطقة عندما عرضنا كيف تحل المادية الديالكتيكية المشكلة الاساسية . ولكن علينا هنا ان نبين بوضوح الشكل الجديد الذي يأخذه صراع المتناقضات ووحدتها . فهنا تناضل المادية ضد التجريبية ، ضد اللاادرية ، ضد الوضعية ، التي تنكر كلها امكانية المعرفة اوتضع من التحفظات ماتختفي معها المعرفة . بيد ان المادية تجد نفسها هنا ، في هذه المنطقة ، متفقة مع بعض المذاهب المثالية ، بخاصة مع مثالية هيجل الموضوعية . ولو ان هذا لايمنع من نقد المثاليةالهيجلية بوصفها كذلك (راجع ص ٨٣و٣١٠) . وسيجيب لينين في « **الدفاتر الفلسفية** » ، ويعمق هذه العلاقة .

ان المثالية لم تبد ، قبل قليل ، الا كضرب من اللامنطق لا يمكن دحضها، غير انها لامنطقية كالحلم . بيد ان المثالية تبدو لنا الآن في صورة اخرى . وهذا مايشرحه لينين في نص ممتاز من « **دفاتره** » نشر في اعقاب نشر كتاب « المادية والتجريبية النقدية » :

« ليست المثالية ، بالمعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، الا لغواً،من وجهة نظر مادية فجة ، ساذجة ، ميتافيزيائية . وعلى نقيض ذلك ، ومن وجهة نظر مادية شذبتها الديالكتيك ، فان المثالية الفلسفية هي نمو وحيدالطرف، هي تورم ، او كلام لغو ، هي احدى سمات او احد وجوه المعرفة التي تغلو في المطلق ، المنفصل عن المادة ، عن الطبيعة المؤلهة (راجع ص ٣٤٧) .

فالمثالية تورم . انها تضخم ، **لحظة** من المعرفة (راجع ص ١١٧) : إما الاحساس ، واما المفهوم والتجريد ، واما لحظة الشك النقدي وتعليق الحكم مؤقتاً . وما الى ذلك .

ينبغي اذن ان تعالج كل مثالية جديا ، لا في سبيل اتباعها ، بل لاستئصال جذورها ، - اذ ان لها جذوراً - تمتح من نسغ الشجرة الحية ، شجرة العلم .

وتتضمن المعرفة سلسلة من اللحظات والمقتضيات : الاحساس والادراك - ملاحظة الوقائع والظاهرات ووصفها - الفعل العملي - تدخل التفكير ، تشكل المفاهيم المجردة - نقد العلم المكتسب ، الشعور بنسبتيه ، التقدم الى ماهو ابعد - العودة إلى الممارسة للاختبار والتطبيق والتعميق .

وتتضمن المعرفة ان ثمة ، عبر كل هذه اللحظات ، عملية وحيدة كلية تنطلق من الجهل الى المعرفة : تقدم واقعي في معرفة واقعٍ لاينضب معينه .

افصلوا لحظة من اللحظات ، أو مظهرا ، أو عنصراً ، وانقلوها الى المطلق ، يكن لديكم تنوع من المثالية الميتافيزيائية . افصلوا الممارسة ، تكن لديكم البراغماتية . افصلوا الاحساس والظاهرة ، افصلوهما عن الجوهر او عن الشيء في ذاته ، يكن لديكم التجريبية او المذهب الحسي ، اللا ادرية او المذهب الموضوعي . افصلوا النشاط عن العالِم ، يكن لديكم المذهب الذاتي . افصلوا اللحظة عن النسبي ، عن النقد وضخموه ، تكن لديكم النسبية ،وهكذا . افصلوا الشعور ذاته ، تكن لديكم المثالية عامة .

وهكذا فان **كل مثالية تشوه وتوقف العملية الحية .**

اما المادية الديالكتيكية فانها ، على العكس ، تعرف بالعملية الكلية . انها تشمل الطريقة الساذجة للمعرفة ، التي تعرف بأنها مجمل العملية الحية للمعرفة ، دون تشويه . إلا انها ترفع هذه الطريقة الى مستوى اعلى .

ان المادية الديالكتيكية تتضمن نظرية شعور ، **أو تفكير او انعكاس فاعلين ،**

ينفذان بالممارسة والمعرفة الى واقع لانهاية لسعته التي لاتنضب ، والسيطرة عليه تدريجياً ، محولة الضرورة العمياء الى حرية .

ان الالكترون ، وهو اصغر الجزيئات ، ينطوي على ثروة لانهائية من المحتوى ، من التحديدات ، كما كان لينين يقول عام ١٩٠٨ .

ونلتقي مرة اخرى بـ « ازمة الفيزياء » . ان ثمة ازمة ، وليس من ازمة . ولو طبق علم المنهجية العلمية بصورة منطقية لما كان ثمة ازمة . وتوجد ازمة لأن ثمة معالجة غير مضبوطة . لأن الفيزياء الميكانيكية القديمة تنهار ، ولأن علم الطبيعة ينجب بجهد المادية الديالكتيكية . الا ان الازمة تنشأ عن المشاكل التي يطرحها العلم .

« **ان المحاولات الرجعية تنشأ من تقدم العلم ذاته** » (ص٢٨٢) .

اي انه يجب ، في نظر لينين ، ان نتفحص هذه المشكلات بجدية قصوى ، وألا نعالجها باستخفاف .

وهذه الاعتبارات لاتصلح الا لعلوم الطبيعة . ففي هذا المجال تتحقق الثورة الحديثة ، ثمرة العلماء البورجوازيين . اما في مجال العلم الاجتماعي فالوضع يختلف ، لأن الثورة الحديثة قد حققها ماركس وانجلز .

في مجال علوم الطبيعة توجد « ازمة » بين قوسين ، بالمعنى المجازي . وفي مجال العلوم الاجتماعية (التاريخ ، الجغرافيا ، علم النفس ، علم الاجتماع ، وما سواها) ، نجد خارج الماركسية ازمة بدون قوسين : ازمة دائمة . فالمناهج تتداخل وتتصادم ، والتناقضات يمكن حلها في نظر الايديولوجيا البورجوازية .

وقد حلل لينين هذه الازمة الدائمة في القسم الاخير من « **المادية والتجريبية النقدية** » .

ان سببها يكمن ، في نظره ، في المسلمة المثالية المشتركة لدى جميع العلماء غير الماركسيين : من مؤرخين وعلماء نفس وعلماء اجتماع ، وسواهم ، اذ انهم يضعون انفسهم جميعاً في زاوية ذاتية ، ويجعلون من الشعور واقعاً مستقلاً ، قائماً بذاته . فكيف يمكنهم اذن ان يكتشفوا قوانينه ؛ بل كيف لاينتهون الى انكار هذه القوانين ؟

ان كون كل شعور يعكس **الواقع** ، هو تأكيد ضروري انشائي ، مُضمر في المادية :

« ليس من الممكن ألا نرى أية رابطة مباشرة لاتقبل الانفكاك تربط هذا الواقع بواقع المادية التاريخية ، الذي بمقتضاه يعكس الشعورُ الاجتماعي الوجودَ الاجتماعي ... ان الوجود الاجتماعي والشعور الاجتماعي ليسا اكثر تماثلا مما هو حال الوجود والشعور بصورة عامة . وكون الناس، الذين يتصلون ببعضهم، يقومون بهذا الاتصال بوصفهم كائنات ذات شعور ، فان هذا لايستتبع ابداً ان الشعور الاجتماعي يماثل الوجود الاجتماعي » (ص ٢٩٧) .

وفي نظر لينين اذن ، ان التأكيدات الاساسية للمادية ، سواء في علوم المجتمع ام في علوم الطبيعة ، ولكن في تلك بصورة اكثر ضرورة ، تطابق المقتضيات الاساسية للمعرفة والعلم . انها تصوغ هذه المقتضيات وتسمو بها الى مستوى نظرية متماسكة في المعرفة .

د – الدفاتر الفلسفية

ان مجموعها يشتمل اضافة الى « الدفاتر عن منطق هيجل [1] » ، على حواش حول :

أ – العائلة المقدسة ، لماركس وانجلز

ب – دروس في جوهر الدين ، د. فيروبباخ .

ج – دروس في فلسفة التاريخ ، لهيجل .

---

(١) في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩ صدر عن دار النشر (غاليار) Gallimard في سلسلة « النصوص الفلسفية الكبرى » ، ترجمة لدفاتر لينين عن منطق هيجل .

وهي ترجمة ناقصة لأسباب عديدة ، اهمها ان الناشر اعتبر ان اخراج الطبعة مماثلة للاصل مكلف جداً ، بحيث استبدلت بالا سهم ، وعلامات الضم والعلامات الأخرى التي استخدمها لينين في « دفاتره »،بمجوعة من الحواشي وحواشي الحواشي فيإسفل الصفحات، وهي طريقة معقدة تزيد في صعوبات النص .

ولم تلق طبعة عام ١٩٣٩ ، ان صح هذا التعبير ، حظاً طيباً . فقد جاءت اولاً في وقت مبكر بالنسبة لحال الدراسات الماركسية في فرنسا ، ولنفوذ الماركسية . فلقيت اهمالاً كلياً . ولم تحظ الا بالقليل جداً من المقالات والتعليقات . ولم يبع منها الا عدد قليل جداً من النسخ .

ثم كان لها – بطبيعة الحال – شرف المثول على « قائمة اوتو » ، للمؤلفات التي منعها الهتلريون وصادروها . لذلك لم يعثر منذ زمن طويل على نسخ منها في السوق . وكان في طليعة هذه الترجمة مقدمة طويلة تزيد على ماية صفحة ، وهذا النص ، المكتوب عام ١٩٣٥ ، ما يزال صالحاً .

وقد ظهرت حديثاً طبعة كاملة في فرنسا (المنشورات الاجتماعية Ed . Sociales ١٩٥٥) .

د ـ تاريخ الفلسفة ، لهيجل .

هـ ـ هيدراقليطس ، للاسال .

و ـ ما وراء الطبيعة ، لارسطو

ز ـ الفلسفة الحديثة ، لأبل ري

حـ ـ المادية الديالكتيكية ، لديبورين ، ومؤلفات اخرى ذات اهمية ثانوية .

ط ـ واخيراً فكرة سبق نشرها في اعقاب كتاب **«المادية والتجريبية النقدية»** ، الطبعة المتداولة .

في هذه المجموعة ، الواسعة المشتتة ، يتركز الاهتمام على فقرات عن هيجل ، وبخاصة الفقرات المتعلقة «بالمنطق» . بيد ان عزل هذه الفقرات يكون خطأ جسيما . اذ ان الفقرات الاخرى تهيء ،وتشرح ، وتعمق النصوص اللينينية عن «المنطق» ،التي تكون بحد ذاتها عرضاً عميقاً وغنياً ـ وان يكن جزئياً ـ **للديالكتيك** وللنظرية المادية في المعرفة .

لنتناول اولاً الملاحظات عن **«العائلة المقدسة»**. ان لينين يأخذ من هذا المؤلف الفقرات التي تهمه ، لأنها تبين الانتقال من الفلسفة الهيجلية الى الاشتراكية :

« انها تبين ما اكتسبه ماركس وكيف اتجه نحو مفهوم جديد » . وتبرز بعض الفقرات مفهوماً **« كاد يتكون لدى ماركس عن الدور الثوري للبروليتاريا »** . ولا يعني ذلك ان المؤلفين الاشتراكيين **« يعتبرون الكادحين كآلهة، فالعكس هو الأصح »** . ان البروليتاريا والثروة هما على طرفي نقيض . ويشكلان كلا، بوصفها كذلك ،حسب رأي ماركس وانجلز .

ان البروليتاريا هي :

« الوجـه السلبي للتناقض .. ان الطبقة المالكة وطبقـة البروليتاريا تمثلان السلب ذاته للانسان . بيد ان الاولى ترتاح وتحس بصحة هذا السلب .. بينا تحس الثانية بأنها مبادة بهذا السلب . حقا ان الملكية الخاصة ، في حركتها الأقتصادية ، تتجه من تلقاء ذاتها الى تلاشيها ، غير انها تفعل ذلك فقط بفعل تطور مستقل عنها ، لا شعوري ، يتحقق ضد ارادتها وتحكمه طبيعة الشيء ، اذ تولدها فقط البروليتاريا بوصفها بروليتاريا ، اي البؤس الشاعر ببؤسه .. ان البروليتاريا تنفذ الحكم الذي اصدرته الملكية الخاصة على نفسها عن طريق توليد لبروليتاويا » .

ان ملاحظات لينـــين هذه ترتبط مباشرة بأشهر نصوصه عن ماركس والماركسية : بمقال « الينابيـع الثلاثـة والأجزاء الثلاثة المكونة المـاركسية » (المختارات ، المجلد الاول ، ص ٦٣ وما بعدها طبعة ، اللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٨) ومقال في موسوعة غرانا Granat . وقد درس لينين في « العائلة المقدسة » تشكل الماركسية ، عن طريق التجاوز النقدي

« لخير ما ابدعته الانسانية في القرن التاسع عشر ، الفلسفة الألمانية ، والاقتصاد السياسي الانجليزي ، والاشتراكية الفرنسية » (المختارات ، المجلد الاول ، ص ٦٤) .

وفعلاً فاننا نجد في « العائلة المقدسة » الخطوط الاولى لنقد الاقتصاد الكلاسيكي . (إن « **لغة الاقتصاد** » هي دوماً « **لغة الضياع** »)، إلا أننا لانجد في هذ الخطوط الاولى علم الاقتصاد الجديد الاعلى شكل بذرة ، اضافة الى النقد الانساني للاقتصاد الكلاسيكي .

ويشدد لينين على موقف ماركس من برودون ، فهو يدافع عنه ضد هجمات

اليسار الهيجلي (« **نقد النقد** ») ،إلا انه يأخذ عليه انه يريد حذف « **الضياع الاقتصادي من داخل الضياع الاقتصادي** » .

كما أن لينين يبرز أهمية مقطع طويل عن المادية الفرنسية ، « من أثمن مقاطع الكتاب » . انه مقطع ينطوي بآن واحد على ثناء ونقد ، ويسجل عظمة المادية الفرنسية وحدودها .

وأخيراً فان لينين يستخلص وينقل بعناية في دفاتره، كل ما يتعلق بهيجل .

ان هيجل من ناحية ،وبخاصة في كتابه « الفينمنولوجيا »

« **يجعل من الانسان الانسان الذي يشعر ذاتـه ، بدلا من ان يجعل الشعور بالذات شعور الانسان بذاته ، الانسان الفعلي ، والذي يعيش بالتالي في عالم موضوعي فعلي يتأثر به** » .

وبذلك فان **الفنمنولوجيا** تفضي منطقياً الى احلال **المعرفة المطلقة** محل الواقع الانساني . ان المثالية الهيجلية « **تضع العالم على رأسها** » .

ثمة اذن عند هيجل ، عناصر ثلاثة ، الجوهر السبينوزي ، الشعور بالذات الفيختي[1] ، والوحدة الهيجلية لكليهما ، وهي متناقضة بالضرورة : اعني الفكر **المطلق**. وقد وسع شتراوس Strauss الشكل الأول ، ووسع باور Bauer « **نقد النقد** » الشكل الثاني ، أي أن هذين المنتسبين الى الهيجلية قادا بصورة منطقية ومتماسكة كلا من هذه العناصر الى مساره **الوحيد الطرف** ، انهما لا يمثلان إلا جانباً من الهيجلية . وفيرويباخ هو وحده أول من : « **أكمل نقد هيجل من وجهة هيجلية ، اذ حل الفكر المطلق الميتافيزيائي في الانسان الواقعي على اساس الطبيعة** » .

لقدمتك فيرويباخ سر « المذاهب » . واليـه يعود الفضل في تقويض

(١) نسبة الى فيخته (المترجمان) .

ديالكتيك المفاهيم ، وحرب الآلهة والفلاسفة (وهي تعابير لانجلز من فقرة كتبها)، وفي احلال الانسان الحي محل الركام القديم .

ومن ناحية أخرى ، فان نقد الفلسفة التأملية (مع المثال المشهور عن فكرة الثمرة في مواجهة الفواكه الواقعية) يستدعي ملاحظة يعتبرها لينين اكثر اهمية ، ذلك ان هيجل غالباً ما: « يقدم، في سياق عرضه التأملي، عرضاً واقعياً يلتقط الشيء بذاته » .

ولا يتردد لينين في العودة الى هذه النقطة ، والالحاح على مقاطع ماركس المثنية على هيجل . ان هيجل ، حتى في كتاب الفنمنولوجيا (وهو اكثر مثالية بكثير من كتابه المنطق ، يقدم احياناً ، خلافاً لمذهبه (لمثاليته) ، خاصة واقعية العلاقات الانسانية ، بينما لا يقدم باور ونظريو الشعور المحض بالذات الا كاريكاتوراً خاوياً .

ولنلاحظ هنا ان لينين لا يتردد في الحكم بقساوة على بعض الصفحات عند ماركس : فقد سجل مثلا « انه نقد مماحك وممل » ، أو « ملاحظات جذرية من ماركس إلا انها عديمة الفائدة » .

وبعبارة أخرى، فان لينين ، بحيويته ووثوقه باحكامه، قد ميز واستخلص لنا ماهو جوهري في هذا الأثر . وهو يقدم الخلاصة ، التقييم الاساسي : ان ماركس يقترب من فكرته الاساسية ، وهي دور العلاقات الاجتماعية في الانتاج .

ان لينين لم يطلع على معظم مؤلفات ماركس الشاب ، وبخاصة المخطوطات الاقتصادية الفلسفية لعام ١٨٤٤ .

ومع ذلك فان تقييمه يبدو صحيحاً تماماً ، ويتيح ترجيح الاتجاهات التي تظهر بصدد مؤلفات الشباب هذه . فبعض الناس يميلون الى المبالغة في تقديرها ، ويجدون

فيها أثمن ما في الماركسية ، بل ويكتشفون الماركسية فيها ، وقد انبثقت بمعجزة ودفعة واحدة ، كما انبثقت منيرفا من دماغ جوبيتر .

ويتجه آخرون ، بالعكس ، الى بخسها قيمتها ، ولا يرون فيها إلا استمرار الهيجلية ، ويؤخرون تاريخ ظهور الماركسية المفاجىء الى عام ١٨٤٨ (الى **البيان**) .

ان لينين يبين لنا انها مؤلفات **انتقال** . بيد انه ينتج بالضبط ، من المفهوم اللينيني عن الديالكتيك ، أن ليس ثمة ، بمعنى ما ، ما هو اغنى واخصب واسلم وأقوم من الانتقال : لأنه صيرورة وعملية متناقضتان ، لأن النتيجة لا يمكن ان تنفصل عن الصيرورة ، لأن النتيجة المنفصلة عن هذه الصيرورة التي انتجتها هي نتيجة ميتة .

* * *

وهكذا فان الملاحظات التي سجلها لينين اثناء مطالعاته تلتقط من كل مكان ، بمزيج مدهش من الشدة والرفق ، من السخاء والحزم المذهبي ، اصغر « بذرة حقيقة » . واحكامه تدهش احياناً الماركسيين من ذوي الاتجاه المتشيع التقريري .

وهو يقول في تعليقه على دروس التاريخ لهيجل « **ان المثالية الذكية أقرب الى المادية الذكية من المادية الغبية** » .

لنأخذ على سبيل المثال حالة فيلسوف معروف بمثاليته : ليبنتز .

كان ماركس قد أشار من قبل الى أن ميتافيزياء القرن السابع عشر (ديكارت ، ليبنتز) ما يزال لها محتوى ايجابي وغير ديني ، انها تحقق اكتشافات في الرياضيات والفيزياء (نص من **العائلة المقدسة** نقله لينين ، راجع ايضاً رسالة الى انجلز تاريخ ١٠ ايار - مايو - ١٨٧٠) .

ويعود لينين الى هذه المسألة لمناسبة كتاب فويرباخ عن ليبنتز . إن

الجوهر الجسمي لم يعد عند ليبنتز ما كان عليه عند ديكارت ، كتلة ممتدة فقط ، عاطلة، تتحرك من الخارج . لقد اصبح له «قوة فاعلة ، مبدأ نشاط لا يفتر أبداً».

وهكذا فان ليبنتز « **يقترب ، عبر علم اللاهوت ، من مبدأ رابطة لا تنفصم (وشاملة ، مطلقة) بين المادة والحركة** » .

ان الذرة الروحية (الموناد) عالم ، وهي تعكس او تمثل العالم بأسره. ومع انها لا تقبل التجزئة ، فانهـــا تنطوي على تعدد لا نهائي من الادراكات الغامضة او الواضحة ،تتجه افرادياً نحو تغيراتها الخاصة دون ان تفقـد بذلك ارتباطها الاسامي بسائر الاجسام . ان الفردية تتضمن اللانهاية على شكل بذرة ، ان صح التعبير .

ويسجل لينين قائلاً : « **توجد هنـــا ديالكتيك من نموذج خاص ، بل ديالكتيك عميقة جداً رغم المثالية واللاهوتية** » .

ويمكن القول مع فويرباخ إن الفلسفة قد افتقرت بانتقالها من مثالية ليبنتز ، **من مذهبه في تعدد الآلهة المليء حياة وقوة** ، الى المثالية المتعالية عند كانت .

ثم ان ليبنتز يلح على اهمية الاحساس والادراك . لهذا السبب بالتأكيد قرأ فويرباخ ليبنتز في ١٨٣٦ ! وعلق عليه ، وانطلق من هذا التحليل النقدي ليصل الى ماديته . وعاد في وقت لاحق ، عام ١٨٤٧ ، الى هذه المسألة ، وأضاف الى كتابه صفحات اشد قسوة ضد مثالية ليبنتز . غير ان هذه الاضافة لم تفعل سوى ان أبرزت بمزيد من القوة التناقض الداخلي في مذهب الذرات (المونادولوجيا) .

« **ان ليبنتز نصف مسيحي ، انه موحد ، او هو مسيحي وطبيعي . انه يحدد كرم الله وقدرته بالحكمة والعقل . بيد أن هذا العقل لا يعدو أن**

يكون غرفة للتاريخ الطبيعي . انه ليس سوى تصور عن ترابط الطبيعة ، ومجموع الكون . فهو اذن يحدد نظريته بالمذهب الطبيعي ، انـــه يؤكد ويدافع عن المذهب الالهي بما يقوضه » .

وينسخ لينين هذه السطور ويؤشر بجانبها بحرفي كلمتي (N.B) - لاحظ جيداً - اذ تبين أن صراع المادية والمثالية في داخل مذهب مثالي يتضمن محتوى موضوعياً.

وفيما يخص فويرباخ نفسه ، فقد حاول لينين ، وكشف بعناية كبرى «**النواة الواقعية**» لتفكيره : المذهب الطبيعي غير المكتمل بعد، المذهب الانساني.

ما هو **المحسوس** في نظر فويرباخ ، انه ليس الواقعة المعزولة وحسب ، ولا الاحساس الاولى ، ذاك الذي يأتي من المعدة مثلاً وحسب . ان المحسوس انما هو الوحدة الحقيقية الواقعية، وحدة المادي والروحي .

« ان للعقل في الدماغ، الذي هو نقطة تلاقي الاحساسات ، مربطه الفيزيائي المستقر » .

فالطبيعة ، اي الكائن المحروم من الشعور ، هي بالنسبة اليـــه الكائن الأزلي الذي لا اصل له ، الكائن الأول . انه يعني بكلمة طبيعة كل شيء، خلا ما هو خارق ، ويعلق :

« ان فويرباخ واضح ، الا انه ليس عميقاً . ان انجلز يحدد بصورة اعمق التعارض بين المادية والمثالية » .

ذلك لأن فويرباخ يطرح مشكلة الطبيعة ، غير أنه لا يطرح بوضوح مشكلة الشعور ، وشروطه ، ونموه التاريخي . بيد أنه ، في الوقت الذي يعرف فيه بوضوح الطبيعة الموضوعية في الزمان والمكان (الله ماهيتها الموضوعية ، مقدمة بصورة ذاتية ، ومنفصلة عن الطبيعة وعن الانسان ، ملقاة بصورة خيالية فيما هو خارق للطبيعة)، فانه يشير الى ان مسألة علاقة الروح بالعالم المحسوس هي

المسألة الأساسية في الفلسفة . ان التمزق بين الوجود والفكر يوجد في رأس الانسان والفلاسفة، اما في الواقع فالتناقض محلول. ويستحسن لينين ذلك فيعلق: « أحسنت القول تماماً » . ان سر الدين يكمن في الجمع ، في توحيد الذاتي والموضوعي . فيبدو الانسان الواقعي في العالمالمحسوس ، محسوساً هو ذاته ، مع حاجاته . ان فويرباخ يسوغ الانانية ، غير انه لا يفهم من هذه الكلمة الانانية البورجوازية ، بل مبدأ المطابقة على الطبيعة ، حب الانسان لذاته ، وللافراد الذين يشابهونه ، الذين بدونهم وبدون حبهم لا يكون هو شيئاً . ويعلق لينين : « هام جداً ». فباسم هذا المبدأ يطالب فويرباخ بمثل أعلى انساني لا يكون كائناً ناقصاً ، مجرداً ، بلا جسم ، بل انساناً تاماً . ان هـذا يضع فويرباخ في الديموقراطية البورجوازية الثورية (التي ينظر اليها فويرباخ أصلاً على أنها مطابقة بصورة مباشرة للعقل وللماهية الانسانية ، وهي صيغة تثير تهكم لينين !) . ومع ذلك فان أعمال فويرباخ تتضمن ، بذلك ، نواة المادية التاريخية ونوعاً من الاشتراكية . لا سيما عندما يكتب :

« ان انانية اغلبية الانسانيـة المضطَهدة حاليا ينبغي هي ايضا ان تطالب بحقوقها ، وستفعل ذلك ، وستقيم عهدا جديدا في التاريخ ... يجب ان تكون الثقافة في متناول الجميع ... ينبغي ان يصل الجميع الى الملكية » .

ويشير لينين الى ان فويرباخ حين كتب هذه السطور بين ١٨٤٨-١٨٥١ ، كان **متأخراً** عن ماركس وانجلز . ويقارن بين هـذا الموقف وموقف تشرنيشفسكي Tchernichewsky . ان **« المبدأ الانساني »** (الانتربولوجي) الذي استخدمه كل من فويرباخ وتشرنيشفسكي في الفلسفة ضيق ، كالمذهب الطبيعي ، انه لا يمثل الا نسخة غير دقيقة وضعيفة للمادية .

وهكذا فان لينين كان، بآنواحد، يقرأ فويرباخ ،ويعلق عليه، ويكشف « بذور الحقيقة » ، ويحكم ، ويتخذ موقفاً ، ويصنف محتواه في التاريخ الفلسفي والسياسي .

وهو اذ يبدو سمحاً ، متفهماً ، بل و كريماًحتى مع فويرباخ ، أو مع هرقليطس (اذ يقدر عند هذا صيغه « **اللطيفة الساذجة** » ، كما يقدر حيويته ، ونضارته ، واستقامته التاريخية) فهو قاسٍ جداً على لاسال أوديبورين .

فلاسال ، في رأيه ، ليس الاهيجليا مثالياً متأخراً . انه يضفي هيجل على هرقليطس ، انه يشوهه ، انه يكرر هيجل ، ويلوكه ، ويثقل عمله بعلومات دعية غير مجدية . ان كتابه عن هرقليطس ليس سوى نسخة عن هيجل في موقفه من الفيلسوف الاغريقي . بينما توجد عند ماركس مجموعات من الاشياء الجديدة ، والحركة الى الامام وحدها تهمه أيْ :

« **ماوراء هيجل وفويرباخ ، الحركة من الديالكتيك المثالية الى الديالكتيك المادية** » .

فان كتاب لاسال يتضمن فصولاً لا تحتمل، بما فيها من ترديدغير مجد ودعي ، بحيث يكفي المرء ان يتصفحه ليستطيع ان يقول لجميع الناس ألا لزوم لقراءته. ان فائدته الوحيدة هي احتواؤه على استشهادات ، مثل الاستشهاد بنص من كتاب Stromates لـ (كلمنت الاسكندراني) الذي يلخص فيه تفكير هرقليطس :

« **ان العالم ، الواحد والكل ، لم يخلقه أي إله ، ولا أي انسان ، بل كان ، وما يزال ، وسيبقى ، ناراً حية أبداً ، تشتعل وفق قانون ، وتنطفيء وفق قانون** ».

بيد ان لاسال يتوصل الى تشويه هذا العرض الرائع لمبدئه المادية الديالكتيكية ، إذ يترجمه :

« ان العالم ... كان ، وهو الآن وسيبقى، صيرورة ازلية ، تنتقل باستمرار ، ولكن بانتظام ، من الوجود الى اللاوجود ، ومن هـــذا الى الوجود » .

ويعلق لينين : يا للاسف ، ويقول :

« لو أن هرقليطس ، قُدِّم بلا غلو ، **كواحد من مؤسسي المـــادية الديالكتيكية، لكان ذلك أمراً مفيداً . ان صفحات لاسال الثامانية وخمسين ينبغي تكثيفها في خمس وثمانين صفحة ، وترجمتها الى الروسية تحت عنوان : هرقليطس ، احد مؤسسي الديالكتيك » .**

هذا بالاضافة الى أن لاسال المثالي قد أهمل اتجاهات هرقلطيس المادية ، وشده الى جانب هيجل .

واذ يعمم لينين اكتشافات هرقليطس ، بشأن نصوص لاسال ، فانه يشير الى إسهام الفكر الاغريقي في تاريخ الفلسفة ، باعتباره جزءاً من تاريخ المعرفة عامة . فقد بين هذا الفكر اللحظات والمشكلات التالية :

- فيزيولوجيا أعضاء الحواس
- السيكولوجيا
- دراسة اللغة
- نمو ذكاء الحيوان والطفل
- علوم خاصة .

أي المجالات الأساسية للعلم، التي يجب أن تكون نظرية المعرفة والديالكتيك .

وبنفس الشدة ينظر لينين الى ديبورين ، ويعتبره بشكل واضح مبسطا

للماركسية ، ومبسطا رديئا . وهو يأخذ عليه ، مثل لاسال ، عدم تقديم شيء جديد . لماذا ينشر كتاباً يكرر بغمغمة ما عبر عنه انجلز بوضوح ؟ وعلى هامش الاستشهادات تتوالى الاحكام الصارمة . ففي رأي ديبورين ان المادية الديالكتيكية تعطي جواباً عن مسألة بنية المادة . غير صحيح ، يقرر لينين . وفعلا ، فمن الواضح ان ديبورين لم يفهم مفهوم **المادة** ، الذي هو مقولة فلسفية ، اذن شاملة ، لاتخضع لأي علم أو أية معرفة خاصة (اذن لا الى الفيزياء ولا الى سواها) ، ولكنها ضرورية للعلوم كلها ، وتضيئها كلها. ويعبر ديبورين ، في أفضل فقراته ، بلغة منمقة عن بعض الحقائق . اذ يكتب مثلا :

«ان المضمر يصبح متعاليا بقدر ما يكتسب معنى موضوعيا واقعيا... ويصبح المتعالي مضمرا بقدر ما يعرب عن نفسه في منطقة المعروف ، مع بقائه في الجهة الثانية من الذات» .

ولينين لا يحب الرطانة ، ولا اللفظيات ، ولا الكلمات من امثال «ما وراء الظاهري» ، أو «مذهب المتعالي» . انه يريد الوضوح والبساطة في التعبير ، دون ان يستبعد ذلك العمق ، ولا الصعوبة. وسنرى ذلك فيما بعد بصدد «دفاتره عن منطق هيجل» .

ومقابل قسوته المقتضبة على ديبورين ، يبدي لينين اهتماما عطوفا باحد كتب آبل ري Abel Rey ، وهو فيلسوف فرنسي معاصر واستاذ في السوربون.

وقد استشهد لينين ، في مناسبات ، بآبل ري في كتابه «المادية والتجريبية النقدية» ، وبخاصة بكتاب آبل ري «النظرية الفيزيائية عند الفيزيائيين المعاصرين ، باريس ، ألكان ، ١٩٠٧» .

يأخذ لينين عليه بحدة جهله بالنظرية المادية للمعرفة ، واحتقاره المكشوف

المــــادية :

« لاداعي للقول ان ماركس وانجلز، كشخصيتين عاديتين ، لا وجود لها بالنسبة لأمثال هؤلاء العلماء » (المادية والتجريبية النقدية ، ص ٢٣١) .

وبالمقابل فان ري يلخص بدقة ونزاهة المعارف الفنية المتعلقة « بأزمة الفيزياء المعاصرة » ، ولذلك يرجع لينين غالبا الى بحوثه .

لقد لمح ري ان « ازمة» الفيزياء هذه هي في جوهرها ازمة **« الميكانيكية التقليدية »** التي تبناها الفيزيائيون حتى النصف الثاني من القرن التـــاسع عشر . ولسوء الحظ ، يجهل ري الديالكتيك ، والفرق بين المادية الميتافيزيائية والمادية الديالكتيكية . فبالنسبة لهذا التلميذ لهيوم :

« ينبغي ان تظهر المادية بمظهر الميتافيزياء ، بمظهر عقيدة ، ورحلة الى ما وراء حدود التجربة .. الخ » .

فهو يبدو اذن عاجزا عن استخلاص معنى هذه « الازمة » ، اي انتقال الفيزياء (عبر تلمسات ، وتعرجات ، بل ، كما يقول لينين ، وتراجعات) من المادية الميكانيكية القديمة الى المادية الديالكتيكية . وهو يرى ان ازمة الفيزياء عابرة . بيد انه ينـــدد بالاستخدام « المعتمد على التسليم » بصعوبات الفيزياء ، وبالتيار الجديد الذي لايرى فيه الا رموزاً واشارات ونقط ارتكاز ذات فائدة عملية ، منكرا بذلك :

« وجود الواقع الموضوعي ، المستقل عن شعورنا ، والذي يعكسه هذا الشعور ». (المادية والتجريبية النقدية ، ص ١٣٣) .

ان تحليل أبل ري النقدي هو الذي يقود لينين الى هذه النتيجة :

« ان جوهر ازمة الفيزياء المعاصرة يكمن في انهيار القوانين القديمة والمبادىء الاساسية ، في رفض الحقيقة الموضوعية الموجودة خارج الشعور ، اي في احلال المثالية واللا ادرية محل المادية . لقد تلاشت المادة : بهذه الكلمات

يمكن التعبير عن الصعوبة الاساسية ، النموذجية فيما يختص ببعض المسائل الخاصة التي أثارت هذه الازمة » .

وتنطوي ملاحظات لينين عن أرسطو على أهمية خاصة ، بمعنى أنها تبين ما يمكن ان يكون عليه التاريخ المادي للديالكتيك (وللفلسفة بطبيعة الحال) . ان تاريخ الديالكتيك هذا مرتبط بتاريخ تكون المادية ، وبالصراع بين المادية والمثالية ، دون ان يختلط به .

انه تاريخ معقد . لأن الصراع بين المادية والمثالية لم يكن ابداً صراعاً بين خصمين **خارجين عن بعضها** . هذه الصورة الهيكلية القاطعة سطحية ، تجزيء الوحدة الى اثنين ، تفصل بين المتناقضات وتحولها الى كيانات متضادة وميتة . بيد انه ، من ناحية اخرى ، ينبغي بشكل خاص ألا نغفل ما كان عليه هذا الصراع **من احتدام** . ان وحـــدة المتناقضات يجب ألا تفهم كتماثل مجرد ، غير متمايز . وحتى عندما لا يبلغ الصراع ذروته ، ولا يكون التناقض قد بلغ لحظة التعارض ، حتى في ذاك الحين فان الاختلاف يغلف هذا التناقض ، التناقض النوعي ، وينمو هذا الاختلاف الى ان ينفجر التعارض ، والى ان ينحل التناقض بانتصار أحـد المتعارضين . وفي الحقيقة ان الوحدة أو التماثل شرطي ، وعرضي ، ونسبي :

« **إن صراع المبادىء التي ينفي بعضها بعضاً هو صراع مطلق** . لأن لحظة التناقض مطلقة . ان الصراع ، اي التناقض ، هو **الجوهري** » .

ان تاريخ الفلسفة هو تاريخ المفاهيم ، المقولات (الفلسفية ، المنطقية ، الخاصة بمختلف مجالات المعرفة) ، وتناقضاتها . انه يبين بآن واحد تسلسلها التاريخي (نشأتها ، ونموها ، ونضجها) ، والنظري (ارتباطهـا الداخلي) في نظرية المعرفة .

« **الوف السنين مضت منذ ظهورت فكرة « ارتباط كل شيء » ، سلسلة**

الأسباب . ولو حدثت مقارنة بين الأشكال المختلفة لفهم هذه الأسباب في تاريخ الفكر البشري ، لأعطت نظرية في المعرفة صحيحة بلا جدال . »
(دفاتر عن هرقليطس) .

لقد كان ارسطو ،بمعنى ما ، **اكثر مناهضي الديالكتيك**، من بين الفلاسفة الاغريق ، انه خصم هرقليطس والديالكتيك الافلاطونية . وقـــد خاض ضد الديالكتيك معركة ضارية . ومع ذلك فقد كان لديه شيء حي ، شيء نضر . واللاهوت (المدرسي) « **قضى على ما كان حيا عند ارسطو ، وخلد ما كان ميتاً** ».

ما الذي كان اذن حياً عند ارسطو ، في نظر لينين ؟ « **بـــذور من الفكرة الحية ، تطلعات الى الديالكتيك** » اقترب منها الفلاسفة الاغريق دون ان يتمكنوا من السيطرة عليها . ان إلحـــاح الفكر ، وجهد البحث في المنطق الارسطوطالي ، قادا الى منطق هيجل .

فالمنطق **الذاتي** ، عند ارسطو ، (اللحظة الذاتيـــة للفكر ، المفهوم منظوراً اليه ذاتياً) يختلط دوماً بالمنطق **الموضوعي** . بيد أنه لا يوجد عنده ادنى شك في موضوعية المعرفة . ان « **ايمانه الساذج بقوة العقل** » يمتزج بخلط ساذج قاصر يدعو الى الشفقة ، خلط « **بين ديالكتيك العام والخاص ، بين المفهوم والواقع الذي تدركه الاحساسات ، بين الشيء والظاهرة** » . لقـد ضاع المفكر في المتاهة .

وهكـــذا نرى ان لينين ينظر الى ارسطو واعماله كأنهم أحياء أقرباء، حتى، او بالاحرى، عندما ينقدهم . وهو هنا يعطي اشارة بالغة الاهمية لمؤرخ الفلسفة . إذ يمكن اعتبار الفكر الاغريقي وتعاقب المذاهب كسلسلة من **المحاولات** ، كطريقة في طرح المشكلات ، الامر الذي يمنحه

« **شكل تنوع في الآراء الساذجة جداً ، يعبر عنها ارسطو تعبيراً كاملا »** .

فلديه تبدو المادية الديالكتيكية « **بصورة تلقائية ، غير معززة ، غير متفتحة ، عارضة »** . مثال ذلـــك ، عندما يبين ان الرياضي يترك جانباً « الأزواج المتضادة » المعطاة في المحسوس ، (الحرارة والبرودة ، الثقل والخفة) إذا اكتفينا بالمثال الكمي . وكذلك عندما يبين أن كل علم يجرد ويفصل مظهراً من الجسم ، من الظاهرات ، من الحياة .

إن خطأ أرسطو ، وهو خطأ شائع جداً في الفلسفة ، انه فرّغ العـام ، والمفهوم والفكرة .

« **إن هذا يبدو غريباً ، رهيباً (اوصبيانياً بتعبيرأدق) ،غيرمنطقي ، ولكن أليست المثالية الحديثة عند كانت ، وهيجل ، فكرة الإله ، هي من النوع ذاته ؟ »** .

فلكي نعرف ، وكي ننتقل من الجهل الى العلم ، ينبغي لنـا أن نحلل ، ان نجرد ، ينبغي أن نمر بالمفهوم (مأخوذاً ذاتياً ، صوريا ، بوصفه داخل التفكير) . ويمكن اذن ان نعزل المفهوم دوما ، وان نيبسه ، وبالتالي ، بدلا من بلوغ الديالكتيك الموضوعية ، يمكن هـدم الحركة الديالكتيكية الذاتية للمفهوم ، وايقافها في درجتها **المنطقية** ، وهذا ما فعله ارسطو .

ان فعل المعرفة في الواقع شديد التعقيد . ينبغي التمييز بين البيت عامة والبيوت الفردية . فالبيت عامة ، بصورة **منعزلة** ، ليس شيئاً . ومع ذلك فان هذه الكلمة تدل على **ماهية** البيوت الفردية ، ماهية ينالها **المفهوم** .

ويقول لينين : « **ان ازدواج المعرفة وامكانية المثالية** » هي ايضـــاً معطاة في ابسط تجريد بدائي . فالانعـكاس ليس **انعكاساً في مرآة** (ولنؤشر

مرة أخرى تحت هذه الصيغة البالغة الاهمية) . فعندما يقترب الذكاء من الشيء الفردي ، ويستمد منه صورة ومفهوما

« فان هذا ليس عملاً بسيطاً ، مباشراً ، ميتاً » .

إن الحياة غنية ومعقدة بصورة لا نهائية . انها تمزج دوماً المظاهر الاكثر تنوعاً ، السطحي والعميق ، الظاهرة والماهية . ان عمل المعرفة **« المعقد ، المزدوج المتعرج ، يتضمن امكانية الطيران الخيالي خارج الحياة »** ، بل وأكثر من ذلك :

« امكانية تحول (لايدرك ، لا يشعر به الانسان) للمفهوم المجرد ، للفكرة ، الى نزوة خيالية . لأن في كل تجريد ، في كل فكرة عامة ، حتى فكرة « البيت » او « الطاولة » ، يوجد نصيب من الخيال » ، كما ألح على ذلك لينين .

يحسن ان نقرب من هذا التحليل الشرح الذي تضمنه مقطع عن الديالكتيك . ان شرح الديالكتيك يجب ان يبدأ بالمنطق ، مع تبيان بداية الديالكتيك في الاحكام والمفاهيم التي ينزع المنطق الى عزلها وتثبيتها :

« لنبدأ بقضية من أبسط القضايا ، واكثرها شيوعاً : اوراق هذه الشجرة خضراء . جان انسان ، ميدور كلب ، وما الى ذلك . ان في هذا ، كما كان يلاحظ هيجل ، ديالكتيك : فما هو خاص هو عام . هذا ما كان يعلمه أرسطو في كتابه « ماوراء الطبيعة »، اذ يقول : «لا يمكننا ان نتصور بصورة مجردة ، بيتاً ، البيت ، إن لم يكن أحد البيوت التي نستطيع رؤيتها . .» . ان ثمة عناصر ، بذوراً ، مفاهيم ضرورة وترابط في الطبيعة . فما هو من العرض وما هو من الضرورة أي الظاهرة والماهية ، هما حاضران عندما نقول : جان انسان ، ميدور كلب ، هاهي ورقة شجرة . لأننا عندئذ نطرح الجواز Contingence **، ونستبقي الجوهري ، معارضين الواحد بالآخر .**

وبذلك يمكن ، ويجب، ان نميز في كل قضية ، كما نميز في « خلية » كيميائية ، العناصر الجنينية للديالكتيك ، وبذلك نبرهن على انها تنطبق على كل معرفة بشرية ... ان الديالكتيك هي في الاساس نظرية المعرفة (من هيجل الى الماركسية) : هذا الجانب (وهو ليس جانبا ، بـــل هو اساس) لم يدرس دراسة كافية من بليخانوف ولا من كثيرين من الماركسيين الآخرين » .

وهكذا فان المنطـــق (الصوري) ينبغي ان يتخلص من المدرسية الارسطوطالية . انه لا يستطيع ان ينفصل عن الديالكتيك ، ولا أن يمتزج بها. وبصورة أعم ، فان كل شيء في الحياة البشرية، في الممارسة ، في اللغة، يضمر شيئاً من الديالكتيك ، يضمر بذوراً ، وانتقالا الى الديالكتيك. إلا أن الديالكتيك لا تختلط بعناصرها وبذورها . انها في ذاتها ، جوهريا ، شيء أسمى بكثير : إنهـا نظرية ، ونظرية في المعرفة .

ونظرية المعرفة هـــذه تبين باديء ذي بدء أن المعرفة لا تمضي في خط مستقيم ، بل في منحنيات ، ودوائر ، وكرات ، يغلف بعضها بعضاً ، مقتربة شيئاً فشيئاً من الاتجاه الحلزوني . لا خطاً مستقيماً ولا دائرة مغلقة :

« ان جزءاً من هذا الخط المنحرف ، اذا نظر اليــه منفصلا ، ومن وجهة معينة ، من جانب واحد ،يمكن اعتباره خطاً مستقيماً » (لينين).

أما اذا مددناهذا الخط المستقيم، فاننا نخرج من الديالكتيك بوصفها معرفة « حية ، متعددة الصور ، يستمر تعدد مظاهرها الواجب دراستها في التزايد » ،

ونتجه نحو المثالية، نحو الذاتية، نحو الصوفية اخيراً، وهي ناميات وحيدة الجانب ،من نوافل الكلام .

« وهذه احدى سمات المعرفة أو أحد وجوهها » .

سمة فصلت وحملت الى المطلق .

لننطلق اذن من المنطق (من الحكم ، من المفهوم ، من الاستنتاج) مع التزام الحذر من المنطق، الذي تتضمن صرامته نوعاً من التثبيت والذي يمكن ان يقودنا على خط مستقيم ، جامد ، اذن في اتجاه الطرف الوحيد والتثبيت .

ولننطلق من الممارسة ، مع العلم أن محتواها الشديد الغنى لايعطينا الا عناصر المعرفة الديالكتيكية ، ونقطة انطلاقها . ولا بد أن يتدخل التحليل ، الذي يكشف، في هذا المحتوى ،عن التناقضات أو بذور التناقضات ،والتعارضات، وعن الروابط الموضوعية ، **أي الجوهري** .

* * *

وبذلك نصل الى « الدفاتر عن هيجل » الأساسية ،وهي أساسية وجوهرية بذاتها لفهم تفكير لينين، والعلاقة بين الهيجلية والماركسية ـاللينينية .

وعلينا ، هنا ، ان نميز بين مجموعتين من الملاحظات حول **تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ** من جهة ، و «**الدفاتر حول المنطق**»، وهي محور النقاش من جهة اخرى .

ان الملاحظات عن «فلسفة التاريخ» لهيجل تلفت النظر بإيجازها، ويخلص لينين الى القول : « **إن فلسفة التاريخ تقدم القليل جداً، وهذا أمر طبيعي : وفي هذا المجال بالضبط ، في هذا العلم خطا ماركس وانجلز أكبر خطوة الى الامام . وفي هذا المجال شاخ هيجل أكثر من أي مجال آخر** » .

ثم ينسخ لينين صفحة من هذه المقدمة (العقل في التاريخ) التي

« **تحوي أشياء ممتازة عن كيفية طرح المشكلة** » .

وفعلاً فان هيجل يتساءل عما ينتج عن هذه

« **اللوحة اللانهائية للحياة البشرية ، لنشاط الناس في اكثر الظروف تنوعاً** » .

ان هذه الأحداث والحوادث ، هذه الوقائع والحركات ، تثير الاهتمام من وجوه كثيرة :

« **فتارة يجذبنا الجمـــال ، او الحرية او الثروة ، وتارة اخرى**

تفتننا الطاقة ، وتارة اخرى تتوصل الرذيلة ذاتها الى فرض نفسها ... انه المشهد الاكثر تنوعا في كل مكان » .ما ترى سيكون موقف المؤرخ ومنظوره ومقولته ؟. فليس ثمة تاريخ مالم يتحسس المؤرخ

«بغاية نهائية لجميع هذه التواريخ . أفلا يوجد وراء الضجيج الصاخب لهذه الواجهة ، أثر ، وتقدم هذا الأثر الداخلي ، الصامت ، الخفي الذي تحفظ فيه القوة الاساسية لجميع هذه الظاهرات العارضة ؟..»

وهكذا فان جملة الاعمال والانفعالات الفردية ، كتلة المصالح ، والقوى الصغيرة ، لها معنى ، لها اتجاه مستقل عن التطلعات الذاتية . ان الناس يسيرون ، دون ان يعلموا ذلك ، نحو هدف : حرية الانسان . ويعبر هيجل عن معنى التاريخ هذا بلغته المثالية :

« ان التاريخ الشامل ليس شيئا آخر سوى نمو مفهوم الحرية »

ان في هذا الكتاب بعض بذور المادية التاريخية . إلا انها بالنتيجة شيء قليل ...

وبالعكس ، فان لينين يدرس بعناية دروس هيجل عن تاريخ الفلسفة . اننا نقترب هنا فعلا من المشكلة الأساسية :

يقول هيجل : (وقد نسخ لينين هذا النص مضيفاً كلمة لاحظ N.B)

« اؤكد ان تتابع المذاهب الفلسفية في التاريخ هو التتابع لتحديدات مفهوم الفكر » .

وثمة تطابق ينكشف لنا بين تاريخ الفلسفة والمنطق (الديالكتيكي) ، او بالأحرى وحدة (هي نفسها ديالكتيكية) وهذه

« فكرة عميقة وصحيحة ، مادية في اعماقها . (ان التاريخ الفعلي

هو الاساس ، الدعامة ، الوجود الذي يشتق منه الشعور) ، (لينين) .

وكما يسير العلم من دوائر الى دوائر اكثر إتساعاً ، ومن مناطق الى اخرى أكثر عمقاً ، فكذلك تاريخ الفلسفة ، اذ يبـــدو كدائرة تطوق بمحيطها دوائر اصغر منها ، وهي «المذاهب والنظم» . هذه المذاهب ،باعتبارها انتاج فلاسفة ، تبدو أولاً (كما هو شأن الانفعالات والأعمال والأحداث في التاريخ العام) متصارعة ، ومتشابكة فيما بينها دون ترتيب . انها تبدو اعمالاً فردية ، وبهذه الصفة فان دراسة علاقاتها ببعضها وتعاقبها سرعان مايولد الإرهاق . وهي تبدو اخيرا مغلقة ،مقفلة ، منتظمة . بيد ان المؤرخ الحق يلمح الحركة الصاعـدة التي تعبرها . ويصحح لينين المقارنة « **العميقة الصحيحة** »لهيجل : ان كل تعبير خـاص عن الفكر يقع على **حلزون** نمو الفكر البشري . ونلتقي هنا مرة اخرى بمفهوم النمو الحلزوني الذي كان لينين يعلق عليه أهمية بحيث يبدو انه ينظر اليه كما لو انه يعبر عن قانون شامل .

ان مؤرخ الفلسفة يحتاج الى منهج جدي لئلا يُنسب الى الفلاسفة القدماء ما نما من بعدهم (واحيانا انطلاقا منهم) بيد انه يجب ان نتعرف على النوى ، على البذور الخصبة ، حيثما وجدت ، فمثلا عند الفيثاغوريين

« **توجد نوى تفكير علمي ممتزجة مع النزوات** » ! (لينين) .

ان دراسة الفلاسفة الايليين تتيح تعريفا للديالكتيك : (وهو تعريف اخذ فيما بعد ، وانضج ، وأكمل وعمق) . ويميز هيجل بين تحديدين للديالكتيك : الحركة الخاصة للفكر في المفـــاهيم (ديالكتيك من وجهة نظر ذاتية) — والحركة في الماهية الموضوعية.

وهكذا حور لينين مقطع هيجل بالصيغة التالية :

«**ان الديالكتيك ، بصورة عامة ، هي حركة الفكر في المفاهيم ...**

ان المفاهيم البشرية ليست جامدة ، بل هي تتحرك بصورة ازلية ، فتنتقل من مفهوم الى آخر ، وينصهر الواحد منها في الآخر . والا لما كانت انعكاسا للحياة الحية ... وبصورة أخص ، فان الديالكتيك هي دراسة التعارض بين الوجود في ذاته ansich المـاهية ، القوام ، الجوهر ـ وبين الظاهرة ، «الوجود للآخر» . (هنا ايضا نرى انتقال وانصهار الواحدفي الآخر: فالماهية تظهر ، والظاهرة هي ماهية). ان الفكر البشري يتعمق بصورة غير محددة من الظاهر الى المـاهية ، ومن ماهية الدرجة الاولى ، ان صح التعبير ، الى ماهية الدرجة الثانية ،وهكذا بلا تحديد » (أشّر لينين تحتها) .

ولكن حذار ،فان هـــذا ليس بعدُ سوى تحديد اول للديالكتيك : الديالكتيك في المفاهيم،في تسلسل المعرفة ، في تحليل الانسان للواقع الموضوعي. فلننتقل الى التحديدالا كثرارتقاء ــ الا كثر كمالا (تحديد لا يمكن ان ينفصل عن التحديد السابق : اذ انهما يشكلان كلا ، يعرّف الديالكتيك) .

« ان الديالكتيك ، بمعناها الحقيقي ، هي دراسة التناقض في ماهية الاشياء ذاتها . ان الظاهرات ليست وحدها انتقالية ، متحركة ، مـائعة ، تنفصل عن بعضها بحدود اتفاقية بحتة ، بل انَّ هذا كله يصح ايضا عـلى ماهية الاشياء » .

فتوجد اذن ، لا في الواقع وحسب ، بل وفي الفكر ايضـا (الذي يعكس الواقع) لحظات، مناطق، واعماق، متتابعة متشابكة. كما توجد تناقضات.

ان الديالكتيك هي اولا خارجية (بالقياس الى الموضوع) ، وذاتية ، وتعتمد على المفهوم. ان طريقة معينة في تناول الاشياء ، و كشف ما فيها من مظاهر ، و « هز ما يعتبر راسخاً »

هو من الديالكتيـــك ، فلنمض في هذا الاتجـــاه ، ولنمض بعيـدا ، نصل

الى السخرية ، الى الشك ، الى السفسطة . ذلك انـــه ينبغي ألا نتخلى عن **الديالكتيك الموضوعية** ، عن تناول **المضمر** في الشيء :

« **يؤخذ الشيء لذاته ، دون افتراض سابق ، دون فكرة مسبقة ، دون فكرة اخلاقية .. نضع انفسنا كليا في الشيء ، نتناول الشيء في ذاته ، نأخذه تبعا للتحديدات التي يتمتع بها** » (والتي هي متناقضة) . **(هيجل ، نسخها لينين) .**

واليوم يسلم كل الناس بمبدأ النمو ، التطور . وسرعان مـا يصبح هذا المبدأ مبتذلا ، كما يصبح الاتفاق حوله عارضا ، سطحيا ، خلوا من التفكير ، مرائيا . ومبدأ النمو ينبغي ان ينمو هو ذاته ، وينطبق على كل شيء ، وعلى المعرفة ذاتها . ينبغي خاصة

« **ان نربط ونوحد ، ونصل المبدأ العام للتطور بالمبدأ العام لوحدة الكون ، والطبيعة ، والحركة ، والمادة** » . (لينين) .

وهي مهمة شاقة تفترض ان ثمة

« **ديالكتيك للمفاهيم وديالكتيك المعرفة ذات مدلول موضوعي** » .

وتظهر فكرة لينين المركزية بوضوح : **موضوعية الديالكتيك** .

ما هو منشأ الصعوبـــة ؟ انها من الفكر ذاته . ذلك ان الفكر ، يحلل اولا ، ويفصل ، ويجرد ، ويبقي في الفصل لحظات الشيء المرتبطة بالواقع . اننا لا نستطيع الذهاب مباشرة الى الشيء ذاته ، وان نقيم فيه ، وان نلتقطه ، ونعرفه .

ويكتب لينين « **اننا لا نستطيع تمثيل الحركة ، والتعبير عنها ، وقياسها ، وتصويرها ، دون ان نوقف استمرارها ، ودون ان نبسط ، وان نقارب بعنف ، ونفصل ، ونستخلص ما هو حي . ان تصور الحركة فكريا يكون دوما بتجميدها ، وتفكيكها ، لا في التفكير وحده كما في حالة الحركة ، بل في جميع المفاهيم** » .

هذا بالضبط هو ما تبينه حجج زينون الايلي Zenon d'Elee الشهيرة ضد الحركة. ولكن هذا بالضبط ايضا هو ما يجبرنا على ان نمنح الحياة المفاهيم، وان نعبئها، وان نلتقط الحركة الموضوعية كنقيض(استمرار وتقطع .. الخ).

« **في هذا يتجلى اساس الديالكتيك** » . (لينين) .

وبذلك نكتشف لدى الاغريق، اولئك الفلاسفة الديالكتيكيين، الغضين السذج، **ثلاثة** تحديدات او لحظات للديالكتيك، لحظات هي ذاتها **تختفي**، وتتحول الواحدة الى الاخرى، وتؤثر الواحدة في الاخرى.

أ – الديالكتيك **الخارجية** (اي التفكير الذي يحلل، ويجمد، ويفصل الاشياء، والخصائص والمفاهيم – والذي في الوقت ذاتـــه يهز هذه الثوابت، وينزع الى حل المفاهيم المنفصلة، ويتقدم من علاقة الى اخرى) .

ب - **وديالكتيك الشيء ، المضمر في الشيء**، والموجود في تفكير الشخص (من اجل الشخص، وربما ايضا في مجرد مظهر الشيء او مظهر الظاهرة) .

ح – **والديالكتيك الموضوعية كلياً** ، بوصفها مبدأ لكل ما هو موجود. انها « **الموضوعية الهرقليطيسية** »، (هيجل مع اشارة: لاحظ NB من لينين) .

ان دراسة مذهب هرقليطس ولحظـــات الديالكتيك تقود لينين الى تأملات هامة حول العلاقة بين العلوم والديالكتيك . فالعلماء يبقون عفويا في اللحظتين الاوليين، دون ان يعرفوا ذلك بوضوح .

« **لو اصغينا اليهم فانهم لايقولون الا مايرون ، إلا أن هذا غير صحيح ، لأنهم لاشعورياً يحولون بصورة مباشرة مايرونه، وذلك عن طريق المفهوم . ان المناقشة لاتنصب على التناقض بين الملاحظة والمفهوم**

المطلق ، بل على التناقض بين المفهوم المحدد ، المثبت ، والمفهوم المطلق » (هيجل) .

ان مجرد التجريبية هي اما مستحيلة، او تقع خارج نطاق العلم . فما من علم دون مفاهيم ، كما كان يكرر انجلز ببساطة اكثر من هيجل (لينين) ، غير ان فن استعمال المفاهيم ليس فطرياً ، لأنه

« حصيلة نمو العلوم الطبيعية والفلسفة خلال ألفي سنة . (لينين ، ولنلاحظ الأهمية التي يحضها لنمو الفلسفة) .

ان العلماء ، بمفاهيمهم الساذجة ، المستعملة بشكل سيء ، ينتهون – عفوياً – الى انكار الحركات والتحولات التي يحللونها .

« ان لدى العلماء ، عن التحول ، فكرة ضيقة ، وهم لايفهمون الديالكتيك » [1] .

بيد ان عندهم ، **من قبل** ، الشامل والضروري والحقيقة . وكذلك الحال ايضاً عند الفلاسفة ، مثل هيرقليطس او الذريين الاغريق (لوسيب Leucippe ، ديموقريطس Démocrite) .

ويمكن للقاريء ان يتتبع الشرح اللينيني ، من خلال هيجل ، لهؤلاء الفلاسفة وتعاقبهم . وتنطوي الفقرات المتعلقة بـ جورجياس Gorgias ، وسقراط ، وافلاطون ، وارسطو ، على اهمية خاصة .

نتائج عامة :

١ – « لايمكن تطبيق منطق هيجل كما هو ، ولا اعتباره معطى نهائياً .

---

(١) راجع فيما يتعلق بقصور التربية الديالكتيكية لدى العلماء ، نصوصاً عديدة في كتاب : انتي دهرنج « ديالكتيك الطبيعة » ، وكذلك الرسالة الممتازة الموجهة بتاريخ ٣٠ أيار (مايو) ١٨٧٣ من انجلز الى ماركس .

ينبغي ان نحتفظ منه باشكاله المنطقية (المنهجية) بعد ان نتخلص من صوفية الأفكار ، وهذا مايزال عملاً كبيراً » . (لينين) .

٢ – لقد اهمل الماركسيون هذا العمل ، مثلا بليخانوف ، الذي كتب كثيراً عن المسائل الاساسية ، ولكن « لاشيء عن المنطق الكبير ، لاشيء عن مدلوله (اي بالنتيجة عن الديالكتيك بوصفها علماً فلسفياً) » .

٣ – كان هيجل يفكر ، بكل جدية ، ان المادية لاوجود لها كفلسفة . ولأن الفلسفة « علم الفكر ، علم الشامل » فانه كان يخلص الى وجود المفهوم ، وجود الفكر . وهو ينحرف هكذا نحو المثالية الذاتيـة التي كان يصفها هو بأنها « مثالية رديئة » . وفي الوقت ذاته :

« فان المثالية الموضوعية (واكثر منها المثالية المطلقة) اقتربت عبر تعرجات (وانتكاسات) حتى لامست المادية ، وتحولت جزئياً اليها » .

ان هيجل الديالكتيكي ، « لم يعرف كيف يفهم الانتقال الديالكتيكي من المادة الى الحركة ، من المادة الى الشعور ، وخاصة هذه الأخيرة . وقد صحح ماركس خطأ (او ضعف) هذا الصوفي » .

ويصر لينين على ان هيجل ، حين يقترب كثيراً من المادية الديالكتيكية ، فانه يتهرب ، يجبن ، بل انه ينتهي الى الافتراء على المادية .

وسنتذكر هذه النتائج لأننا سنلتقي بها بصدد المنطق . فقد تناول لينين مجدداً نظريات انجلز (وماركس) عن الصفة المتناقضة لمذهب هيجل ، وعمقها . وينفذ التحليل اللينيني الى المشكلات المشخصة التي يطرحها هذا التناقض . ونجد انفسنا في صميم المسألة ، التي طال النزاع حولها ، العلاقة بين الهيجلية والماركسية . ومن المفارقة في الظاهر (بيد ان هذه المفارقة لاتدهش الا غير الديالكتيكيين ، او

الماركسيين التقريريين) ان هيجل اقترب، عن طريق الجانب الاكثر مثالية في مثاليتـــه **الموضوعية** ، عن طريق **المثالية المطلقة** ، اقترب من الماركسية الديالكتيكية ،حتى لامسها باصبعه . بحيث قـــد يصح القول ان ديالكتيكيته ملتوية ، معكوسة ، مقلوبة ، رأسها الى اسفل ، الا انها – بمعنى ما ، والى حد ما – هي الديالكتيك الموضوعية ، المادية . ان الهيجلية، في تحولها ، تنتقل جزئياً الى المادية الديالكتيكية وبصح هذا بقدر ماترفض المثالية المطلقة «المثالية الرديئة» (المثالية الذاتيـــة) ، وبقدر ماهاجم هيجل ، عندما يعالج المطلق ، الفلسفة التقريرية كلها (الدوغماتية) .

« لابوصفها ذات محتوى ايجابي ، بل بوصفها تؤكد كشيء مطلق شيئاً محدداً » (هيجل ، استشهد به لينين) .

بيد ان المادية الديالكتيكية لاترفض المطلق ، ولكنها ترفض ان يعزله الفكر ، ويفصله عن النسبي ، **وان يحدده** (أي ان يحدده ، ويضعه خارج الطبيعة ، خارج المعرفة) . ان المثالية المطلقة عندماتعد وتنقد مفهوم المطلق، فانها تلامس المادية الديالكتيكية ! ان المطلق الهيجـــلي ، الذي يصوره الشراح الهيجليون – المحدثون المثاليون والصوفيون « كذات لايمكن التعبير عنها» منطلقين من نصوص الفنمنولوجيا – ليس في الواقع سوى تعبير مازال غامضاً عن « الديناميكية – الذاتية » للكون . ان المطلق الهيجلي ما ان نطلق عليه اسم « ذات » حتى نكون قد عيناه ، وحددناه ، وعزلناه ، خلافاً للمعنى العميق للهيجلية

ان هيجل يجعل من الطبيعة طبيعة الفكر . انه يلامس الحقيقة . ان الفكر هو فكر الطبيعة . ويكفي ان نقلب نظريته .

هـ - الدفاتر في منطق هيجل

بين ايلول (سبتمبر) وكانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ ، اثناء اقامة لينين في برن ، قرأ المنطق الكبير ، لهيجل ، ووضع لاستعماله الشخصي مجموعة من الملاحظات والاقتباسات المرفوقة بتعليقات ساخرة احياناً ، مقرظة احيانـــاً ، مقتصرة احياناً اخرى على كلمة واحدة ، او اشارة تعجب او مجرد اشارة استفهام.

ان هذا التاريخ يبدو فريداً : « كيف حدث ان لينـين ، في خريف ١٩١٤ ، في مطلع الحرب العالمية ، وهو منفي ، منعزل ، بعد انهيار الاممية الاشتراكية - الديموقراطية ، كيف حدث ان عاد الى قراءة اكثر الفلاسفة **المثاليين** غموضاً ، بخاصة كتابه المجرد « المنطق » ؟

وبالفعل فان لينـين قرأ هيجل ، واعاد قراءته ، حينما كانت تنفجر (وبأي عنف !) جميع تناقضات المجتمع الرأسمالي . وحيث رأى الآخرون حقاً يصارع حقاً آخر ، او مجرد سديم دموي ، رأى لينـــين ، **تناقضات داخلية تنفجر** . فعـــاد الى الفيلسوف النظري للطريقة الديالكتيكية لكي يدقق ويختبر نظريته في المتناقضات . وستبين له النظرية الهيجلية ان لحظة التمزق ، حين يبدو صدام العناصر المتناقضـة بدون مخرج ، يمكن ان تكون ايضاً اللحظة التي يظهر فيها الحل ، لأن الوضع التاريخي آنذاك والجماهير البشرية - بسبب عدم وجود المشاعر الفردية - تنادي بهذا الحل وتبحث عنه . ففي التناقض ، تحجب الوحدة احياناً صراع العناصر المتناقضـــة ، فتكون هي الظاهر ، واحياناً اخرى يحجب صراع العناصر ويخفي القوى العميقة **الاساسية** .

فالوحدة هي الظاهر تارة ، وهي فوضى التمزق العنيف تارة أخرى . واذ يعيد لينين قراءة هيجل ، فانه يحاول ان يدقق نظريته السابقة : ان عهد الامبريالية والحروب العالمية هو في الوقت ذاته عهد الثورات . وفي خريف ١٩١٤، سيخوض المعركة وهو شبه وحيد : معركته . انه يمضي « ضد التيار » [1] لأنه يعرف ان ثمة تياراً أعمق ، هو التيار الثوري

في ذاك الوقت ، ١٩١٤ ، تخلى الفكر البورجوازي (والاشتراكي — الديموقراطي) عن « قيمه » في الشمول والحقيقة ، وانكفأ الى الانعزال القومي وخدم الحرب . وحين كان لينين يقرأ منطق هيجل ، كان « رجل اعمال » آخر ، هو موسوليني ، يحس ان ساعته قد اقتربت . ان موسوليني اللاعقلاني ، « الاشتراكي » ، المتتلمذ على سوريل Sorel ونظرية العنف « المحض » كعامل في التاريخ ، سينتقل من الاممية الى القومية الفاشية . اما الايديولوجية الفاشية فستأتي فيما بعد ، يمليها المغامرون السياسيون على فلاسفتهم : في ذاك الوقت حافظ لينين وحده تقريباً على مفهوم عقلاني عن العالم ، على منهج علمي ومنطق .

وبذلك نستطيع ان نفهم لماذا كان لهذه الدفاتر اهمية استثنائية . انها تقدم للحركة الماركسية ما كانت تفتقر اليه : فهذه الملاحظات تتضمن كتاب المنهج العلمي والمنطق الذي لم يتح لماركس الوقت لوضعه .

ويحس القارىء المجرب ، كلما قرأ هذه الملاحظات ، ان لينين يضع نصب عينيه الوضع التاريخي الذي يريد تحليله . بيد ان هذه الدفاتر لا تعنى بالامبريالية والحرب . انما تعنى بنظرية المعرفة . ولينين انما يقرأ هيجل ليأخذ ما عنده من جيد . فالقراءة النقدية تصبح عملا ، وتأخذ اكثر الجمل تجريداً (في الظاهر) معنى

---

(١) عنوان مجموعة المقالات التي كتبها لينين في هذه الفترة .

راهناً ، ملحاً ، بالرغم من كونه غير مشار اليه في غالب الاحيان . وعلى سبيل المثال ، فان لينين ينسخ بعض الكلمات عن هيجل : « **ليس كل انتقال الى ماوراء الحدود تحرراً** » ، ماذا تعني هذه الكلمات في نظره ؟ انها محملة بالمعنى . انها تتابع نقد الرومانسية ، والطوباوية ، واحلام اليقظة الفارغة . وهي تعني اكثر من ذلك انها تعني ان المجتمع الرأسمالي يحطم حدوده الخاصة في الفوضى وانهار الدماء ، الا ان هذا ليس هو التحرر ، ليس هو الثورة . وعلى قارىء لينين ان يكتشف تفكيره وأن يستخلص - ويكون ذلك بأن يفكر ويحلم احياناً - ، معنى هذه الصيغ المقتضبة .

فاذا كان لمجرد جملة واحدة ، مرتبطة بالحوادث بفكر لينين ، بالتفكير الفلسفي عامة ، ان تكتسب مثل هذا الرنين ، فكيف يمكن ان نعرض اونشرح هنا محتوى « **الدفاتر عن المنطق** » ؟ سنكتفي بتناول بعض الموضوعات : العلاقات بين **المقولات** الرئيسية في المنطق والديالكتيك ، مبتدئين بالعلاقات التي سبق لنا تناولها بين **الماهية والظاهر** (المرتبطين مباشرة بمقولات اخرى : الظاهرة والقانون) .

الماهية والظاهر :

لقد عرفنا من قبل ان التحليل ينبغي ان يستبعد الظواهر ليبلغ الجوهري. والمعرفة العلمية تعرف بأنها معرفة الماهية(١) . ومن يرفض مفهوم **الماهية** يرفض بذلك مفهوم **القانون** . وبالعكس انه يسلم نفسه الى التجريبية الصرفة ، الى مجرد ملاحظة الظاهرات ، دون ان يتمكن من تمييز الظاهر - والعارض - مما ليس ظاهراً .

لقد اقتصرنا ، حتى الآن ، على صياغة المطالب العفوية (العملية) للمعرفة

---

(١) سيطلق بعض الفلاسفة على النظرية الماركسية اللينينية اسم « مذهب الماهية» نقيضا للوجودية .

العلمية . وضعناها في مفاهيم واضحة ، في منهج علمي . ومع ذلك ففي مجال علوم المجتمع ، حملنا اليها اضافة حولت التلمسات التجريبية الى طريقة علمية : ان الشعور والعفوية يقعان في مستوى الظاهرات، الظواهر . ان الذاتي ليس هو الجوهري.

غير ان النظرية الديالكتيكية في المعرفة ، والمنهجية الديالكتيكية ، تذهبان الى ابعد من ذلك . فبين الماهية والظاهر توجد علاقة ديالكتيكية أكثر عمقاً ، أي وحدة وصراع بآن واحد .

ان الماهية ليست خارج الظاهرة او الظاهر . فالظاهرة تحوي في ذاتها ماهيتها وقانونها . « ان المعرفة لاتقف عند المباشر » ، ولكن الفلاسفة الصغار وحدهم (كانت او التجريبيين) هم الذين يتساءلون ، ما اذا كان يجب ان نعتمد كأساس الماهية أو الظاهر لقد ابدل هيجل حرف « او » بحرف العطف و (في هذا التساؤل) .

« ان الظاهر هو الماهية في احدى تعييناته ، في احدى علاقاته ، في احدى لحظاته » (لينين) .

ان الظاهر يخفي الماهية – ولكنه يحويها ، ويكشف عنها .

ان الماهية هي الظاهر . هذا التأكيد يجب ان نأخذه في كامل معناه . اننا ، اذ نحلل ظاهرة او ندرس الظاهر (او الظهور) ، نتوصل الى ماهية . وهذه الماهية تصبح بدورها ظاهرة بالنسبة لنا : فهي تحوي ، وتخفي ، وتكشف عن ماهية أخرى ، أكثر عمقاً . وهكذا الى مالا نهاية .

هاك مثلا يقدمه لينين : حركة النهر . فالزبد في الاعلى، والتيارات العميقة في الاسفل . وثمة تيارات اخرى متفاوتة العمق ، حتى نبلغ ذاك التيار الذي يحفر مجرى النهر ، ويحدد وجهته ويعين مصيره (ينبغي لمعرفته الذهاب الى ابعد من ذلك : دراسة التربة ، والتشكل الجيولوجي الخ) .

المـــادية :

« لاداعي للقول ان ماركس وانجلز، كشخصيتين عاديتين ، لا وجود لها بالنسبة لأمثال هؤلاء العلماء » (المادية والتجريبية النقدية ، ص ٢٣١) .

وبالمقابل فان ري يلخص بدقة ونزاهة المعارف الفنية المتعلقة « بأزمة الفيزياء المعاصرة » ، ولذلك يرجع لينين غالبا الى بحوثه .

لقد لمح ري ان « ازمة» الفيزياء هذه هي في جوهرها ازمة «الميكانيكية التقليدية » التي تبناها الفيزيائيون حتى النصف الثاني من القرن التـــاسع عشر . ولسوء الحظ ، يجهل ري الديالكتيك ، والفرق بين المادية الميتافيزيائية والمادية الديالكتيكية . فبالنسبة لهذا التلميذ لهيوم :

« ينبغي ان تظهر المادية بمظهر الميتافيزياء ، بمظهر عقيدة ، ورحلة الى ما وراء حدود التجربة .. الخ » .

فهو يبدو اذن عاجزا عن استخلاص معنى هذه « الازمة » ، اي انتقال الفيزياء (عبر تلمسات ، وتعرجات ، بل ، كما يقول لينين ، وتراجعات) من المادية الميكانيكية القديمة الى المادية الديالكتيكية . وهو يرى ان ازمة الفيزياء عابرة . بيد انه ينـــدد بالاستخدام « المعتمد على التسليم » بصعوبات الفيزياء ، وبالتيار الجديد الذي لايرى فيه الا رموزاً واشارات ونقط ارتكاز ذات فائدة عملية ، منكرا بذلك :

« وجود الواقع الموضوعي ، المستقل عن شعورنا ، والذي يعكسه هذا الشعور». (المادية والتجريبية النقدية ، ص ١٣٣) .

ان تحليل أبل ري النقدي هو الذي يقود لينين الى هذه النتيجة :

« ان جوهر ازمة الفيزياء المعاصرة يكمن في انهيار القوانين القديمة والمبادىء الاساسية ، في رفض الحقيقة الموضوعية الموجودة خارج الشعور ، اي في احلال المثالية واللا ادرية محل المادية . لقد تلاشت المادة : بهذه الكلمات

يمكن التعبير عن الصعوبة الاساسية ، النموذجية فيما يختص ببعض المسائل الخاصة التي أثارت هذه الازمة » .

وتنطوي ملاحظات لينين عن أرسطو على أهمية خاصة ، بمعنى أنها تبين ما يمكن ان يكون عليه التاريخ المادي للديالكتيك (وللفلسفة بطبيعة الحال) . ان تاريخ الديالكتيك هذا مرتبط بتاريخ تكون المادية ، وبالصراع بين المادية والمثالية ، دون ان يختلط به .

انه تاريخ معقد . لأن الصراع بين المادية والمثالية لم يكن ابداً صراعاً بين خصمين خارجين عن بعضها . هذه الصورة الهيكلية القاطعة سطحية ، تجزيء الوحدة الى اثنين ، تفصل بين المتناقضات وتحولها الى كيانات متضادة وميتة . بيد انه ، من ناحية اخرى ، ينبغي بشكل خاص ألا نغفل ما كان عليه هذا الصراع من احتدام . ان وحـــدة المتناقضات يجب ألا تفهم كتماثل مجرد ، غير متمايز . وحتى عندما لا يبلغ الصراع ذروته ، ولا يكون التناقض قد بلغ لحظة التعارض ، حتى في ذاك الحين فان الاختلاف يغلف هذا التناقض ، التناقض النوعي ، وينمو هذا الاختلاف الى ان ينفجر التعارض ، والى ان ينحل التناقض بانتصار أحد المتعارضين . وفي الحقيقة ان الوحدة أو التماثل شرطي ، وعرضي ، ونسبي :

« إن صراع المبادىء التي ينفي بعضها بعضاً هو صراع مطلق . لأن لحظة التناقض مطلقة . ان الصراع ، اي التناقض ، هو الجوهري » .

ان تاريخ الفلسفة هو تاريخ المفاهيم ، المقولات (الفلسفية ، المنطقية ، الخاصة بمختلف مجالات المعرفة) ، وتناقضاتها . انه يبين بآن واحد تسلسلها التاريخي (نشأتها ، ونموها ، ونضجها) ، والنظري (ارتباطها الداخلي) في نظرية المعرفة .

« الوف السنين مضت منذ ظهورت فكرة « ارتباط كل شيء » ، سلسلة

الأسباب . ولو حدثت مقارنة بين الأشكال المختلفة لفهم هذه الأسباب في تاريخ الفكر البشري ، لأعطت نظرية في المعرفة صحيحة بلا جدال . »
(دفاتر عن هرقليطس) .

لقد كان ارسطو ، بمعنى ما ، **اكثر مناهضي الديالكتيك ،** من بين الفلاسفة الاغريق ، انه خصم هرقليطس والديالكتيك الافلاطونية . وقــد خاض ضد الديالكتيك معركة ضارية . ومع ذلك فقد كان لديه شيء حي ، شيء نضر . واللاهوت (المدرسي) « **قضى على ما كان حيا عند ارسطو ، وخلد ما كان ميتاً** » .

ما الذي كان اذن حياً عند ارسطو ، في نظر لينين ؟ « **بــذور من الفكرة الحية ، تطلعات الى الديالكتيك** » اقترب منها الفلاسفة الاغريق دون ان يتمكنوا من السيطرة عليها . ان إلحــاح الفكر ، وجهد البحث في المنطق الارسطوطالي ، قادا الى منطق هيجل .

فالمنطق **الذاتي** ، عند ارسطو ، (اللحظة الذاتيــة للفكر ، المفهوم منظوراً اليه ذاتياً) يختلط دوماً بالمنطق **الموضوعي** . بيد أنه لا يوجد عنده ادنى شك في موضوعية المعرفة . ان « **ايمانه الساذج بقوة العقل** » يمتزج بخلط ساذج قاصر يدعو الى الشفقة ، خلط « **بين ديالكتيك العام والخاص ، بين المفهوم والواقع الذي تدركه الاحساسات ، بين الشيء والظاهرة** » . لقـد ضاع المفكر في المتاهة .

وهكــذا نرى ان لينين ينظر الى ارسطو واعماله كأنهم أحياء أقرباء ، حتى ، او بالاحرى ، عندما ينقدهم . وهو هنا يعطي اشارة بالغة الاهمية لمؤرخ الفلسفة . إذ يمكن اعتبار الفكر الاغريقي وتعاقب المذاهب كسلسلة من **المحاولات ، كطريقة في طرح المشكلات** ، الامر الذي يمنحه

« شكل تنوع في الآراء الساذجة جداً ، يعبر عنها ارسطو تعبيراً كاملا » .

فلديه تبدو المادية الديالكتيكية **« بصورة تلقائية ، غير معززة ، غير متفتحة ، عارضة »** . مثال ذالـــك ، عندما يبين ان الرياضي يترك جانباً « الأزواج المتضادة » المعطاة في المحسوس ، (الحرارة والبرودة ، الثقل والخفة) إذا اكتفينا بالمثال الكمي . وكذلك عندما يبين أن كل علم يجرد ويفصل مظهراً من الجسم ، من الظاهرات ، من الحياة .

إن خطأ أرسطو ، وهو خطأ شائع جداً في الفلسفة ، انه فرّغ العـام ، والمفهوم والفكرة .

« إن هذا يبدو غريباً ، رهيباً (اوصبيانياً بتعبيرأدق) ،غيرمنطقي ، ولكن أليست المثالية الحديثة عند كانت ، وهيجل ، فكرة الإله ، هي من النوع ذاته ؟ » .

فلكي نعرف ، وكي ننتقل من الجهل الى العلم ، ينبغي لنـا أن نحلل ، ان نجرد ،ينبغي أن نمر بالمفهوم (مأخوذاً ذاتياً ، صوريا ، بوصفه داخل التفكير) . ويمكن اذن ان نعزل المفهوم دوما ، وان نيبسه ، وبالتالي ، بدلا من بلوغ الديالكتيك الموضوعية ، يمكن هـدم الحركة الديالكتيكية الذاتية للمفهوم ، وايقافها في درجتها **المنطقية** ، وهذا ما فعله ارسطو .

ان فعل المعرفة في الواقع شديد التعقيد . ينبغي التمييز بين البيت عامة والبيوت الفردية . فالبيت عامة ، بصورة **منعزلة** ، ليس شيئاً . ومع ذلك فان هذه الكلمة تدل على **ماهية** البيوت الفردية ، ماهية ينالها **المفهوم** .

ويقول لينين : **« ان ازدواج المعرفة وامكانية المثالية »** هي ايضـــاً معطاة في ابسط تجريد بدائي . فالانعـكاس ليس **انعكاساً في مرآة** (ولنؤشر

مرة أخرى تحت هذه الصيغة البالغة الاهمية) . فعندما يقترب الذكاء من الشيء الفردي ، ويستمد منه صورة ومفهوما

« فان هذا ليس عملاً بسيطاً ، مباشراً ، ميتاً » .

إن الحياة غنية ومعقدة بصورة لا نهائية . انها تمزج دوماً المظاهر الاكثر تنوعاً ، السطحي والعميق ، الظاهرة والماهية . ان عمل المعرفة « المعقد ، المزدوج المتعرج ، يتضمن امكانية الطيران الخيالي خارج الحياة » ، بل وأكثر من ذلك :

« امكانية تحول (لايدرك ، لا يشعر به الانسان) للمفهوم المجرد ، للفكرة ، الى نزوة خيالية . لأن في كل تجريد ، في كل فكرة عامة ، حتى فكرة « البيت » او « الطاولة » ، يوجد نصيب من الخيال » ، كما ألح على ذلك لينين .

يحسن ان نقرب من هذا التحليل الشرح الذي تضمنه مقطع عن الديالكتيك . ان شرح الديالكتيك يجب ان يبدأ بالمنطق ، مع تبيان بداية الديالكتيك في الاحكام والمفاهيم التي ينزع المنطق الى عزلها وتثبيتها :

« لنبدأ بقضية من أبسط القضايا ، واكثرها شيوعاً : اوراق هذه الشجرة خضراء . جان انسان ، ميدور كلب ، وما الى ذلك . ان في هذا ، كما كان يلاحظ هيجل ، ديالكتيك : فما هو خاص هو عام . هذا ما كان يعلمه أرسطو في كتابه « ماوراء الطبيعة »، اذ يقول : «لا يمكننا ان نتصور بصورة مجردة، بيتاً، البيت، إن لم يكن أحد البيوت التي نستطيع رؤيتها ..». ان ثمة عناصر ، بذوراً ، مفاهيم ضرورة وترابط في الطبيعة . فما هو من العرض وما هو من الضرورة أي الظاهرة والماهية ، هما حاضران عندما نقول : جان انسان ، ميدور كلب ، هاهي ورقة شجرة . لأننا عندئذ نطرح الجواز Contingence ، ونستبقي الجوهري ، معارضين الواحد بالآخر .

وبذلك يمكن ، ويجب، ان نميز في كل قضية ، كما نميز في « خلية » كيميائية ، العناصر الجنينية للديالكتيك ، وبذلك نبرهن على انها تنطبق على كل معرفة بشرية ... ان الديالكتيك هي في الاساس نظرية المعرفة (من هيجل الى الماركسية) : هذا الجانب (وهو ليس جانبا ، بـــل هو اساس) لم يدرس دراسة كافية من بليخانوف ولا من كثيرين من الماركسيين الآخرين » .

وهكذا فان المنطـــق (الصوري) ينبغي ان يتخلص من المدرسية الارسطوطالية . انه لا يستطيع ان ينفصل عن الديالكتيك ، ولا أن يمتزج بها. وبصورة أعم ، فان كل شيء في الحياة البشرية، في الممارسة ، في اللغة، يضمر شيئاً من الديالكتيك ، يضمر بذوراً ، وانتقالا الى الديالكتيك. إلا أن الديالكتيك لا تختلط بعناصرها وبذورها . انها في ذاتها ، جوهريا ، شيء أسمى بكثير : إنهـا نظرية ، ونظرية في المعرفة .

ونظرية المعرفة هـــذه تبين باديء ذي بدء أن المعرفة لا تمضي في خط مستقيم ، بل في منحنيات ، ودوائر ، وكرات ، يغلف بعضها بعضاً ، مقتربة شيئاً فشيئاً من الاتجاه الحلزوني . لا خطاً مستقيماً ولا دائرة مغلقة :

« ان جزءاً من هذا الخط المنحرف ، اذا نظر اليـه منفصلا ، ومن وجهة معينة ، من جانب واحد ،يمكن اعتباره خطاً مستقيماً » (لينين).

أما اذا مددناهذا الخط المستقيم، فاننا نخرج من الديالكتيك بوصفهامعرفة « حية ، متعددة الصور ، يستمر تعدد مظاهرها الواجب دراستها في التزايد » ،

ونتجه نحو المثالية، نحو الذاتية، نحو الصوفية اخيراً، وهي ناميات وحيدة الجانب ،من نوافل الكلام .

« وهذه احدى سمات المعرفة أو أحد وجوهها » .

سمـة فصلت وحملت الى المطلق .

لننطلق اذن من المنطق (من الحكم ، من المفهوم ، من الاستنتاج) مع التزام الحذر من المنطق، الذي تتضمن صرامته نوعاً من التثبيت والذي يمكن ان يقودنا على خط مستقيم ، جامد ، اذن في اتجاه الطرف الوحيد والتثبيت .

ولننطلق من الممارسة ، مع العلم أن محتواها الشديد الغنى لايعطينا الا عناصر المعرفة الديالكتيكية ، ونقطة انطلاقها . ولا بد أن يتدخل التحليل، الذي يكشف، في هذا المحتوى،عن التناقضات أو بذور التناقضات،والتعارضات، وعن الروابط الموضوعية ، **أي الجوهري** .

* * *

وبذلك نصل الى « الدفاتر عن هيجل » الأساسية،وهي أساسية وجوهرية بذاتها لفهم تفكير لينين، والعلاقة بين الهيجلية والماركسية -اللينينية .

وعلينا ، هنا ، ان نميز بين مجموعتين من الملاحظات حول **تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ** من جهة ، و «**الدفاتر حول المنطق**»، وهي محور النقاش من جهة اخرى .

ان الملاحظات عن «فلسفة التاريخ» لهيجل تلفت النظر بإيجازها، ويخلص لينين الى القول : « **إن فلسفة التاريخ تقدم القليل جداً، وهذا أمر طبيعي : وفي هذا المجال بالضبط ، في هذا العلم خطا ماركس وانجلز أكبر خطوة الى الامام . وفي هذا المجال شاخ هيجل أكثر من أي مجال آخر** » .

ثم ينسخ لينين صفحة من هذه المقدمة (العقل في التاريخ) التي

« **تحوي أشياء ممتازة عن كيفية طرح المشكلة** » .

وفعلاً فان هيجل يتساءل عما ينتج عن هذه

« **اللوحة اللانهائية للحياة البشرية ، لنشاط الناس في اكثر الظروف تنوعاً** » .

ان هذه الأحداث والحوادث ، هذه الوقائع والحركات ، تثير الاهتمام من وجوه كثيرة :

« **فتارة يجذبنا الجمـــال ، او الحرية او الثروة ، وتارة اخرى**

تفتننا الطاقة ، وتارة اخرى تتوصل الرذيلة ذاتها الى فرض نفسها ... انه المشهد الاكثر تنوعا في كل مكان » .ما ترى سيكون موقف المؤرخ ومنظوره ومقولته ؟. فليس ثمة تاريخ مالم يتحسس المؤرخ

«بغاية نهائية لجميع هذه التواريخ . أفلا يوجد وراء الضجيج الصاخب لهذه الواجهة ، أثر ، وتقدم هذا الأثر الداخلي ، الصامت ، الخفي الذي نحفظ فيه القوة الاساسية لجميع هذه الظاهرات العارضة ؟..»

وهكذا فان جمـــلة الاعمال والانفعالات الفردية ، كتلة المصالح ، والقوى الصغيرة ، لهـا معنى ، لها اتجاه مستقل عن التطلعات الذاتية . ان الناس يسيرون ، دون ان يعلموا ذلك ، نحو هدف : حرية الانسان . ويعبر هيجل عن معنى التاريخ هذا بلغته المثالية :

« ان التاريخ الشامل ليس شيئا آخر سوى نمو مفهوم الحرية »

ان في هذا الكتاب بعض بذور المادية التاريخية . إلا انها بالنتيجة شيء قليل ...

وبالعكس ، فان لينين يدرس بعناية دروس هيجل عن تاريخ الفلسفة . اننا نقترب هنا فعلا من المشكلة الأساسية :

يقول هيجل : (وقد نسخ لينين هذا النص مضيفاً كلمة لاحظ N.B)

« أؤكد ان تتابع المذاهب الفلسفية في التاريخ هو التتابع لتحديدات مفهوم الفكر » .

وثمة تطابق ينكشف لنا بين تاريخ الفلسفة والمنطق (الديالكتيكي) ، او بالأحرى وحدة (هي نفسها ديالكتيكية) وهذه

« فكرة عميقة وصحيحة ، مادية في اعماقها . (ان التاريخ الفعلي

هو الاساس ، الدعامة ، الوجود الذي يشتق منه الشعور) ، (لينين) .

وكما يسير العلم من دوائر الى دوائر اكثر إتساعاً ، ومن مناطق الى اخرى أكثر عمقاً ، فكذلك تاريخ الفلسفة ، اذ يبـــدو كدائرة تطوق بمحيطها دوائر اصغر منها ، وهي «المذاهب والنظم» . هذه المذاهب ، باعتبارها انتاج فلاسفة ، تبدو أولاً (كما هو شأن الانفعالات والأعمال والأحداث في التاريخ العام) متصارعة ، ومتشابكة فيما بينها دون ترتيب . انها تبدو اعمالاً فردية ، وبهذه الصفة فان دراسة علاقاتها ببعضها وتعاقبها سرعان مايولد الإرهاق . وهي تبدو اخيرا مغلقة ، مقفلة ، منتظمة . بيد ان المؤرخ الحق يلمح الحركة الصاعـدة التي تعبرها . ويصحح لينين المقارنة « **العميقة الصحيحة** » لهيجل : ان كل تعبير خـاص عن الفكر يقع على **حلزون** نمو الفكر البشري . ونلتقي هنا مرة اخرى بمفهوم النمو الحلزوني الذي كان لينين يعلق عليه أهمية بحيث يبدو انه ينظر اليه كما لو انه يعبر عن قانون شامل .

ان مؤرخ الفلسفة يحتاج الى منهج جدي لئلا ينسب الى الفلاسفة القدماء ما نما من بعدهم (واحيانا انطلاقا منهم) بيد انه يجب ان نتعرف على النوى ، على البذور الخصبة ، حيثما وجدت ، فمثلا عند الفيثاغوريين

« **توجد نوى تفكير علمي ممتزجة مع النزوات** » ! (لينين) .

ان دراسة الفلاسفة الايليين تتيح تعريفا للديالكتيك : (وهو تعريف اخذ فيما بعد ، وانضج ، وأكمل وعمق) . ويميز هيجل بين تحديدين للديالكتيك : الحركة الخاصة للفكر في المفـــاهيم (ديالكتيك من وجهة نظر ذاتية) — والحركة في الماهية الموضوعية .

وهكذا حور لينين مقطع هيجل بالصيغة التالية :

«ان الديالكتيك ، بصورة عامة ، هي حركة الفكر في المفاهيم ...

ان المفاهيم البشرية ليست جامدة ، بل هي تتحرك بصورة ازلية ، فتنتقل من مفهوم الى آخر ، وينصهر الواحد منها في الآخر . والا لما كانت انعكاسا للحياة الحية ... وبصورة أخص ، فان الديالكتيك هي دراسة التعارض بين الوجود في ذاته ansich الماهية ، القوام ، الجوهر - وبين الظاهرة ، «الوجود للآخر» . (هنا ايضا نرى انتقال وانصهار الواحدفي الآخر: فالماهية تظهر ، والظاهرة هي ماهية). ان الفكر البشري يتعمق بصورة غير محددة من الظاهر الى الماهية ، ومن ماهية الدرجة الاولى ، ان صح التعبير ، الى ماهية الدرجة الثانية ،وهكذا بلا تحديد » (أشّر لينين تحتها) .

ولكن حذار ،فان هـذا ليس بعدُ سوى تحديد اول للديالكتيك : الديالكتيك في المفاهيم،فيتسلسل المعرفة ، في تحليل الانسان للواقع الموضوعي. فلننتقل الى التحديدالاكثرارتقاء - الاكثر كمالا (تحديد لا يمكن ان ينفصل عن التحديد السابق : اذ انهما يشكلان كلا ، يعرّف الديالكتيك) .

« ان الديالكتيك ، بمعناها الحقيقي ، هي دراسة التناقض في ماهية الاشياء ذاتها . ان الظاهرات ليست وحدها انتقالية ، متحركة ، مائعة ، تنفصل عن بعضها بحدود اتفاقية بحتة ، بل ان هذا كله يصح ايضا على ماهية الاشياء » .

فتوجد اذن ، لا في الواقع وحسب ، بل وفي الفكر ايضا (الذي يعكس الواقع)لحظات،مناطق،واعماق، متتابعة متشابكة. كما توجد تناقضات.

ان الديالكتيك هي اولا خارجية (بالقياس الى الموضوع) ، وذاتية ، وتعتمد على المفهوم.انطريقةمعينة في تناول الاشياء ، وكشف مافيهامنمظاهر ، و « هز ما يعتبر راسخاً »

هو من الديالكتيـك ، فلنمض في هذا الاتجـاه ، ولنمض بعيـدا ، نصل

الى السخرية ، الى الشك ، الى السفسطة . ذلك انـــه ينبغي ألا نتخلى عن **الديالكتيك الموضوعية** ، عن تناول **المضمر** في الشيء :

« يؤخذ الشيء لذاته ، دون افتراض سابق ، دون فكرة مسبقة ، دون فكرة اخلاقية .. نضع انفسنا كليا في الشيء ، نتناول الشيء في ذاته ، نأخذه تبعا للتحديدات التي يتمتع بها » (والتي هي متناقضة) . **(هيجل ، نسخها لينين)**.

واليوم يسلم كل الناس بمبدأ النمو ، التطور . وسرعان مـا يصبح هذا المبدأ مبتذلا ، كما يصبح الاتفاق حوله عارضا، سطحيا، خلوا من التفكير، مرائيا. ومبدأ النمو ينبغي ان ينمو هو ذاته ، وينطبق على كل شيء، وعلى المعرفة ذاتها . ينبغي خاصة

« ان نربط ونوحد ، ونصل المبدأ العام للتطور بالمبدأ العام لوحدة الكون ، والطبيعة ، والحركة ، والمادة » . (لينين) .

وهي مهمة شاقة تفترض ان ثمة

« ديالكتيك للمفاهيم وديالكتيك المعرفة ذات مدلول موضوعي».

وتظهر فكرة لينين المركزية بوضوح : **موضوعية الديالكتيك** .

ما هو منشأ الصعوبـــة ؟ انها من الفكر ذاته . ذلـك ان الفكر ، يحلل اولا ، ويفصل ، ويجرد ، ويبقي في الفصل لحظات الشيء المرتبطة بالواقع . اننا لا نستطيع الذهاب مباشرة الى الشيء ذاته ، وان نقيم فيه ، وان نلتقطه ، ونعرفه .

ويكتب لينين **« اننا لا نستطيع تمثيل الحركة ، والتعبير عنها ، وقياسها ، وتصويرها ، دون ان نوقف استمرارها ، ودون ان نبسط ، وان نقارب بعنف ، ونفصل ، ونستخلص ما هو حي . ان تصور الحركة فكريا يكون دوما بتجميدها ، وتفكيكها ، لا في التفكير وحده كما في حالة الحركة ، بل في جميع المفاهيم »** .

هذا بالضبط هو ما تبينه حجج زينون الايلي Zenon d'Elee الشهيرة ضد الحركة . ولكن هذا بالضبط ايضا هو ما يجبرنا على ان نمنح الحياة المفاهيم ، وان نعبئها ، وان نلتقط الحركة الموضوعية كنقيض(استمرار وتقطع .. الخ) .

« في هذا يتجلى اساس الديالكتيك » . (لينين) .

وبذلك نكتشف لدى الاغريق ، اولئك الفلاسفة الديالكتيكيين ، الغضين السذج ، **ثلاثة تحديدات** او لحظات للديالكتيك ، لحظات هي ذاتها **تختفي** ، وتتحول الواحدة الى الاخرى ، وتؤثر الواحدة في الاخرى .

أ ـ الديالكتيك **الخارجية** (اي التفكير الذي يحلل ، ويجمد ، ويفصل الاشياء ، والخصائص والمفاهيم ـ والذي في الوقت ذاتـــه يهز هذه الثوابت ، وينزع الى حل المفاهيم المنفصلة ، ويتقدم من علاقة الى اخرى) .

ب ـ **وديالكتيك الشيء** ، **المضمر في الشيء** ، والموجود في تفكير الشخص (من اجل الشخص ، وربما ايضا في مجرد مظهر الشيء او مظهر الظاهرة) .

حـ ـ **والديالكتيك الموضوعية كلياً** ، بوصفها مبدأ لكل ما هو موجود . انها « **الموضوعية الهرقليطيسية** » ، (هيجل مع اشارة : لاحظ NB من لينين) .

ان دراسة مذهب هرقليطس ولحظـــات الديالكتيك تقود لينين الى تأملات هامة حول العلاقة بين العلوم والديالكتيك . فالعلماء يبقون عفويا في اللحظتين الاوليين ، دون ان يعرفوا ذلك بوضوح .

« لو اصغينا اليهم فانهم لايقولون الا مايرون ، إلا أن هذا غير صحيح ، لأنهم لاشعورياً يحولون بصورة مباشرة مايرونه ، وذلك عن طريق المفهوم . ان المناقشة لاتنصب على التناقض بين الملاحظة والمفهوم

المطلق ، بل على التناقض بين المفهوم المحدد ، المثبت ، والمفهوم المطلق »
(هيجل) .

ان مجرد التجريبية هي اما مستحيلة، او تقع خارج نطاق العلم . فما من علم دون مفاهيم ، كما كان يكرر انجلز ببساطة اكثر من هيجل (لينين) ، غير ان فن استعمال المفاهيم ليس فطرياً ، لأنه

« حصيلة نمو العلوم الطبيعية والفلسفة خلال ألفي سنة . (لينين ، ولنلاحظ الأهمية التي يحضها لنمو الفلسفة) .

ان العلماء ، بمفاهيمهم الساذجة ، المستعملة بشكل سيء ، ينتهون – عفوياً – الى انكار الحركات والتحولات التي يحللونها .

« ان لدى العلماء ، عن التحول ، فكرة ضيقة ، وهم لايفهمون الديالكتيك » [1] .

بيد ان عندهم ، **من قبل** ، الشامل والضروري والحقيقة . وكذلك الحال ايضاً عند الفلاسفة ، مثل هيرقليطس او الذريين الاغريق (لوسيب Leucippe ، ديموقريطس Démocrite) .

ويمكن للقاريء ان يتتبع الشرح اللينيني ، من خلال هيجل ، لهؤلاء الفلاسفة وتعاقبهم . وتنطوي الفقرات المتعلقة بـ جورجياس Gorgias ، وسقراط ، وافلاطون ، وارسطو ، على اهمية خاصة .

نتائج عامة :

١ – « لايمكن تطبيق منطق هيجل كما هو ، ولا اعتباره معطى نهائياً .

---

(١) راجع فيما يتعلق بقصور التربية الديالكتيكية لدى العلماء ، نصوصاً عديدة في كتاب : انتي دهرنج « ديالكتيك الطبيعة » ، وكذلك الرسالة الممتازة الموجهة بتاريخ ٣٠ أيار (مايو) ١٨٧٣ من انجلز الى ماركس .

ينبغي ان نحتفظ منه باشكاله المنطقية (المنهجية) بعد ان نتخلص من صوفية الأفكار ، وهذا مايزال عملاً كبيراً » . (لينين) .

٢ — لقد اهمل الماركسيون هذا العمل ، مثلا بليخانوف ، الذي كتب كثيراً عن المسائل الاساسية ، ولكن « لاشيء عن المنطق الكبير ، لاشيء عن مدلوله (اي بالنتيجة عن الديالكتيك بوصفها علماً فلسفياً) » .

٣ — كان هيجل يفكر ، بكل جدية ، ان المادية لاوجود لها كفلسفة . ولأن الفلسفة « علم الفكر ، علم الشامل » فانه كان يخلص الى وجود المفهوم ، وجود الفكر . وهو ينحرف هكذا نحو المثالية الذاتيـة التي كان يصفها هو بأنها « مثالية رديئة » . وفي الوقت ذاته :

« فان المثالية الموضوعية (واكثر منها المثالية المطلقة) اقتربت عبر تعرجات (وانتكاسات) حتى لامست المادية ، وتحولت جزئياً اليها » .

ان هيجل الديالكتيكي ، « لم يعرف كيف يفهم الانتقال الديالكتيكي من المادة الى الحركة ، من المادة الى الشعور ، وخاصة هذه الأخيرة . وقد صحح ماركس خطأ (او ضعف) هذا الصوفي » .

ويصر لينين على ان هيجل ، حين يقترب كثيراً من المادية الديالكتيكية ، فانه يتهرب ، يجبن ، بل انه ينتهي الى الافتراء على المادية .

وسنتذكر هذه النتائج لأننا سنلتقي بها بصدد المنطق . فقد تناول لينين مجدداً نظريات انجلز (وماركس) عن الصفة المتناقضة لمذهب هيجل ، وعمقها . وينفذ التحليل اللينيني الى المشكلات المشخصة التي يطرحها هذا التناقض . ونجد انفسنا في صميم المسألة ، التي طال النزاع حولها ، العلاقة بين الهيجلية والماركسية . ومن المفارقة في الظاهر (بيد ان هذه المفارقة لاتدهش الا غير الديالكتيكيين ، او

الماركسيين التقريريين) انهيجل اقترب، عن طريق الجانب الاكثر مثالية في مثاليتـــه **الموضوعية** ، عن طريق **المثالية المطلقة** ، **اقترب من الماركسية** الديالكتيكية ، حتى لامسها باصبعه . بحيث قـــد يصح القول ان ديالكتيكيته ملتوية ، معكوسة ، مقلوبة ، رأسها الى اسفل ، الا انها — بمعنى ما ، والى حد ما — هي الديالكتيك الموضوعية ، المادية . ان الهيجلية ، في تحولها ، تنتقل جزئياً الى المادية الديالكتيكية وبصح هذا بقدر ماترفض المثالية المطلقة « المثالية الرديئة » (المثالية الذاتيـــة) ، وبقدر مايهاجم هيجل ، عندما يعالج المطلق ، الفلسفة التقريرية كلها (الدوغماتية) .

« **لابوصفها ذات محتوى ايجابي ، بل بوصفها تؤكد كشيء مطلق شيئاً محدداً** » (هيجل ، استشهد به لينين) .

بيد ان المادية الديالكتيكية لاترفض المطلق ، ولكنها ترفض ان يعزله الفكر ، ويفصله عن النسبي ، **وان يحدده** (أي ان يحدده ، ويضعه خارج الطبيعة ، خارج المعرفة) . ان المثالية المطلقة عندماتعد وتنقد مفهوم المطلق ، فانها تلامس المادية الديالكتيكية ! ان المطلق الهيجـــلي ، الذي يصوره الشراح الهيجليون — المحدثون المثاليون والصوفيون « كذات لايمكن التعبيرعنها » منطلقين من نصوص الفنمنولوجيا — ليس في الواقع سوى تعبير مازال غامضاً عن « الديناميكية — الذاتية » للكون . ان المطلق الهيجلي ما ان نطلق عليه اسم « ذات » حتى نكون قد عيناه ، وحددناه ، وعزلناه ، خلافاً المعنى العميق للهيجلية

ان هيجل يجعل من الطبيعة طبيعة الفكر . انه يلامس الحقيقة . ان الفكر هو فكر الطبيعة . ويكفي ان نقلب نظريته .

هـ - الدفاتر في منطق هيجل

بين ايلول (سبتمبر) وكانون الاول (ديسمبر) ١٩١٤ ، اثناء اقامة لينين في برن ، قرأ المنطق الكبير ، لهيجل ، ووضع لاستعماله الشخصي مجموعة من الملاحظات والاقتباسات المرفوقة بتعليقات ساخرة احياناً ، مقرظة احيانـاً ، مقتصرة احياناً اخرى على كلمة واحدة ، او اشارة تعجب او مجرد اشارة استفهام.

ان هذا التاريخ يبدو فريداً : « كيف حدث ان لينين ، في خريف ١٩١٤ ، في مطلع الحرب العالمية ، وهو منفي ، منعزل ، بعد انهيار الاممية الاشتراكية - الديموقراطية ، كيف حدث ان عاد الى قراءة اكثر الفلاسفة المثاليين غموضاً ، بخاصة كتابه المجرد « المنطق » ؟

وبالفعل فان لينين قرأ هيجل ، واعاد قراءته ، حينما كانت تتفجر (وبأي عنف !) جميع تناقضات المجتمع الرأسمالي . وحيث رأى الآخرون حقاً يصارع حقاً آخر ، او مجرد سديم دموي ، رأى لينين ، **تناقضات داخلية تتفجر** . فعاد الى الفيلسوف النظري للطريقة الديالكتيكية لكي يدقق ويختبر نظريته في المتناقضات . وستبين له النظرية الهيجلية ان لحظة التمزق ، حين يبدو صدام العناصر المتناقضة بدون مخرج ، يمكن ان تكون ايضاً اللحظة التي يظهر فيها الحل ، لأن الوضع التاريخي آنذاك والجماهير البشرية - بسبب عدم وجود المشاعر الفردية - تنادي بهذا الحل وتبحث عنه . ففي التناقض ، تحجب الوحدة احياناً صراع العناصر المتناقضة ، فتكون هي الظاهر ، واحياناً اخرى يحجب صراع العناصر ويخفي القوى العميقة الاساسية .

فالوحدة هي الظاهر تارة ، وهي فوضى التمزق العنيف تارة أخرى . واذ يعيد لينين قراءة هيجل ، فانه يحاول ان يدقق نظريته السابقة : ان عهد الامبرياليـة والحروب العالمية هو في الوقت ذاته عهد الثورات . وفي خريف ١٩١٤ ، سيخوض المعركة وهو شبه وحيد : معركته . انه يمضي « ضد التيار »[1] لأنه يعرف ان ثمة تياراً أعمق ، هو التيار الثوري

في ذاك الوقت ، ١٩١٤ ، تخلى الفكر البورجوازي (والاشتراكي — الديموقراطي) عن « قيمه » في الشمول والحقيقة ، وانكفأ الى الانعزال القومي وخدم الحرب . وحين كان لينين يقرأ منطق هيجل ، كان « رجل اعمال » آخر ، هو موسوليني ، يحس ان ساعته قد اقتربت . ان موسوليني اللاعقلاني ، « الاشتراكي » ، المتتلمذ على سوريل Sorel ونظرية العنف « المحض » كعامل في التاريخ ، سينتقل من الاممية الى القومية الفاشية . اما الايديولوجية الفاشية فستأتي فيما بعد ، يلمها المغامرون السياسيون على فلاسفتهم : في ذاك الوقت حافظ لينين وحده تقريباً على مفهوم عقلاني عن العالم ، على منهج علمي ومنطق .

وبذلك نستطيع ان نفهم لماذا كان لهذه الدفاتر اهمية استثنائية . انها تقدم للحركة الماركسية ما كانت تفتقر اليه : فهذه الملاحظات تتضمن كتاب المنهج العلمي والمنطق الذي لم يتح لماركس الوقت لوضعه .

ويحس القاريء المجرب ، كلما قرأ هذه الملاحظات ، ان لينين يضع نصب عينيه الوضع التاريخي الذي يريد تحليله . بيد ان هذه الدفاتر لا تعنى بالامبريالية والحرب . انما تعنى بنظرية المعرفة . ولينين انما يقرأ هيجل ليأخذ ما عنده من جيد . فالقراءة النقدية تصبح عملا ، وتأخذ اكثر الجمل تجريداً (في الظـــاهر) معنى

---

(١) عنوان مجموعة المقالات التي كتبها لينين في هذه الفترة .

راهناً ، ملحاً ، بالرغم من كونه غير مشار اليه في غالب الاحيان . وعلى سبيل المثال ، فان لينين ينسخ بعض الكلمات عن هيجل : « **ليس كل انتقال الى ماوراء الحدود تحرراً** » ، ماذا تعني هذه الكلمات في نظره ؟ انها محملة بالمعنى . انها تتابع نقد الرومانسية ، والطوباوية ، واحلام اليقظة الفارغة . وهي تعني اكثر من ذلك انها تعني ان المجتمع الرأسمالي يحطم حدوده الخاصة في الفوضى وانهار الدماء ، الا ان هـذا ليس هو التحرر ، ليس هو الثورة . وعلى قارىء لينين ان يكتشف تفكيره وأن يستخلص – ويكون ذلك بأن يفكر ويحلم احياناً – ، معنى هذه الصيغ المقتضبة .

فاذا كان لمجرد جملة واحدة ، مرتبطة بالحوادث بفكر لينين ، بالتفكير الفلسفي عامة ، ان تكتسب مثل هذا الرنين ، فكيف يمكن ان نعرض اونشرح هنا محتوى « **الدفاتر عن المنطق** » ؟ سنكتفي بتناول بعض الموضوعات : العلاقات بين **المقولات** الرئيسية في المنطق والديالكتيك ، مبتدئين بالعلاقات التي سبق لنا تناولها بين **الماهية والظاهر** (المرتبطين مباشرة بمقولات اخرى : الظاهرة والقانون) .

الماهية والظاهر :

لقد عرفنا من قبل ان التحليل ينبغي ان يستبعد الظواهر ليبلغ الجوهري. والمعرفة العلمية تعرف بأنها معرفة الماهية[1] . ومن يرفض مفهوم **الماهية** يرفض بذلك مفهوم **القانون** . وبالعكس انه يسلم نفسه الى التجريبية الصرفة ، الى مجرد ملاحظة الظاهرات ، دون ان يتمكن من تمييز الظاهر – والعارض – مما ليس ظاهراً .

لقد اقتصرنا ، حتى الآن ، على صياغة المطالب العفوية (العملية) للمعرفة

---

(١) سيطلق بعض الفلاسفة على النظرية الماركسية اللينينية اسم « مذهب الماهية » نقيضا للوجودية .

العلمية . وضعناها في مفاهيم واضحة ، فيمنهج علمي ، ومع ذلك ففي مجـال علوم المجتمع ، حملنا اليها اضافة حولت التلمسات التجريبية الى طريقة علمية : ان الشعور والعفوية يقعان في مستوى الظاهرات، الظواهر ، ان الذاتي ليس هو الجوهري.

غـير ان النظرية الديالكتيكية في المعرفة ، والمنهجية الديالكتيكية ، تذهبان الى ابعد من ذلك . فبين الماهية والظاهر توجد علاقة ديالكتيكية أكثر عمقاً ، أي وحدة وصراع بآن واحد .

ان الماهية ليست خارج الظاهرة او الظاهر . فالظاهرة تحوي في ذاتهـا ماهيتها وقانونها . « **ان المعرفة لاتقف عند المباشر** » ، ولكن الفلاسفة الصغار وحدهم (كانت او التجريبيين) هم الذين يتساءلون ، ما اذا كان يجب ان نعتمد كأساس الماهية أو الظاهر لقد ابدل هيجـــل حرف « او » بحرف العطف و (في هذا التساؤل) .

« **ان الظاهر هو الماهية في احدى تعييناته ، في احدى علاقاته ، في احدى لحظاته** » (لينين) .

ان الظاهر يخفي الماهية – ولكنه يحويها ، ويكشف عنها .

ان الماهية هي الظاهر . هذا التأكيد يجب ان نأخذه في كامل معناه . اننا ، اذ نحلل ظاهرة او ندرس الظاهر (او الظهور) ، نتوصل الى ماهية . وهذه الماهية تصبح بدورها ظاهرة بالنسبة لنا : فهي تحوي ، وتخفي ، وتكشف عن ماهية أخرى ، أكثر عمقاً . وهكذا الى مالا نهاية .

هاك مثلا يقدمه لينين : حركة النهر . فالزبد في الاعلى، والتيارات العميقة في الاسفل . وثمة تيارات اخرى متفاوتة العمق ، حتى نبلغ ذاك التيار الذي يحفر مجرى النهر ، ويحدد وجهته ويعين مصيره (ينبغي لمعرفته الذهاب الى ابعـد من ذلك : دراسة التربة ، والتشكل الجيولوجي الخ) .

علينا ان نفصل هنا الاشارات التي تتضمنها **الدفاتر** عن علاقات مقولات فلسفية هامة أخرى، **كالشكل والمحتوى** (اللذين يـــتمايزان، ويتعارضان، ويتنازعان فيما بينهما، ومع ذلك يتحول احدهما الى الآخر، إذ يخرج الشكل من المحتوى ويؤثر فيه).

ولنكتف بالعودة الى نظرية الانعكاس لمتابعة توضيحها.

إن هذه النظرية تقودنا، اذا مافصّلت، الى أن نميّز (لكي نحدد علاقاتها فيما بعد) بين الشعور **البيولوجي**، باعتبـاره انعكاساً لعلاقة الجسم الحي ببيئته — والشعور الانساني **النفسي** بوصفه انعكاســـاً لنشاط الدماغ وللعلاقات الاجتماعية العملية، التي تتكون الفردية داخلها — والشعور الاجتماعي الايديولوجي، او انعكاس المصالح الطبقية واوهام الطبقات الحاكمة في الماضي — وانعكاس الممكن بوصفه متضمناً في حركة الواقع — واخيراً المعرفة بوصفها انعكاساً حقيقياً، مجرداً ومشخصاً، للواقع الطبيعي والاجتماعي. هـذا **الانعكاس** الحقيقي يتكون من مفاهيم وتصورات.

وثمة صعوبة كبيرة تنشأ من كون المعرفة ينبغي ان **تبدأ**. بم؟ بما هو مباشر، بالمحسوس، الذي تتخطاه. بالموضوع، وبالاتصال العمـلي بالموضوع، ولكن بتحطيمه، بعزله (الموضوع في الطبيعة ككل، الموضوع بذاتـــه، ككل معطى).

هذه البداية تنتج سوء فهم، وصعوبات:

« ان الناس يبدأون بهذا. الا أن الحقيقة ليست في البداية – كما يقول لينين – **انها في غايتها ، وبصورة أدق ،** – كما يتابع لينين – **هي في الاستمرار »** .

ولنفهم : انها توجد في **حركة الفكر** ، الذي يحلل ، ويحطم بالتجريد ، العالم والموضوع ، يجمد وييبس ، ثم يحاول ان يجد الكل ، وآنذاك تعكس حركته حركة الواقع ، بصورة غير كاملة دوما (تقريبية ، نسبية) ، الا انها متزايدة العمق .

ان المعرفة ينبغي ان تمر بالتجريد . والفكر المجرد يتعرض لخطر الانفصال عن الواقع ، وعزل الواقع الذي يدرسه . فثمة اذن تجريد وهمي ، غير مفيد ، معزول ، هو ما نجده محمولا الى المطلق في المذهب المثالي . وثمة تجريد صحيح واقعي ؛ لا يبعدنا ، بل يقربنا ، من الواقع .

هذا هو تجريد **المفهوم** ، المفهوم المليء ، الغني بمحتواه .

ان قانون العرض والطلب ، المعتبر في الاقتصاد الشائع قانوناً ثابتاً ، **يبدو** قريباً من التجربة ، من الواقع . فالقيمة ، وهي « مقولة محرومة من « **المادة المحسوسة** » ، **هي أكثر حقيقة** من قانون العرض والطلب . وتحليل السلعة كعلاقة اجتماعية يبلغ الماهية عبر المفهوم المرهف والمجرد جدا (في الظاهر) : وهو قيمة التبادل .

ويضيف لينين باختصار : « **تاريخ الرأسمالية ،تحليل المفاهيم التي تلخص هذا التاريخ »** .

ان المفاهيم الصحيحة (ذات المحتوى الموضوعي) ، لا توضع على صعيد التجريد الصرف ، المتعالي عن الممارسة ، عن التاريخ . انها تلخص ، وتكثف ، وتحصي ، وتحول الى أداة للحقيقة ، والى حقيقة مليارات ومليارات التجارب العملية

والأعمال الانسانية . تلك هي المقولات والأشكال الأكثر تجريداً في المنطق ، بما فيها القياس والتفكير الاستدلالي . فالانسان الفاعل يعرف الطبيعة ، ولأنه يسيطر عليها عندما يعرفها ، يتخلص منها : « **ان المقولات هي درجات من هذا التخلص ، أي من معرفة الكون . انها نقاط الوصل في الشبكة التي تتيح معرفة الكون والسيطرة عليه** » .

إلا انه ينبغي ان تكون المفاهيم « **مشحوذة ، مشغولة ، مرنة ، متحركة ، نسبية ، مرتبطة فيما بينها ، متحدة في التعارضات** » لكي تحتضن الكون ، وتعكسه حقاً .

ومهما تكن المفاهيم هامة ، وعميقة وحاسمة ، فثمة اذن شيء أعمق منها . هذا « الشيء » لا يتكشف الا فيها وعبرها : انه **الحركة** التي تحملها وتحاول هذه التقاطها . ان الحركة الخاصة بالمفاهيم ، وطريقتها في فرض ذاتها (التي اعطت هيجل انطباعاً عن وجود نوع من الحياة المستقلة للمفاهيم) ، و« ديناميكيتها الذاتية » ، تحيل الى هذه الديناميكية الأكثر عمقاً وتدل عليها .

« **ان الحركة ، والحركة الداخلية** (هنا اشارة لاحظ) **حركة مستقلة ، عفوية ، ضرورية ـ داخلية ، « التغير » ؛ « حركة الحياة » ؛ مبدأ كل حركة داخلية** » ، Trieb ، **الدافع الى الحركة والى الفعالية ؛ ـ التعارض مع الوجود ـ الميت ـ ، من كان يظن ان هذه هي ماهية الهيجلية ، هذه الهيجلية المجردة الغامضة ؟ هذا التراث ، كان ينبغي فهمه ، واكتشافه ، وانقاذه ، وتفتيحه ، وتطهيره ، وهذا مافعله ماركس وانجلز** » . (الدفاتر ، نظرية الماهية) .

هذا المبدأ المطلق يسمى عند هيجل **الفكرة** . اما في نظر ماركس ، وبوضوح أكبر لدى لينين ، فان هذا المبدأ المطلق الشامل ، المشخص ، يسمى

طبيعة (مادية) إلا ان لينين لا يجد كلمات تكفي للثناء على هيجل الذي سمى ، بمصطلحاته المثالية ، الطبيعة فكرة ، ووصفها بعبارات مادية :

« ان الديالكتيك ليست في العقل البشري ؛ بـل في الفكرة ؛ اي في الواقع الموضوعي .. الحياة الأبدية = الديالكتيك ».

كما تسجل « حواشي لينين » على نصوص هيجل .

ان مثالية هيجل لا تثوي في نظرية الفكرة ، بل في مفهومه عن الزمان ، الذي يتصوره بصورة ذاتية : كشيء « فكري » .

ولينين يستطيع اذن ان يستخلص ما يلي ، معيدا الى هيجل مقامه في تاريخ الفلسفة والمعرفة :

« هيجل مقلوب من وجهة نظر مادية ... إن إكمـــال عمل هيجل وماركس ينبغي ان يقوم على الانضاج الديالكتيكي لتاريخ العلوم والتقنية ، والتفكير البشري » .

ان الفكرة (الهيجلية) هي الحقيقة **« بوصفها عملية »** ، لأن الحقيقة عملية ، مثلما انها معرفة حقيقية لهذه العملية . **انها تمر في نموها بثلاث درجات :**

١ ـ الحياة .

٢ ـ عملية المعرفة التي تتضمن ممارسة الانسان والتقنية .

٣ ـ درجة الفكرة المطلقة اي الحقيقة التامة .

ان فصول هيجل عن الفكرة في كتاب **المنطق الكبير** ، وكذا في كتاب **المنطق الصغير** (منطق الموسوعة) هي ، بلاشك ، في نظر لينين ، **« خير عرض للديالكتيك »** ، يبين بصورة عبقرية ، العلاقة العميقة بين التاريخ ، والمعرفة ونظريتها ، والمنطق والديالكتيك .

بل ان هيجل قد عرف كيف يقف ضد الصورية والانتقائية: ضد «فراغ اللعب بالديالكتيك» (مثلا ضد استعمال « الثلاثيات » : القضية - النقيض - التركيب) .

ان هذا الفصل عن الفكرة المطلقة :

« لايكاد يحوي أية مثالية نوعية ، ولكن موضوعه الاساسي هو الطريقـــة الديالكتيكية . ان المطول والمختصر ، ان الكلمة الاخيرة والماهية في منطق هيجل،هي الطريقة الديالكتيكية.. انه امر بالغ الاهمية. وايضاً: ان في كتاب هيجل الاكثر مثالية ، اقل نسبة من المثالية . هـــذا متناقض ، ولكنه واقع » (السطور الاخيرة من- الدفاتر عن المنطق -).

وبعبارة اخرى ، فان هيجل يخضع الديالكتيك : لديالكتيكيته الخاصة. انه متناقض ، وقد حل ماركس وانجلز هذا التناقض .

ان عرضاً فلسفياً صحيحاً للطريقة الديالكتيكية لايمكن اذن تصوره الا في مستوى مرتفع جداً وعميق جداً : في مستوى الشامل المشخص،اي الطبيعة ككلية - كوحدة للتناقضات الموضوعية ، للنهائي واللانهائي ، للنسبي والمطلق ، وما الى ذلك. ولا بد من ان نقلب في الحال هذه الصيغة وان نوضح ان كل وحدة متناقضات هي « مشروطة وعارضة ونسبية »، بينما يكمن المطلق في نزاعها ، كما يكمن في الصيرورة الشاملة التي تنجم عن هـــذا النزاع . ان الديالكتيك هي معرفة التناقض في ماهية كل شيء ، هي الاعتراف بالتناقض كشيء مطلق .

ولهذا فان أسمى تعريف للديالكتيك يتضمن، في نظر لينين :

١ - تعريفـــا للمفهوم بذاته (ينبغي تناول الشيء ذاته في علاقاته ونموه) .

٢ - التناقض في الشيء ذاته ، والقوى والاتجاهات المتناقضة في كل ظاهرة .

٣ - وحدة التحليل والتركيب ... تلك هي عناصر الديالكتيك[١] .

ان العرض الكامل (بقدر ما يصح استخدام هذه الكلمة) ، لاينفصل اذن عن نظرية في المعرفة والكون ، اذن عن تاريخ المعرفة كله ، وتاريخ العلم والفلسفة . انه يقتضي تمحيصاً عميقاً للعلاقات بين **المنطق** (المنطق الصوري القديم ، منطق أرسطو) ، والديالكتيك . ويقول لينين : « حركة المعرفة » ذلك هو الجوهري . وحركة المعرفة هذه لاتنفصل عن حركة العمل (الممارسة) . ماذا يبين التاريخ ؟ ماذا يعني معيار الممارسة ؟ ان الفكرة ، بل والمثل الأعلى ، يتحولان الى واقع ، كما رأى هيجل . ان أهداف وغايات نشاط الانسان تبدو له خارجية بالنسبة للواقع الموضوعي ، للطبيعة : « **ينظر اليها على انها من خارج العالم** » ، وانها مستقلة ، فبذلك تعرف الحرية تعريفاً وهمياً . والحق ، ان اهداف النشاط الانساني هي ايضاً ذات دلالة موضوعية ، وتكون عملية موضوعية . إن الانسان لايحقق ذاته الا في الطبيعة وبواسطتها : وذلك بتملكه إياها كسلعة له .

« ان فكرة تحول المثل الاعلى الى واقع هي فكرة عميقة : انها هامة جداً للتاريخ ، وكذلك في الحياة الشخصية للانسان ، اذ من الواضح ان فيها

---

(١) ان هذا التعريف لم يرض لينين ، وقد فصله في سبع عشرة نقطة . ولانستطيع هنا عرض هذا التفصيل . ويرجى من القاريء الذي يعنى بالديالكتيك ان يرجع الى دفاتر لينين - والى كتابنا المنطق الصوري . المنطق الديالكتيكي . (هـ . لوفيفر ، المنشورات الاجتماعية ، ١٩٤٧) .

كثيراً من الحقيقة . ضد المادية الشائعة » . (الدفاتر ، نظرية الوجود) .

ويلاحظ لينين ان التمييز بين المثال والواقع ، هو نسبي بدوره .

ولا نستطيع هنا الا ان نورد بعض الصيغ الفريدة بجمالها ، التي خطتها ريشة لينين والتي يتكثف فيها الفكر الفلسفي الهيجلي فيصبح أخاذاً وانسانياً ، كهذا القول :

« **ان الفكرة تنطوي على أعنف التناقض - ان الراحة بالنسبة لتفكير الانسان تقوم على الثقة والقوة اللتين يخلق بواسطتها بصورة ابدية هذا التعارض بين الفكرة والموضوع ويتجاوزه بصورة أبدية** » (الدفاتر ، طبعة غاليمار ، ص ١٨٥) .

ولئن كان عرض الديالكتيك ، في هذا المستوى ، بهذا العمق ، لا يمكن ان يمضي دون صعوبة - تتطلب معارف واسعة - ، فان ثمة **درجات**، رغم ذلك . ولقد سبق ان التقينا بمفهوم التدرج هذا ودلالاته فيما يتعلق بعرض طريقة المعرفة ونظريتها . بل اننا نستطيع ، تبعاً للينين ، ان نتوصل الى التعبير عن مبادىء الديالكتيك ، دون ان نستعمل كلمة « ديالكتيك » ، وبصورة تكون في متناول الجميع . كل هذا دون تبسيط ، ودون الاقتصار على الامثلة . فمساعدة (انسان ، طفل) على تكوين المفاهيم ، واطلاعه كيف تنطابق المفاهيم والواقع ، انما هو الديالكتيك . ان هزّ ما في المفاهيم من ثبات (اي الافكار المسبقة التي تثبت المفاهيم والاشياء) ، وهز التماثل الميت والجمود في المنطق الدارج ، انما هو الديالكتيك بدرجة أعلى قليلا ، وبذلك يمكن تبيان العلاقات الموضوعية للكيف والكم في حركة الاشياء

وهكذا نلتقي ، مرة اخرى ، بالدرجات التي سبقت الاشارة اليها ، والتي تتدرج من الديالكتيك من وجهة نظر ذاتية (في تفكير « الذات » الانسان المفكر : في افكاره ومفاهيمه) ، الى الديالكتيك منظوراً اليها بصورة متزايدة الموضوعية على أنها تفكير للصيرورة الأبدية (راجع نظرية الفكرة ، طبعة غاليمار ، ص ١٨٣ ومابعدها) .

- ٤ -

فكر لينين الاقتصادي

« أن كل خطوة الى الامام يخطوها العلم والتقنية تقوض ، حتما ومن غير هوادة، اساس الانتاج الصغير في المجتمع الرأسمالي . ومهمة العلم الاقتصادي الاشتراكي اذن تحليل هذه العملية في جميع اشكالها ، التي غالباً ماتكون معقدة ومتشابكة » (لينين ، المؤلفات المختارة ، طبعة اللغات الاجنبية ، موسكو ١٩٤٨ ، الجزء الاول ، صفحة ٧٦ — ٧٧ ، الماركسية والتحريفية) .

١ - التشكل الاقتصادي - الاجتماعي

هذا المفهوم أدخـــله لينين ، في مستهل احدى كتاباته الاولى « من هم أصدقاء الشعب » ، مستنداً الى مؤلف ماركس : رأس المال .

في هذه الفترة (ابريل - نيسان - ١٨٩٤) بـــدأ لينين حياته العلمية والسياسية ، ونحن نعلم من قبل أن هذا الكتاب كان ذا هدف مزدوج : جدلي وانشائي .

هاجم لينين فئتين من الخصوم : **اصحاب المذهب الذاتي اولا** ، (علماء الاجتماع الروس ، وكان أشهرهم يسمى ميخايلوفسكي Mikhaïlovski الذي كان يطرح مسائل العلوم الاجتماعية على اساس الشعور والايديولوجية والبنى الفوقية) - **وأصحاب المذهب الموضوعي** (الذين كانوا يؤكدون الصفة اللاسياسية للعلم بصورة عامة ، والعلم الاقتصادي والاجتماعي بشكل خاص) . غير ان لينين لن يدفع بالجدل حتى نهايته ضد المذهب الموضوعي و « الماركسية المشروعة » والمذهب الاقتصادي الا بعد مدة قصيرة . واذ وجه لينين الهجوم بصورة خاصة ضد المذهب الذاتي ، في كتابه « من هم اصدقاء الشعب » ،فقد بين أن هذين الموقفين ، الناقصين ، وحيدي الجانب ، يتساندان ويتضمن كل منهما الآخر ، ويشوهان الواقع ، ويفضيان الى نتيجة واحدة : النفي النظري للمعرفة - وفي الوقت ذاته النفي العملي للثورة . ان المنهج المادي وحده هو الموضوعي، وبالتقابل فان المنهج الموضوعي يتضمن المادية ، ذلك :

« ان المادية قدمت المعيار الموضوعي اذ استخلصت علاقات الانتاج كبنية المجتمع، وأتاحت الامكانية لتطبيق المعيار العلمي العام للتكرار ، على هذه العلاقات [1]» .

وهي وحدها اذن التي تتيح التثبت من الانتظام والقوانين في الظاهرات الاجتماعية، وتعميم ما كان يمكن ملاحظته في مختلف البلاد للوصول الى مفهوم أساسي (مستخلص للجوهري) :التشكل الاقتصادي - الاجتماعي .

ومفهوم **التشكل الاقتصادي - الاجتماعي** سبق لماركس أن عرضه في مقدمة رأس المال ،وفي نصوص سابقة . وفي ١٨٩٤ عاد لينين الى نظرية ماركس في أساسها ، في مبادئها النظرية وماهيتها الموضوعية . لماذا ؟ هذا ما يجب أن نراه بوضوح . فاولاً ، ان انجلز الذي مات في العام التالي ، كان قد نشر الجزء الثاني من رأس المال (١٨٨٥)،والجزء الثالث (١٨٩٤) . انه عمل ضخم ،سيكتب عنه لينين تقديراً لانجلز « إنه **« عمل جماعي »** لمؤسسي الاشتراكية العلمية . غير أن العمل الضخم بقي غير مكتمل . إذ يتوقف بالضبط في الوقت الذي بدأ فيه ماركس « التركيب » : عرض المجتمع الرأسمالي بجمله ، بخصائصه المشخصة ، بالطبقات المختلفة التي يحويها . ولكن لينين وجد نفسه بالضبط ايضاً أمام هذه المهمة ، التي بدأها بليخانوف ، ولم يحسن القيام بها : استخدام المنهج الماركسي لتحليل مجتمع مشخص ، هو المجتمع الروسي ، اذ تنمو فيه الرأسمالية (وهذا مابرهن عنه بليخانوف) ، وتظل فيه مع ذلك طبقة الفلاحين ، والبورجوازية الصغيرة الأكثر عدداً بكثير - اذ الطبقة المسيطرة ليست هي البورجوازية ، بل طبقة النبلاء الاقطاعية ...

ان عودة لينين الى مفهوم **« التشكل الاقتصادي - الاجتماعي »** ينبغي

---

(١) لينين ، المختارات ، الجزء الاول ، صفحة ٩٢ وما بعدها .

أن تلفت انتباهنا ، اذا شئنا تتبع فكره ، لأن هـذا المفهوم ذو دلالة عميقة مزدوجة : منهجية ونظرية . فكل كلمة يجب أن تؤخذ بكامل قوتهـــا . « فالتشكل » يعني واقعـاً يتحول ، يتطور ، ويتغير - وذلك بطريقة تاريخية موضوعية ، كواقع من الطبيعة . ويعود لينين الى الماركسية في أساسها ليعارض الماركسيين المؤرخين أو علمـاء الاجتماع « الخلص » ، الذين يدرسون الانسان خارج الطبيعة ،يدرسون المجتمعوالتاريخ كواقع«قائمبذاته» كلياً ، لا قانون له، أو له قوانين متميزة تماماً من القوانين الطبيعية .

« **اقتصادي - اجتماعي** » ، أي بمظهرين يجب ألا يفصل بينهما ، ولا أن يخلطا ببعضها : **اقتصادي** (القوى الانتاجية ، العلاقات العملية للجماعات الانسانية مع الطبيعة) - **اجتماعي** (علاقات البشر فيما بينهم ، علاقات الانتاج ، الطبقات والقوى الاجتماعية) . وعند ذاك تطرح مسألة تحديـــد العلاقة الدقيقة بين الاقتصادي والاجتماعي .

لقد كان لينين يكتب ليبدد (من « وجهة نظر » ماركسية ، اي علمية ثورية في آن واحد) الغموض الذي أدخله خصوم الماركسيين والماركسيون « الشرعيون » ، وهوغموضما انفك يتزايدمنذذاكالحين . ولنلاحظ هنا ،توضيحاً للافكار ، أن الاستخدام المألوف أو « الشائع » لهذه التعابير لا يتطابق تماماً مع استخدامها في الماركسية . فلو انطلقنا من الاستخدام المألوف ، فانالاقتصاديين والاقتصاد السياسي يدرسون بصورة رئيسية « القوى الانتاجية »، الانتاج او كما يقال « العامل الاقتصادي » . أما علم الاجتماع ، المتميز او المستقل عن الاقتصاد بدرجة متفاوتة الوضوح ، فإنه يدرس الروابط أو **العلاقات الاجتماعية** .

أما في الماركسية فان دراسة القوى الانتاجية لا تخص الاقتصاد السياسي الا جزئياً ، وهي ترتبط بصورة رئيسية بعلوم الطبيعة (الفيزياء ، الكيمياء) -

أو العلوم القريبة من علوم الطبيعة (التكنولوجيا ، الجيولوجيا ، علم المناخ ، الجغرافية الفيزيائية والبشرية) . أما علم المجتمع فيعنى بطبيعة الحال بنمو القوى الانتاجية ، التي تحددالروابطبين البشر ،غير أنه يدرس ، بصورة رئيسية ،أساسية ، **علاقات الانتاج** . وهو يدرسها من **زاوية تاريخية** . وفي وسعنا أن نسميه موقتاً إما « الاقتصاد السياسي العلمي » أو « علم الاجتماع العلمي » ـ أو بشكل أعم « المادية التاريخية » ، على أن ندع جانباً (هنا وبصورة موقتة) المسائل المنهجية والنظرية التي تطرحها المجالات الخاصة بالمؤرخ والتاريخ ، والعلاقات بينها ، على سبيل المثال .

وهـذا يعني أن غموض المفردات ينطوي على صعوبات وغموض واقعي ينصب على الجوهري .

وسيطبق لينين منهج ماركس ، الذي أعد من اجل ، وبواسطة ، دراسة المجتمع الصناعي المتقدم (انجلترة) ، على دراسة مجتمع أقل تقدما ، « متأخر » ، فهل يصمد المنهج ، والمذهب ، لهـذا البون ولهذا الامتحان ؟ هل يثبتان أنهما منتجان ، وحقيقيان ؟

إن الغموض والصعوبات (الملحوظة وغير الملحوظة) هي بحيث يبدو لنا أن لا غنى عن العودة (كما فعل لينين) الى الوراء ، الى «رأس المال» ومنهجيته ، لتوضيح المسائل جيداً .

حين يتحدث ماركس عن « **التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي** » ، فان الأمر يتعلق تارة بمجتمع معين ، بتشكل معين (مثال : المجتمع الرأسمالي) ، وتارة أخرى بمجمل التاريخ ونمو المجتمع . عدم تماسك منطقي ؟ لا . ففي نظر ماركس والماركسية يشكل نمو المجتمع وتاريخه **كلا** (« كلية ») ، إلا أن كل لحظة في التاريخ ، كل بنية اجتماعية ، كل نظام او نمط للانتاج ، يشكل هو

ايضاً مجموعا ، **كلا** (أو كلية) ، ينبغي دراسته لذاته ، دون فصله عن النمو الكلي .

مفهوم « الكل » هذا يلعب اذن دوراً « أساسياً » من الناحيتين المنهجية والنظرية . ونعرف لماذا . ذلك ان الواقع الذي ينبغي فهمه ، في الطبيعة والحياة الاجتماعية ، يتجلى دائماً **ككل**، ينبغي على الفكر (التحليل) أن يحطمه لالتقاطه قبل إعادة تشكيل المجموع . وكان ماركس ، بعد هيجل وقبل لينين ، قد حدد الصعوبة : « **في كل علم ، البداية شاقة بصورة خاصة** » .

فأمام المعرفة يوجد أولاً موضوعها « مادتها » ، اي الواقع المجهول . ويقول ماركس : « **ان على البحث ان يتبنى المادة في تفاصيلها** » .

فالتحليل ، الذي يميز وقائع وأشكال لحظات النمو ومظاهره ، ينبغي أن يُعد التركيب ، وذلك بتحديد علاقاتها الداخلية .

وعند ذاك فقط يأتي دور **عرض** الكلي ، المجموع .

« **فاذا نجحنا في ذلك ، بحيث تنعكس حياة المادة في نسختها المثالية ، فان هذا السراب يمكن ان يحمل على الاعتقاد بوجود بنيان قبلي** » .

فثمة اذن ، حتى في التفكير العلمي ، إمكانية لوهم وظاهر ، يتأتى من نجاحه بالذات : من تملك التفكير لموضوعه . وسنعتقد عندئذ بوجود بنيان او اعادة بنيان . وعلى هذا النحو سيتظاهر مناهضو الماركسية بالاعتقاد ان ماركس قد استنتج او بنى ، على طريقته ، المجتمع الرأسمالي - وان **الديالكتيك** كانت له أداة ، وانها لم تكن منهج تحليل وعرض لكل **مشخص معطى** (بقوانينه) . أما في نظر رجل الديالكتيك ، فعلى العكس ، يتميز التحليل والتركيب والعرض ، بصورة صورية ، في عملية المعرفة . وعبر التحليل ، نجد **أن** الكل المشخص المعطى ، بتناقضاته ، بمظاهره العديدة وحركته الداخلية - هو الذي ينعكس (يفكر به) في المعرفة .

وقد أوضح ماركس رأيه حول هذه النقاط ، بشكل واضح جدا ، في النصوص التي يرجع عهدها الى وقت تحضير « رأس المال » .

اذا درسنا بلدا معينا ، « من وجهة نظر الاقتصاد السياسي » ، فماذا نجد امامنا اولا ، ومباشرة ؟ إننا نجد **سكانا** . ويمكننا إذن أن ندرس أولا توزعهم (بين المدن والريف ، فروع الانتاج ، الانتاج والاستهلاك ، والاسعار .. الخ) . ويبدو صحيحا ، من الناحية المهنية والعلمية أن نبدأ « **بما هو مشخص وواقعي في المعطيات** » ، إذن بالسكان ، الذين هم أساس المجتمع و « موضوعه » . ومع ذلك يقول ماركس في « مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي » إن هذا خطأ ، لأننا بسيرنا على هذا النحو ، انما نظل في نطاق الوصف ، والاحصاء ، في المباشر ، ولا نتقدم نحو الجوهري . لأن « **السكان مفهوم مجرد** » حين نترك جانبا **الطبقات** التي يتكونون منها . ولكن **الطبقات** نفسها تبقى بدورها **مفاهيم مجردة** اذا لم نعرف العناصر التي تقوم على أساسها ، كرأس المال ونظام الاجور ـ وهذه بدورها تفترض التبادل ، وتقسيم العمل ، والسلعة والنقد .

« **فلو بدأت بالسكان ، لكان ذلك تصوراً للكل ـ مشوشا** » .

أما التحليل فيصل ، بعكس ذلك ، الى مفاهيم متزايدة التجريد ، متزايدة في جوهريتها . وانطلاقا من هنا يجب « **السير في الاتجاه المعاكس** » الى أن نصل مجددا الى السكان .

« **وهذه المرة لا بتصور للكل مشوش ، بل بكلية غنية بالتحديدات والعلاقات المختلفة ... ان المشخص هو المشخص لأنه تركيب تحديدات متعددة** » .

ولنتصور اذن بوضوح الواقع الاجتماعي والتاريخي **ككل** لانها ني التعقيد يتناوله التحليل مستخلصا **مفاهيم** مجردة جداً وبعيدة جداً عن الواقع **في الظاهر** ـ ولكنها تمكننا في الحقيقة من بلوغ هذا الكل .

« إن علاقات الانتاج الاسيوية ، والقديمة ، والاقطاعية ، والبورجوازية الحديثة ، حين ترسم خطوطها الكبرى ، يمكن اعتبارها مراحل مختلفة للتشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي » .

وهكذا فان التشكل الاقتصادي الاجتماعي تبعا لماركس ، هو فعلا كل ، مجموع . والصيرورة هي كل ، بحيث ان المراحل اللاحقة من النمو (المفاهيم التي تتيح معرفتها) تلقي الضوء على اللحظات التي سبقتها . إن هذه فكرة بالغة الاهمية اذ تبين الى أية درجة تختلف الماركسية ومنهجها عن المذهب التطوري المألوف ، الذي يحيل دائما الى مسائل تتعلق بالنشوء ، غامضة لا حل لها ، كما تبين كيف تمكن لينين من المضي في تحليل المجتمع الروسي ، الذي اكتشف فيه حتى « اللحظات » الموغلة في البعد للتشكل الاقتصادي الاجتماعي (أعني الشيوعية الفلاحية ، بل البداوة الريفية . الخ) .

« ان المجتمع البورجوازي هو التنظيم التاريخي للانتاج الأكثر نموا ، الأكثر تمايزا . والمقولات التي تعبر عن شروطه ، وفهم تنظيمه الخاص ، تجعل منه قادراً على فهم التنظيم وعلاقات الانتاج لجميع التجمعات المنقرضة ، التي قام هو على انقاضها وعناصرها ، ومازال رواسب منها غير بالية تندرج فيه ، في حين ان ما كان مجرد اشارة قد تفتح واخذ كامل دلالته . ان الاقتصاد البورجوازي يقدم مفتاح الاقتصاد القديم .. الخ ولكن لا حسب طريقة الاقتصاديين الذي يطمسون الفروق التاريخية ، ويرون الشكل البورجوازي في جميع اشكال المجتمع انه يمكن فهم الجزية والعشر عندما نفهم الريع العقاري ، إلا انه ينبغي ألا نعتبرهما شيئا واحدا .

ولما كان المجتمع البورجوازي ، فضلا عن ذلك ، ليس الا شكلا متصارعاً للنمو ، فان بعض العلاقات المنتمية الى اشكال سابقة لن تستمر فيه الا ذابلة ، متنكرة ، كالملكية المشاعة . . .

لقد توصل الاقتصاد البورجوازي الى فهم المجتمع الاقطاعي، والقديم، والشرقي، وذلك عندما اخذ المجتمع البورجوازي فقط ينقد ذاته. وبقدر ما امتنع الاقتصاد البورجوازي عن الاستسلام للخرافة، وعن تقمصه الماضي، فان نقده للمجتمع السابق - وبخاصة الاقطاعي، الذي مايزال عليه ان يكافحه مباشرة - كان اشبه بالنقد الذي مارسته المسيحية ضد الوثنية، او البروتستانتية ضد الكاثوليكية.. وليس ثمة مايبدو اكثر بداهة من البدء بالريع العقاري، بالملكية العقارية، لأنها مرتبطة بالارض، مصدر كل انتاج وكل حياة.. ولكن هذا خطأ كبير. ففي جميع اشكال المجتمعات ثمة انتاج معين متفوق على سائر انواع الانتاج. ان الزراعة تصبح اكثر فاكثر مجرد نوع من الصناعة، ويسيطر عليها رأس المال. وفي جميع الاشكال التي تسيطر فيها الملكية العقارية، فان العلاقة بالطبيعة هي المستحوذة اما في تلك التي يسيطر رأس المال، فان العنصر الاجتماعي الناتج تاريخياً هو الذي يطغى. فلا يمكن فهم الريع العقاري بدون رأس المال، الا انه يمكن فهم رأس المال بدون الريع العقاري.. وبعد ان درسنا كلا منهما، منفصلا عن الآخر، فان علينا ان ندرس علاقتها المتبادلة[1]».

هذا النص، المقتبس عن ماركس، الذي قلما يوضع في مكانه المناسب، يبدو لنا نصاً أساسياً. فهو يتضمن برنامج «رأس المال»، ومخططه، بوصفه تحليلاً وتركيباً (عرضاً) للمجتمع الرأسمالي المشخص، مع الرواسب التي يجرها معه، أي بوصفه عرضاً **للتشكل الاقتصادي - الاجتماعي**.

---

(١) ماركس، مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي، ترجمة ل. لافارج، منشورات جيار، صفحة ٣٤٢ - ٣٤٥.

كما هو ايضاً برنامج أعمال لينين الاقتصادي . وأكثر من ذلك : برنامج أعماله كلها . فاذ وجد نفسه أمام مجتمع (هو المجتمع الروسي ، لا وحده على أية حال) ليس رأسمالياً « خالصاً » ، ماتزال الاقطاعية مسيطرة فيه ، فانه سيكون الناقد « الجذري » لهذا المجتمع ، متجاوزا بذلك نقد الليبراليين والديموقراطيين البورجوازيين وصغار البورجوازيين . ومن الناحية الاقتصادية سيبين لينين كيف تتحول ملكية الارض في روسيا ، وكيف تقع تحت سيطرة رأس المال ، وإن كانت بدائية (اقطاعية و « مشاعة ») ، مع احتفاظها بسمات سابقة على الرأسمالية . وسيتناول في القسم الأخير من « رأس المال » المنشور عام ١٨٩٤ ، نظرية الريع العقاري (وسنرى فيما بعد وبسرعة كيف يفصلها) ، وسيطبقها على دراسة الاشكال السابقة لملكية الأرض وريعهـــا (الأشكال الاقطاعية وبخاصة شبه الاقطاعية في روسيا) . وسينطلق ، بصورة منهجية ومتناسقة نظريا ، متمشياً مع ماركس ، من عرض «رأس المال» الى دراسة المجتمع الرأسمالي منظوراً اليه في كل تعقيده ـ بما في ذلك لحظات التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي التي كان يمكن لمجتمع صناعي ورأسمالي صرف أن يمتصها او يستبعدها . وهذا التحليل ، الأوسع وأكثر تعقيداً من تحليل ماركس ، سيجريه لينين على مرحلتين ، على مقياس بلده أولا ، روسيا (١٨٩٨) ، وعلى مقياس العالم ، في نظرية الامبريالية ، (١٩١٧) .

ونعرف ، من جهة اخرى ، أن عمل ماركس ، غير المنجز ، لم يغط برنامجه كليا .

فاولا ، إن عرض « رأس المال » ينطلق من تجريد مذهل ، هو في الظاهر ، بعيد كل البعد عن المشخص . وقد استخلص التحليل المفهوم ، او المقولة ، او « شكل » القيمة ، الذي يتجلى « بنعومة لاهوتية » (ماركس) ، وله ، فضلا عن ذلك ،

في الرأسمالية الصناعية « وجود **سابق على الطوفان**»(ماركس)، بمعنى أن القيمة التجارية كانت موجودة قبل الرأسمالية بزمن طويل. إلا أنها إنما تأخذ أبعادها ويصير كل شيء سلعة، في الرأسمالية الصناعية. فشكل القيمة هو إذن «**شكل الخلية**» الرأسمالية. وهذا التعبير يجب ألا يؤخذ بالمعنى البالي لمادية شائعة، لمذهب آلي يعتبر الكل كمجموع أجزائه. ان الخلية لا تعيش خارج العضوية، وهذه الأخيرة هي وحدها حية. والخلية بالضبط، هي تجريد، حين تكون منعزلة. ولكنها تجريد واقعي. ولا يمكن للمعرفة (النسيجية والفيزيولوجية) أن تدع جانباً لا الخلية، ولا تاريخها، ولا علاقتها الديالكتيكية بالكل (بتاريخ الكل).

وهكذا فاننا نجد، في «رأس المال»، حركة اولى للتفكير الديالكتيكي، يكتشف هذا بواسطتها، حين يحلل، «المعطى»، ماهية الظواهر. ويصل بذلك الى **مفاهيم**. ومن ثم فانه يرتد، في حركة ثانية، نحو المشخص رابطا بشكل متسلسل (ديالكتيكياً) المفاهيم والمقولات المجردة؛ والتي هي موضوعية، ومحددة على هذا النحو. وننتقل من القيمة (التي تزدوج في قيمة منفعة وقيمة تبادل، وبالتالي مع تناقضات تنمو في السلعة) ننتقل الى السلعة الشاملة، المال.. الخ.

هذه الحركة الثانية، التي قد شكلت التركيب او العرض، تتضمن نصيباً من الاستدلال ونحن نعلم من قبل أنه ينتج عن ذلك، لدى بعضهم، انطباع بوجود بنيان. اما في الحقيقة فان الامر يتعلق، بالنسبة لماركس، بالهيكل النظري **للتاريخ**، الذي يجعل من هذا الاخير معقولا (إلا أنه، في الحقيقة، ناشيء عنه، من تحليله). وفي حركة ثالثة للتفكير، يبين ماركس كيف أن الممارسة الاجتماعية أنتجت، عبر التاريخ، الوقائع، التي تلتقطها المفاهيم (وذلك بعكسها). وهو يبين، تاريخياً، كيف ظهرت السلعة، في «**مسام المجتمع القديم**» كيف ظهر وساد، في

فترة الرأسمالية التجارية (القرون الوسطى)، قانون القيمة . ان قانون القيمة هو قانون، إلا أن له شروطه التاريخية، له مجاله، « منطقته » وحدوده . فثمة ديالكتيك رقيقة وعميقة لم يستجلها ماركس تماما، ولكن المهم، هنا، في هذه الفترة، أن نبين أن تاريخ **التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي**، في كتاب رأس المال، ليس مستمدا من الخارج لتوضيح بنيان ولا مجرد استدلال يقوم على المفهوم، انه حقـا الواقع المشخص الذي تلتقطه المفاهيم في حركته الباطنة (الديالكتيكية).

ولهذا، يقول لينين في كتاب « من هم اصدقاء الشعب ؟ » ان ماركس قد تناول **تشكلاً اقتصاديا** للمجتمع، هو نظـام الاقتصاد **التجاري**، وبين كيف ان هذا الاقتصاد ينمو بالضرورة الى اقتصاد رأسمالي . غير أن ماركس ـ كما يضيف لينين ـ لا يقف عند النظرية **الاقتصادية** وحدها . وهو إذ يحلل بنية **التشكل الاقتصادي الاجتماعي**، إنما يحلل فيها جميع الروابط الاجتماعية في هذا المجتمع الرأسمالي . وهو يكشف للقارىء

« كل التشكل الاجتماعي كشيء حي، مع وقائع الحياة اليومية، مع التجليات الاجتماعية المشخصة لتناقض الطبقات الكامن في علاقات الانتاج، مـع البنية الفوقية السياسية البورجوازية التي تحمي السيطرة الطبقية للرأسمالية، مع أفكار الحرية والمساواة البورجوازية، مـع علاقات الأسرة البورجوازية . وعلى هـذا النحو فان « الهيكل العظمي اكتسى باللحم والدم » .[1]

---

(١) لينين، المؤلفات المختارة، طبعة اللغات الاجنبية، موسكو، ١٩٤٨، الجزء الاول، صفحة ٩٣

ولهذا فانه لا يمكن تعريف مـاركس منفرداً ، كمشرح او فيزيولوجي المجتمع، كاقتصادي او مؤرخ او عالم اجتماعي إن التحليلات الموضوعية وحركات الفكر التي تتلازم لديه تغلف هذه المظاهر ، التي تعزلها تحليلات وحركات أخرى أقل عمقاً . فضلاً عن أنه (كما يشير لينين) لم تجر محـاولات أخرى غير محاولتـه لعرض التشكل الاقتصادي - الاجتماعي علمياً في مجمـله . وبذلك فإن الفرضية الماركسية ، بمبادئها المنهجية والنظرية ، (المادية - الديالكتيكية) يجب اعتبارها مثبتة [1] من الوجهة العلمية .

وقد لخص ماركس كتابه بهذه العبارات .

« ان مفهومي ، هو انــــني ارى ، في نمو التشكل الاقتصادي - الاجتماعي ، عملية تاريخ طبيعي »[2]

ويكرس لينين فعلاً القسم النقدي من كتابه للدفاع عن هذا المفهوم ضد اولئك الذين يعتبرون ان الوقائع الاجتماعية ، لكونها واعية ، لا يمكن إدراجها في « عملية موضوعية » مماثلة لعمليات التاريخ الطبيعي . ولن نثبت هنا الحجج : فالشعور، من حيث أنه شعور وانعكاس للواقع العملي و الاجتماعي (للانسان الاجتماعي) لا يمكنه المطالبـة بدور « الجوهر » الذي يتمتع بقوانينه الخاصة ، او بفقدان قوانينه الخاصة .

إذن فثمة قوانين لهذه العملية المماثلة لعمليات التاريخ الطبيعي . وقـد اكتشف ماركس هذه القوانين ، غير أنه (وهذه ملاحظتنا الثانية) لم يحدد تماماً خصائصها باعتبارها قوانين .

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، طبعة اللغـات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٨ الجزء الاول ، صفحة ٩٤

(٢) ماركس ، استشهد به لينين ، في المرجع السابق ، صفحة ٨٠

انها قوانين طبيعية ، ولكنها ليست بسبب ذلك قوانـــين فيزيائية أو كيماوية . انها تنبع اساساً من علاقة الانسان بالطبيعة، علاقة هي بذاتها ضرورية وجوهرية للانسان ، وخاصة به « نوعيا » . فهو يؤثر في الطبيعة ، ويبقى كائناً في الطبيعة ، رغم انه يسيطر عليها . ان له اذن قوانينه . وهذه القوانين مماثلة لقوانين الطبيعة ، بل أكثر من ذلك : انها امتداد لها . إن قوانين الصيرورة ، صيرورة الانسان ، ولو أنها تاريخية ، لا تختلف عن قوانين الصيرورة في الطبيعة .

إنها قوانين موضوعية . وقـــد برهن ماركس أن العلاقات البشرية (الاجتماعية) تتنكر في أشياء ،في أجسام، فيالسلعة ، في النقد،في رأس المال : الأوثان الاقتصادية . كما برهن ان هذا التحويل الموضوعي (التموضع) هو بذاته ضروري، يرتبط بنمو القوى الانتـاجية، ويخضع إذن بدوره لقوانين موضوعية . وليس في ذلك ضرورة خارجة عن الناس وتاريخهم . وإذا ما افترضنا انها خارجية ، فسرعان مانكتشف أنها تصدر عنهم، من علاقاتهم ، من تاريخهم . وإذا ما اعتقدنا أنها تصدر عن إرادتهم، أو عن شعورهم الذاتي ،أو عن جهلهم وأخطائهم وأوهامهم ، فإننا سرعان ما نكتشف أنها تصدر عن الطبيعة وعن التاريخ ، وأنها بالتـــالي موضوعية بعمق .

هذه القوانين هي قوانين اتجاه ، صيرورة (إذن نسبية ، صالحة في منطقة معنية ، ضمن بعض القيود . والاتجاه ليس ظاهراً مبهما ، غامضاً ، متأرجحا ، بل هو على العكس ، وباعتبار أنه صيرورة ، يغلف الماهية والقانون . ففي الرأسمالية مثلاً - رأسمالية المنافسة الحرة - ثمة اتجاه الى تكون معدل الربح المتوسط ، وهذا الربح المتوسط يتجه ، بحكم تنافس رؤوس الاموال ، الى الانخفاض .

فقانون الاتجاه ، المعين والمحدد بنطقة معينة ، هو متضمن اذن في قوانين

أوسع . وجميع قوانين المجتمع الرأسمالي هي اذن تابعة لقانون حركة هذا المجتمع (لانحداره بعد صعوده) . وهذا القانون ذاته خاضع لقوانين مجموع النمو الاجتماعي، والتاريخ : **للتشكل الاقتصادي - الاجتماعي**، منظوراً اليه ككل.

ولنضف ان هذه القوانين هي **ديالكتيكية** : فهي قوانين صيرورة تنطوي على تناقضات، وهي تنشأ ، بالمقابل ، من هذه التناقضات .

هذا هو مجمل المفاهيم ، التي يتضمنها مفهوم « التشكل الاقتصادي - الاجتماعي »، التي لم يشرحها صراحة ماركس ، والتي سيستخلصها لينين شيئاً فشيئاً.

ان لكل **تشكل اقتصادي - اجتماعي** قوانينه النوعية الخاصة ، الخاضعة للقوانين العامة **التشكل الاقتصادي - الاجتماعي** . وإغفال الفروق تترتب عليه نتائج خطيرة ، مثلما يقع عندما نقارن بين الامبريالية الرومانية والامبريالية الحديثة [1] .

وينص القانون الأعم فقط على أن نمو المجتمع مشروط بنمو القوى الانتاجية — وأن العلاقات الاجتماعية (البشرية) رهن بنمو القوى الانتاجية هذا .

وتلخيصاً للتشكل الاقتصادي — الاجتماعي : ثمة تاريخ المجتمع ونموه ككل — والتشكلات الاقتصادية — الاجتماعية — اللحظات أو المراحل المتعاقبة، انماط الانتاج ، البنى الاجتماعية ، الانظمة .

وثمة قوانين **شاملة** للصيرورة (الديالكتيكية) — **هي القوانين**

---

(١) راجع « الامبريالية ، اعلى مراحل الرأسمالية » لينين ، المؤلفات المختارة ، طبعة اللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٨ ، الجزء الاول ، صفحة ٨٤١ .

العامة (للتشكل الاقتصادي - الاجتماعي) . وأخـيراً القوانين **النوعية** الخاصة بكل عهد ، ونمط انتاج ، وبنية أو نظام اجتماعي [1] . ان هذه القوانين تتشابك ، ويتداخل بعضها ببعض ، ويحوي بعضها بعضاً ، أو على الضـد تقيم الحدود فيما بينها ، وينفي بعضها بعضا . غير انها تبقى على الدوام قوانين **للصيرورة**، قوانين تصير ، قوانين في الصيرورة . ويترتب على ذلك، أنه لا توجد « قوانين طبيعية » ، بمعنى قوانين مستقلة عن الزمان ولا قوانين **أبدية** ، ثابتة ، مطلقة . لقد تجاوز ماركس هذا المفهوم الغيبي للقانون نهائياً ، سواء فيما يتعلق بالطبيعـة ، او بالتاريخ ، أو بالواقع الاجتماعي . فليس ثمـة الا القوانين الباطنة لعمليات موضوعية (طبيعية) . وتتلاشى القوانين وتموت - أو تغلفها وتتناولها وتسيطر عليها قوانين أخرى - شأن العمليات التي هي قوانين لها - « إن لها تاريخاً موضوعيا» إذ هي قوانين تاريخ .

ما الذي قدمه لينين الى المفهوم الواضح من قبل ، عن التشكل الاقتصادي - الاجتماعي . هل اقتصر على شرحه وتطبيقه ؟ هل أكده مجدداً أثناء المجادلات ؟ هل أثبت بشكل أفضل - منذ عـام ١٨٩٤ - معناه السياسي والثوري ، وصفته الحزبية ؟

لو أن الأمر كذلك لكان تقويمه غير صحيح . فهنا ، في المجال الاقتصادي ، كما في الفلسفة أو المجال السياسي ، لم يقتصر لينين على تطبيق الماركسية ، بـل « شخصها » ، وفصلها ، وعمقها ، والتقطها « **بروحها الثورية** » . ولم يكن ذلك بفضل عبقريته الخاصة وحدها ، بل وأيضاً بالاستناد الى الوضع الثوري في روسيا ، والى النشاط الثوري للجماهير والمناضلين السياسيين

لقد تسلح لينين **برأس المال** ، وهو كتاب غير مكتمل (نكرر القول

---

(١) راجع بصورة خاصة لينين : المختارات ، طبعة اللغات الأجنبية ، الجزء الأول ، صفحة ١١٦ وما بعدها .

ان المجلد الثالث منه توقف عندما شرع ماركس في عرض مجتمع مشخص ، لا يرتد ، افتراضاً ، الى البورجوازيةوالبروليتاريا) ، وشرع بدراسة مجتمع يختلف عن ذاك الذي استخدمه ماركس « مادة » لدراساته . كان المجتمع الروسي يختلف عن المجتمع الرأسمالي « النموذجي » في انجلترة ، من بعض جوانبه فقط ، وبصورة خاصة في الظاهر . وكانت القضية اللينينية ، باديء ذي بدء ، تقوم على إبعاد هذه الظواهر وتجاوزها ، وإثبات ان ماهية هذين المجتمعين ليست متباينة . ويتضمن هذا نقداً جذرياً لاولئك الذين يؤكدون أصالة روسيا الجذرية ، وعقم الماركسية وعدم جدواها في روسيا : وهم الشعبيون . وقد رأينا ان الجدل الذي بدأه بليخانوف بصورة ممتازة ، قد دفعه لينين الى نهايته .

وجد لينين نفسه في واقع متباين بصورة خارقة . نمو الرأسمالية ، لاريب في ذلك (وبالتالي نمو البروليتاريا والبورجوازية) ، غير انه أقل وضوحاً في عصره مما هو بالنسبة لنا ، نحن الذين نملك ، بعد ستين عاماً ، ارقاماً مقنعة : تلك التي جمعها لينين . وفي نظر خصوم الماركسية لم تكن المعامل والمشروعات الرأسمالية الا اجساماً غريبة عن روسيا الكبيرة العجوز ، تحتملها برضا قليل او كثير . وكان لينين يلاقي بصورة خاصة بورجوازية صغيرة ضخمة (حرفيين ومنتجين صغار) واشكالاً عديدة من استغلالات الارض والتصرف بها وتملكها ، تتراوح من بقايا الشيوع (مير ، الذي أحدث بتدبير اداري في القرن الثامن عشر على أساس الشيوع الفلاحي القديم) ، الى الملكية الاقطاعية ، والى استغلال الفلاح الغني الرأسمالي .

وبهذا يكتسب « التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي » معناه العميق . فثمة علاقات البشر بالطبيعة ـ وعلاقات البشر فيما بينهم . ومن التأثير المتبادل بين العنصر الاقتصـــادي والعنصر الاجتماعي يخرج تشكل بالمعنى الكامل : لا « بنية » ثابتة ، بل واقع ينمو كعضوية حية (رغم انها عضوية من الناحية النوعية

بشرية وتاريخية واجتماعية) . هذا التشكل يجر معه ، الى جانب ما يمثل حاضره الراهن (الصناعة « الحديثة »)، ماضياً ضخماً ، واخيراً التاريخ كله ، مثلما تحوي العضوية المتمايزة المعقدة ، في داخلها ، اجزاء ، نسجاً او خلايا ترتقي الى بداية نموها، اضافة الى نسج او خلايا ظهرت مؤخراً . ان التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي يكشف على هذا النحو ، تثفلاً ، سلسلة من الطبقات المتعاقبة ، ترتقي الى جميع العصور : البدائية ، الاقطاع وشبه اقطاع ، البنى السابقة على الرأسمالية (الحرفية والانتاج صغير)، الصناعة المتوسطة والثقيلة .. ان « البنى الاجتماعية »، المحددة تماماً ، والمتقطعة اذن ، التي يميزها التحليل (البورجوازية الكبيرة ، طبقة كبار النبلاء ، البروليتاريا) ، هي مغلفة ، اذا صح القول ، بمختلف انواع الانتقالات والمراحل الوسيطة . (ولنتذكر هذا المبـــدأ من المنهجية الديالكتيكية : ، ثمة انقطاع واستمرار في كل صيرورة ، ولكنهما نسبيان ، غير مطلقين البتة ..)

وعلى هذا فان النمو التاريخي والاجتماعي لا يتقدم اذن بشكل موحد ، كما يجري في تجريد رأس المال (وهو تجريد علمي ، وان يكن ناقصاً حتى الآن). وللصيرورة المشخصة صفة هي فعلاً أشد تعقيداً وتناقضاً مما لاحظه ماركس ، كما أن المنهج الديالكتيكي ضروري، بصورة قاطعة مطلقة ، من اجل تحليلها . ان الظاهرات السطحية ، الظاهرية ، تحجب الجوهر (مثال : يعتبر الشعبيون ان الحياة الاصيلة للقرية الروسية هي جوهرية . غير ان هذا الواقع ، رغم كونه هاماً ، ينبغي العناية به ، يحجب عنهم الوقائع الاكثر عمقاً) . كما ان المظاهر السطحية هي ايضاً عارضة . والملاحظة والوصف لا يكفيان . فثمة عمليات تسير في اتجاه التلاشي ـ هي وقوانينها ـ تمتزج بالعمليات والتيارات العميقة ، وتخضع قوانينها الى القوانين العملية الجديدة العميقة .

هكذا إذن شرع لينين ، في آخر القرن التاسع عشر ، في دراسة المجتمع الروسي علمياً ، بمفاهيم مرنة ، مرهفة .

كان يمكن ألا يكون لهذا التحليل سوى فائدة في النظرة الخلفية والتاريخية لو لم يكن علينا أن نرى فيه اعداداً لتحليل لينين للوضع العالمي . والواقع أن روسيا كانت ، بالنسبة للبلاد الرأسمالية العظيمة آنذاك (انجلترة وفرنسا والمانيا) في وضع بلد « متخلف » ، بلد في طريق النمو الرأسمالي السريع ، ولكن تغلغل فيه رأس مال البلاد الاكثر تقدماً ، فاصبح تابعاً لها . غير أننا إذا نظرنا بعمق اكثر فان **التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي** الذي درسه لينين في روسيا سيتجلى لنا مشابها ، بل مماثلا للواقع العالمي . ان التشكل ، على المقياس التاريخي العالمي ، يجر رواسب ، وبدائيات وسلسلة من الطبقات ، والترسبات ، يسيطر رأس المال عليها كلها .

« ان نمو العلاقات الزراعية في روسيا يتبع الطريق الرأسمالي ، سواء في اقتصاد كبار المالكين العقاريين او داخل الشيوع الزراعي » .

لقد حدد هذا النمو ، دون امكان رجعة الى الوراء ، الطريق الذي سلكته روسيا : طريق الرأسمالية . هذه هي النظرية الأساسية للكتاب . وسيوضح لينين ، في مقدمة الطبعة الثانية (١٩٠٧) :

« ان تحليل التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي والبنية الطبقية لروسيا ، استناداً الى الوثائق الاقتصادية والدراسة النقدية للاحصاءات ، قد أكده النشاط السياسي المكشوف لهذه الطبقات خلال الثورة (عام ١٩٠٥) ... وما تجلى فيها ايضاً) هو ان قوة البروليتاريا في الحركة التاريخية هي اكبر بما لا نهاية له مما يدل عليه عدد اعضائها بين السكان ... وهذا الكتاب يبين الأساس الاقتصادي لهذه الوقائع » .

اننا ، دون أن نزيد على صورة روسيا عام ١٨٩٨ ، نكتفي بالاشارة

الى الافكار الجديدة التي أتى بها لينين ، التي توجد عنده منذ دراساته الأولى ، أحياناً بدقة ، واحياناً أخرى على شكل بذور .

فقدظهرت أول فكرة كبيرة،لم تأخذ كل أهميتها إلا في نظرية الأمبريالية ، ان التشكلات الاقتصادية ـ الاجتماعية المتعاقبة عبر التاريخ ، والتي تتعايش حالياً مع الرأسمالية الكبيرة (في التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي الرأسمالي) ليست خارجة عنه . وليس الأمر أمر ماضي العضوية الاجتماعية وحسب : فهذا الماضي مندمج تماماً في الكل ولكن الأشكال المتعاقبة لملكية الأرض والتصرف بها ، والحرفية ، والتجارة الصغيرة والانتاج الصغير ، تجد نفسها تابعة بالتدريج لرأس المال الكبير . ونمو الرأسمالية لايتم بصورة واحدة :انه متعدد الاشكال، متعدد الجوانب . فاحياناً تقذف الرأسمالية عرض الحائط (كما هي الحال «الكلاسيكية» في انجلترة) بكل ما سبقها وتعمم سلطانها فوق اقليم مخرب ، وسط آلام سكان أدمجوا، طوعاً أو كرهاً ، في الانتاج الرأسمالي،وفي السوق . واحياناً أخرى (وهو مايتزايد حدوثه) تتغلغل بمكر ، انها تُقرض اكثر مما تهدم ، وتهيمن على ما هو موجود .وعلى هذا النحو يستطيع لينين أن يبين كيف أن رواسب عهد الشيوع ، وسير « المير » ، وإعادة توزيع الأراضي وتجري كلها لمصلحة الكولاك ، وهم فلاحون أصبحوا رأسماليين ، يحتكرون أجود الأراضي لأنهم يمسكون بأدوات الانتاج ووسائله : المحاريث ، الخيول .. الخ .. وفي عملية نقيضة ، يمكن للرأسمالية ، التي تهدم من ناحية الانتاج الصغير والحرفية والتجارة الصغيرة ، أن تبقي عليها ، بل وأن تعيد تكوينها جزئياً من ناحية أخرى ، ولكن خاضعة لها (عملاء توزيع ومنتجي سلع لاتنتمي الى « الانتاج الكبير » الخ) . وهكذا يمكن للبنى أو التشكلات السابقة على الرأسمالية ان تختفي أمامها أحياناً ،وان تستمر أحياناً أخرى ، مع استقلال ظاهري فقط . والواقع الجوهري يعبر عنه

بقانون : قانون الإلحاق بالرأسمالية لهذه الأشكال والبنى السابقة ، بقدر ما تستمر[1] .

وفكرة اخرى هامة ظهرت أيضاً منذ بداية مؤلفات لينين الاقتصادية، وهي وثيقة الاتصال بالفكرة السابقة . لقد كان ماركس يظن ، انطلاقاً من التاريخ الانجليزي ، أن الرأسمالية ستمتص، عاجلاً أم آجلاً ، مجموع السكان ومجموع الانتاج . ويحلل القسم الأخير من « رأس المال » توزيع « الدخل » (الفائض) بين الطبقات المختلفة ، بما فيها المالكين العقاريين . غير أن ماركس كان يعتبر (بحق) المالك العقاري كنموذج اجتماعي بال ، كما أن ماركس حلل بايجاز حالة الفلاح المزارع الشريك (المرابع) ، وبتفصيل اكبر حالة المستأجر والمالك الصغير ، غير أنه كان يعتبر وجودهم الاجتماعي مهدداً منذ ذلك الحين وكان انجلز يطرح بشكل مشخص مشكلة الثورة في هذا القطاع مطالباً ألا تنتظر البروليتاريا كي تعمل – وفي سبيل مساعدة مجموع الطبقة الفلاحية العاملة – حتى اختفاء آخر مالك صغير مستقل . أما لينين فقد ذهب الى أبعد من ذلك . فقد اكتشف أن **الرأسماليةستكون عاجزة عن تصفية الرواسب**، ودمج جميع السكان ، او حتى معظمهم ، في الانتاج الرأسمالي . وستقنع **باخضاعهم لها** واستغلالهم على هذا النحو ، بصورةغير مباشرة الى حدما .

لماذا ؟ لأن معوقات نمو القوى الانتاجية ، في المجتمع البورجوازي ، لا تعمل تماماً على النحو الذي تنبأ به ماركس . ففي نظر هذا الأخير :

« في درجة ما من نمو القوى الانتاجية المادية تدخل هذه في

---

(١) راجع بصورة خاصة عن المسألة الزراعية واشكال التصرف بالارض وتملكها المؤلفات الكاملة ،الجزء السادس عشر ، صفحة ٤٧٤ – ٤٧٩ ، صفحة ٥٣١ – ٥٣٣ ، والجزء السابع عشر صفحة ٥٧٣ – ٦٤٥ .. الخ .

تناقض مع علاقات الانتاج القائمة ... وبعد ان كانت هذه العلاقات اشكالا لنمو القوى الانتاجية فانها تصبح معوقات ... ».

ويبقى هذا صحيحاً ، في الأعماق ، وبصورة علمية . غير أن ماركس لم يكن يعنى إلا بالعلاقات الاجتماعية (وتعبيرها القانوني ، علاقات الملكية) التي تنشئها البورجوازية لقد كان يدرس الحركة الديالكتيكية التي بها يتحول **الشكل الاجتماعي** (أو التعبير) لنموالقوى الانتاجية (**الاقتصادية**) الى عقبات وتقييد للنمو . إلا أنه كان يدرس بخاصة القيود **الباطنة** للرأسمالية . أما لينين فقد اكتشف أن ثمة قيوداً **خارجية** أيضاً، وان هذه القيود لا يمكن دراستها واكتشافها فقط في التاريخ الماضي ، البعيد للرأسمالية والبورجوازية ، في اندماجها وصراعها داخل البنى الاقطاعية ، بل انها توجد حالياً **حول** الرأسمالية . وتضاف القيود الخارجية الى القيود الباطنة . وبدلاً من أن تكون العملية الديالكتيكية باطنة وحسب ، فانها تغدو **داخلية ـ خارجية** فالبنى الاجتماعية السابقة على الرأسمالية تقاوم هذه : مقاومة ضعيفة الى حد ما باعتبارها بنى ، لأن الرأسمالية تقلصها بالتغلغل فيها ، او تفرض عليها التبعية حين لا تدمرها . ومقاومة أشد باعتبار أن الجماهير المستغلة على هذا النحو ، والمدمرة مباشرة او غير مباشرة تثور . والجوهري في هذا هو ان الرأسمالية لم يعد لها ، ولا يمكن ان يكون لها ، هذه الاندفاعة ، ذات النتائج المخيفة ، التي كانت تجعلها في السابق تخرب (دون حاجة الى استخدام العنف فوق الاقتصادي ، أي بوسائل اقتصادية) التشكلات الموجودة من قبل لتتقمص بعدئذ الجماهير التي « تحررت » على هذا النحو .

ماذا جرى في بلد كروسيا (في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) ؟ لقد نمت الرأسمالية ، وتقدم التصنيع ، وزادت البروليتاريا عدداً وتركزاً . غير ان البورجوازية الروسية لم تستطع بقواها الخاصة مواصلة هذا

التصنيع ، لأنها وجدت أمامها مصاعب جمة ، وعقبات اقتصادية واجتماعية . فلجأت آنذاك الى رأس المال الاجنبي ، بتواطؤ من الارستوقراطية والحكومة القيصرية . إلا ان جزءاً من ارباحها (اي فائض القيمة المنهوب من البروليتاريا الروسية) ذهب الى الخارج ، وعملية التراكم (التصنيع) اوقفت واعيقت بالقدر ذاته . هذا مالم يلجأ الى الاستنجاد برؤوس اموال اجنبية اخرى : انها حلقة مفرغة . ولكن البروليتاريا الروسية ، المستغَلة استغلالاً مضاعفاً ومثلثاً (عن طريق بورجوازيتها ، والارستوقراطية القيصرية والماليين الاجانب) ،ستكسر هذه الحلقة : وعند ذاك فقط يمكن لنمو البلدان يستمر بحرية .

ان النظرية الماركسية قد نمت استناداً للوضع الثوري في روسيا . فما من حدود بالمعنى المطلق ، الميتافيزيائي (او المنطقي الصوري) لنمو الرأسمالية . ونحن نعرف الى أية درجة كان لينين الديالكتيكي ينتقد هذا المفهوم المنطقي « للحد » ، ويحل محله مفهوماً مرناً . فليس من حاجز امام الرأسمالية — ولا من حد مطلق ، باطني ، اي انهيار . وهذا هو معنى كل الجدل اللينيني ضد التيارات الماركسية الاخرى (روزا لوكسمبورغ وسواها) . ورغم ذلك فثمة حدود خارجية وباطنة ، اي صعوبات امام الرأسمالية متزايدة ، ومشاكل متزايدة الصعوبة في سبيل حلها . وهذه الصعوبات هي اقتصادية واجتماعية بآن واحد ، أي أن الرأسمالية تثير معارضات — قوى اجتماعية — بحيث يمكنها التغلب على الرأسمالية .

وعلى هذا النحو فان « عهد الثورة الاجتماعية »، الذي تنبأ به ماركس كنتيجة للحدود الباطنة الرأسمالية ، يمكن ان يظهر في بلد متأخر . وان بروليتاريا البلد الاكثر تقدماً ، و « المحددة » بالنمو الاقتصادي المتفوق ، ليست هي التي ستنجز بالضرورة اول ثورة بروليتارية . ففي بلد متأخر كروسيا ،

تستطيع وحدها سلطة منبثقة عن ثورة ان تواصل تنمية القوى الانتاجية ، أي ان توفق بين العلاقات الاجتماعية (جميع العلاقات الاجتماعية ، بما فيها تلك ذات المنشأ السابق على الرأسمالية) وبين القوى الانتاجية الحديثة . ومع ذلك فان هذه العوائق ، هذه التناقضات المتنامية، لاتتجلى في انهيار ، ولا في توقف مفاجىء للنمو ، بل في وضع ثوري . في هذا الظرف تتدخل العلاقات بين جميع طبقات السكان وفئاتهم ...

كنا نقول، فيما سبق، ونكرر أن كلمتي « الاقتصادي - الاجتماعي » ينبغي فهمهما عند لينين بمعنى قوي جداً ، لأنه استعملهما كذلك . ان التحديد الاقتصادي للعلاقات الاجتماعية ليس بسيطاً ، ولا فوريا ، ولا مباشراً ، إنه ديالكتيكي بعمق . والنزعة الاقتصادية والاجتماعية تحطهان وحدة عميقة ،ولكنها متناقضة . إن قانون الوفاق الضروري ، او التحديد المتبادل بين الاقتصادي والاجتماعي، هو قانون الصيرورة ، قانون ديالكتيكي . انه القانون الأعم للنمو الاجتماعي ، ولكن وحدتهما تتضمن نزوعاً ابدياً الى التناقض . أهو تناقض أعمق وأعقد مما رآه ماركس ؟ نعم، بمعنى ما،رغم ان فقرات عديدة من ماركس تبين أنه كان يعرف جسامة التناقضات وتنوعها [1] .

ففي النظرية اللينينية عن التشكل الاقتصادي - الاجتماعي ، يتم التأكيد اذن على الاجتماعي . فالاجتماعي (العلاقات بين البشر) ، بما فيه السياسي الذي

---

(١) ماركس : مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي : « ديالكتيكية المفاهيم ، القوى الانتاجية (وسائل الانتاج) وعلاقات الانتاج ، ديالكتيك يجب تحديد حدودها ..»

لايمكن ان ينفصل عنه ، يؤثر بدوره بعمق على الاقتصادي[1] . ومن عوائق النمو الاقتصادي ، أي التأثير المتبادل والتناقضات بين الاجتماعي والاقتصادي ، تنشأ ايضاً **القوى الاجتماعية** التي يمكنها ان تحل التناقض .

ولهذا فان لينين ، اذ ينسب الاهمية العظمى للعلاقات الاجتماعية ، يجادل اولاً ضد الاجتماعيين الذين يفصلون ويعزلون ويشوهون ، ويحيلون الى مفهوم ذاتي ، هذه العلاقات الاجتماعية [2] ومن ثم سيتصدى لمهاجمة **الاقتصاديين** ، او على الاصح ، **النزعة الاقتصادية** [3] . وهذا بالرغم من انه درس ، كما لم يفعل انسان من قبله ومن بعده ، الواقع **الاقتصادي** في روسيا القيصرية .

ان المنهج الديالكتيكي غريب عن العلم الاجتماعي « الذاتي » فهو لايعرف بدقة كيف يحلل تشكلا **اجتماعيا**، وكيف ينظر الى المجتمع ككل عضوي حي في لحظة من تطوره وحسبه ان يثبت « تزعزع » ملكية الفلاح الارض لكي يدينه بأنه غير مطابق لمثاله . ان العالم الاجتماعي يفصل هذه الظاهرة « **دون ان يحاول تقديمها كعنصر من عناصر نظام آخر لوسائل الانتاج** » . انه يسجل ظاهرة : خراب الجماهير ، ويستبعد أخرى : إثراء أقلية . لقد اكتشف نظريته

---

(١) لايكفي أن نقول ، لفهم الفكر اللينيني ، ان البنية الفوقية تؤثر بدورها على الاساس . انها صيغة ناقصة . فالعلاقات الطبقية تشكل جزءاً من علاقات الانتاج ، او العلاقات الاجتماعية ، اي من الاساس . ان التعبير القانوني للعلاقات الاجتماعية، كما ان البنى الفوقية، ترسخ القاعدة . ولكن ليست البنى الفوقية بوصفها كذلك ، التي تتعارض مع نمو القوى الانتاجية، بل بعض القوى الاجتماعية التي تساندها وتلهمها .

(٢) لينين ،من هم اصدقاء الشعب،راجع بخاصة (المؤلفات المختارة ، المجلد الاول ، صفحة ١٤٠ وما بعدها .

(٣) لينين ، ما العمل ؟ راجع بخاصة المؤلفات المختارة ، المجلد الاول ، صفحة ١٨٦ — ١٨٧ .

بسلخ « عناصر معينة من مختلف التشكلات الاجتماعية » بصورة غير منطقية ، والطوباوية التي أنشأها على هذا النحو ــ الطوباوية الشعبية ــ تصطدم بالحيـــاة الواقعية ، اذ ينبغي العيش « لا في نظام اجتماعي مكون من عناصر أخذت من هنا وهناك ، بل في نظام يحدد علاقات الفلاح مع الكولاك ، والحرفي مع مشتري الجملة ، والعامل مع رب المصنع » . ان الطوباوي لم يفهم ان البروليتاريا « الخاضعة للاستغلال البورجوازي ، الذي هو بطبيعته الاقتصـــادية ، استغلال لجميع السكان الكادحين في روسيا ، هي أيضاً قوة اجتماعية جديدة . لقد أوجدت الرأسمالية الشروط المادية (الاقتصادية) لنظام جديد ، عن طريق السير بالفروع الرئيسية للصناعة الى مرحلة الصناعة الكبيرة الآلية ، كما انهـــا حركت القوة الاجتماعية القادرة على أن تستلب الملكية الفردية لوسائل الانتاج القوى الانتاجية التي سبق أن حولتها الرأسمالية[1] الى اشتراكية .

أما المذهب الاقتصادي « فقد كان ظاهرة غاية في التفرد[1] » . فقد سمحت الرقابة القيصرية ، معتبرة ان الشعبيين هم الثوريون وحدهم ، ولعدم شعورها بالمحبة للبورجوازية ، سمحت بمرور عدد كبير من المقالات الماركسية بين ١٨٩٠ و ١٨٩٥ ، وبخاصة الدراسات الاقتصادية . ومن هنا منشأ « الماركسية المشروعة » . ومن ثم انضم الماركسيون الشرعيون الى التحريفية ، الليبرالية (ستروف Struve) تحت شعار « حرية النقد » ، موجهاً قبل اي شيء آخر ضد الماركسية والاشتراكية الديموقراطية الثوريتين . الا ان هذا « النقد المشروع » أصاب الماركسيين « غير الشرعيين » أنفسهم ، الذين استغرقوا بدورهم « في المذهب الاقتصادي » . وبطريق العدوى المتعاقبة أخذوا يبشرون ــ باسم العلم الاقتصادي ــ بنظرية « تخفيف

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، طبعة اللغات الأجنبية ، موسكو ١٩٤٨ ، المجلد الاول ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ .

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٨٤

النزاعات الاجتماعية» ، ويعلنون «**لامنطقية فكرة الثورة الاجتماعية ودكتاتورية البروليتاريا** »، ويردون الحركة العمالية وصراع الطبقات الى « نقابية عمالية »، والى نضال « واقعي » من أجل إصلاحات صغيرة[1] . وعلى هـذا النحو يؤدي فصل الاقتصادي عن الاجتماعي ، في نظر لينين ، الى الاسفاف الليبرالي او الاصلاحي ، الى تقدمية غامضة ، الى تقرير الواقع الاقتصادي المتحقق . كما انه يعني اخيراً « **الانتقائية وانعدام المبادىء** »[2]، ويخفي الواقع الاقتصادي نفسه : صيرورته وقوانينه .

ويأخذ لينين على خصومه عدم فهمهم أن :

« **جمع المسائل الاقتصادية والسياسية للنشاط الاشتراكي والديمقراطي في كل واحد ، في صراع طبقي واحـد للبروليتاريا ، لا يضعف بل يقوي الحركة الديموقراطية والنضال السياسي** »[3] .

ان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي يؤلفون كلًا واحـداً . إلا أننا « **حين نبرهن ان البروليتاريا ، اذ ترشدها الاشتراكية - الديموقراطية في صراعها الطبقي ، هي المحارب الطليعي في الديموقراطيـة الروسية ، فاننا نصطدم برأي واسع الانتشار وغريب جــداً ، مفاده ان الاشتراكية - الديموقراطية تـرجع الى المستوى الخلفي المسائل السياسية والنضال السياسي**[4] .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٨٦ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٩١

(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٦٢ . مهام الاشتراكيين - الديموقراطيين الروس ، المنشور عام ١٨٩٨

(٤) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٦١

وفعلاً فان الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية كانت فتية . انها تخرج «من الحالة الجنينية» التي تحتل فيها مشكلات نظرية مكاناً بارزاً (رغم انها مطروحة بشكل ناقص ، وما تزال مجردة) .

« **لقد اخذت فقط في تنمية نشاطها العملي** »[1] .

وأخذت المسائل **التنظيمية** تُطرح بصورة ملحة :

« **عندما يحارب جيش البروليتاريا بلا تراخ ، تحت قيادة منظمة قوية اشتراكية ـ ديموقراطية ، عند ذاك فقط يمكن مواجهة الضربة الحاسمة التي يجب أن توجه الى الحكم المطلق** »[2] .

ولنلخص . إن دراسة الواقع الاقتصادي قادت لينين الى مكافحة المذهب الاقتصادي ، والى وضع الاجتماعي والسياسي في المقام الاول : النضال المشخص ، الثوري ولا يستتبع ذلك أن نلقي جانباً القوانين الاقتصادية التي اكتشفها . لأن هذه القوانين بالذات هي التي تبرر ، وتفسر ، وتحدد الصراع السياسي . ولقد التقينا ، كما سبق ان وصفنا ، أول هذه القوانين التي استخلصها لينين : قانون **التبعية** للرأسمالية والملكية وللاستغلال الرأسمالي ، تبعية الأشكال السابقة في التصرف والتملك واستغلال الانسان للانسان (اشكال بدائية ، اقطاعية وشبه اقطاعية ، حرفية وتجارية) .

وثمـــة قوانين اخرى . مثال . حين درس ماركس الريع العقاري (في انجلترة) بيّن أنه ينتج عن **احتكار** ملكية الارض من قبل طبقة « لوردات الارض » الاقطاعي المنشأ . وبين لينين ، في سلسلة من البحوث

---

(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٦٢

(٥) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٧٠

أن الرأسماليين يستثمرون رؤوس اموال في الزراعة بأسلوبين : باستغلال أرض لا يملكونها (هذا هو حال المستأجر الرأسمالي ، اذ يستأجر الارض المملوكة لمالك ما ، اقطاعياً كان او بورجوازيا او فلاحاً صغيراً او ارضاً ريفية مشاعة او ارضاً الدولة ... الخ ، وايضاً في ملكية الأرض ، لأن البورجوازية تشتري أراضٍ . غير أن شراء الاراضي هـذا ، الذي تنزع البورجوازية عن طريقه ملكية المالكين السابقين (الاقطاعيين او الفلاحين) ، ليس هو الظاهرة الاساسية الجديدة . فالواقعة الاصيلة ، التي تميز توسع الرأسمالية في القطاع الزراعي للانتاج ، هي أن الاستغلال يتمايز أكثر فأكثر عن الملكية . فالاستغلال الرأسمالي للأرض وللعمل الزراعي لم يعد في حاجة ، مثل الاستغلال الاقطاعي ، الى حق الملكية . إنه يلحق به (أي يُخضع لتبعية رأس المـال) سائر الاشكال الاخرى الملكية والتصرف . ولهذا السبب فان الاستغلال الرأسمالي يمكن تماماً أن يتكيف مع تأميم الارض او تحويلها اشتراكياً (وهو تدبير نادى به الاشتراكيون الثوريون) ، بل وأن يجد حافزاً في الاصلاح الزراعي . ويستتبع ذلك تشكل احتكار ثان ، على طريق الرأسمالية ، هو الاستغـلال الرأسمالي ، الى جانب الاحتكار الاقطاعي للملكية . ويدخل الاحتكاران في علاقات معقدة ، غير أن نمو الاحتكار الرأسمالي للاستغلال له ضرورته الخاصة العميقة ، الداخلة في عملية تغلغل الرأسمالية في هذا القطاع ذي المنشأ السابق على الرأسمالية : الزراعة . إن في هذا قانونا حقيقيا ، اي عملية ضرورية تنطوي على سلسلة من النتائج : الوضع الخاص بالزراعة ، التناقضات في هذا القطاع .. الخ . انه قانون وقانون جديد ، يخضع لقـانون أوسع ، هو قانون النمو والتمركز الرأسمالي . إلا أن هذا التمركز الضروري لا يهدم بالضرورة التشكل الاجتماعي السابق ، الملكية الاقطاعية (او الاقطاعية المنشأ) . انه يهدمها ويمتصها تارة ، ويبقي عليها ويخضعها لنفسه تارة اخرى . ولذلك يوجـد (في الزراعة) تارة

نزاع ، وبالتالي صراع طبقات ، بين البورجوازية والاقطاعيين ، ويوجـــد تارة أخرى (بل وبشكل متزايد غالباً) اتجاه الى التوفيق والتحالف بين الاحتكاريين .
ان الظواهر السياسية تغطي الواقع الاقتصادي الاساسي ، وتحويه وتكشفه .

إن هذه إحدى اكتشافات لينين الرئيسية في القطـاع الزراعي ، مع متضمناتها السياسية (تارة تحالف مع البورجوازية او جزء من البورجوازية ، وتارة أخرى صراع ضد الاقطاعيين والبورجوازية بآن واحد).

ب - قانون النمو المتفاوت

إن القوانين ،التي أشرنا اليها فيما سبق، هي على نحو ما قوانين صغرى . أما قانون **النمو المتفاوت** فان له، على العكس ، أهمية بالغة،بذاته وبنتائجه . وينبغي اعتباره من اكتشافات لينين الرئيسية في المجال الاقتصادي: **القانون العظيم للتشكل الاقتصادي – الاجتماعي .**

وفكرة نمو متفاوت توجد بذورها لدى ماركس، وخاصة في الفقرة التي سبق أن أوردناها من المقدمة لنقد الاقتصاد السياسي :

« ٦ ان العلاقة المتفاوتة بين نمو الانتاج المادي والانتاج الحرفي مثلاً ، وبصورة عامة ، ان مفهوم التقدم ينبغي ألا يفهم بالتجريد المألوف » [1] .

مجرد إشارة ، كما نرى ، بل انه يبدو أن ماركس يخص مفهوم النمو المتفاوت بالبنى الفوقية ، بالفن والقانون . إلا انه يضيف :

« ان الأمر الصعب . . هو معرفة كيف يكون لعلاقات الانتاج، باعتبارها علاقات قانونية ، نمواً متفاوتاً » .

مسألة صعبة بقدر ما هي غامضة في صياغتها . بيدأنه في الصورة الهيكلية المجردة لكتاب «رأس المال» ، ونكرر القول انها ذات تجريد ،علمي وضروري ،

---

(١) راجع : قطع مختارة من سام ، جاليار ، صفحة ١٢٩ - ١٣٠ .

إذ أن الرأسمالية تدرس ككل ، خارج الفوارق الداخلية بين البلاد الرأسمالية، رغم أن ماركس يعنى باستمرار بهذه الفروق . إن السمات العامة هي التي تعنيه.

وتظهر نظرية النمو المتفاوت، وقانونه، ببطء في مؤلفات لينين ، ولكنها يظهر ان منذ البدء . ولنعد الى « من هم اصدقاء الشعب » . إننا نقرأ أن ماركس قد اكتشف التكرار والانتظام في الظواهر الاقتصادية والاجتماعية ، وأنه وضع نهاية للمفهوم الذي يقتصر المجتمع بمقتضاه على تجمع آلي من الافراد ، كما أنهى المفهوم ، الذي يجعل المجتمع رهناً باخلاق وعادات كل شعب . واستخلص :

« مايميز بلداً رأسمالياً من بلد آخر » ، وحلل « ماهو مشترك بينها جميعاً[1] » .

ان المنهج الماركسي لا يلتقط الوحدة دون الفروق – ولا الفروق دون الوحدة . والتشكل الاقتصادي – الاجتماعي ، الذي حلله ماركس ، هو فعلا « الرأسمالية » او « المجتمع البورجوازي » . ولكن ما أن توضع قوانين النمو الرأسمالي ، بوصفها كذلك ، حتى تتوجب العودة الى الرواسب والانتقالات المتشابكة ، القائمة في مجتمع لا يرتد الى بروليتاريين ورأسماليين :

ومفهوم **التشكل الاقتصادي** ـ الاجتماعي، الذي تناوله مجدداً لينين وعمقه، يغلف إذن مفهوم **النمو المتفاوت** ، كما يغلف مفهوم **الرواسب** في البنية الرأسمالية لتشكلات وبنى سابقة .

بيد أن لينين إنما يدرك ببطء كبير ـ مرده الى الحذر العلمي والسياسي ـ اتساع الظاهرات وأهمية القانون الذي تحويه .

ذلك ان النتائج غير محدودة . وما من شك في أن ماركس وانجلز ،

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، طبعة اللغات الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٨ المجلد الأول ، صفحة ٩٢ .

رغم معرفتها بالصفة المجردة لهيكل النمو المتساوي (للرأسمالية في مجملها) ، كانا يعتبر أنه أساسياً . وكانت الفروق تبدو لهما ثانوية . وترتب على ذلك أن الثورة كان يمكن، وينبغي، أن تحدث في آن واحد (او تقريباً في آن واحد، خلال أزمة عامة واحدة او نهائية) في جميع البلاد المتقدمة، وأن بناء الاشتراكية يمكن، وينبغي، أن يحدث ، في هذه البلاد المتقدمة ، بفعل البروليتاريا الأكثر عدداً ، الأكثر نشاطاً والأكثر تعلماً . بيد أن نظرية وقانون النمو المتفاوت يشيران الى صيرورة تاريخية أكثر عرضية بكثير . فالبلاد الرأسمالية الكبيرة لا تتقدم بسيرة منظمة تماماً ، في صف واحد ومستوى واحد، بخطوة واحدة . ففي لحظة واحدة من لحظات التاريخ (لحظة التشكل الاقتصادي - الاجتماعي) توجد ، على العكس ، بلاد تولد الرأسمالية فيها، وأخرى تبلغ الرأسمالية فيها نمواً كبيراً . وهذه البلاد هي جزء من « عالم » واحد ، أي ، بشكل مشخص جداً ، من سوق عالمية واحدة للسلع ورؤوس الاموال . واذا ماتعايشت ، على المقياس التاريخي والعالمي ، مستويات للنمو جد مختلفة ، فان الفروق نفسها توجد (بدرجات متفاوتة) في كل بلد رأسمالي ، وأحياناً في كل فرع من فروع الانتاج .

ومن هنا العلاقات المتشابكة جداً التي لاحظها لينين : بين البلاد الرأسمالية « المتقدمة » - بين بلاد متقدمة وبلاد أقل تقدماً أو غير متقدمة - بين فروع وقطاعات الانتاج .

وبمعنى ما ، فإن آثاره كلها تحلل صور هذه التفاوتات . مثال ذلك أن بحوثه عن المسألة الزراعية تكتشف بآن واحد تغلغل الرأسمالية في الزراعة، وتأخر الزراعة عن الصناعة ، والتفاوت في النمو الخاص بالزراعة . ومفهوم النمو المتفاوت، مع ظواهر جديدة لم يقدر لماركس أن يشهدها ، يكتسب عمقاً أكبر فأكبر . إنه يغدو مفهوماً جوهرياً ، أساسياً ، وشاملاً ، يمتد الى البلاد والمناطق والصناعات

والطبقات . انه يصبح قانونا : قانون صعوبات الرأسمالية ، وأزمتها . ومن يقول: « متفاوتا » يقول في الواقع « غير منتظم »،متنافراً ، متشنجاً ، متعرجا. ولكن هل يمكن آنئذ الاحتفاظ بفكرة بناء الاشتراكية في العالم بأمره ، في وقت واحد او متقارب ؟ هل يمكن الاحتفاظ بفكرة أزمة سياسية تصيب في آن واحد جميع البلاد « المتقدمة » ؟ هل يمكن الإحتفاظ بفكرة ثورة بروليتارية عالمية ، تقوم في آن واحد – وتنطلق من البلد الأكثر تقدماً ، الأكبر نمواً ؟ ثورة مشروطة بهذا النمو ، لابظرف فريد ، في هذا القطاع او ذاك ، في المجموع المتشنج على هذا النحو والمتفاوت ؟

ان مفهوم النمو المتفاوت حين تعميمه ، حين يصبح قانوناً ، يستتبع إعادة نظر في المبادىء الثورية الماركسية ، لا مراجعة :بل تعميقاً .

وكان لا بد من نمو الامبريالية ، وحدوث الحرب ، ليدرك لينين سعة (أحس بها منذ بداية القرن) الظواهر الجديدة . وكان عليه ان يبحث ويتلمس . وكانت المناقشات حول الامبريالية ،طويلة ،صعبة ،انفعالية . وليس لينين هو الذي ابتدع هذا التعبير ، بمعناه الحديث ، تعبير **الامبريالية** . فقد انبثق هذا الاصطلاح في بحوث النظريين الليبراليين او الاشتراكيين ، عندما ارادوا صياغة قانون الظاهرة (هوبسون Hobson وهيلفردنج Hilferding). ويعود تاريخ هذا المفهوم الى الحرب الاسبانية – الامريكية (١٨٩٨)والانجليزية –البوير (١٩٠٢) . ولم ينشر لينين كتابه الا عام ١٩١٧ .

كما ان الوقائع والاوضاع هي على درجة من التعقيد والتشابك بحيث أن نشر كتاب« الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » لم يوقف المناقشات ، ولا أبحاث لينين . إن الامبريالية تميز الرأسمالية الحديثة « المتقدمة » وعلاقاتها (وبخاصة علاقات « أكثر » أجزائها « نشاطا » وفي الوقت ذاته أكثرها تطفلا ، رأس

المال **المالي**) بالبلاد الاقل تقدما ، وبالبلاد الرأسمالية الاخرى . ومـــع ظهور الامبريالية بدأ يتشكل اقتصاد وطني جديد [1] . بعد هذا ، فان الامبرياليـة ورأس المال المالي قد اختفيا في روسيا عام ١٩١٩ . وحـتى في البلاد المنتصرة . ولكن في أوج الازمة حدث

« تدمير رهيب للرأسمالية المعاصرة » [2]

وانطلق بوخارين من هذه الوقائع ليؤكد ان الرأسمالية تنهار ،وخصوصا أنها انهارت ، واختفت **من روسيا** مع رأس المال المالي والامبريالية .

ويرد عليه لينين بأنه يطرح القضية طرحـــا سيئا . وانه لن يتوصل بذلك الى

« رسم اللوحة الاجمالية لتدمير الرأسمالية والامبريالية» .

أما فيما يتعلق بروسيا :

« فاننـا نشهد في مجالات متعددة انبعاث الرأسمالية ، ونمو مرحلتها الاولى » .

أي أننا نشهد الظاهرات الأولية ، **الأساسية** ، للرأسمالية : **الانتـاج التجاري** ففي عام ١٩١٩ عادت الى الظهور ، في روسيا والمانيا وغيرها الأشكال **« الاكثر بدائية »** لهذا الانتاج « وبالتالي الاكثر ترسخا (والباعة والمضاربون المتجولون) [3]

« ان محاولة الخروج من هذا الواقع المحزن عن طريق وضع برنامج

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨٠٦

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، صفحة ٥٢٣ . تقرير حول البرنامج ، نص عام ١٩١٩ .

(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، صفحة ٥٢٤

مرن جدا ،موحد تماما ؛انماهي قفزة في الفراغ ... ان المشخص عند بوخارين ليس إلا عرضا لفظيا للرسمالية المالية » .

والواقع أنه ، الى جانب الرأسمالية الحديثة جدا ، « العصرية » جدا ، الى جانب مصارف الاعمال ورأس المال المالي ، الى جانب الاحتكارات والتروستات ، استمرت وما تزال (في عـــام ١٩١٩ ، بعد الثورة البروليتارية) التشكلات السابقة او رواسبها : لا سيما الانتاج الفلاحي للسوق ، الانتاج الصغير والمنافسة وسواها . ان **النمو المتفاوت يعمل في داخل الامبريالية ، الرأسمالية « العصرية »** . وحين تهدم الثورة البروليتارية بأفعالها الاولى ، رأس المـال المالي والامبريالية والمؤسسات التي تعبر عنها ، فانها تجد نفسها بالضبط أمام أسس الرأسمالية (على الاقل في روسيا ، عام ١٩١٩) . وهـــذا يكشف ، في الحياة والممارسة ، عن الامبريالية شيئا عميقا وجديدا .

ونستهل اذن هذا العرض عن الامبريالية والنمو المتفاوت بنص أساسي ، إلا أنه لاحق لكتاب لينين ، الذي سنرجع اليه فيما بعد .

هذا النص أساسي ، بمعنى أنه يشير الى المهام الاقتصادية للثورة البروليتارية (لدكتاتورية البروليتاريا) ، كما يوضح التعريفات اللينينية في كتاب : « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ، وكذلك قانون النمو المتفاوت .

« ان الامبريالية والرأسمالية المالية هي بنى فوقية للرأسمالية القديمة . اهدموا قسمها الاعلى ، تظهر الرأسمالية القديمة . اما التمسك بوجهة النظر القائلة انه يوجد ، فيما يبدو ، امبريالية كاملة ، دون رأسمالية قديمة ، فهو من قبيل اعتبار المرء الأماني وقائع .

ان هـــذا خطأ طبيعي ينزلق اليه المرء بيسر . ولو كانت امامنا امبريالية كاملة أمكنها ان تعيد تشكيل الرأسمالية تماما ، لكانت مهمتنا

أسهل بمئة مرة مما هي عليه . اذن لكان لدينا نظام يخضع فيه كل شيء للرأسمالية المالية وحدها ، ولما كان علينا إلا أن نلقي القسم الأعلى من البناء ونسلم الباقي للبروليتاريا ، ولكان ذلك في غاية اللذة ، الا ان هذا غير موجود في الواقع . فالواقع ان النمو هو بحيث ينبغي ان نعمل بأسلوب مختلف كليا . ان الامبريالية هي بنية فوقية للرأسمالية . وعندما تنهار فاننا نشهد انهيار القسم الأعلى وتعرية الأساسات . . وثمة أساس ضخم تحت الارض للرأسمالية القديمة . ثمة هذه البنية الفوقية الامبريالية التي أدت الى الحرب ، وأبرزت من الحرب بداية دكتاتورية البروليتاريا . ولن تخرجوا من هذه المرحلة . إن هذا الواقع يميز النسق ذاته لنمو الثورة البروليتارية في العالم بأسره ؛ وسيبقى واقعا لسنوات عديدة ... وفي الفترة الانتقالية ، لن نخرج من هذا الواقع الموزاييك ... المؤلف من عناصر متباينة » .

هذا النص ، على دقته ، وشدة ارتباطه بالممارسة الثورية والسياسية ، يثير بعض الصعوبات في الشرح ، خصوصا للماركسيين الذين يميلون الى قصر البنى الفوقية على الايديولوجيات والمؤسسات . ويمحص لينين ، في نظرية التشكل الاقتصادي - الاجتماعي ، بصورة دقيقة جداً ، التأثير المتبادل (الديالكتيكي) بين العلاقات الاجتماعية والقوى الانتاجية . إن المؤسسات القانونية والسياسية ، والايديولوجيات والافكار ، والبنى الفوقية ، لاتنفصل في نظره عن مجموع العلاقات الاجتماعية (العلاقات بين الناس ، وعلاقات الانتاج) .

ماذا يعني هذا التعريف للامبريالية ورأس المال المالي بوصفها بنية فوقية ؟ إنه يعني ، أولاً ، أن رأس المال المالي ليس في جوهره شيئاً آخر غير رأس المال بصورة عامة . فهو جزء من هذه « الزمرة » . إنه لا يُعَرِّف عصراً آخر غير

عصر الرأسمالية (الصناعية الكلاسيكية) ، انه يعرف عصر الرأسمالية الأخيرة ، ومرحلتها العليا ، واضمحلالها . إن الرأسمالية تستخدم جميع وسائلها ، جميع إمكاناتها « البنيوية الفوقية » ، في سبيل الاستمرار ، وهي بذلك بالضبط ، تتفسخ . إن الامبريالية ، بوصفها « بنية فوقية » ، هي سياسة تقوم على الأساس الرأسمالي . ففي الامبريالية تتغلب السياسة على الاقتصادي ، إنها تحويه . وعلى هذا فان الامبريالية ، مع كونها شكلا من أشكال الرأسمالية (العنصر الاقتصادي) ، فإنها في الوقت ذاته شكل من أشكال النشاط الطبقي للبورجوازية (العنصر الاجتماعي) ، وشكل الدولة (العنصر السياسي) ، كل هذه غير منفصلة عن بعضها .

ولكي نفهم هذا النص بصورة أفضل ، نقارنه بنصوص أخرى لماركس ولينين .

يدرس ماركس ، في أمكنة عديدة من المجلد الرابع من رأس المال (المنشور تحت عنوان : تاريخ المذاهب الاقتصادية) رأس المال المالي ، تبعاً لما كان يعرفه عنه . إن رأس المال المالي ، في نظر ماركس ، هو أكثر اشكال رأس المال تجريداً وأرهبها فاعلية . ففيه ، يحاول رأس المال ، أن يتكاثر بالتوالد أو يولد ذاته ، إن صح التعبير ، مثلًا في البورصة او المضاربة او التداول النقدي . فالمال ، ورأس المال ، هذان المجردان الواقعيان يصبحان ، أو بالأصح يحاولان أن يصبحا « وثنين آليين » . وإذ يبدوان مزودين بذاتية و « بروح » خاصتين بهما ، فإنهما ينطلقان في اتجاه هذه الذاتية ، كما لو كانا يريدان (أي البشر الذين يتداولونهما) أن يتحررا من ظروفهما ، من سوابقهما : الانتاج التجاري والصناعي . غير أنهما لا يستطيعان ذلك ، ولا بد لهما من أن يرتدا الى هذه الظروف ، هذه السوابق ، « ليثمرا » فيها ويسيطرا عليها . والا فالنتيجة هي انهيار رأس المال هذا في مرحلته العليا ، التي هي أرقى مراحله تجريداً وإذابة ووثنية .

وهاك مايذكره لينين في كتابه :

« لقد بلغ نمو الرأسمالية درجة بحيث أن انتاج السلع ، رغم انه مايزال مسيطراً ومعتبراً أساس الاقتصاد ، قد اصبح في الواقع مهتزاً . إن الجزء الأعظم من الأرباح يذهب الى « عباقرة » المناورات المالية » [1] .

إن أحدث شكل لرأس المال ، وأكثر الأشكال نمواً ، يؤثر بدوره على سابقه وعلى شرطه ، ويهزه ، ومع ذلك فإنه لا يستطيع الاستغناء عنه ، عن طريق تكوين تشكل جديد يسيطر عليه كلياً . ومن هنا تفسخ المجموع . ونجد هنا ، بمعنى شديد العمق ـ جديد على ماركس ـ قانون النمو المتفاوت في التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي الرأسمالي .

ولندرس الآن الكتاب نفسه . يقول لينين ، إن ماركس قد برهن ، **« بتحليل نظري وتاريخي »**، أن المنافسة الحرة تولد تركز الانتاج، الذي بدوره **«حين يبلغ درجة معينة من النمو ، يفضي الى الاحتكار»** [2] . غير أن ماركس لم يستطع التنبؤ بجميع أشكال رأسمالية الاحتكارات هذه ، وهي رأسمالية جديدة تحل محل القديمة ـ الرأسمالية الكلاسيكية ، رأسمالية المنافسة الحرة ـ في مطلع القرن العشرين . لقد عرف ماركس وحلل رأسمالية سنوات ١٨٦٠ ـ ١٨٨٠ ، **« ذروة رأسمالية المنافسة الحرة »** ، مع بعض الأمثلة عن الاحتكارات ، عن بذور ماسيأتي . ومن ثم ، ولا سيما بعد الأزمة الاقتصادية الدورية لعام ١٩٠٠ ـ ١٩٠٣ التي عجلت التركز ، فإن كمية الاحتكارات ازدادت، وحصل تغيير نوعي . وفي الوقت ذاته استمر نمو القوى الانتاجية . وظهرت تقنيات جد قوية (ترتبط

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، طبعة اللغات الاجنبية ، موسكو ١٩٤٨ المجلد الاول ، صفحة ٧٨٨ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، صفحة ٧٨٢ .

بالمعارف الجديدة عن الكهرباء والكيمياء... الخ) وأصبح شكل الانتاج اشتراكيا أكثر فأكثر ، كما أعلن ماركس ، رغم بقاء ملكية وسائل الانتاج خاصة . ما الجديد إذن ؟ أهو القضاء على الازمــات ، والتنظيم « الداخلي » للرأسمالية ، لرأسمالية عظمى متماسكة ؟ أبداً . هذه كلها أوهام ، مماثلة لـ «الامبريالية المتقدمة» التي يعتمد عليها الإصلاحيون والانتهازيون - (الذين انضم اليهم الماركسي الارثوذكسي السابق كاوتسكي الذي أصبح أشرس وأخطر دعامة اجتماعية للبورجوازية) .

ويضيف لينين أن ما حدث من جديد منذ هذا « المنعطف » ، مطلع القرن العشرين ، هو أن سيطرة رأس المال المالي قد حلت محل رأس المال عامة [1] . ولكن ما هو رأس المال المالي ؟ يقول لينين : ينبغي أن نلتقط جميع عناصره ، أي لا رأس المال المصرفي واستخدامه من قبل الصناعيين وحسب (وهو تعريف هيلفردنج الناقص ، كما يقول لينين صفحة ٨٠٨) بل **عنصر الاحتكار** ، اندماج الاحتكارات (مثل اندماج احتكار كبار المصرفيين مع احتكار الريع العقاري في المضاربة على الأراضي في المدن الصناعية ، صفحة ٨١٧) . ذلك أن هذا الاحتكار ، ما أن يتشكل، حتى يتغلغل في جميع مجالات الحياة الاجتماعية [2] .

والرأسماليــة تفصل بين ملكية رأس المال واستثماره ، بين رأس المال الدائن ورأس المال المنتج ، بين صاحب الريع والصناعي . وفي الرأسمالية ، أو سيطرة رأس المال المالي ، يبلغ هذا الفصل **« أبعاداً جسيمة »** ، ولكنه لحساب أحد الطرفين **دون غيره** ، وسيادته التامة على الآخر [3] . فرأس المــال المالي ينتج

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨٠٧

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨١٨

(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨١٩ — ٨٢٢

« من اندماج رأس مال بعض المصارف الكبيرة الاحتكارية مع رأس مال المجموعات الصناعية الاحتكارية [1] » .

وهكذا يقدم لينين كشفاً ويلخص ماقاله عن الامبريالية . لقد برزت الامبريالية كنمو وامتـــداد مباشر للخصائص **الجوهرية** الرأسمالية . إلا ان الرأسمالية لم تصبح امبريالية إلا في درجة معينة - مرتفعة جداً - من نموها ، عندما أخذت بعض الصفات الجوهرية الرأسمالية تنقلب الى صفات مناقضة ، وحين **« تكونت وتكشفت على طول الخط عناصر مرحلة انتقال من الرأسمالية الى بنية اقتصادية أعلى** [2] »، ففي هذه الرأسمالية النامية ازدادت القوى الإنتاجية ، وأكثر من ذلك تحققت تغيرات كبيرة في علاقات الانتاج : **«اننا الآن أمـــام تحويل اشتراكي للانتاج »** بحيث ان الملكية الخاصة (لوسائل الانتاج) لم تعد إلا شكلًا او غلافا لم يعد يطابق محتواه [3] . **لقد كان صعباً** ، إن لم يكن مستحيلا ، بناء الاشتراكية انطلاقاً من مجرد رأسمالية المنافسة الحرة ، بمشروعاتها **الصغيرة** ، العديدة ، المشتتة . وهكذا تمثل رأسمالية الاحتكارات **انتقالاً** تاريخياً ، **فهي تمثل في** آن واحد نهاية الرأسمالية وبداية الاشتراكية ، مع تناقضات حادة **بين الأشكال** والمحتويات ، بين العلاقات الاجتماعية والقوى الانتاجية ، بين **العلاقات الاجتماعية** ذاتها . والحذر واجب هنا ، كما يصر لينين . فصفة **الانتقال** هذه تخدع الانتهازيين (الذين يمجدونها) ، والليبراليين (الذين يأسفون لها ويريدون العودة الى الوراء) . فهؤلاء وأولئك يظنون انفسهم قد أصبحوا في عهد الاشتراكية . أما في الواقع فإن الأشكال ، البنى الفوقيـــة موضوع البحث ، تعمل بقوة . واذ أن رأسمالية

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨٤٧

(٢) لينين ، « » » » » ٨٤٦

(٣) لينين ، « » » » » ٨٨٤

الاحتكارات والامبريالية بوصفهما مرحلة انتقال ، تضيفان تناقضات جديدةوأكثر عنفاً الى تناقضات الرأسمالية الكلاسيكية ، فإنهما لاتحلان هذه التناقضات ، بل تفاقمانها [1] .

ومن وجهة النظر الاقتصادية (ولكن «وجهة النظر» هذه ناقصة ، ولاتمثل ، كما نعلم ، إلامظهراً واحداً من التشكل الاقتصادي –الاجتماعي) يتحـــددالشيء الجوهري في هذه العملية بأنه حلول الاحتكارات محل المنافسة الحرة ، على اعتبار أن الأول هو نقيض الثاني تماماً ، رغم أنه يولد منه لامحالة ، بعملية ديالكتيكية ضرورية .(لايلح لينين على هذه الحركة الديالكتيكية ، بل لا يستخدم الكلمة ذاتها ، فكتابه بعنوان : محاولة تبسيط ، ويعرب عن أفكاره – بشكل ممتاز – بلغة بسيطة جداً) .

غير أن الاحتكارات لاتلغي المنافسة الحرة التي تنبثق الاحتكارات عنها : **« انها توجد فوقها والى جانبها ، مولدة بذلك تناقضات خاصة عنيفة [2] »** . ويبين لينين ، بالأرقام والإحصاءات ، أن تشكل الكارتلات والترستات في فروع من الصناعة يستمر بقوة الضرورة الداخلية وسعتها . غير أنها ضرورة ، متفاوتة حسب فروع الصناعة ، ونادراً ماتكون تامة . وعلى هذا فان الاحتكارات لا تلغي ، بل تفاقم ، **« الفوضى الكامنة في مجموع الانتاج الرأسمالي »** ، وبخاصة التفاوت وعدم التناسب بين الصناعة الثقيلة ، المجهزة والمتكتلة بشكل قوي ، وبقية الصناعة – بين الصناعة والزراعة ، وهو تفاوت يميز الرأسمالية [3] . كيف إذن يمكن للكارتلات والترستات والاحتكارات أن تقضي على الأزمات ؟

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، صفحة ٨٨٠ – ٨٨١

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨٤٧

(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٧٩٠

يقول لينين ، ليس في وسع تعريف أن يلتقط ويصوغ جميع المظاهر ، وجميع الروابط والتأثيرات المتبادلة لظاهرة تنمو . والتعريف اللينيني يستبقي من هذه الظاهرة الامبريالية ، خمس خصائص أساسية :

١ - تركز الانتاج ورأس المال . عنصره الحاسم : الاحتكار .

٢ - إندماج رأس المال المصرفي ورأس المال الصناعي ، ونشوء الطغمة (اوليغرشية) المالية .

٣ - تصدير رؤوس الأموال ، لا تصدير السلع وحسب .

٤ - تشكل اتحادات دولية احتكارية تتوزع العالم كمناطق نفوذ .

٥ - اتمام التقسيم الاقليمي للكرة الأرضية بين الدول العظمى الرأسمالية [1].

ان هذا التعريف يهمل فعليا بعض الخصائص رغم أهميتها . ويلح لينين أيضا على الجانب الطفيلي لرأس المال المالي . فتصدير رؤوس الأموال يتم في الواقع على حساب البلد المصدر . إذ يسحب الرأسماليون جزءاً من فائض القيمة المستخلص من العاملين في هذا البلد ، من الاستثمار في البلد ، استثمار أو إعادة استثمار كان يصنع عظمة الرأسمالية الكلاسيكية ونسقها . إن المنظمات الرأسمالية (الاحتكارية) الدولية لها على الدوام ، رغم صفتها الدولية ، سند وقاعدة في بلد معين . ويبدو هذا البلد متقدماً ، مزدهراً ، بسبب تصدير رؤوس الأموال . أما في الواقع فانه يتجه الى الركود ، الى الشيخوخة اقتصاديا . فتصنيع البلاد « الجديدة » ، المستعمرة أو شبه المستعمرة ، يتم من ناحية بشكل ناقص ، ومن ناحية أخرى على حساب مجموع السكان العاملين في البلد الرأسمالي ، وتبعاً لمصالح البورجوازية ، التي تبحث بعيداً عن منافذ ، ومصادر للمواد الاولية ، وأسواق ، ومناطق استثمار ،

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨٤٧

ويد عاملة رخيصة. صحيح أن بعض فئات الثروات الضخمة التي أنتجت وتراكمت على هذا النحو تذهب الى شغيلة البلاد الرأسمالية. وهكذا يضاف الى الركود والشيخوخة الاقتصادية الإفساد الاجتماعي. إن القادة البورجوازيين يستطيعون، بفضل أرباحهم، تكوين فئة من العمال المتبرجزين (الاريستوقراطية العمالية)، وإفساد بعض زعماء البروليتاريا. وهكذا (بصورة وهمية بالنسبة للجماهير الواسعة، فعلية بالنسبة للأقلية) يمكن لمجموع السكان في البلاد الرأسمالية ان ينقادوا الى الامبريالية، ويقبلوا موقتا الصفة الطفيلية لرأس المال هذا او أن يشاركوا فيه. ويبين لينين، بصورة خاصة، أن الامبريالية الفرنسية، هي مرابية عن طريق قروض رأس المال (١)

وعلى نحو أعم، فإن الامبريالية تكدس رأس المال - النقد في عدد ضيق من البلاد. ومن هنا وجود طبقة «أو فئة على الأصح» من أصحاب الريع، لا علاقة لهم بالانتاج، وهم بالتالي طفيليون (شأن الاقطاعيين)، ومن هنا ايضاً وجود بلاد تعيش على الريع، مع الجهاز البيروقراطي الضخم، والبوليسي والعسكري، الذي ترعاه الدولة.

« ان دولة الريع هي دولة الرأسمالية الطفيلية، المتعفنة. وهذا الواقع لايمكن الا أن يؤثر في الشروط الاجتماعية والسياسية للبلد عامة، وفي اتجاهَيْ الحركة العمالية الأساسيين بصورة خاصة (٢) ».

وهو يقصد الاتجاه الثوري، والاتجاه الانتهازي، القوي بشكل خاص في هذه البلاد، وهو السند الاجتماعي الرئيسي للبورجوازية، الذي يؤيد سياستها

---

(١) لينين، المرجع السابق، المجلد الاول، صفحه ٨٢٤. ومن الواضح ان تحليل لينين بحاجة الى ان يعاد النظر فيه اليوم حول بعض النقاط.

(٢) لينين، المرجع السابق، المجلد الاول، صفحة ٨٦٠

الامبريالية ، بشعارات ظاهرها اشتراكي عند الاقتضاء ، كما هو شأن الولايات المتحدة الأوربية [1].

إن الركود (النسبي) ، والتعفن الاقتصادي والاجتماعي للرأسمالية الأكثر تقدماً بالذات ، يكملان مفهوم قانون النمو المتفاوت .

« ان النمو المتفاوت المتقطع للمشروعات ، وصناعات البلدان المختلفة ، لا يمكن تجنبه في نظام رأسمالي ... ان تفاوت نموه ، وحالة الجماهير الجائعة الى حد ما ، هي شروط ومقدمات أساسية لهذا النمط من الانتاج » [2]

ولكن ايضاً :

« ان الرأسمالية تنمو بأسرع مما كان في الماضي بكثير . وهذا النمو لا يصبح أكثر تفاوتاً ، بصورة عامة ، وحسب ، ان هذا التفاوت يتجلى في تعفن البلاد الأغنى برأس المال (انجلترة) » [3] .

وينتج عن هذه التفاوتات الدائمة التغير لا صعوبات عامة وحسب ، بل تغيرات مفاجئة في ميزان القوى بين المنظمات الاحتكارية الكبرى ، بين كبار البلاد الرأسمالية .

« أما وقد تعدل ميزان القوى ، فأين يمكن أن يوجد في النظام الرأسمالي حل التناقضات إن لم يكن في القوة ؟ » [4]

ومن هنا العنف والحروب .

فالامبريالية من الناحية السياسية إذن (والعنصر السياسي لا ينفصل عن الاجتماعي) تسبب انقلاب البورجوازية ، التي كانت في السابق ثورية او « تقدمية » ،

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨٦٢

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨٢١ – ٨٢٢

(٣) » » » » » » ٨٨١ – ٨٨٢

(٤) » » » » » » ٨٥٥

نحو الرجعية . وتحاول أن تخلق ، وتخلق فعلا ، ـ بسلطة جهاز الدولة الذي ترعاه ، وتتغلغل فيه وتقوده ، بجهاز من التزييف ـ تعلقاً عاماً بمصير الامبريالية . بل إنها تتوصل الى إدخال الايديولوجية الامبريالية لدى الطبقة العمالية **« التي هي ليست منعزلة عن الطبقات الأخرى بسد الصين »**[١].

ونظرية كاوتسكي الماركسية ـ الكاذبة تعكس هذا التغلغل وتخدمه . لقد عرف كاوتسكي الامبريالية :

« نتاج الرأسمالية الصناعية المتقدمة جدا ... ميل كل أمة صناعية الى ضم مناطق زراعية واستعبادها ...[٢]»

هذا التعريف ، الماركسي في الظاهر ، يبقى وحيد الطرف ، يخفي الشيء الأساسي ، وليس فيه شيء مشترك مع الماركسية . ان كاوتسكي يهمل رأس المال المالي وتصدير رؤوس الأموال . كما أن الامبريالية تتطلع بنهم الى المناطق الصناعية (اللورين مثلا فيما يتعلق بالامبريالية الألمانية) تطلعها الى المناطق الزراعية ، وذلك تبعاً لمصالحها . ويقول لينين أن ما يهمّ في نظرها هو الهيمنة .

وعلى هذا فان كاوتسكي يفصل السياسي عن الاجتماعي . وهو اذ يفصل الاحتكارات عن سياسة « الضم » الامبريالية ، يخلص الى القول :

« ان الاحتكارات ، في الاقتصاد ، تتوافق مع اسلوب للعمل في السياسة لا يكون احتكاريا ولا عنيفاً ولا غازيا[٣]»

إنه يلغي التناقضات ، ويخفف حدتها ، بدلاً من ان يكشف عمقها . وهذا ما يقوده الى نظرية الامبريالية المتطرفة . فالكارتلات والاحتكارات تصبح اشكال تنظيم للرأسمالية ، بدلا من ان تحدد انحلالها . إنها تؤول الى السلام

---

(١) لينين المرجع السابق ، المجلد الاول ٨٦٧

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٨٩٤

(٣) لينين ، « « « « « ٨٥١

الشامل . ويستنكر لينين قائلا : « **تجريد ميت** » ، **اسطورة تافهة** » **« محاولة رجعية لبورجوازي صغير مذعور »**.

إن لينين ، يرى ، على العكس ، أن عهد الثورات قد بدأ . وسيتم النمو التاريخي والاجتماعي كذلك بقفزات : ولكن **بقفزات ثورية** ، صراعات ضارية ، منافسة على مقياس لم يعهد من قبل بين المنظمات الرأسماليه العالمية ، تشنجات ، وعنف ، وأزمات ، وحروب تجعل « **تصدع الجبهة الامبريالية** » ممكناً ، ولكن حيث تكشف هذه الجبهة عن أضعف نقطة فيها : الحلقة التي تتكسر في السلسلة .

فقانون **النمو المتفاوت** يتجاوز إذن بكثير (حين يؤخذ بكل مداه) مواقف ماركس وانجلز من استحالة انتصار الاشتراكية بغير ثورة بروليتارية تقوم في آن واحد في مجموع البلاد الرأسمالية .

وحول هذه النقطة الحاسمة ، أعرب الفكر اللينيني بوضوح عن رأيه في مقال نشر عام ١٩١٥ عنوانه ، حول شعار **الولايات المتحدة الاوربية** .

إن الولايات المتحدة الأوربية ، في نظام رأسمالي (امبريالي) ، لا تكون إلا تفاهماً لاقتسام المستعمرات .

« في حين ان الاقتسام ، في النظام الرأسمالي ، لا يمكن أن يقوم على أساس آخر أو مبدأ آخر غير القوة [١] » .

فالشعار هو طوبائي ورجعي في آن واحد . والاتفاقات المؤقتة بين الرأسماليين ، بين الدول ، هي وحدها الممكنة . وبهذا المعنى فان الولايات المتحدة الاوربية ممكنة كاتفاق موقت بين رأسماليين « اوربيين » لخنق أية حركة ثورية ، وحماية مستعمراتهم التي تهددها امبرياليات أخرى (الولايات المتحدة ، واليابان) وتنظيم الرجعية في اوربا .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٧٥٤

« ان تفاوت النمو الاقتصادي والسياسي هو قانون مطلق للرأسمالية . ويترتب على ذلك ان انتصار الاشتراكية ممكن في البدء في عدد قليل من البلاد الرأسمالية ، او حتى في بلد رأسمالي واحد مأخوذ على حدة . ان الاتحاد الحر بين الامم في الاشتراكية مستحيل دون صراع عنيد ، يتفـــاوت طولا ، للجمهوريات الاشتراكية ضد الدول المتأخرة »[1] .

ونجد الفكرة ذاتها في مقـــال : (البرنامج العسكري للثورة البروليتارية (عام ١٩١٦) :

« ان مانسميه ، نحن الاوربيين ، بشوفينيتنا البشعة الخاصة بنا ، حروبا استعمارية ، هي غالباً الحروب الوطنية ، الانتفاضات الوطنية للشعوب المضطهَدة ان احدى الخصائص الاساسية للامبريالية هي انها تعجل نمو الرأسمالية في البلاد المتأخرة .. ونمو الرأسمالية يستمر بصورة متفاوتة تماما . ومن هنا هذه النتيجة التي تفرض نفسها ، ان الاشتراكية لاتستطيع الانتصار في جميع البلاد في آن واحد . انها ستنتصر اولا في بلد واحد او عدة بلاد ، بينما تبقى البلاد الاخرى خلال مدة من الزمن بلاداً بورجوازية او سابقة على البورجوازية . وسيسبب هذه الوضع صدامات .. [2]»

ومن ثم فان انتصار البروليتاريا والاشتراكية في هذا البلد او ذاك (او مجموعة من البلاد) لن يلغي « حكما » الصعوبات والمشاكل السياسية ، ولا الحروب (الاهليـة والوطنية والامبريالية) . ان هـذا النصر سيزج الطبقة العمالية في مجموعة جديدة من المشكلات ، بما فيها المشكلات العسكرية . وسيكون هذا عنصراً جديدا في صراع الطبقات على المقياس العالمي ، لا إلغاءه عن طريق حل جميع التناقضات في آن واحد ..

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٧٥٥

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٧٨٩

ويستحيل بالتالي المبالغة في تقدير أهمية **قانون النمو المتفاوت** بوصفه قانون مرحلة تاريخية ، قانون « لحظة » في التشكل الاقتصادي - الاجتماعي . وليس الامر مجرد قانون اقتصادي واجتماعي . إنه يمتد الى جميع المجالات، بما فيها البنى الفوقية السياسية والثقافية . انه يخضع لأحكامه ، في مرحلة معينة ، سائر القوانين الاخرى. فهو القانون الاساسي لفترة **الانتقال** من الرأسمالية الى الاشتراكية ، التي يتغلب فيها العنصر الاجتماعي (والسياسي) على العنصر الاقتصادي بصفته هذه.

ولابد أيضاً من بعض التحفظات لتستخلص منه متضمناته ونتائجه ، لتعميمه .

فهو يعني ، في المجال **الثقافي** ، أن المكتسبات والمنجزات ، وإقامة أشكال جديدة او العودة الى اشكال قديمة ، لا تسير في عصرنا (كما لم تكن تسير في العصور السابقة) على نسق واحد في جميع قطاعات الانتاج الفني . فالقانون بهذه الصيغة صحيح ، بدهي تقريباً . وقد دفع به بعض النظريين الماركسيين الى ماوراء حدوده ، مثلا حين أكدوا أن مجتمعاً أكثر تقدماً اقتصادياً واجتماعياً يمكن أن يظل متأخراً من وجهة النظر الجمالية . إن مثل هذا التعميم مبالغ فيه . وإذا ماحصر في حدوده ، فإنه يمكن القول فقط إن المجتمع المتفوق اقتصادياً واجتماعياً ينتج أشكال فن أصيلة ، وأنه متفوق عليها ، إلا انه ليس بالضرورة متفوقاً على الاشكال المأخوذة من التشكلات الاجتماعية السابقة ، رغم ان هذا ليس مستبعداً . وعلى وجه التحديد فمن الطبيعي ان تعبر البنية الاجتماعية السوفياتية عن ذاتها بشكل افضل في السينما منها في الشعر الحماسي .

وبصورة أدق لقد صاغ بعض النظريين[1]، « **قانونا للنمو المتفاوت في الاشتراكية**» ، معممين بذلك على نحو جديد القانون اللينيني. وهذه المحاولة الطريفة

---

(١) في يوغسلافيا

تثير بعض الاعتراضات . ذلك ان النمو المتفاوت في الاشتراكيـة هو واقع . فيوغسلافيا، والصين، والديموقراطيات الشعبية ، والاتحاد السوفييتي ليست في درجة واحدة ، في مستوى واحد . ولكن هل هذا قانون ؟ أهو قانون النمو المتفاوت بنتائجه (قفزات، وهزات . الخ) ؟ أوليس قانون النمو الاشتراكي، على العكس ، قانون النمو المتصل ، بلا ازمات تهز المجموع (ان الصعوبات الناجمة عن « قصور الانتاج » لا يمكن مقارنتها بازمات فرط الانتاج التي تهز المجتمع الرأسمالي) بحيث ان البلاد « المتأخرة » تستطيع ، وينبغي ، ان تتجاوز تأخرها؟ ان قانونا ، كقانون النمو المتفاوت ، هو قانون كل تشكل اقتصادي - اجتماعي غير مخطط خاضع لقوانين عمياء ، لا يمكن ان يعاود الظهور في الاشتراكية الا كقانون معروف ، مسيطر عليه . انه لم يعد تماماً قانون النمو المتفاوت . ولا يمكن ان يتعلق الامر بآثار او رواسب النمو المتفاوت الرأسمالية التي تستطيع الاشتراكية ، وينبغي ، ان تسيطر عليها . واخيراً ، هل تدخل انجلترة بحزبها العمالي القوي - والولايات المتحدة الامريكية بحركتها النقابية القوية ، في هذا النمو المتفاوت ؟ ربما . غير ان تحليلا أعمق يمكن وحده ان يقنعنا بذلك .

وهذا لا ينفي ان ماتمخض عنه القانون اللينيني ونتائجه ماتزال واقعية ، واكثر عمقا من اي وقت مضى ، وأبعد من ان تكون قد استكشفت كلها .

ان قانون النمو المتفاوت يلقي الضوء على البنية الراهنة الرأسمالية ، والشكل الذي تأخذه في أزماتها (وبصورة أدق : أزمتها العامة)

وتعمق التفاوتات بين القطاعات ، لاسيما بين القطاعات الجغرافية في بلد واحد . ان بقاء الجزء الجنوبي من فرنسا متأخراً كثيراً وبصورة متزايدة ، عن الجزء الشمالي ، هو امر واقع معروف ومعترف به . فالشمال والشمال الشرقي من البلاد يحتويان الصناعة الثقيلة ، اما الجزء الجنوبي فمايزال منطقة زراعية ، زراعة

ماتزال هي نفسها نامية بصورة متفاوتة جداً ، مع قطاعات بدائية. وتقدم ايطاليا وضعاً مماثلا رغم ان الاسباب التاريخية تختلف فيها كلياً. وتلك حال يسهل ملاحظتها عن النمو المتفاوت في بلد رأسمالي متقدم .

اما عن تدخل الدولة (وقد تنبأ به لينين ، إذ أعلن عن الاندماج بين جهاز الدولة الرأسمالية والبورجوازية المحتكرة) فهو تدخل واقع، بل انه يجد ، عن طريق طلبات التسلح اكثر مما هو عن طريق التدابير « التقنية » الهادفة الى السيطرة على سوق الرساميل او المنتجات والمضاربة . الخ . ويهنىء الخبراء والتقنيون انفسهم بالنتائج المكتسبة ويعتقدون انهم قد « لجموا » الازمات . اما في الواقع ، فلو امعنا النظر جيداً ، فان تدخل الدولة يزيد ويفاقم التفاوتات في النمو . فطلبات التسلح تحابي بالضرورة ، حتما ، الصناعة الثقيلة والمناطق التي تقوم فيها . واذا ما قامت الدولة او مصرف الدولة بتعديل معدلات الفائدة والحسم لتفادي التضخم ، فان الاستهلاك يتأثر بذلك . والدولة الرأسمالية ، حتى عندما تريد ، وحتى اذا كانت « تعرف » القانون ، فانها لا تستطيع السيطرة عليه . ذلك ان النمو المتفاوت يمثل احد الاشكال التي يتخذها التناقض بين علاقات الانتاج (العلاقات الاجتماعية ، « بتعابيرها » القانونية والسياسية) والقوى الانتاجية . ويمتد التفاوت الاقتصادي ، ويعمق ، ويستتبع تفاوتات اجتماعية متزايدة باطراد .

والخلاصة فان قانون النمو المتفاوت متعدد المعاني والتطبيقات .

فهو يعني امكانية قيام الاشتراكية في بلد واحد (او عدة بلاد) ، عقب استيلاء الطبقة العمالية على السلطة، وتغدو بذلك مسيطرة خلال ازمة سياسية لا تقع في آن واحد في بلاد متعددة ، ولكنها انما تنجم عن ظروف خاصة بكل واحدة منها .

وهو يعني ان القوى الانتاجية ، والعلاقات الاجتماعية ، والبنى الفوقية (السياسية والثقافية) لا تتقدم بشكل متساو واحد ، وبلحظة واحدة ، وبنسق تاريخي واحد ، وانه يجب اجراء تحليل للحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية حسب القطاعات (الفنية ، والعلمية والفلسفية .. الخ) .

وهو يعني ان الرأسمالية تجر ، وستجر ، وراءها وفي داخلها ، رواسب وبقايا التشكلات الاقتصادية - الاجتماعية البالية (الرق والاقطاع .. الخ) دون ان تتوصل الى تصفيتها ، وان هذا العبء الميت يضاف الى تناقضاتها الاخرى ليفضي بها الى ركود (نسبي) ، والى نهايتها ، وان تفاوت النمو يمتد وسيمتد ، لا الى البلاد وحدها ، بل الى المناطق ، الى فروع الصناعة ، بل والى داخل المشروعات (تجاور تقنيات متأخرة وتقنيات عصرية) .

انه لا يعني فقط وجود طريقين مختلفين الى الاشتراكية - متمايزين رغم ارتباطهما ، وهذا بدهي - للزراعة والصناعة ، كما لا يعني فقط ان ثمة طرقا متعددة الى الاشتراكية ، بل يعني ان على كل بـــلد وكل شعب ان يكتشف طريقه استنادا الى واقع قومي يقوم في اساسه النهائي على علاقة الناس بالارض ، وعلى الزراعة والمسألة الفلاحية ؛ وهو يعني ان ثمة مراحل تنتشر على طريق الانتقال من الديموقراطية البورجوازية الى الديموقراطية البروليتارية ، الى الاشتراكية ، فالى الشيوعية (وبالتالي مع امكانية حدوث تأخرات ، وقفزات الى الامام ، وصعوبات وتناقضات داخلية ، لا منازعات تستعصي على الحل) .

وهو يعني اخيرا تعقد وغنى الحركة التاريخية العالمية المتجهة الى الشيوعية.

ولقد كان يصعب عرض القانون اللينيني دون عرض معناه الراهن ، ولو بسرعة .

ج - فكر لينين الاقتصادي والثورة

ان الثورة البروليتارية ، والاستيلاء على السلطة ، كما يمكن ان نتصور بسهولة ، لم يكونا – في نظر لينين – « غايتين بذاتهما » ، بل وسائل وبدايات مرحلة جديدة ، تتميز اولا بنمو القوى الانتاجية .

ولئن وجب علينا الاشارة الى هذه النقطة ، فلأنه ما يزال يوجد كثير من التشويش ، مرده الى التشابه (الواقعي ، ولكن ضمن حدود معينة فقط) بين الثورة الديموقراطية البورجوازية والثورة البروليتارية .

لقد كرست الثورة البورجوازية الكلاسيكية – الثورة الفرنسية – نمو العلاقات الاجتماعية الخاصة بالبورجوازية ، وأزاحت العقبات الاخيرة . ولكن هذه العلاقات الاجتماعية كانت ، منذ زمن طويـــل (منذ قرون ، خصوصا في فرنسا خلال القرن الثامن عشر) تتكون ، وتتوطد ، وتنخر ببطء البنى والبنى الفوقية السابقة على الرأسمالية (الاقطاعية) .

وفضلا عن ذلك فان الثورة الديمقراطية – البورجوازية كانت تقدم نفسها « كغاية بذاتها » . وأقامت ، بضربة خاطفة ، بدلا من حكم الملوك والطغاة ، حكم الحرية والفرد . وكان هذا صحيحاً ، لدرجة ما . كما كان خطأ ايضاً ووهماً ، وهذا الوهم كان يغطي ويخفي ، باسم العقل والحرية ، الواقع التاريخي الفظ : استيلاء البورجوازية على السلطة .

اما حالة البروليتاريا (ولا ينفك لينين يردد ذلك ، وهـذا مظهر هام من تفكيره السياسي) فتختلف إختلافاً عميقاً عن حالة البورجوازية الثورية .

فالبروليتاريا ، في روسيا ، تتصرف ، اذا صح القول ، بطرفي السلسلة : فمن جهة قوى انتاجية حديثة ، هي الصناعة الكبيرة (حيث غـدا العمل المنتج جماعياً و« متجهاً اشتراكياً » . ومن جهة اخرى السلطة السياسية ، وجهاز الدولة الجديد . فلديها إذن جميع الوسائل لإقامة علاقات اجتماعية جديدة : ولكن يجب إنشاؤها . ومهام البروليتاريا الثورية لاتنتهي بالثورة . بالعكس ، انها تبـــدأ . وبصورة خاصـة على الصعيد الاقتصادي . لقد زالت عقبات النمو ، إلا انه يجب السير بهذا النمو وتحريضه (إذ ان البشر هم الذين يعملون) وتوجيهه والسيطرة عليه ، و« تخطيطه » . وتتراكم المشاكل والصعوبات . والى جانب البروليتاريا والصناعة الكبيرة تستمر كتلة ضخمة من الإنتاج الصغير ومن صغار المنتجين (فلاحين ، وحرفيين ، دون حساب التجارة الصغيرة (. الخ) . وفضلا عن ذلك ، فان الصناعة الثقيلة ، مهما تكن هامة ومركزة ، ماتزال ضعيفة ، ناقصة التجهيز . وحتى بين بروليتاريا المشروعات ، التي تنقلها الثورة الى الأمة والى الدولة الجديدة ، تستمر « عادات » وامتدادات للنظام القديم وللناس .

ولم ينفك مؤسس الحزب البلشفي عن التفكير في هذه المسائل . إلا انه كان يرى ان الامور مرهونة باوقاتهـا ، فالمسائل تنضج وتطرح نفسها « اساسا » في وقت معين ، حين تتغـير الشروط نفسها وحين تنضج ايضا القوى البشرية (الاجتماعية) القادرة على حلها .

ففي عام ١٩١٧ يرافق الوضع الثوري كارثة اقتصادية: انخفاض الانتاج ، ارتفاع الاسعار ، فوضى شاملة ، اخطار مجاعـــة حتى قبل الاحداث الثورية (وبطبيعة الحال ساعدت عليها) . وبين ثورة آذار (مارس) وثورة تشرين الاول (اكتوبر) لم ينفك الوضع يتفاقم .

ويدرس لينين التدابير التي يمكنها تفادي الكارثة، فيعد « برنامجاً اقتصادياً » في النشرة المعنونة « الكارثة الاقتصادية ووسائـــل تفاديها » . ان الاستبداد القيصري والبورجوازية يقودان البلاد نحو الهاوية . ولا يمكن انقاذ البلد إلا بأعمال وتدابير ثورية : الرقابة العمالية على الانتاج والتوزيـع - تأميم المصارف ودمجها في مصرف واحد للدولة .. تأميم واعادة تجميـع المنظمات والمشروعات الرأسمالية الكبرى - الغاء سرية العمل التجاري واقامة تعاونيـات استهلاكية كبيرة - انهـا الخطوات الاولى على طريق الاشتراكية . ويكتب لينين : ان هذه التدابير ستنعش البلد .

« لقد مكنت الثورة روسيا ، في بضعة شهور ، من اللحاق ، فيما يخص النظام السياسي ، بالبلاد المتقدمة . غير ان هذا لا يكفي ... فامـــا الفناء واما اللحاق بالبلاد المتقدمة وتجاوزها على الصعيد الاقتصادي ايضاً . الفناء أو الانطلاق الى الامام بقوة البخار ، هكذا يطرح التاريخ المشكلة[1].

وعلى هذا فان نمو القوى الانتاجيـة (النمو الاقتصادي) في روسيا له معنيان : معنى اجتماعي (بناء الاشتراكية) ومعنى وطني (خلق الشـروط الموضوعية لاستقلال البلد الذي يبني الاشتراكية) .

وبعد ثورة تشرين الأول (اكتوبر) ، ومباشرة عقب واحدة من أهم نتائجها السياسية ، صلح بريست لتوفسك ، يعيد لينين المسائل الاقتصادية الى المقام الأول . وينشر نداء حقيقياً الى الشعب الروسي : المهمة الرئيسية في ايامنا هذه المهمة هي اعادة التعمير والنمو الاقتصادي .

« لانخدعنّ انفسنا ، ولتكن لدينا الجرأة لمواجهة الحقيقة المرة . ينبغي أن نقيس، ونسبر حتى الأعماق، هاوية الهزيمة ، والفوضى ، والاستعباد ،

---

(١) لينين ، المؤلفات : الطبعة الرابعة الروسية ، المجلد الثاني والعشرون ، صفحة ٣٧٦ .

والاذلال ، التي ألقي بنا فيها . وكلما ادركنا الوضع بوضوح اكثر ، اصبحت ارادتنا اكثر عزيمة واكثر شحذاً ، كشحذ الفولاذ ، ان لدينا مانحتاج اليه : ثروات طبيعية واحتياطياً من القوى البشرية ، واندفاعاً رائعاً اوصلته الثورة الى عبقرية الشعب — من اجل اقامة روسيا قوية ورخية ... لقد استولينا على روسيا من الاغنياء لأجل الفقراء ويجب الآن ان نديرها »[1]

والى الرقابة العمالية على الانتاج وتوزيع المنتجات ، يجب اضافة زيادة انتاجية العمل بالسرعة الممكنة ، وانضباط صارم اشتراكي في العمل . وهذا يفترض المباراة الاشتراكية كنضال ضد الرواسب : التراخي ، والتبديد والكسل والمضاربة . لقد كان الانضباط الرأسمالي يفرض بالقوة . وسيصنع العمال أنفسهم الانضباط الاشتراكي ، عملياً ، باقامته على الزمالة وتذوق العمل المثمر .

« امسك حساباتك ، لاتبدد ، ولا تسرق ، ولا تستسلم للكسل ..

هذه الشعارات — التي كان يسخر منها البروليتاريون الثوريون حين كانت البورجوازية تنطق بهذه الاحاديث لتخفي سيطرتها الطبقية — هذه الشعارات تصبح الآن ، بعد اسقاط البورجوازية ، اهم شعارات الساعة »[2].

هل ثمة ماهو أفضل من القول إن حل المشكلات الاقتصادية في فترة معينة يفترض عمل « بنى فوقية » ، لا بنية فوقية سياسية واحدة (الدولة) ، بل وبشكل خاص الأفكار والمثل الأعلى والأخلاق ؟ ان تحول الفكرة الى واقع له أهمية بالغة ، كما تشير ملاحظة في الدفاتر الفلسفية عن هيجل ...

طبعاً ، ليس المقصود الاعتماد على المثل الأعلى الصرف . ففي الفترة ذاتها عمل لينين على وضع خطة البناء الاشتراكية . ونحن نعرف التعريف المشهور :

---

(١) لينين ، المؤلفات : الطبعة الرابعة الروسية ، المجلد الثاني والعشرون ، صفحة ٤٤١ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني والعشرون ، صفحة ٤٤٣ .

« الاشتراكية = سلطة السوفيات + الكهربة » . صيغة شديدة التبسيط . فالواقع أن لينين قد أعد خطة معقدة . اذ وضع في المقام الاولى الصناعة الميكانيكية (« انتاج وسائل الانتاج » ، القطاع ١ من الانتاج في المجلد الثاني لرأس المال ، حيث درس ماركس الشروط والقوانين الموضوعية للتراكم) . فلينين يواصل اذن مباشرة تفكير ماركس الاقتصادي . فالصناعة الكبيرة هي أساس التصنيع . واكثر من ذلك ، ثمة قوانين للتراكم الموسع ، تحدد النسب بين قطاعات الانتاج الصناعي (والزراعي) . هذه النسب تتحدد انطلاقاً من العنصر الاساسي ، والذي هو في الاصل الاكثر فاعلية وحركة : القوى الانتاجية ، وبخاصة الصناعة الكبيرة وانتاج وسائل الانتاج . كانت هذه القوانين في الرأسمالية تعمل بصورة موضوعية عمياء . وكانت الازمة الاقتصادية عقاباً على اختلال النسب التي أدخلها الرأسماليون (المنافسون او المحتكرون) بين فروع الانتاج وعلى اقتصاد النظام الاشتراكي ان يعرف أولاً قوانين التراكم ويسيطر عليها ، ليتمكن من تحقيق الوفاق بين العلاقات الاجتماعية للانتاج وبين قوى الانتاج . هذه القوانين هي قوانين تابعة ، ونطاقها اضيق من القانون الكبير العام « للتطابق الضروري » . وليست هي قوانين نوعية للاقتصاد الرأسمالي ، إلا أن نطاقها يمتد مع ذلك الى بناء الاشتراكية .

وعلى هذا فان لينين أعد مشروعاً للتخطيط يمنح الأولوية للصناعة الثقيلة . وهو يضيف الى الحجج التي أدلى بها ماركس حججاً جديدة . ان روسيا يجب ان :

« توفر لنفسها بوسائلها الخاصة جميع الانواع الاساسية من المواد الاولية والانتاج » (١) .

هذا هو المطلب الأساسي ، القاعدة الاقتصادية للاستقلال الوطني تجـــاه الامبريالية . ولتأمين نجاح النمو المخطط :

---

(١) لينين ، المؤلفات ، الطبعة الروسية ، المجلد الثاني والعشرون ، صفحة ٤٣٤ ، الطبعة الرابعة .

« تتوجب وحدة الارادة . ويجب في كل مسألة عملية ان يعمل الجميع كشخص واحد ... فلا السكك الحديدية ولا وسائط النقل ولا الآلات الكبيرة والمشروعات تستطيع ان تعمل بانتظام بدون وحدة الارادة »[1] .

ذلك هو دور الدولة الاشتراكية ، وخطة الدولة ، وسلطة السوفيتات ، والحزب ايضاً .

« ان تحويل الآلية الاقتصادية الى آلة ضخمة واحدة ، تحويل هذه الآلة الى عضوية ، تلك هي المهمة التنظيمية الضخمة التي تقع على عاتقنا »[2] .

وهنا يتبع عمل لينين الاقتصادي عمله وتفكيره السياسي ، كجزء لا يتجزأ . وسنلتقي به اذن فيما بعد ، عند عرض هذا الفكر السياسي .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، الجزء الثاني والعشرون ، صفحة ٤٢٠ ، والمجلد الخامس والعشرون ، صفحة ١٤٣ .

(٢) لينين ، تصريح أمام المؤتمر السابع للحزب ، آذار (مارس) ١٩١٨ .

— ٥ —

فكر لينين السياسي

« إن المشكلة الأساسية في كل ثورة هي مشكلة السلطة في الدولة »

(لينين : عن ازدواج السلطـــة ، المؤلفات المختارة ، المنشورة باللغة الأجنبية موسكو ، ١٩٤٨ ، المجلد الثاني ، صفحة ١٣) .

« إن السياسة أشبه بالجبر منها بالحساب ،وبالرياضيات العليا منهابالرياضيات الأولية »

(لينين : مرض الشيوعية الطفولي ،المرجع السابق ، المجلد الثاني ، صفحة ٧٦٨) .

ان السياسي (العنصر السياسي) ، كما شرنا مرات عديدة ، لا ينعزل قط ، في نظر لينين ، عن الاجتماعي والاقتصادي . فما من « سور صيني » يفصل بينها فتفكيره ما انفك يبحث عن التفاعلات المتعددة فيا بينها وعن الحركة التي تنجم عنها . ان هذا المجموع ، هذا الكل ، الذي يحطمه التحليل ، هو الذي يهمه وحده . وفي الفترات الهادئة نسبياً ، يسيطر الاقتصادي على الاجتماعي والسياسي : انه يحددهما . ثم تعقبها - فترة أزمة طويلة أو قصيرة . وعند ذلك يحدث العكس [1] . فالعامل السياسي ، الذي حددته الأزمة على أنه هزة وأزمـــة في الأساس ، يحدد بدوره العامل الاقتصادي ، ويصبح أساسياً ، في هذه الفترة ، في التشكل الاقتصادي - الاجتماعي . إذ يندمج في تاريخه ، سواء حلت الأزمة حلاً ثورياً ، او حدث نكوص الى الوراء (في الظاهر وبصورة نسبية ، إذ لا يحدث ابداً نكوص تام الى الوراء) .

وبتعابير فلسفية - مقتبسة عن الدفاتر - فان السياسي هو تجلٍ ، ظاهرة ، انعكاس وبنية فوقية . وعبر البنى الفوقية يشعر الناس بالمشكلات والنزاعات ، ويسيرون بها الى حلها . غير ان الظاهرة ، ولو انهـا تحتوي على ظواهر (أوهام وسواها) لا ترتد الى مجرد ظاهر . وبمعنى ما انها اكثر غنى من ماهيتها واساسها هو :

---

(١) لينين ، المؤلفات المختارة ، المجلد الاول ، صفحة ٦٤٣ والمجلد الثاني صفحة ٧٧ . الخ ...

الاقتصادي . وغالباً ما تكون اكثر واقعية . وفي فترة الازمة ، هـذا الغنى وتلك الواقعية في الظاهرات السياسية – البنى السياسية الفوقية – تتفجران بأقوى ما في هذه الكلمة من معنى. و « الاساس »، الذي كان حتى ذاك الحين مخفيا عن الانظار ، عن الشعور العفوي ، يتراءى ويظهر في الظـــاهرات السياسية . انها تكشف اساس التشكل الاقتصادي – الاجتماعي ، والعلاقات الاجتماعية للانتاج ومقتضيات القوى الانتاجية ، القوى الاجتماعية ، العلاقات الطبقية والمؤسسات (البنى الفوقية) التي تعبر عنها وتسندها ، انها تحوي آنذاك على الجوهري الذي ظل محتجباً حتى ذاك الحين ، وتحوي اكـــثر من ذلك : على الصيرورة ، والامكانات . اذ يوجد ، في فترات الازمة، انقلاب ديالكتيكي حقيقي في العلاقات بين الاقتصادي والسياسي . فالعلاقة الازلية بين هذين العنصرين هي ايضاً متغيرة ازلياً . والسياسي هو تارة العنصر التابع وتارة العنصر الاسمى ، الحاسم ، الحاوي على العناصر الاخرى، الرافع لها الى أعلى درجات الوعي .

وقد لاحظنا فيما سبق ، وبصدد نظرية الامبريالية ، ان لينـين يقيم تقارباً بين البنى الفوقية للقوى الاجتماعية وبين الاساس [1] اكثر بكثير مما فعل سائر شراح الماركسية . وهكذا يعرف ، على هذا النحو ، الامبريالية (التي لهــا اساس اقتصادي وقوانينها) على انها **بنية فوقية** . ولندع هنا جانباً المشكلات التي يثيرها استعمال هذا المفهوم ، « البنية الفوقية » ، ولنحتفظ بها مع ملاحظة ان الامر يتعلق بالذات بفترة أزمـة ، اذ تدخل الرأسمالية ، ومعها الامبريالية ، في مرحلة تدهورها وازمتها العامـة – ذلك ان الامبريالية تعرف أيضاً على

(١) راجع لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٥٧٥ : « لقد كان الاساس الاقتصادي الاجتماعي لهذه التغيرات في البنية الفوقية العمل الجماهيري لجميع طبقات المجتمع الروسي » .

انها فترة انتقال تاريخيـــة (ثورية) نحو الاشتراكية . في هذه الفترة ، اذن ، يسيطر السياسي على الاقتصادي ، مـــدة من الزمن تطول او تقصر ، ويكون هو الدرجة العليا من الوعي الاقتصادي ، سواء لدى الرأسماليين أو لدى خصومهم الثوريين . ويداخل هذا الوعي لدى الرأسماليين كثير من الاوهام الطبقية ، والجهل أو العلم الكاذب ، كما يداخله شيء من الممارسة وبعض المعارف الهادفة الى مد أجل الرأسمالية . وقد استطاعت البنى الفوقية ، في عهود تاريخية أخرى ، ان تكون لها خصائص ربما كان ينبغي ادراكها بشكل خاص – في بعض العهود الأخرى – على انها ايديولوجيات ، او مؤسسات مبتعدة (نسبياً) عن الاساس ، رغم انها ما تزال « تعبر عنه » وتسعى لترسيخه .

لقد التقينا باستمرار بتفكير لينين السياسي ، الا اننا ما نزال بعيدين عن استنفاده .

ولا شك ان في هذا الفكر شيئاً يدعو الى العجب ، شيئاً من المفارقة ، حين نقارنه بتفكير رجال الدولة الذين كونتهم التجريبية الانجليزية أو العقلانية الفرنسية . ففكر لينين السياسي هو بآن واحد شديد الصلابة رائع المرونة ، انه صلب في المبادىء ، مرن في التطبيق .

ونحن نفهمه على وجه أفضل حين نذكر ان هذا التحالف بين الصلابة والمرونة يميز الفكر الديالكتيكي ، وان هذا هو تعريف الفكر الديالكتيكي من حيث ان الديالكتيك قـــد تمثلهـا انسان فرد ، وتقمصها ، فأصبحت بذلك فعالة وحية .

ما مبادىء لينين السياسية ؟ انها أولاً مبادىء المادية والديالكتيك .

ان فكر لينين السياسي (سياسة مبادىء ، ترتبط مباشرة بمبادىء

منهجية وفلسفية وعلمية - بتصور عن العالم) ما انفك أبداً ، طوال حياته ، يتأكد وينضج وذلك بالممارسة وبالتأمل في الممارسة ، من جهة ، وبالتفكير في المبادىء من جهة أخرى . ولهذا فاننا نجد تفكيره السياسي في مؤلفاته الاخيرة كما في مؤلفاته الاولى ، واكثر مما في مؤلفاته الاولى .

ان المبدأ السياسي المطلق ، والاساس المطلق هو : **البروليتاريا** . لماذا ؟ للاسباب التي سبق ان استخلصها ماركس . فالبروليتاريا ، كطبقة اجتماعية ، تزداد قوة مع ازدياد قوة الطبقة المسيطرة الخصم ، البورجوازية . انها النفي (« الجانب السلبي ») ، الذي يحمله المجتمع البورجوازي في داخله . لا لأن ريح الثورة او نسمة الروح تنفخ باستمرار على البروليتاريا ، ولا لأن الكادحين هم آلهة . بل لأسباب اكثر تواضعاً واكثر عملية ولكنها اساسية : لأن البروليتاريا مضطهدة محكومة ، مستغَلة . مما يجعل منها الطبقة الثورية الوحيدة « **حتى النهاية** »[1] .

وبعد طرحنا هذا المبدأ المطلق ، نلج الى النسبي . ماهي البروليتاريا ؟ انها ليست كياناً ، ولا « روحاً » ، ولا شعوراً جماعياً معطى . ان لها تاريخها ، تاريخاً مزدوج المظهر : مظهر اجتماعي (يرتبط بالنمو الرأسمالي) ، ومظهر وطني (تكون البروليتاريا في هذا البلد او ذاك ، صفاتها الخاصة ، تقاليدها ، صراعها المحلي او العام .. الخ) .

وتتكون البروليتاريا من الكادحين ، اي من افراد (وإن يكن هذا ليس تماماً بالمعنى البورجوازي للكلمة) . والافراد ، وان كانوا مرتبطين اجتماعياً بالعمل وتقسيم العمل ، هم ايضاً ، من بعض الجوانب ، متنافسون ، متزاحمون ، متفرقون باحكام مسبقة الخ . فالبروليتاريا لا تتجلى ككتلة غير متمايزة وجماعة من كتلة واحدة .

---

(١) لينين ، تكتيكان ، في المؤلفات المختارة ، المنشورة باللغة الاجنبية ، موسكو ، ١٩٤٨ ، المجلد الاول . صفحة ٤١٨ .

والبروليتاريا ، وإن كونت طبقة محددة تماماً في التشكل الاقتصادي - الاجتماعي بوظيفتها في الانتاج الاقتصادي ووضعها الاجتماعي ، ليست متجانسة . وفضلا عن ذلك (وقد سبق لنا ان اوردنا النصوص من « شيوعية اليسار ، مرض الشيوعية الطفولي » فانه مامن حدود دقيقة بين البروليتاريا والطبقات الاخرى : الحرفية ، والفلاحية ، والبورجوازية الصغيرة . فثمة جميع أنواع الانتقال والمراحل الوسيطة بين البروليتاريا وسائر المجتمع . ويترتب على ذلك وجود عدد كبير من « **النماذج الاجتماعية** » يجب معرفتها ، وبالتالي دراستها . ففي داخل الطبقات ، وفيما بينها ، توجد « فئات اجتماعية » . ان لينين يعرف تماماً حجج هؤلاء المهووسين « بالحالات الحدية » ، هؤلاء « العلماء الاجتماعيين » الذاتيين الذين يقدمون بزهو مثال الصبي - الحلاق ، او الفلاح - العامل[1] لينكروا وجود الطبقات . وكما نعرف منهجية لينين فانه يحارب بآن واحد اولئك الذين يقيمون كيانا هو « الطبقة العاملة » ، منكرين الانتقالات والفروق الداخلية ، واولئك الذين ينكرون الماهية الحقيقية العميقة للطبقات الاجتماعية ، وطبقة البروليتاريا بشكل خاص . فبعضهم - بتعبير منهجي - مناطقة ، متشيعون يساريون متطرفون ، وآخرون سفسطائيون ، وانتقائيون ، وانتهازيون بطبعهم .

فلنأخذ اذن هذه البروليتاريا كما هي : بتلونها وتنوعها ، ومختلف الفروق الداخلية بين افرادها ، وحرفها وقراها ومناطقها وأممها . لنأخذ الغاطس ، إن صح التعبير ، في المجتمع الذي يحتويه ، فهو ليس سوى جزء منه ، والمجتمع يحيط به ، ويؤثر فيه ، ويدخل فيه عادات ، واحكاماً مسبقة واخلاقاً وايديولوجيات للطبقات الاخرى ، لاسيما البورجوازية الصغيرة .

---

(١) راجع حول هذه النقطة : علاقة البروليتاريا بالحوار الاجتماعي ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٥٤ . وراجع ايضاً صفحة ٥٣٧ ، وفيها مخطط « استقصاء اجتماعي » حقيقي ، عن العلاقات بين المدينة والريف ، وبين البروليتاريا والطبقة الفلاحية .

انها ، بما هي عليه ، تمثل القوة الاجتماعية الحاسمة في العالم الحديث .

ولكن كيف تعمل هذه القوة الاجتماعية ؟ كيف تعي ذاتها ؟ كيف ومتى تتحرك ؟ كيف يمكنها ان تنتصر ؟ هذا مايدرسه لينين بأناة ، وموضوعية، في الوقائع المعطاة ، وفي مجموع التجربة التاريخية .

ان البروليتاريا ، اذا اعتبرت ككل – وانطلاقاً من الممارسة الاجتماعية، (من دورها في الانتاج) لها « **غريزة طبقية** » بل وغريزة قوية[1] . كما انها ليست وحيدة . خاصة ، في فترات الصراعات السياسية الكبرى ، إذ تحاول الحكومات (التي تمسك بالسلطة) الحصول على مساندة جميع الجهات ، كما أن حدة الصراع تلقي جانباً بالجمل الجوفاء ،

فان « **الاحزاب تشد جميع قواها ، وتستنجد بالجماهير الشعبية التي تسترشد بغريزتها الصادقة ، وتستنير بتجربة الصراع المفتوح، فتتبع الاحزاب التي تمثل مصالح هذه الطبقة او تلك** »[2] .

ان للفلاحين ، والبورجوازية الصغيرة ، وجميع الطبقات ، في النهاية ، غريزتها .

ومع ذلك فان « **الغريزة الطبقية** » ينبغي ألا تمجد وألا تعتبر معصومة من الخطأ ، والا لكان ذلك رومانسية سياسية على طريقة الشعبيين ، لامادية ولا ماركسية . ان الغريزة الطبقية تبقى على صعيد الشعور العفوي ، على صعيد الظاهرات والظواهر ، انعكاسات سطحية ذات محتوى حقيقي ، ولكنها تغلفه وتخفيه ويخشى دائماً ان تفضي الى الخديعة .

---

(١) راجع المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٣٦٥ . الخ .

(٢) ايضاً ، المجلد الاول ، صفحة ٣٤٦ ، الاحزاب السياسية في روسيا .

وليس من قبيل الصدفة ان تمجد المذاهب الذاتية، والمثالية والرومانسية ذات الطابع السياسي، الشعور لذاته وبذاته. فالافراد، او الجماعات، الذين يعتقدون بشعورهم كما لو كان يكشف لهم الحقيقة، يعتقدون ايضاً بشعور الافراد الاخرين والجماعات الاخرى، وبالتالي باقوالهم. مع ان المعيار السياسي - كما هو شأن المعيار في في جميع المجالات، هو موضوعي ومادي. يجب ألا نصدق ابداً احداً من اقواله، خصوصاً في السياسة، بل يجب دوماً دراسة تاريخ الاحزاب،

« ماتعمله، وكيف تسلك في المسائل التي تتصل بالمصالح الحيوية للطبقات » (١).

ان ثمة عنصراً عفوياً، عفوية بروليتارية. عفوية هي ذاتها نسبية ومتغيرة مع الحركة التاريخية: فعفوية حوادث الشغب التي كان العمال اثناءها يحطمون الآلات، لا يمكن مقارنتها بالاضطرابات « العفوية » حوالى ١٨٩٠. ورغم ذلك فان تحليلها يبين ان العنصر العفوي لا يمثـــل « **الشكل الجنيني** » للوعي السياسي. وحوالي ١٨٦٠ - ١٨٧٠ كانت تعبيرات عن اليأس. وحوالي ١٨٩٠ نلمح « ومضات وعي »، غير ان الاضطرابات كانت ما تزال صراعات، على الطريقة « النقابيـة ».

لم يكن لدى العمال بعدُ وعي تام كلياً، الوعي السياسي الاشتراكي، لمـــاذا؟

« لأن هذا الوعي ما كان ليهبط عليهم من الخارج. إن تاريخ جميع البلاد يثبت أن الطبقة العاملة، إذا تركت لقواها الخاصة، لا يمكن أن تبلغ إلا الى الوعي النقابي، أي الى الايمان بوجوب الاتحاد في نقابات، وخوض الصراع ضـــد أرباب العمل، ومطالبة الحكومة بهذه القوانين أو تلك » (٢).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) لينين ما العمل؟ المرجع السابق، المجلد الاول، صفحة ١٩٧.

وبعبارة أخرى ، فان الطبقة العاملة ، بقواها الذاتية ، بغريزتها ، بعفويتها وصراعاتها العفوية ، لا ترتفع الى الشعور بالتناقض الموضوعي العميق ، الذي لايقبل التحوير ، بين مصالحها ومصالح البورجوازية . انها لا تتجاوز مرحلة اولية ، جنينية ، من صراع الطبقات . إنها لا تبلغ الوعي الطبقي الحقيقي : **الوعي السياسي ، الذي هو شكل متفوق من الشعور .**

ولنلح على هذه النقطة ، ذات الأهمية البالغة لفهم اللينينية . فلينين يستخلص هنا الدروس الثورية ، لا من التجربة الروسية وحسب ، بل من تجربة الحركة العمالية في انجلترة بصورة خاصة .

ان الوعي السياسي لا يمكن ان يأتي الى البروليتاريا الا من الخارج ، من مذهب ، من نظرية ، من معرفة .

« لقد ولد المذهب الاشتراكي من النظريات الفلسفية والتاريخية والاقتصادية التي اعدها الممثلون المتعلمون للطبقات المالكة ، المثقفون . لقد كان مؤسسو الاشتراكية العلمية العصرية انفسهم ، بحكم مركزهم الاجتماعي ، مثقفين بورجوازيين »(1) .

وفي روسيا ، بدءاً من عام ١٨٩٥ ، حدث بآن واحد يقظة عفوية للجماهير العمالية ، وللشبيبة الثورية ، المتسلحة بالنظرية الماركسية . لقد انصرف هؤلاء الثوريون الشباب بنشاط الى إثارة الاضطراب على الصعيد الاقتصادي ، وكانوا يوكلون أيضاً للاشتراكية – الديموقراطية الروسية أعظم المهام التاريخية : إسقاط الحكم الفردي القيصري . ومهما يكن ، ففي روسيا ، كما في غيرها :

«انبثق المذهب النظري للاشتراكية – الديموقراطية بصورة مستقلة تماماً عن النمو العفوي للحركة العمالية . لقد كان منها بمثابة النتيجة الطبيعية ، المحتومة ، لنمو التفكير لدى المثقفين الثوريين الاشتراكيين »(2) .

---

(1) لينين ، المرجع السابق ، ١٩٧ – ١٩٨ .

(2) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ١٩٨ .

وأعقب ذلك فترة عصيبة ، مردها الى نقص إعداد هؤلاء المثقفين (ويعتبر لينين من بينهم) ، ونقص الاتصال الفعلي مع الطبقة العاملة ، والقمع .. الخ . ولم يكن الفشل في البداية الا شراً صغيراً ، لأن التجربة الثورية والنشاط التنظيمي يُكتسبان ، بشرط تنمية « النقد الذاتي » . إن وعي المرء أخطاءه ، في المجال الثوري ، هو تصحيح نصف الخطأ .

وأصبح الشر الصغير شراً عظيما حين أتى أناس مستعدون لقلب الأخطاء الى مزايا ، أي لتبرير انعدام النظرية وجدوى النظرية بصورة نظرية : للتبشير بالانقياد للعفوية ، وعبادة **العفوية** . من كان هؤلاء الناس ؟ انهم انصار المذهب الاقتصادي والماركسيون «الشرعيون» . ان هؤلاء الناس يستخدمون صيغاً جميلة : ألا نأخذ بعين الاعتبار العامل الاستثنائي ، بل العامل المتوسط ، أو صيغة : « **السياسي يتبع الاقتصادي** » ، وهي صيغة جد ماركسية في ظاهرها . وهذا هو سر نجاحهم . وكانت النتيجة « **سحق الشعور بالعفوية** » . وكان العمال يرددون لأنفسهم الصيغة التالية ، بعد أن سمعوها من « الاقتصاديين » الجديين ، والماركسيين « الشرعيين » ، ان زيادة ، ولو بمعدل كوبك لكل روبل ، تفضل الاشتراكية ، وانهم انما يناضلون من أجل انفسهم واولادهم ، لا من أجل الاجيال المقبلة .

« ان انسحاق الشعور بالعفوية قد تم بصورة عفوية . قد يبدو هذا لعباً بالكلمات ، غير انه للاسف ، هو الحقيقة المرة »[1] .

ان انصار حركة « عمالية بحتة » ، و « **الارتباط العفوي الوثيق بالنضال البروليتاري** » ، يكافحون المثقفين بصورة تضليلية (ديماغوجية) ، « ولو كانوا

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٠٣

مثقفين اشتراكيين » . إنهم لايريدون ان يفهموا ان عبادة العفوية والحط من قيمة النظرية (العلم النظري) انما يعنيان » **شاؤا أم ابوا ، فهـذا لايغير من الامر شيئاً »** ـ دعم نفوذ الايديولوجية البورجوازية على العمال . واولئك الذين ينتقدون **« المبالغة في تقدير الايديولوجية »** يتصورون ان الحركة العمالية البحتة قـادرة بجد ذاتها على اعداد ايديولوجية مستقلة . والحال ان هذا **« خطأ عميق »**[1] . اذ لايمكن قيام ايديولوجية مستقلة (عن البورجوازية) تعدها الجماهير العمالية خلال حركتها . وليس في الميدان الا ايديولوجيتان : الايديولوجيـــة البورجوازية والايديولوجية الاشتراكية (اي النظرة الماركسية ، الاشتراكية العلمية) . وليس من وسط ، ولامن سبيل آخر ، ولاايديولوجية ثالثة .

ويلح لينين في الحاشية . فائن شارك العمال في اعداد النظرية الاشتراكية فليس هذا بوصفهم عمالا :

« انهم يشاركون فيها بقدر مايتوصلون الى اكتساب معرفة عن عصرهم كاملة قليلا او كثيراً، والى زيادتها »[2]

ويستشهد لينين مؤيداً (نحن في عام ١٩٠٢) نصا من كاوتسكي :[3]

« ان للاشتراكية، كمذهب ، جذوراً بالبداهة في العلاقات الاقتصادية الراهنة ، بقدر ما الصراع الطبقات لدى البروليتاريا . انهـــا ، كهذا الصراع ، تنشأ من الصراع ضد فقر الجماهير وبؤسهـــا ، الناجمين عن الرأسمالية . غير ان الاشتراكية وصراع الطبقات ينبثقان بشكل متواز ،

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٠٤

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٠٦ ، الحاشية .

(٢) كاوتسكي ، مشاراً اليه في لينين ، ماالعمل ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٠٥ .

ولا يولد احدهما الآخر ، انهما ينبثقان من مقدمات مختلفة . ان الوعي الاشتراكي الراهن لايمكن ان ينبثق الا على اساس معرفة علمية عميقة ... ان حامل العلم ليس هو البروليتاريا ، بل المثقفون البورجوازيون .. ان الوعي الاشتراكي عنصر مستورد من الخارج في الصراع الطبقي للبروليتاريا ، وليس شيئاً ينبثق عنها بصورة عفوية » .

ويمكن مقارنة هذه النصوص من كتاب « ما العمل ؟ » بمقالات لينين عن ماركس وانجلز . ففي المانيا عام ١٨٤٥ كان الناس جميعاً شيوعيين بدرجات متفاوتة ، عدا البروليتاريا[1] . وكان ينبغي تخليص هذه الشيوعية العاطفية من اوهامها، وتحويلها إلى علمية - وادخالها الى البروليتاريا ! وقد وعى هذه المهمة مرشدا البروليتاريا المثقفان ، ماركس وانجلز ، وحدهما .

ويتابع لينين ، ان النمو العفوي للحركة العمالية قد يفضي بالضبط الى اخضاعها للايديولوجية البورجوازية .[2] لماذا ؟ لأن هذه

« اقدم من الايديولوجية الاشتراكية ، وأكمل منها في جميع اشكالها ، وتملك مالانهاية له من وسائل الانتشار »[3] .

كل مايمكن قوله هو ان العمال يتمثلون النظرية الاشتراكية ، اكثر مما يتمثلون الايديولوجية البورجوازية ، لأنهاتفسرلهم وضعهم وتحدد آلامهم :بشرط **« ألا تستسلم للنظرية العفوية »[4] .**

---

(١) راجع مجموعة ، ماركس - انجلز - الماركسية ، صفحة ٦٤

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٠٦

(٣) لينين ، المرجع السابق المجلد الاول ، صفحة ٢٠٧

(٤) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٠٨ ، في الحاشية

ان «الاقتصاديين» حين يؤكدون (وهذه نظرية «ماركسية» سطحية) ان السياسي يتبع بوداعة الاقتصادي ، انما ينحنون امام اللاشعور . انهم يحجمون عن اعداد سياسة ثورية نوعية ،

« تستجيب للمهام العامة للاشتراكية وللظروف الروسية الراهنة »[1]

هذا « المذهب الاقتصادي » يستخدم بعض نظريات ماركس وانجلز بشكل مناف لروحها ، للمذهب في مجموعه .

« ان كون المصالح الاقتصادية تلعب دوراً حاسما ، لايستتبع قط ان يكون الصراع الاقتصادي (المهني) ،ذا اهمية اولية ، لأن المصالح الاكثر جوهرية « الحاسمة » للطبقات ، لايمكن اشباعها ، بصورة عامة ، الا بتغييرات سياسية جذرية »[2] .

ماالذي نحتاجه اذن ؟ اولا معرفة التطور الموضوعي ، الذي

« يخلق او يرسخ ، يهدم او يضعف ، هذه الطبقات او تلك ؛ هذه الفئات ، والجماعات والامم ومجموعات الامم ..الخ .. محدداً بذلك هذا التجمع السياسي الدولي للقوى او ذاك ، هذا الموقف او ذاك للاحزاب الثورية »[3] .

فالوعي السياسي يستلزم اذن ويفترض معرفة المجتمع (البورجوازي) في مجموعه ، في كليته ـ معرفة علاقات جميع الطبقات فيما بينها ومع الدولة ، وكل هذا على المقياس العالمي . واولئك الذين ينحنون امام العفوية انما يجرون

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٠٩

(٢) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٢ في الحاشية .

(٣) لينين » » » ٢١٥

الحركة الى الوراء . انهم يتعلقون بذيلها »[1] بينما تتطلب عفوية الجماهير وتتوقع وعياً مرتفعاً .

« لقد كانت الاندفاعة العفوية للجماهير (وماتزال) سريعة بحيث ان الشبيبة الاشتراكية - الديموقراطية كشفت انها عاجزة عن النهوض بهذه المهام الجسيمة »[2] .

وعند ذاك يتأخر الثوريون عن الحركة ..

لايكفي ان نبحث ونكشف شروط الحياة العمالية ، ان نفضح العمل المضني في المعامل . ان « أدب التشهير »[3] يمكن ان يقوم بدور وعمل ، إلا انهما غير كافيين ، لأن الاشتراكية - الديموقراطية تقود الصراع الطبقي العمالي ، لا بقصد الحصول على تحسينات وحسب - **شروط افضل في بيع قوة العمل**[4] **»** ، بل وايضاً بقصد القضاء على النظام الاجتماعي الذي يتضمن هذا البيع لقوة العمل الى اولئك الذين يملكون وسائل الانتاج .

« ان الاشتراكية - الديموقراطية تمثل الطبقة العاملة في علاقاتها ، لامع جماعة معينة من المستخدمين وحسب ، بل مع جميع طبقات المجتمع المعاصر ، ومع الدولة كقوة سياسية منظمة »[5] .

فعلى م تقوم التربية السياسية ؟..

« لا يكفي ان نشرح للعمال اضطهادهم السياسي .. بل يجب إثارة

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢١٦

(٢) لينين « « « ٢١٦

(٣) لينين « « « ٢١٨

(٤) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢١٩

(٥) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٢٠

الاضطراب بمناسبة كل تجل محسوس لهذا الاضطهاد .. وهذا الاضطهاد يمارس ضد طبقات المجتمع على اختلافها ، ويتجلى في مختلف مجـــالات الحياة والنشاط المهني ، والمدني ، والخاص ، والعائلي ، والديني والعلمي .. الخ »[1] .

ان حملة واسعة لفضح الاضطهاد والتعسف ، يجب ان تستهدف جميع هذه التجليات ، لا تلك التي لها علاقة بالحياة الاقتصادية وحسب . فهذه ليست الا « **كمية ضئيلة** »[2] بالنسبة لغيرها .

والجملة التي يقولها بعض الانتهازيين ـ الاقتصاديين : « **اسباغ الطابع السياسي على الصراع الاقتصادي ذاته** » هذه الجملة تخفي ، وراء ظاهر عميق وثوري بشكل رهيب ، انحطـــاط الوعي الى مستوى العفوية . والاشتراكية ـ الديموقراطية ، في الحقيقة ، تُخضع ، ويجب أن تخضع « **الصراع من اجل الاصلاحات ، خضوع الجزء للكل ، الى الصراع الثوري من أجل الحرية والاشتراكية**[3] »

وطبقاً لمنهج لينين (وسنجد نفس التحديد في مسألة سياسية اخرى ، هي المسألة القومية) يصنف لينين ويرتب بعناية الظاهر والواقع ، الأكثر أو اقل جوهرية . فالمطالب الفورية ، الاقتصادية (مهنية ، ونقابية) يجب الاهتمام بهـا كثيراً ، ولكن مع اخضاعها الى المجموع ، والى معرفة المجموع . واذ يحارب على جبهتين ، فقد انتقد لينين ، في آن واحد ، اولئك الذين يهملون الاقتصادي ، واولئك الذين يجعلون منه شيئاً مطلقاً . وأكثر من ذلك ، فان المجموع ـ كلية

---

(١) لينين ، ايضاً .
(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٢٢
(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٢٤

الحركة وأهدافها – تتحدد كشيء حقيقي ، حي وفعال . فليس من « مرحلة » اقتصادية ، ثم – بعد ذلك – « مرحلة » سياسية ، للصراع . ان هذا الفصل خطأ. ولئن كان يتوجب على التكتيك أن يأخذ في نظر الاعتبار الحركة الموضوعية فليس على هذا النحو . ورغم انه يوجد ، بمعنى (موضوعي) « تكتيك – خطة » او « تكتيك – تسلسل » ، اي نمو في الصراع ، فان النظرية الانتهازية للمراحل أو التسلسل تفرغ الحركة من اتجاهـــا الثوري (خاصة صفحة ٢٢٦ وما يليها) .

« ليكون العامل اشتراكياً – ديموقراطياً ، يجب أن يتصور بوضوح الطبيعة الاقتصادية والشكل السياسي والاجتماعي ، للمالك العقاري المكتنز وللكاهن ، للوجيه والفلاح ، للطالب والمتشرد ، أن يتعرف على جوانبهم القوية وجوانبهم الضعيفة ، وان يعرف كيف يميز معنى الصيغ الجاريـــة ، والسفسطات من كل نوع ، التي تغطي بها كل طبقة ، وكل فئـــة اجتماعية ، شهواتها الانانية و « طبيعتها » الحقيقية . . . ان هذا الكشف السياسي ، الذي يشمل جميع المجالات ، هو الشرط اللازم والاساسي لاعداد الجماهير من أجل نشاطها الثوري[1] » .

وينبغي بالتالي على النظري الاشتراكي أن يكشف أمام الجماهير العمالية خفايا واسرار المجتمع البورجوازي ، وان يفك آلياته المعقدة ، وان يحلل بصراحة وعلناً العمليات التي تتداخل في الخفاء كالدسائس والمناورات . إن هذه معارف يستطيع المثقفون ان يكتسبوها ، لا للاحتفاظ بها في حوزتهم ، بل لنشرها بين العمال ، والجماهير ، والشعب بأسره . لا على شكل نشرات او مقالات مملة ، بل بشكل فضائح حية في جميع مجالات الحياة[2]. بذلك يروون عطش الطبقة العاملة،

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٣٠

(٢) لينين ، « « « « « ٢٣٤

حاجتها الأكثر إلحاحاً : حاجتها للمعارف السياسية ، الى التربية السياسية . وهو أمر لا يمكن أن يتحقق « من داخل » صراعهم الاقتصـــادي ، حين ينطلقون (فقط او بصورة رئيسية) من هذا الصراع .

« ان الوعي السيـــاسي والطبقي لا يمكن جلبـه الى المعامل الا من الخارج ، اي من خارج الصراع الاقتصادي ، من خارج منطقـــة العلاقات بين العمال وارباب العمل . إن المجال الوحيد الذي يمكن أن تستمد منه هذه المعرفة هو مجال علاقات جميع الطبقات وفئات السكان مع الدولة والحكومة . . »[1] .

ولاداعي لخشية الوقوع في التكرار مع لينين ، لأن لينين لا يكرر نفسه إلا في الظاهر ، فتفكيره يتقدم .

«على الاشتراكيـين ـ الديموقراطيين ، لكي يقدموا للعمال المعرفة السياسية ، أن يمضوا الى جميع طبقات السكان » . (جملة أشر تحتها لينين[2])

بل انه يذهب الى حد السخرية من النموذج الاشتراكي ـ الديموقراطي الأكثر انتشاراً ، الذي له « اتصالات » بالعمال ، وينشر نشرات وبيانات يشتم فيها سوء التصرف في المعامل ، وتحيز الحكومة للرأسماليين ، وعنف الشرطة ، فيكرر على هذا النحو الحادثات المألوفة للعمال ، وتجربتهم اليومية ، ولا يقدم لهم شيئاً . انه يمتنع عن دراسة تاريخ الحركة الثورية ، والسياسة العامـة الداخلية أو الخارجية ، والحالة الاقتصادية والاجتماعية . . .

إن الاشتراكي ،في نظر لينين، اذ يعمل على تنمية الوعي السياسي لدى

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٣٨

(٢) لينين ، « «

الطبقة العاملة ، يتعرف على كل شيء ، يصل الى جميع طبقات السكان . هل يتخلى بذلك عن « وجهة النظر » الطبقية العاملة ؟ لا ، بشرط أن تطرح المسألة طرحاً جيداً من الناحية السياسية . إن الماركسي (الاشتراكي ـ الديموقراطي) ، اذ يلتقي بجميع الطبقات ، ويتوجه اليها ، إنما ينشط بوصفه ديموقراطياً صرفاً إنه يعرض ويبرز المهام الديموقراطية العامة ، دونما حاجة الى أن يخفي قناعاته الاشتراكية .

« بيد انه ليس اشتراكياً — ديموقراطياً كل من ينسى عملياً ان واجبه يقتضيه أن يكون أول من يطرح ، ويشحذ ، ويحل أية مسألة ديموقراطية عامة » (كلمات أشر تحتها لينين [١]) .

هل ثمة إمكانية للتأثير في جميع طبقات السكان ؟

« إن من لا يؤمنون بذلك يبينون أن وعيهم متأخر عن الاندفاعة العفوية للجماهير [٢] » .

لقد ظهر من جميع الجهات التذمر ، والآمـــال ، والشعور باستحالة استمرار نظام حكم الفرد (القيصري) . والسياسي (الثوري) ينبغي أن يدخل في حسابه أتفـــه عناصر الاحتجاج . وسيجد المعبر عن المطامح الديموقراطية مستمعين في كل مكان ، ان استطاع أن يتحدث ، وأراد ذلك . وسيجد في الطبقة العاملة خير مستمع ، يحتاج الى « المعـــارف السياسية الواسعة الحية »[٣] . اما المنبر الافضل ، فلا يمكن ان يكون غير صحيفة « تهتم بها روسيا كلها » (المرجع السابق) . والفضح السياسي الذي تقوم به مثل هذه الصحيفة هو

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٤٢
(٢) لينين ، » » » » » ٢٤٥
(٣) لينين ، » » » » » ٢٤٦

بحد ذاته **أداة قوية لتفسيخ النظام الخصم** » (المرجع السابق) ، وفك حلفائه عنه ، وبذر العداء او الحذر بين الشركاء في السلطة . ان الفضح السياسي يعتبر أعلان حرب على السلطة ، اعلانا على درجة من الاهمية والجدوى تزداد بقدر ماتكون الطبقة المعلنة للحرب اكثر عددا وعزة .

« ان الحزب ، الذي ينظم فضحا يهم الشعب كله ، هو وحده الذي يمكن ان يصبح في ايامنا طليعة القوى الثورية » (المرجع السابق) .

بيد انه ، ليصبح طليعة ، ينبغي ان يجر جميع الطبقات - وعلى رأسها الطبقة العاملة - ، وان يصبح في نظر الجميع **قوة سياسية**(١) .

ويصل هذا الجدل بين « المذهب الاقتصادي » وعبادة العفوية الى حد الهجوم ، مرات عديدة ، على انصار الارتباط **« الوثيق بالنضال البروليتارى »**، **« المتحمسين الى حد الهوس »** (المرجع السابق) . ولكن هذا بقصد تربية البروليتاريا ثوريا :

« فيم اذن ستتجلى الصفة الطبقية لحركتنا ؟ بالضبط في ان تنظيم هذا الفضح سيكون ثمرة عملنا جميعا ، نحن الاشتراكيين - الديموقراطيين ؛ في ان جميع المشكلات التي تثار خلال الاضطراب ستشرح بروح اشتراكية- ديموقراطية باستمرار ، دون اي انزلاق ، مقصود او غير مقصود ، لتشويه الماركيسة ، وفي ان هذا الاضطراب السياسي الواسع سيحركه حزب يوحد الهجوم ضد الحكومة في كل لايتجزأ باسم الشعب كله ، ويوحد التربية الثورية للبروليتاريا مع المحافظة على استقلالها السياسي في الوقت ذاته ، وقيادة

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٤٧ .

النضال الاقتصادي للطبقة العاملة ، والافادةمن الصدامات العفوية لهذه الطبقة مع مستغليها.. (المرجع السابق) » .

اما الانصار ، « **المتحمسون حتى الهوس** » المقصودون ، فقدذهبوا الى حد اتهام الايسكرا (أي لينين) بالتخلي عن وجهة النظر الطبقية ، واخفاء الصراعات الطبقية ، حين تؤيد الايسكرا ، مثلا ، حركة الشبيبة الجامعية ضد القيصرية . ويبين هذا الاتهام ان اصحابه لايملكون « **سوى فكرة شديدة الغموض عن المهام السياسية للاشتراكية - الديموقراطية** » . [١] الامر الذي يؤدي بلينين مرة اخرى ودوما الى طرح بعض الاسئلة المتصلة بالفلاحين ، وبصراع الطبقات في الريف [٢] . ان اعتبار هذه المواقف طمساً للوعي الطبقي لدى البروليتاريا - وتواطؤاً مع الليبرالية انما يؤدي بالضبط الى اخلاء الساحة امام الليبرالية ، وذلك بالتخلي عن التدخل في جميع المسائل وبالتخلي عن تحديد الموقف الاشتراكي - الديموقراطي وعن حلوله . وحين يعي الناس المتأثرون « بالمذهب الاقتصادي » هذا الاستسلام ، فانهم يرتدون الى الوسائل الارهابية !

وهكذا يتأرجح « المذهب الاقتصادي » و « النزعة العفوية » بين الموقف المتشيع والموقف الانتهازي ، بين اليسارية والانحراف اليميني .

منذ اولى كتابات لينين السياسية ، نجد عنده هذه الفكرة الاساسية . فحين تطرح مسألة سياسية (اذن جوهرية تاريخيا واجتماعيا) فان ثمة مواقف عديدة ممكنة . ويمكن ان تقترح حلول عديدة . واحد منها حسن ، صحيح ، حقيقي ، ويمكن ابانة ذلك بالتحليل الموضوعي . بيد ان جميع الحلول (الاناس

---

(١) لينين ، المرجع السابق المجلد الاول ، صفحة ٢٥٠

(٢) لينين ، » » » » » ٢٥١

الذين يقترحونها) تأتي ومعها حجج جيدة ، وكميات من البراهين الممتازة . وهكذا يمتزج الظاهر والوهم بالواقع ، بحيث لا يتوصل التحليل المنهجي دائما الى فرض نتائجه . ينبغي ان يصنع الناس - الجماهير - تجربتهم . وتعاقب الاحداث ، اي التاريخ ، هو وحده الذي يقرر . ومع ذلك فان التحليل الموضوعي يمكن ان تفلت منه حلقة ، عنصر . وبالتالي يمكن ان يظهر جديد يعدل معطيات المشكلات . فالسياسة اذن علمية وغير مؤكدة بآن واحد . وسيدهش وحده من ذلك من لم ير مهندسين ينشئون جسرا كبيرا او قاطرة جديدة ، ذلك ان أدق الحسابات لا تلغي ضرورة القيام بالتلمسات والمحاولات واختبارات المقاومة او السرعة .

وبصورة أدق ، في كل « منعطف » ، اي في كل وضع صعب من السياسة الثورية ، نشاهد ظهور وترسخ اتجاهات متعددة ، ومواقف او آراء متعددة . وهي تطابق امكانات سياسية متعددة . فهذه ليست « آراء » صرفة ، والوضع دوما على شيء من التعقيد والحركة ليتاح هذا التعدد في المواقف . كيف نحدد الحل ؟ أهو الوسط تماما بين الموقف اليميني ، التوفيق والتراخي - والموقف المتطرف « اليساري » ؟ ان هذا تفسير سطحي لتفكير لينين السياسي . ان نظريته ، لو نفذنا اليها ، يمكن ان تصاغ على الشكل التالي : ان الفروق والتباينات بين اليسارية المتطرفة والانتهازية هي ظاهرية بمعنى ما . فهما يتوافقان فعلا لأنهما يخطئان الحل الحقيقي . انهما يتوالدان اذن من بعضهما ، وكل منهما يؤدي الى الآخر ، ويسنده - ويرعاه . وتحالفهما يفرض نفسه بسبب طبيعتهما العميقة . وهكذا من الناحية السياسية « تتماس الأطراف »[1] . والجدل السياسي الذي قاده لينين يهدف دوماً الى استقصاء وكشف هـــذه الطبيعة الجوهرية ، المشتركة بين أخطاء

---

(١) لينين ، راجع : ما العمل ؟ المؤلفات المختارة ، المجلد الاول ، صفحة ٢٨٧

(« انحرافات ») الفكر والممارسة الثورية . وقد سبق لنا أن التقينا بآن وأحد بأمثلة عن هـذا الجدل ، وبصور عن المنهجية السياسية اللينينية وتأكيدها بالوقائع [1] .

ما العمل اذن لوضع حد « لبدائية » الحركة الثورية في روسيا ، وهي بدائية تغتذي من تنازلات بعضهم ومن الجمل المنمقة لبعضهم الآخر ؟ كيف نشفي مرض الحركة ، وهو مرض نمو لا مرض انحطاط ؟ [2]

إن المثقفين الثوريين ، الذين كانوا يريدون ادخال الفكر الاشتراكي الى حركة الجماهير ، يقعون بين أيدي الشرطة . فهل ينبغي بسبب ذلك ان نسخر من خرقهم ؟ او أن نتهم الجماهير؟ لا ، ان الوقائع تبين فقط انه ينبغي الانتقال الى درجة أعلى من العمل ومن التنظيم .

« ان العمال قادرون على اظهار طاقة وتفان خارقين في الاضراب ، في معركة بالشوارع مع الشرطة أو الجيش ، وهم قادرون (قادرون وحدهم) ان يقرروا مصير حركتنا كلهـا . غير أن النضال ضد الشرطة السياسية بالذات يقتضي صفات خاصة ، انه يقتضي ثوريين محترفين »[3] .

هذا هو الحل الذي نادى به لينين : انشاء جهاز من « الثوريين المحترفين » ، هو نواة ودرع ، لجهاز الحزب الجديد ، وذلك للنضال ضد الشرطة القيصرية .

وتدخل هؤلاء يمكن أن يضاعف جدوى العمل على الصعيد الاقتصادي

---

(١) بصورة خاصة بعد الاستيلاء على السلطة ، في مسألة الحرب ، ومسألة الفلاح « المتوسط » الخ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٥٣

(٣) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٦٣

والعفوي ، مثلا بأن يقودوا النضال ضد الشرطة أثناء الاضراب ، وضـد خنق الاضراب بواسطة الصمت او الانبـاء المتحيزة . ولكن تنظيم الثوريين يختلف مبدئياً اختلافاً جذرياً عن تنظيم العمال من أجل النضال الاقتصادي . فهذا الأخير يجب ان ينشأ انطلاقاً من الحرفة ، من المهنة ، بأوسع ما يمكن وبعلنية تامـة . وعلى العكس ، فان تنظيم الثوريين (الذين لهم مهام سياسية أكثر اتساعاًوتعقيداً من النضال الاقتصادي) ينبغي

« ان يضم بصورة رئيسية اناساً يكون العمل الثوري مهنتهم »

وسيكون لهذا التنظيم عدة صفات مميزة .

ففي المقـام الأول ، أمام مهامهم ومسؤولياتهم المشتركة ، يمحي **« كل تمييز بين العمال والمثقفين »** ، ومن باب اولى كل تمـييز مرده الى أصول هؤلاء الرجال ، والمهن والصنائع التي كانوا يمارسونها قبل دخولهم التنظيم .

وهكذا يتكون رجال أكفاء (وهم نادرون ، لأن « المواهب لاتظهر بالمئات [1] ») ، وفضلاً عن ذلك ، فهم رجال

« مجربون مهيأون مهنياً ومثقفوننتيجة ممارسة طويلة ، متفقون تماماً فيما بينهم »

وبدون مثل هؤلاء الزعماء والقادة السياسيين لا يمكن لأية طبقـة في المجتمع العصري أن تقود معركة بتصميم . وما دامت الشرطة تسجن وتقتل قادة الاشتراكية ـ الديموقراطية والطبقة العامـــلة ، فلابد من تدابير خاصة لتكوينهم وحمايتهم .

هؤلاء الاشخاص ، الذين تمثلوا المعارف النظرية وأضافوها الى الممارسة ،

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٧٣

سيقدمون للحركة العمالية « من الحفز الخارج» الذي تفتقر اليه[1] . انهم سيحققون، بشكل مشخص ، عملياً ، اندماج الفكر والعمل ، الاشتراكية والحركة العمالية ، المعرفة وحركة الجماهير .

وفي المقام الثاني ، وبالتالي ، فان منظمتهم ستكون خفية ، سرية ، إذن ضيقة . فمنظمة واسعة لا يمكنها أن تتصف بالطابع السري ، الذي بدونه لا يتصور النضال ضـــد الحكومة بعزيمة واستمرار [2] . وهذا لا يلغي في شيء ضرورة تنظيم الجماهير (نقابات وسواها) ، ولا ضرورة الاعمال الجماهيرية ، بالعكس ،

« فان تركز اكثر الوظائف سرية بيد منظمة الثوريين يغني ، بدل ان يضعف ، ويوسع عمل مجموعة من المنظمات الاخرى الـتي تخاطب الجمهور الكبير »[3] .

وستصبح الحركة غير قابلة لأن تقهر ، وذلك بالتفاعل بين نواة الثوريـين والجماهير . فهذه ستحمي على الدوام النواة ، الجهاز ، لأن كثيراً من الناس – في الطبقة العاملة وفي الطبقات الاخرى – يتحرقون رغبـة في العمل . كما ان الشرطة لن تتمكن ابداً من وضع اليد على مثل هذه المنظمة . واخيراً، وبالمقابل، فان الثوريين سيصبحون اكثر من خميرة ، سيصبحون منظمي الحركة .

ان المضللين (الديماغوجيين) وحدهم ، كما يقدر لينين ، سيزعمون ان لهذه المنظمة صبغة منافية للديموقراطية .

« لن أمل ابداً من ترديد ان المظللين هم شر اعداء الطبقة العاملة »[4]

---

(١) لينين ، » » ، » ٢٧٤

(٢) لينين ، » » ، » ٢٧٦

(٣) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٧٧

(٤) لينين ، » » » ٢٧٥

اما اولئك الذين يبشرون بصورة مجردة بتربية الطبقة العاملة ويجدبون على العامل او الفلاح ، فهم مربون لاثوريون .

« انتصبوا اذن لتتحدثوا في امور جدية ، ودعوا التربية للمربين ، لا للسياسيين والمنظمين »[1] .

ان المسائل السياسية جدية بشكل مريع . والمشكلة «التربوية» الحقيقية هي تكوين ثوريين من العمال ، يرتفعون ، فيما يتعلق بنشاطهم في الحزب ، الى مستوى المثقفين الثوريين (بانتظار ان يبلغوا المستوى ذاته في المجالات الاخرى ، وهو أمر اقل سهولة والحاحا ، وان يكن ضرورياً) . وهكذا فان عاملا متميزاً بكفاءاته ينبغي ان يجد الشروط التي تتيح له ان ينمي قابلياته ويطبقها ، ويوسع مجال عمله ومعارفه . ان عاملا موهوباً ينبغي ألا يقضي احدى عشرة ساعة في المصنع كل يوم .

« ينبغي ان نعنى بأن يعيش على نفقة الحزب ، وان يتمكن ، عندما تقتضي الحاجة ، من الانتقال الى العمل السري ، وتغيير مقره ، وبغير ذلك فانه لن يكتسب خبرة كبيرة ، ولن يوسع أفقه ، انه لن يستطيع ان يصمد ولو بضع سنوات ضد رجال الدرك »[2] .

هل الامر أمر منظمة للتآمر ؟

لا ، ولكنها منظمة للارتفاع بالنضال العفوي للبروليتاريا والجماهير الى مستوى صراع طبقي حقيقي[3] .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٨٢
(٢) لينين ، » » » ٢٨٤
(٣) لينين ، » » » ٢٨٦

اما بشأن الطابـع الديموقراطي ، كما يلح لينين، فاننا نرى الاشخاص ذاتهم يشكون من عدم الكتمان ، ويطالبون بالسرية الصارمة واصطفاء اعضاء الحزب ـ ويطالبون في الوقت ذاته بالعلنية الديموقراطية الواسعة فيما يتعلق بالحزب الثوري، وبالانتخاب (الذي هو منطقيا : الانتخاب العام ، المفتوح لجميع المناصب .) مما يفضي الى الاصطفاء الذي يقوم به رجال الدرك القيصري[1] .

« ان المبدأ الجدي الوحيد في شؤون التنظيم ، لمناضلي حركتنا ، ينبغي أن يكون : السرية الصارمة ، الاختيار الصارم للاعضاء ، إعداد ثوريين محترفين . وحين تجتمع هـــذه الصفات ، فسنملك شيئاً أكثر من الطابع الديموقراطي : الثقة التامة الأخوية بين الثوريين[2] » .

ان المسؤوليات تجاه الاعضاء الآخرين وامام الجماهير ، ستحل بصورة ديمقراطية حقة ، محل الاتجاه الديموقراطي « البدائي » للغوغائيين والسذج[3].

وهكذا ينتقل مركز الثقل لجميع المشكلات (بما فيها مشكلات الصحافة والصراع الاقتصادي وسواها) من الصعيد المحلي الى الصعيد الوطني . ويمكن اقامة « هيئة اركان » من الناس المحيطين بالشؤون ، كبيرة كانت ام تافهــــة ، الدبلوماسية والعسكرية والدينية والبلدية والمالية[4] . وبذلك يصبح ممكناً تحرير وتوزيـع صحيفة سياسية كبيرة لروسيا كلها (عنوان الفقرة الاخيرة من الكتاب) ، وهو الاسلوب الوحيد لحث الناس على التقدم « في جميـع **الطرق العديدة التي تقود الى الثورة** » (أشر تحتها لينين ، صفحة ٣١١) . وستعمل هذه الصحيفة كمنفاخ صهر ضخم ، يؤجج

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٩٠
(٢) لينين ، « « « ٢٩١
(٣) لينين ، « « « ٢٩٢
(٤) لينين ، « « « ٢٩٩

« كل شرارة في صراع الطبقات والنقمة الشعبية ليفجر منها حريقاً ضخما .. هذا ماينبغي ان نحلم به ».

اذ ينبغي ان نحلم ، وعدم التوافق بين الحلم والواقع ليس من السذاجة في شيء ، اذا كان من يحلم يؤمن بحلمه ، ويلاحظ الحياة ، ويعمل على تحقيق حلمه [1] .

فقد مر تاريخ الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية بعدة مراحل (نشوء، ونمو ، وأزمة) .

« اننا نعتقد جازمين ان المرحلة الرابعة ستفضي الى ترسيخ الماركسية المناضلة ، وان الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية ستخرج من ازمتها اقوى واكثر رجولة ، وان مؤخرة الانتهازيين ستحل محلها الطليعة الحقيقية الأكثر ثورية »

وهكذا تطرح المشكلة السياسية (الجوهرية لا السطحية) في صيغ ذات تعقيد كبير . اذ ان هذه الصيغ يؤثر بعضها في بعض دون انقطاع . والوعي ، الذي هو احدى هذه الصيغ ، ليس أقل نسبية وتغيراً من سائر الصيغ الاخرى . فدرجة الوعي ، والمعرفة ، والتنظيم، تعدل الوضع الذي تتجلى فيه . ان كتلة متحركة ومتمايزة (الطبقة العاملة ، سائر الطبقات العاملة ، الشعب) تشكل جزءاً لايتجزأ من مجتمع اكثر اتساعا . والجزء يؤثر في الكل كما يؤثر الكل في الجزء ، غير ان العلاقة بين الكل والجزء ليست علاقة بسيطة ، منطقية ، ناشئة عن جمع حسابي . فنحن بالاحرى امام مشكلات من الحساب التفاضلي والتكاملي ، على درجة من التعقيد غنية . فهل يتراجع الرجل السياسي ـ بالمعنى

---

(١) بيساريف Pissarev ، مشار اليه في لينين ، ما العمل ؟ المرجع السابق ، صفحة ٣١٤ . راجع ايضاً الدفاتر الفلسفية ، فقرة ذكرت فيما سبق عن الانعكاس .

اللينيني ـ امام هذه المشكلات ! هل يعلن انها غير قابلة للحل ؟ ان السياسة بالنسبة لبعضهم ، تقتصر على تقنية ، على اتجاه تجريبي ، على اللامعقول ، بل على الانتهازية . وبالنسبة للآخرين ينبغي عليها ان تتشبث بمبادىء بسيطة ، حسابية (مسائل الاغلبية) . اما لينين فيقف امام التشكل الاقتصادي – الاجتماعي والتاريخ كما يقف المهندس امام نهر جبار ، زاخر ، متعدد التيارات ، متعدد الصخب والجيشان ، يريد السيطرة عليه وحجزه وتوجيهه ، وهو يستخدم ، في الجسر او السد او الحاجز الذي يريد بناءه ، أدق اشكال الحساب ، دون ان يعفيه ذلك من الاحتكاك العملي بالارض والماء ومواد البناء . بل بالعكس

« ان السياسة اقرب الى الجبر منها الى الحساب ، وهي اكثر قرباً الى الرياضيات العالية منها الى الرياضيات الاولية [١] **»** .

ولم يعرف قادة الأممية الاشتراكية كيف يفهمون ذلك . فهم لم يروا ما هو جديد في الحركة العمالية ، في العالم ، في الوضع الدولي ، إعتباراً من مطلع القرن العشرين .

« لقد حبسوا أنفسهم في الأشكال القديمة وأرادوا أن يحبسوا فيها المحتوى الجديد . انهم لم يحللوا العلاقات الموضوعية التي كانت تتراءى ، مقتصرين على ترديد بدهيات منطقية قديمة ، مثل ثلاثة أكبر من اثنين»[٢] .

إن البروليتاريا ، وهي الطبقة الوحيدة الثورية حتى النهاية ، الطبقة الوحيدة القادرة على تغيير العالم ، (البنية الاجتماعية أولاً ، ثم العالم المعطى ، المادي ، عن طريق النمو غير المحدود للقوى الانتاجية) ، هذه البروليتاريا لها

---

(١) لينين ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الرابعة ، الجزء الخامس والعشرون ، صفحة ٢٩١ .

(٢) لينين ، المرجع السابق .

مصالحها الطبقية ورسالتهـــا التاريخية . فثمة اذن سياسة تمثلها بالضرورة، وبالتالي حزب ، هو أعلى شكل الوعي . وسياسة الطبقة العمالية ينبغي أن تكون، بل هي ، مستقلة عن سياسة أية طبقة أخرى ، وبخاصـــة عن سياسة الطبقات المسيطرة . لقد كانت الحركة العمالية ، عبر تاريخها ، وبحكم عفويتها ذاتهـــا ، تستخلص استقلالها وتؤكده . وقد أدرك وفهم ماركس وانجلز هـذه المرحلة « الـــتي كانت فيها الديموقراطية البورجوازية تخرج من باطنها الطبقة العاملة ، التي تحددت فيها أسس التكتيك والسياسة البروليتاريين[1] » .

ان الوضع الاقتصادي الذي وجدت فيه البروليتاريا قد دفعها بالضرورة الى الامام ، وحثها على النضال من أجل تحررها الكامل ، النهائي ، وكذلك من أجل التحرير التام للمجتمع بأسره .

وبعد، فان البروليتاريا وحدها لا تستطيع شيئاً. وقد سبق أن رأينا انها لا تستطيع شيئاً بدون المعرفة والعلم ، بدون « المرشدين المثقفين » من كبار النظريين، الذين حللوا مجموع المجتمع البورجوازي واكتشفوا قوانين نموه وانحطاطه وتحوله .

ولكن البروليتاريا لا تستطيع وحدها شيئاً، حتى بوصفها قوة اجتماعية، وحتى لو افترضنا أن لها أعلى وعي سياسي، أي الاشتراكية التي أصبحت قوة لكونها أصبحت هدف النضال السياسي للطبقة العاملة. لماذا؟ لأنها لم تكن أبداً، وليست الآن ولن تكون أبداً ، مجموع السكان ، ولا أغلبيتهم . لأنها تجد أمامها طبقات مسيطرة أقوى منها (تظل كذلك حتى عندما تتسلم البروليتاريا السلطة !) . ولأن جماهير واسعة من البورجوازية الصغيرة ، والفلاحين والحرفيين ، وصغار المنتجين، تعيش من حولها . وحين كان ماركس وانجلز يضعان للبروليتاريا مهمة تغيير العالم ، إنما

---

(١) مقال عن المراسلة المتبادلة بين ماركس وانجلز (مجموعة ماركس - انجلز - الماركسية) ، المنشورات الاجتماعية ، صفحة ٦١ .

كان ذهنها ينصرف بخاصة الى العالم البورجوازي ، الى البورجوازية . ولكن مهمة البروليتاريا هي أضخم من ذلك بكثير ، فاليها يعود هذا الشرف الثقيل العبء المحفوف بالمخاطر : تغيير البورجوازي الصغير .

إنها في حاجة الى حلفاء . أي حلفاء ؟ هنا تصبح المسألة دقيقة ، والتحليل الموضوعي للعلاقات الطبقية يتيح وحده الجواب .

إن البروليتاريا لا تستطيع أن تنفصل عن الديموقراطية . إنها في حاجة الى الحريات الديموقراطية لتناضل ، وهي إنما تناضل من أجل توسيع الديموقراطية وتعميقها . لأن الديموقراطية ليست شيئاً معطى ، ثابتاً ومتيبساً ، كياناً . إنها شيء متحرك ، وهي ، كأي واقع ، شيء ظاهر كثيراً أو قليلا ، عميق كثيراً أو قليلًا ، متناقض كثيراً أو قليلًا . والبروليتاريا في حاجة الى الديموقراطية ، الى أعمق ما يمكن من الديموقراطية . بيد أن البورجوازية تريد الديموقراطية ، او ضرباً من الديموقراطية . ، وبصورة متفاوتة مع ذلك ، فبعض فئات أو جماعات البورجوازية (« الكاديت » في روسيا القيصرية) يقنعون بحد أدنى ، بدستور يوازن سلطة الطبقات الأكثر رجعية منهم (الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين ، المالكين العقاريين ، في روسيا « المئة السود[2] » و « التشرينيين » ، والقوميين الروس – الكبار غير أنه توجد أيضاً فئات أو جماعات من البورجوازية تسمي نفسها ، وهي كذلك ، « ليبرالية » ، بله « تقدمية »[1] . فهل تبحث البروليتاريا عن حلفاء لها في البورجوازية الليبرالية ؟

في أيام ماركس وانجلز ، وقبلها في الثورة الديموقراطية البورجوازية الفرنسية ، لم يكن الجواب آنذاك مؤكداً . كان يمكن الاجابة : « نعم » ،

---

(١) لينين ، تكتيكان ، في المؤلفات المختارة ، المنشورة باللغة الأجنبية ، موسكو ، ١٩٤٨ ، المجلد الاول ، صفحة ٥١٨

(٢) المئة السود : عصابات ارهابية شكلتها الشرطة القيصرية عام ١٩٠٥ لمكافحة الحركات الثورية والعمالية . (المترجم)

وفعلا فان الانتهازية الاشتراكية ـ الديموقراطية والمنشفية اتبعتا هـذا السبيل . أما لينين فقد أجاب بـ « لا » . ونحن نعلم من قبل أن تلك هي احدى صفات لينين الفذة . لا ينبغي استبعاد التحالفات **الانتخابية** الموقتة مـع الاحزاب والفئات البورجوازية الديموقراطية ، على الأقل مع الأكثر تقدما (**الترودوفيك**) . بيد أن هؤلاء ليسوا حلفاء **سياسيين** . لماذا ؟ لأن **أهدافهم** السياسية تختلف جذريا ، « موضوعياً » ، عن أهداف البروليتاريا .

« ان ما يضفي ، من بين عوامل أخرى ، الطابع البورجوازي على الثورة الديموقراطية ، هو أن طبقات مختلفة ، وجماعات متنوعة ، واوساطاً اجتماعية تعترف تماماً بالملكية الفردية وبالاقتصاد التجاري ، وهي عاجزة عن الخروج من هذا الاطار ، تتوصل بقوة الاشياء الى الاعتراف بعجز حكم الفرد والنظام الاقطاعي » . ومهما يكن فان هـــذه البورجوازية ، « **غير المنطقية والجشعة ، لا ترضى بشعارات الحرية الا جزئياً ورياء[1]**» .

وهكذا يتجلى بوضوح، منذ الصراع من أجل الديموقراطية **البورجوازية**، الفرق الجذري بين نضال العمال ونضال البورجوازية من أجل الحرية ، بين الطابع الديموقراطي البروليتاري والطابع الديموقراطي الليبرالي .

« ان الطبقة العاملة وممثليها الواعين يتقدمون ويدفعون الى الامـام هذا النضال ، دون خشية السير به الى النهاية ، بل ويطمحون الى تجاوز أبعد هدف من أهداف الثورة الديموقراطية [2] » .

إذن ما الذي تريده البورجوازية ، بما فيها الليبراليون؟ استخدام الشعب ، أي البروليتاريا ـ استخدامها لاسقاط القيصرية ـ ومن ثم « **قطف** الثمرة » ، الاستئثار

---

(١) لينين ، المرجع السابق

(٢) » » »

بالقدر الأعظم من السلطة ، وترك أقل ما يمكن للطبقة العامـلة ، وتنمية الرأسمالية.[1] ومعذلك فان الفكرة القائلة إن الثورة الديموقراطية البورجوازية لا تعبر عن مصالح البروليتاريا هي فكرة لامنطقية، اذ أن الطبقة العمالية في روسيا (القيصرية) تعاني من قصور نموها أكثر مما تعاني من الرأسمالية[2] .

على م يتوقف إنجاز الثورة، أي تصفية ماض تعرف البورجوازية ايضاً كيف تستفيد منه ؟ على هـذا : الى من تنتقل السلطة ![3] : إن البورجوازية الروسية تريد التسلط ، تاركة للطبقة العاملة حرية ... الانضمام الى المعارضة . وعقب الثورة مباشرة ، ستندفع البورجوازية الى عقـد تحالف مع الرجعية (المرجع ذاته) .

« ان البورجوازية الفرنسية لعام ١٧٨٩ لم تتخل لحظة عن حلفائها الفلاحين ، اذ كانت تعلم ان سيطرتها تقوم على أساس الغاء الاقطـاع في الريف ، وخلق طبقة حرة من الفلاحين المالكين .

أما البورجوازية الالمانية لعام ١٨٤٨ فقد خانت، دون اي وازع، الفلاحين ، حلفاءها الطبيعيين ... ان الابقـاء على الحقوق الاقطاعية ، وتكريسها تحت ستار شراء وهمي ، تلك كانت نتيجة الثورة الالمانية لعام ١٨٤٨ . لقد تمخض الجبل عن فأر ».[4]

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٤٤٧

(٢) » » » ، صفحة ٤٤٨

(٣) » » » ، صفحة ٥٢٦

(٤) ماركس : مقال في صحيفة الراين الجديدة ، مشار اليه في لينين ، المرجع السابق صفحة ٥٢٧

لقد تلاشت البورجوازية ، بوصفها طبقة فاعلة ، ثورية ، في القرن التاسع عشر . وهذه الظاهرة التاريخية تنذر بموتها النهائي [1].

هل تبحث البروليتاريا اذن عن حلفائها في « الشعب » بمجموعه؟ ـ بيد أن الشعب ، شأنه شأن البروليتاريا ، ليس كتلة غير متمايزة . بل إن في الشعب ، بوصفه هذا ، **صراعات طبقية**. وقد حارب ماركس على الدوام الاوهام المتعلقة « بوحدة » الشعب . ان هذه الكلمة لا يمكن أن تطمس الفوارق ، ولا أن تحل محل تحليل العناصر التي تكون الشعب ، إذ أن بعضها أهل للعمل « الثوري » المحدود ، وبعضها الآخر ـ وهم البروليتاريون وحدهم ـ أهل للعمل « الثوري » الكامل .

وينتج من تحليل الثورة الفرنسية ، المثل الكلاسيكي للثورة الديموقراطية البورجوازية التامـــة ، أن الصراع الطبقي للفلاحين ـ الذي تحركه وتقوده البورجوازية ـ ، وتحويل العلاقات الاجتماعية وعلاقات الملكيـــة في الريف ، **كانا جوهريين** .

وبالتالي تجد البروليتاريا الروسية نفسها أمام أحد أمرين :

فاما أن تشارك ، تحت قيـــادة البورجوازية ، في ثورة ديموقراطية بورجوازية تظل ناقصة غير منجزة ، سطحية ، تلغي بصورة غير كاملة الاقطاعيين وعلاقات الملكية التي تختص بهم ، تمنح السلطة للبورجوازية توفيقـاً مع الحكام السابقين ، وتتيح نمو الرأسمالية ، دون أي كسب آخر للطبقة العاملة غـير حرية سياسية مشكوك بها وسرعان ماتسحب منها ...

واما أن تحل ، في الثورة الديموقراطية البورجوازية نفسها ، محل البورجوازية كقوة رئيسية ، وتقوم إزاء الفلاحين بالدور الذي كانت تقوم به البورجوازية

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٦١٠ مسائل متنازع عليها .

حين كانت تعمل ثوريا، وتدفع الى أبعد مايمكن، لاتحويل المؤسسات السياسية (البنى الفوقية) وحسب ، بل تحويل العلاقات الاجتماعية وعلاقات الملكية .

فبدلاً من التحالف السياسي مع البورجوازية الليبرالية ، يقول لينين إذن بالتحالف مع الفلاحين .

ويستلزم ذلك تغيراً جذريا في التوجيه والشعارات السياسية . لقدحققت البورجوازية الثورية الفرنسية دكتاتورية (اليعاقبة) ضد الاقطاعيين ، لصالح الفلاحين وصالحها الخاص . اما الليبراليون وحلفاؤهم الانتهازيون والمنشفيك فيريدون دستوراً ديموقراطياًيقيم دكتاتورية البورجوازية ،المتحالفةمع الاقطاعيين، ضد البروليتاريا وضد جمهرة الفلاحين . اما الثورة الديموقراطية **البورجوازية** فينبغي ، في نظر لينين ، ان تقوم على **دكتاتورية (ديموقراطية) للبروليتاريا وطبقة الفلاحين** ، ضد الاقطاعيين وضد البورجوازية .

شعار بدا مذهلا وفاضحاً لماركسيي ذاك الوقت « الارثوذكس » رغم انه انما ينتج عن التحليل الماركسي للعلاقات الطبقية .

وماذا يريد **الفلاحون** ؟ الارض . ولاعطائهم الارض ، لانتزاعها من الاقطاعيين ، ثمة تدبير يفرض نفسه : تأميم الارض . ان **الفلاحين** يطالبون به ، وهم يمزجون بشكل مشوش مطالبهم بذكريات الشيوع الزراعي، وباشتراكية الارض واخضاعها للبلديات .

بيدأن تأميم الارض هو، موضوعياً، تدبيرديموقراطي**بورجوازي** وقد بين ماركس ذلك ، وكذلك الاقتصاديون « الراديكاليون » الانجليز، وطالبوا به . اذ ان تأميم الارض لايلغي ابداً الانتاج التجاري، ولاشروط الرأسمالية. انه بالعكس، يلغي عقبات نمو الرأسمالية هذا، انه يعجل به. ولكنه يهز مع ذلك البناء الكامل للطبقات المسيطرة ولعلاقات الملكية الخاصة بها. انه يقتلع أسس سلطة الاقطاعيين

ذاتها ، ويفسد الوفاق بينهم وبين البورجوازية . انه يرتبط بانتصار الثورة الديموقراطية انتصاراً كاملا .

ان شعارات الشعبيين، والاشتراكيين ـ الثوريين (وكذلك المنشفيك)، المتعلقة باشتراكية الارض او تمليكها للبلديات ، هي مشوشة ، خادعة ، وكاذبة من الناحية الموضوعية . انها تلبس لباس الاشتراكية ماهو ليس سوى الحد الاقصى للثورة الديموقراطية . انها تكرس ، على مستوى القرية ، سيطرة الفلاح الميسور (البورجوازية الريفية) .

ومن هنا استنتج لينين النتيجة السياسية :

« ان علينا ، في كل نشاطنا ، وحتى عندما لانتوجه الا الى بروليتاريا المدن ، ألا نهمل المسألة الفلاحية . . اننا نساند التمرد الفلاحي . . بما في ذلك ، مصادرة الاراضي ، ولكننا لانساند ابداً ، جميع انواع المشاريع البورجوازية الصغيرة . اننا نساند الحركة الفلاحية بقدر ماهي ديموقراطية ثورية . بيد اننا نستعد (فوراً ، بلا ابطاء) لمحاربتها حين تصبح رجعية ، معادية للبروليتاريا . ان جوهر الماركسية نفسه يقوم على هذا الهدف المزدوج ، الذي يمكن فقط لأناس لايفقهون شيئاً في الماركسية ان يبغوا تبسيطه اوتسطيحه الى حد جعله هدفاً وحيداً وبسيطاً »[1]

وماذا بعد ذلك ؟ وما أنماط توزيع الاراضي ؟ لامشاريع قبل أوانها .

« ان الأمر الجوهري ، هو ان تعرف الطبقة الفلاحية كيف تدرك وتعمل على تقويض النظام القديم تقويضاً ثورياً (المرجع نفسه) **» .**

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٥٣٩ — ٥٤٠ موقف الاشتراكية - الديموقراطية من الحركة العمالية .

ان المهم هو اللجان الفلاحية الثورية . وبعد ذلك ؟ سنرى . بيد ان ماسنراه أساساً هو نمو الصراع الطبقي في الريف . فطبقة الفلاحين ، الموحدة ضد النظام القديم والاقطاعيين ليست طبقة غير متمايزة وستزيد التدابير الديموقراطية (التأميم وسواه) الفوارق ، وبالتالي صراع العمال الزراعيين وجزء من الفلاحين ضد البورجوازية الريفية .

« **سنسير مع البروليتاريا الريفية .. وبعدان تتم الثورة الديموقراطية نسلك مباشرة ، بقدر ماتمكننا قوانا بالضبط ، بقدر ماتملك البروليتاريا الواعية المنظمة من قوى ، طريق الثورة الاشتراكية . اننا مع الثورة غير المنقطعة** (المرجع السابق) » .

وهكذا فان نضال البروليتاريا ، النضال الديموقراطي ، « يكشف » الصراع الطبقي الجديد « **الذي ينضج في اعماق الطبقة الفلاحية**[1] » . اما المشاريع المسبقة ، قبل ملاحظة ودراسة ماسيتكشف على هذا النحو ، فهي طوباوية وتخلط عناصر ينبغي التمييز بينها : الديموقراطي والاشتراكي ، البروليتاري والفلاح .

في تلك الفترة اذن (١٩٠٥) لم يكن مطروحاً بشكل مشخص ، لا مسألة الفلاح المتوسط ـ ولا مسألة انماط الاصلاح الزراعي . لقد كان المفهوم النظري للتأميم هو وحده الذي أخذ يبرز من بين المشاريع الاخرى .

وانتقل شعار « تأميم الارض » الى المقام الاول ، بوضوح اكبر بكثير ، في عهد « الرجعية الستوليبينية » التي يصفها لينين (كما نعلم من قبل) بأنها محاولة « ثورة من فوق » .

ولم يتغلب ستوليبين بالقوة المادية وحدها ، بل ايضاً :

« **لأنه أدرك تماماً الحاجة الأكثر إلحاحاً للنمو الاقتصادي** »[2] .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٥٤١ .

(٢) لينين ، المرجع السابق .

أعني الضرورة الملحة لتقويض الشيوع الفلاحي (مير) والشكل السابق لملكية الارض ، من أجل « **تمهيد الطريق امام الرأسمالية الزراعية**[1] » . وتفضي الثورة (وفشلها) الى هذا التحول . فالحكم الفردي ، الذي كان يستند في السابق الى بقايا القرون الوسطى ، يقوضها بسرعة محمومة . لقد أدرك ان عليه أن يحاول حل

« **التناقض الذي يفسر اكثر من سواه الثورة الروسية : اشكالاً من الملكية العقارية أخنى عليها الدهر ، ريفاً لايزرع ، ورأسمالية صناعية ومالية متقدمة كثيراً** »[2] .

ويعرف لينين جيداً ان هذه الملاحظات ستذهل محاوريه ، الذين سيقولون له آنذاك : اذن ، فانت من انصار التشريع الزراعي الذي أصدره ستوليبين ؟

« **هدئوا روعكم . اننا قطعاً ضدجميع أشكال ملكية الارض القديمة في روسيا ، الاقطاعية والمجزأة** » (المرجع السابق) .

ماذا فعل ستوليبين ؟ لقد كيَّف الملكية العقارية للرأسمالية ، وسبب خراب الجماهير الفلاحية ، وصادرها لحساب الرأسمالية الزراعية المتحالفة مع الاقطاعيين السابقين ، الذين حاولوا هم ايضاً ان « يتكيفوا » . وفي الوقت ذاته قوض ستوليبين بقايا الشيوع والاوهام المرتبطة بهذه البقايا . انه تشابك بين التناقضات لا يمكن تصديقه تخبط فيها الليبراليون بشكل رديء ، اذ ارادوا تسوية كل شيء والتوفيق بين الاشياء كلها . ان الرجعية والبروليتاريا تريدان الشيء نفسه .

« **ان للثورة البورجوازية الروسية هذه الخاصة الفريدة ، وهي**

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٥٦٩ - ٥٧٠

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٥٧٠ ، ملاحظات سياسية

ان السياسة الثورية ، في هذه المسألة الجوهرية من مسائل الثورة ، المسألة الزراعية ، يحققها أكثر الرجعيين تطرفاً ، والفلاحون الى جانب العمال »[1].

ولكن لا بطريق واحدة . فبعضهم يريدون اصلاحاً كلياً لاشكال الملكية القديمة لمصلحة الطبقة الفلاحية ، ويريد الآخرون تكييف هذه الاشكال لمصلحة الطبقات الحاكمة . فبعضهم يصادر الفلاحين ، والآخرون يريدون مصادرة المالكين .

« اننا مع التأميم البورجوازي للأرض ، وهو الشعار المنطقي الوحيد للثورة البورجوازية ، والتدبير العملي الوحيد الذي يوجه هذا التقويض التاريخي الضروري ضد كبار المالكين العقاريين . . »

« دكتاتورية ديموقراطية » ، كلمات (يضع لينين بسخرية تحتها خطاً أكثر من مرة) ستقيم قيامة المرائين وتجعلهم يصرخون .

انهم ، بحكم كونهم غير معتادين تماماً على استعمال المفاهيم ، او بالأحرى هم معتادون على استعمالها بصورة منطقية وعلى عزلها ، يرون ان الدكتاتورية تتعارض ، بكل بساطة ، مع الديموقراطية .

« ان مفهومي الدكتاتورية والديموقراطية ، من وجهة النظر البورجوازية عامة ، ينفي احدهما الآخر . فالدكتاتورية تقتصر على السلطة الشخصية ، دون تمييز الفارق بين دكتاتورية طبقة ودكتاتورية فرد ، بين الدكتاتورية الديموقراطية والدكتاتورية الاشتراكية (للبروليتاريا) »[2] .

وهما اذن شيئان مختلفان ، ينبغي التمييز والفصل بينهما بعناية .

وما من شك (وهو صحيح في الحالة المنطقية ، اذ ان الديالكتيك لا

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٥٧٠ ، ملاحظات سياسية .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٥٢٢ وما بعدها : تكتيكان .

تهـــدم المنطق) في ان الدكتاتورية والديموقراطية تتعارضان . فالدكتاتورية « الصرفة » لا تتوافق والديموقراطية « الصرفة » . ولكن لننظر عن قرب اكبر ولنتأمل المحتوى ، لنحلل المفاهيم المجردة والتناقضات الداخلية التي تنطوي عليها ، اي التي هي مضمونها . ان الديموقراطية « الصرفة » ، التي تعرف بالحرية الكاملة، تنفي وجود الدولة ، والديموقراطية « الصرفة » إذن مستحيلة . وفي آخر المطاف ينفجر المفهوم ويفقد معناه. كما ان الدكتاتورية « الصرفة » ، اي العنف الصرف ، والسلطة الشخصية الصرفة بدون أي أساس ، تبدو مستحيلة . فالدكتاتورية الشخصية للأباطرة الرومان ، مثلاً ، كانت امتداداً وسعياً لتثبيت دكتاتورية مالكي « الاقطاعات الواسعة» ومالكي الرقيق. لقد كانت تبقي من الناحية الشكلية على مؤسسات جمهورية (مجلس الشيوخ وسواه) .. كهيئات للحكم والادارة .

لنفحص المفاهيم اذن في مجال صلاحها . فنجد أن مفهومي « الديموقراطية » و « الدكتاتورية » المتناقضين ، يلتقيان ، ويكونان مظهراً واحداً لمفهوم واحد ، هو مفهوم السلطة بوصفها دوماً سلطة طبقية ، تمارسها **طبقة او عدة طبقات** على وضد طبقة او طبقات متعددة . مما ينجم عنه الحرية والديموقراطية لتلك الطبقة ، والدكتاتورية ضد الطبقة الاخرى .

ولا حاجة بنا لأن نذهب بعيداً لنجد في التاريخ مثلاً بارزاً يوضح الدكتاتورية الديموقراطية ، اذ التقينا به من قبل : لقد مارس الثوريون الفرنسيون **دكتاتورية ديموقراطية** (اي لمصلحة مجموع المجتمع ، الطبقة الثالثة ، الطبقة الفلاحية والبورجوازية ، وبالتالي تساندها هذه الطبقات بشكل اجمالي) على الاقطاعيين وحلفائهم . لنستبعد الظواهر والظاهرات الثانوية او العارضة ، التي استغلها المؤرخون الرجعيون : الاختلافات بين الثوريين ، فئات من البورجوازية يمثلها الجيروندون او اليعاقبة ، الثورات الفلاحية ، ثورات الفلاحين الملكيين ، والعنف . يبقى الجوهر السياسي

للثورة الديموقراطية البورجوازية وهو : الدكتاتورية التي لا غنى عنها لاستئصال الاقطاعية ومخلفاتها ، وتقويض آلية الدولة التي كانت تكرسها ، واعادة بناء الدولة ، ومصادرة اراضي الاقطاعيين ، وإلغاء حقوقهم ، وسوى ذلك .

وعلى النحو ذاته فان النصر الحاسم على القيصرية يتطلب بالضرورة دكتاتورية :

« يترتب عليها بالضرورة ان تستند الى القوة المسلحة ، الى تسليح الجماهير ، الى التمرد ، لا الى هذه المؤسسات او تلك المكونة «بصورة مشروعة» « بالطريق السلمي » . انها لا يمكن ان تكون الدكتاتورية ، لأن التحويلات الضرورية قطعاً ومباشرة للبروليتاريا والطبقة الفلاحية ستسبب مقاومة يائسة من جانب المالكين العقاريين وكبار البورجوازيين والقيصرية . وبدون دكتاتورية يستحيل تحطيم هذه المقاومة وصد هجمات مناهضة الثورة . بيد انها لن تكون ، بداهة ، دكتاتورية اشتراكية ، بل دكتاتورية ديموقراطية »[1] .

ان ثمة مفارقة (ظاهرية) في النظرية اللينينية عن دكتاتورية تمارس على البورجوازية في الثورة الديموقراطية البورجوازية . نعم ، يجيب لينين ، غير ان هذا التناقض انما ينشأ عن الوقائع نفسها : عن التحليل الموضوعي للعلاقات الاجتماعية ، للعلاقات الطبقية ، للاهداف السياسية ولمحتوى هذه المفاهيم . والطبيعة الطبقية للحكم المطلق القيصري تفسر هذا التناقض . وينبغي إسقاطه لصالح النمو الاجتماعي بكامله . بيد انه ، وخاصة منذ عهد ستوليبين ، يحالف البورجوازية الكبيرة ، والبورجوازية الكبيرة تميل الى التوفيق .

« اننا نستطيع ، دون ارتكاب خطأ جسيم ، حين نصنف الفئات

---

(١) لينين ، المرجع ذاته ، ص ٥٤ .

الاجتماعية الهامة حسب ميولها السياسية ، ان نوحّد الديموقراطية الثورية والجمهورية مع كتلة الفلاحين ...»[1]

لأن الطبقة الفلاحية ، في الوقت الراهن ، رغم عدم استقرارها والفروق الداخلية فيها ، تهتم بالاستمرار المطلق للملكية اقل مما تهتم بمصادرة أراضي الاقطاعيين ، التي هي شكل لتلك الملكية .

ان الدكتاتورية الديموقراطية ، التي تمثل مصالح النمو الاجتماعي في مجموعه ضد فئة محدودة جدا (من المالكين العقاريين،البورجوازية الكبيرة،تستطيع، « في أفضل الاحوال » ، القيام باعادة توزيع الملكية العقارية لصالح الفلاحين ، تطبيق نهج ديموقراطي متماسك وعميق،بما في ذلك اعلان الجمهورية، واستئصال بقايا الاستبداد الاسيوي من الريف والمعامل ، وتحسين وضع العمال ، ورفع مستوى معيشتهم ،« وأخيراً وليس آخراً » إحراق اوربا والعالم .

«ان هذا النصر لن يجعل ابداً من ثورتنا البورجوازية ثورة اشتراكية ، ان الثورة الديموقراطية لن تخرج مباشرة عن اطار العلاقات الاجتماعية والاقتصادية البورجوازية »[2] .

الا انها ستضع نهاية للتناقض العميق بين « البنية الفوقية » البدائية المجتمع والقوى الحية . وعلى البلاشفة أن يصبحوا بعاقبة الثورة الروسية[3] ، ببرنامج جديد ،وشعارات جديدة ،وطرق جديدة . اما المنشفيك فهم سيكون لهم دور الجيرونديين في هذه الثورة[4] .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٤٤٥

(٢) لنين ، المرجع السابق صفحة ٤٥٥

(٣) لينين ، المرج السابق ، ص ٤٥٧

(٤) لينين ، المرجع السابق ، ص ٣٨٣ .. الخ .

ان الدكتاتورية الديمقراطية الثورية للبروليتاريا والفلاحين سيكون لها ماض ومستقبل . اما الماضي : فهو الحكم الفردي ، القنانة ، الامتيازات ، الملكية . وأما المستقبل : فالنضال من أجل الاشتراكية ، على الطريق المؤدي من الجمهورية الديمقراطية البورجوازية ـ الصغيرة الى الاشتراكية .

« ان الاشتراكي ـ الديموقراطي ينبغي ألا ينسى ابداً ، في أية لحظة ، صراع البروليتاريا الطبقي من اجل الاشتراكية ضد البورجوازية والبورجوازية الصغيرة ، مهما تكونا ديموقراطيتين ، ومهما تكونا جمهوريتين »[1] .

ومن هنا ضرورة وجود حزب اشتراكي - ديموقراطي متميز ومستقل ، مفعم بقوة بالروح الطبقية ، ولكنه ينهض بمهام سياسية مشخصة في وسط مشخص . وبعد سقوط القيصرية .

« سنفكر في الدكتاتورية الاشتراكية للبروليتاريا » ،

أما اليوم ، فان الحزب الطبقي الطليعي لا يستطيع ألا يعمل في سبيل الانتصار النهائي على القيصرية ، عن طريق الدكتاتورية الثورية [2] .

لقد جرت المعركة السياسية بين « المنشفيك » و « البولشفيك » حول مسائل **تنظيمية** . (هل يترتب على كل عضو في الحزب ان يناضل فعلا او يكتفي بالمساهمة المالية ؟) . ولا شك أن هذه المسألة العملية كانت أساسية . بيد أنها كانت تغلف – والى حد ما تخفي – اختلافات **نظرية** عميقة ومهيأة لأن تزداد عمقاً .

وقد أشار اليها لينين في النشرة **« خطوة الى الامام ، خطوتان الى**

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٤٨٣ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٤٨٣ – ٤٨٤

الوراء[1] ». فقد كشفت الصدامات التي جرت في المؤتمر عن اختلافات كامنة، لا حول المسألة الزراعية وحسب، بل حول مسألة الدكتاتورية. فبعضهم يميلون الى اعطاء المبادىء الديموقراطية قيمـــة مطلقة، وآخرون (اصحاب الشرارة – الاسكريون – ، اللينينيون ،ومعهم في ذلك الوقت بليخانوف) يعارضون التفسير المجرد للنهج الديموقراطي . فالمبادىء الديموقراطية ينبغي ان تخضع لمصالح الثورة الاشتراكية ، البروليتارية ، وهي ذات قيمة نسبية، لا مطلقة . والمسائل السياسية تطرح لا في الحياة السياسية العامة وحسب ، بل داخل الحزب . وباسم النهج الديموقراطي المجرد يقف الاتجاه المنشفيكي ضد الانضباط في الحزب ، وضد المركزية التي لاغنى عنها لوجود قيادة سياسية . إنه يقيم تعارضاً بين الديموقراطية والمركزية . وهذا (كما هي العـادة) بحجج خاصة ، هي في الظاهر عميقـة ، ثورية ، بروليتارية . فيؤكد احد المنشفيك[2] ، انه ما دام الحزب الاشتراكي – الديموقراطي هو حزب الطبقة العمالية ، حزب طبقي ، فانه لا يستطيع ان يترك الطبقة خارجـاً عنه ، إنه لا يستطيع أن يقيم فارقـاً بين أعضاء الطبقة المنتمين للحزب والأعضاء غير المنتمين اليه . وقد أجاب لينين أنه ينبغي الالتفـات الى الفوارق في الوعي والنشاط في داخـــل الطبقة ، وان تعريف الاشتراكية – الديموقراطية بأنها حزب الطبقة العمالية إنما يعني أن الطبقة ستعمل تحت قيادة الحزب ، وان الحزب – الذي هو طليعتها – لا ينصهر بها ولا ينحل فيها . إنه لوهم خطير أن نتصور أن الطبقة ،في ظل الرأسمالية ،ستبلغ درجة الوعي والنشاط التي بلغتهـــا طليعتها . بينما التنظيم النقابي نفسه ، وهو اكثر بدائية ،وانفتاحاً ، لا يضم الطبقة العمالية .

---

(١) سابقة على : تكتيكان . وقـــد غيرنا الترتيب الزمني لأسباب تتعلق بتسيير عرض موضوع الدكتارية (الذي لم يستنفد بعد) .

(٢) اكسلرود Axelord

« اننا نخدع انفسنا ، ونغمض الأعين عن جسامة المهام ، لو نسينا الفرق بين فرقة الطليعة والجماهير التي تدور حولها ، لو نسينا الالتزام الدائم المترتب على فرقة الطليعة ، برفع فئات أوسع فأوسع الى هذا المستوى المتقدم[1] » .

وهكذا تتذرع المنشفية بالطبقة ، وحزب الطبقة ، لتبرير الميوعة العضوية ، واختلاط العضوي بالفوضى .

إن موضوع البحث هو إذن دور الحزب في تنظيم الطبقة العمالية في الصراع من أجل الاشتراكية ، وفي ممارسة الدكتاتورية البروليتارية . فالمنشفية « تخشى دكتاتورية البروليتاريا[2] » ، ولهذا تحول الديموقراطية الى شيء مطلق ، وتجريد « صرف » .

ان المذهب الذاتي يكمن دوماً في الأساس الايديولوجي للاتجاه المنشفيكي . ففي نظرهم يكفي ان يحس المرء ، او يفكر ، او يعتقد ، او يعتبر نفسه اشتراكياً لتكون له صفة الاشتراكي – الديموقراطي . واذ يرد عليهم : « الممارسة – العمل ! » ، يجيبون : اذن كل مشارك في الاضراب هو عضو في الحزب . الأمر الذي يؤول الى اعتبار كل اضراب تعبيراً واعياً كلياً – اي المعرفة – عن التسلسل التاريخي الذاتي ، وبالتالي تقمص الحزب في الطبقة العمالية ، بحيث نجهز بضربة واحدة – على الورق على المجتمع البورجوازي ! والواقع ، ان المنشفية والبلشفية تتكلمان لغتين مختلفتين ، إن فلسفياً او سياسياً[3] .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٣٥٥ « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء » .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٣٨٥

(٣) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٣٨٧ – ٣٨٨ ، « النقاش بين الشكل والمحتوى » .

في هذا الكتاب الصغير إذن قدم لينين، مستلهما ملاحظات ماركس وانجلز، مذهبه في الحزب الثوري المركزي المنضبط للطبقة العاملة.

ان بين الحزب والطبقة فرقاً، ووحـــدة، وتفاعلا مستمراً. والحزب الماركسي هو بآن واحد جزء من الطبقة العاملة — وطليعتها، مزود بهذا السلاح الجوهري: النظرية، أي معرفة قوانين النمو والتحول الاجتماعي. والنظرية — المعرفة - عـــبر الحزب، ترشد وتقود الصراع العمالي. ان الحزب لا يستطيع شيئاً بدون الطبقة، والطبقة لا تستطيع شيئاً كثيراً بدون الحزب. غير ان علاقة الحزب بالطبقة لا تتحدد بصورة تجريبية، بل تتحدد ديالكتيكياً بوصفها علاقـــة الوعي العفوي بالوعي الذي تشكله المعرفة — علاقـــة غريزة الطبقة بالعلم.

والحزب، باعتباره فرقة طليعية، ينبغي أن يكون الانضباط فيه ملزماً لأعضائه. وبصدد الحديث عن الحزب ينبغي استخدام تعابير غير ذات معنى عندما يتعلق الامر بالجماهير الشعبية (حتى الثورية) او بالطبقات كتعابير: وحدة الارادة، الوحدة المذهبية، وحدة الانضباط. ودعامة هذه الوحـدة مزدوجة وواحدة: معرفة وإرادة تحرير الطبقة العاملة والمجتمع بأسره.

وتوجد حول الحزب، وينبغي أن توجد، منظمات، عديدة وواسعة ما أمكن، بعضها ثوري وبعضها الآخر غير ثوري. كما توجد الجماهير غير المنظمة التي تتبع الحزب. غير أن حدود الحزب ينبغي ألا تظل غير محددة، وإلا فقد دوره بوصفه شكلاً أعلى للتنظيم، مزوداً بالنظرية الثورية، وبتجربة الحركة الثورية[1]. ومحتوى هذا الشكل هو الشروط التاريخيـة للاشتراكية، وهو ما تخفيه الثرثرات الفلسفية للمنشفيك حول الشكل الأقل أهميـــة من المحتوى.

(١) لينين، المرجع السابق، صفحة ٣٥٨ وما بعدها.

ويبقى المنشفيكي من وجهة سيكولوجية مثقفاً ليبرالياً أو راديكالياً بورجوازياً [1].
ذلك هو « نموذجه الاجتماعي » ، حتى ، وبخاصة ، عندما يلقي الخطب عن الممارسة والمحتوى . انه لا يتمثل الماركسية جيداً . بينما يدرك البروليتاري ، بخبرته العملية ، يدرك جيداً وبسرعة، الفارق بين الجانب المستغِل والمضطهِد في المعمل (الانضباط المفروض ، القائم على خشية الموت جوعاً) - وجانبه التنظيمي (الانضباط القائم على العمل المشترك والناجم عن تقنية عالية) . انه يتمثل اذن ، مع الماركسية ، الانضباط الحزبي وحس التنظيم .

« ان العامل الواعي يعرف كيف يقدر هذا المتاع الغني جداً بالمعارف ، هذا الافق السياسي الواسع جداً الذي يجده عند المثقفين الاشتراكيين - الديموقراطيين . إلا انه ينبغي على العامل الواعي ، بنسبة ما يتكون لدينا حزب حقيقي ، ان يتعلم كيف يميز بين نفسية المحارب في الجيش البروليتاري ونفسية المثقف البورجوازي ، الذي يزهو بالجملة الفوضوية »[2] .

ولينين ، في هذا المؤلف ، بعد أن أنصف « المرشدين المثقفين » ، الماركسيين ، يلتفت الى العمال ، الى المناضلين من العمال ، وينقد « طبقة المثقفين » الثورية لفظاً ، العاجزة عملا ، والمبتعدة بالتالي عن النظرية الثورية الحقيقية .

وقد وُجدت الانتهازية ، بسماتها في المسائل التنظيمية ونتائجها (« استقلالية » الفرد ، والجماعة المحلية ، عن الحلقة التي ينتمي اليها - « التبعية » للبورجوازية الليبرالية - فوضوية الاقطاعي الكبير - النزعة اللفظية ، « الجيروندية »)

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٣٩٢ .
(٢) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٣٩٦ .

وُجدت على الصعيد الدولي[1] .

والحزب ، المنظم وفق مبادىء المركزية الديموقراطية ، ينبغي أن يكون له نظام وحيد ، وانضباط وحيد ، وهيئة قيادية وحيدة . وبعد النقاش والبت ، ينبغي على الأقلية أن تخضع للأغلبية ، كما تخضع منظمات القاعدة للهيئات القيادية . وينطبق الانضباط ذاته على الجميع : « زعماء » كانوا أم مجرد أعضاء .

وبعد أن يلقن لينين المثقفين المرائين درساً في الديالكتيك[2] ، ينهي كتابه بهذه العبارات الشهيرة :

« إن البروليتاريا لا تملك في نضالها من أجل السلطة سوى سلاح التنظيم . ان البروليتاريا ، المنقسمة نتيجة المنافسة الفوضوية التي تسود في المجتمع البورجوازي ، الرازحة تحت وطأة الكد الذليل لرأس المال ، الملقاة باستمرار « في أغوار » البؤس الاسود ، والمحرومة الثقافة بشكل بربري ، المتفسخة ، هذه البروليتاريا يمكن ان تصبح – وستصبح حتماً – قوة لا تقهر ، لهذا السبب الوحيد ان اتحادها الايديولوجي ، القائم على مبادىء الماركسية ، تعززه الوحدة المادية للتنظيم الذي يضم ملايين العمال في جيش واحد للطبقة العاملة »[3] .

وكما أتيح لنا أن نرى في الصفحات السابقة ، فان لينين يستخدم المجاز اللفظي **العسكري** كثيراً . فالبروليتاريا هي جيش ، أو ستصبح جيشاً ،

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٣٩٨ ، ويضرب لينين مثلا الراهب الالماني السابق غوهر Gohre ، الذي عمل في المصنع الى جانب العمال ثم اصبح « بطل » الانتهازية الالمانية . كما يستشهد بكاوتسكي منتقداً جوريس Jaurès صفحة ٤٠١ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٤١٠ ، **« كلمات حول الديالكتيك »** ، **« ان المبدأ الاساسي للديالكتيك هو أن الحقيقة مشخصة دوماً »** .

(٣) لينين ، المرجغ السابق ، صفحة ٤١٤ .

والحزب الماركسي (البلشفي) يمثل فيلقاً من هذا الجيش، يمثل «طليعته» التي تتقدم معظم الجيش ، ويتعين عليه ان يتبعها .

هل هي مجرد استعارات ؟ لا . إذ باعتبار أن المسألة المركزية في الثورة السياسية هي مسألة السلطة ، فانها تطرح بتعابير عسكرية . انها حرب . وإذا ما نسيتها البروليتاريا ، والثوريون ، فان السلطة القائمة – بشرطتها وجيشها – كفيلة بتذكيرهم انها حرب ، ليس التمرد ، والحرب الأهلية ، والمضاعفات التي تعقبها (على الصعيد الدولي خاصة) إلا مراحل حادة ودامية منها .

ولئن كان لينين ، منذ صدور كتاب « **ما العمل؟** » ، يريد منظمة قوية من الثوريين المجربين ، فهو انما يريدها قبل كل شيء لقيادة هذه الحرب الصامتة أو المتفجرة : لتصبح منها بمثابة هيئة الأركان .

« بمثل هذه المنظمة ، فان الايمان بقوة الحزب سيتأكد وينتشر بصورة أوسع بقدر ما تكون هذه المنظمة اكثر سرية . بيد أن ما يهم ، في الحرب ، قبل أي شيء آخر ، كما نعلم ، ليس هو أن نوحي للجيش بالثقة بقواه الخاصة وحسب ، بل ان نفرض ذلك على العدو وعلى جميع العناصر المحايدة »[1] .

و « البدائية » التي يحاربها لينين ، ويريد تجاوزها ، يقصد بها « **الحرب** على طريقة **الفلاحين** Moujiks ، **«الذين ما ان يتركوا المحراث ، حتى يحملوا هراوة بيدهم »**[2] . اما الحلقات الماركسية ، والعمل الحرفي للماركسيين ، فلا تعطي الانواة جيش ، يمكن للشرطة ان تسحقها بسهولة .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٨١ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٥٥ .

« لا يمكن لمرء ان يمنع نفسه من تشبيه هذه الحرب بزحف عصابات من الفلاحين المسلحين بالهراوات ضد جيش حديث . ولا يمكن إلا أن نعجب من حيوية حركة ،تتعاظم وتنتشر وتحرز انتصارات رغم انعدام التدريب كلياً لدى المحاربين »[1] .

والمنظمة التي يطالب بها لينين تتيح وحدها المرونة (كلمة أثير تحتها لينين) التي لا غنى عنها في المعركة، أي القـــدرة على التكيف فوراً لشروط المعركة الاكثر تنوعاً والمتغيرة بسرعة ، القدرة

« من جهة على تجنب خوض المعركة مع عدو اكبر عدداً ركز قواته في نقطة واحـدة ، والاستفادة من جهة أخرى من عجز العدو عن المناورة لمهاجمته في المكان والزمان اللذين يتوقعهما بنسبة أقل من سواهما »[2].

ويتابع لينين ، انـه لمن الخطأ الفادح ، ألا يعتمد ، في بناء الحزب ، الا على المتفجرات ومعارك الشوارع . أو على الزحف المتقدم للنضال الخفي اليومي . انه ينبغي الاستعداد لجميع الحالات ، والتقلبات ،التي يصعب التنبؤ بها ، من انفجارات وفترات الهدوء ، إذ يتغير الوضع في بلد يخضع للحكم الفردي بين يوم وآخر . وقد تكفي أحياناً غارة « على الطريقة الانكشارية » .

« ولا يمكن (...) تصور الثورة نفسها بشكل عمل وحيد : اذ ان الثورة ستكون تعاقباً سريعاً من الانفجارات ،اكثر أو اقل عنفاً ، تتناوب مع فترات من الهدوء الاكثر او الأقل عمقاً[3] » .

وبعبارة اخرى ، فان صراع الطبقات يتجلى كحرب ، حرب طويلة ،

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٢٦٦ .
(٢) اقتباس من لينين عن مقاله في الايسكرا ، من اين نبدأ ، العدد ٤ .
(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٣١٩ .

يتناوب فيها العنف الكامن والمخفف مع العنف المكشوف . وتختلف هذه الحرب عن الحروب العادية فقط في كونها « **أصعب غاية ضعف ، واطول واكثر تعقيداً من أشرس » الحروب بين الدول** [1]

وبعبارة أخرى ، فان البروليتاريا ، في الصراع السياسي الذي هو حرب بجميع اشكالها ، في حاجة الى « اسلوب » - تكتيك - ، والى « منهج » - استراتيجية - ، تعبيران يأخذهما تفكير لينين السياسي بكل مافيها من معنى ، من صرامة وقوة . وليس الموضوع « تكتيكا » بالمعنى الشائع الانتخابي ، البرلماني ، بل تكتيكاً باقوى ما في الكلمة من معنى ، يخضع لمبادىء استراتيجية باقوى معانيها العسكرية ، على المقياس الجديد للحروب العالمية .

ان الشراح السطحيين لملاحظات لينين عن كلاوزويتز [2] Clausevitz يعتقدون ان لينين افاد منه مجرد دروس في تكتيك التمرد .

والحق ، ان الاهتمام الذي قرأ به لينين كتاب كلاوزويتز يذهب الى ابعد من ذلك بكثير . انه يختبر ، بقراءته الكاتب الالماني ، هذه النظرية الديالكتيكية : ليس هناك انقطاع مطلق ولا استمرار مطلق . ان ثمة وحدة بين السلم والحرب ، ولكن بينهما فارقاً وتناقضاً . فليس في الحروب بين الدول وحسب ، بل وفي العلاقات بين الدول ايضاً ، تستبدل السياسة السيف بالقلم . وهذا الرأي صحيح في صراع الطبقات . فهذا الصراع ، الذي فكر فيه لينين سياسياً ،

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، صفحة ٧٣٧ .

(٢) جنرال الماني توفي عام ١٨٣١ ، بلور التعاليم المستفادة من الحروب النابليونية في كتابه الذي نشر بعد وفاته : في الحرب (نظرية الحرب « الشاملة » ، دور الامة والبنية السياسية في الحرب - واثرهما على الاستراتيجية) ، ترجمه حديثاً الى الفرنسية نافيل Naville ، منشورات مينوي Minuilt .

يمكن التفكير فيه استراتيجياً . وبذلك وحده يقدر ان يتعرف ويكشف مبادرات الطبقة الخصم وهجماتها واهدافها الحقيقية ، التي هي ايضاً استراتيجية . وفضلاً عن ذلك فان الحروب بين الأمم ، والدول ،والشعوب ، لها أيضاً محتوى طبقي (مثال ذلك عندما تجد نفسها دولة" مضطهـدة،دولة" طبقية ، امامصعوبات داخلية ، ومعارضة قوية ، تلجأ الى الالهاء الكلاسيكي : الحرب ، مثل نابليون الثالث في فرنسا ، او القيصر عام ١٩٠٥ وعام ١٩١٤) .

ان التفكير في صراع الطبقات استراتيجياً ، إنما يعني ، في نظر لينين ، التفكير فيها على مقياس عالمي ، على مقياس تاريخي . وعلى هذا المقياس نلتقط الحركات الاجمالية لكلا الجيشين ، والقطاعات الهادئة ، وتراخي هذا الجيش اوذاك،والهجمات والدفاع . وليس من سلم مطلق في هذا الصراع ، وثمة على الاكثر فترات هادئة ، هدنات . وصراع الطبقات ، بمراحله من سلم وحرب ، يخضع هو ايضاً الى قانون النمو المتفاوت .

ان هدف صراع الطبقات هو دوماً ، لهذه او تلك من الطبقات ، لتلك التي تستطيع اتخاذ موقف الهجوم والمضي فيه حتى النهاية ، هو تدمير الخصم ، لا تدميراً ماديا حتى آخر رجل ، - اذ لا يكون لهذا اي معنى — بل التدمير السياسي بوصفه قوة منظمة .

ان البروليتاريا ، منظوراً اليها كجيش ، هي دوماً اضعف من خصمها ، في البدء . فالخصم ، الطبقة الحاكمة ، يملك التنظيم ، وخبرة القيادة والسلطة ، والاسلحة . بيد ان البروليتاريا ستنتصر ، كما يقول لينين ، لأنها تملك قوتين : التفاني اللامحدود (اذا كان لهذا اللفظ معنى) للجماهير الجبارة ، البروليتاريا وحلفائها — ،وايضاً المعرفة ، بما فيها معرفة خصومها ، ومواردهم ، وامكاناتهم الموضوعية ، والاستراتيجية التي تفرضها عليهم الشروط الموضوعية .

اما الخصوم فلا يعرفون حقاً ، ولا يمكن ان يعرفوا ، موارد البروليتاريا ، وطرقها الخاصة .

ان التمرد ، (كالقمع) ، لا يمثلان اذن الا مراحل في استراتيجية الطبقات . كذلك الدفاع والهجوم . ولا تقل اهميـة الدفاع عن الهجوم . فثمة مواقف دفاعية تهيء للنصر . (ونذكر ان لينين كان يثني بعد ١٩٠٥ على البلاشفة لانسحابهم الاستراتيجي في نظام جيد ، بادنى حد من الخسائر ، وبثقة في المستقبل) . ولنعد الى هذا النص الموجود في احد مؤلفات لينين الاخيرة . يوجز لينين الحالة بين عامي ١٩٠٧ و ١٩١٠ ، فيقول ان الهزيمة لقنت الطبقة الثورية والاحزاب درساً في « الديالكتيك التاريخية » ، درساً علمهم : «فن خوض الصراع السياسي» .

« ينبغي على الاحزاب الثورية ان تتم تعليمها . لقد تعلمت كيف تخوض الهجوم . وينبغي ان تدرك الآن انه لاغنى عن إكمال هذا العلم بعلم الانسحاب وفق القواعد » [1] .

ويرجع هذا النص الى عام ١٩٢٠ . ولينين ، في كتاب موجه ضـد اليسارية المفرطة ، لا يتخلى في شيء عن المفهوم الاستراتيجي لصراع الطبقات . انه ، على العكس ، يفتحه . انه التجربة الروسية على العالم بأسره .

« بقدر ماكان الامر يتعلق (وبنسبة مايزال كذلك) بضم طليعة البروليتاريا الى الشيوعية ، وُضعت الدعاية في المقـام الأول . ثم إن حلقات الدعاية الصغيرة نفسها تبقى مفيدة وخصبة ، رغم مالها من عيوب . بيد انه عندما يتعلق الأمر بالعمل الفعلي للجماهير ، بتوزيـع ـ ان جاز لي استخدام هـذا التعبير ـ جيوش تعد بالملايين ، بتوزيع جميع القوى الطبقية لمجتمع ما من

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، صفحة ٦٩٧ «مرض الشيوعية الطفولي» .

أجل المعركة الحاسمة والنهائية ، فانه لايمكن عمل شيء بطرق الدعاية وحدها ، بمجرد ترديد حقائق عن الشيوعية « الصرفة » . فلا ينبغي هنا ان نعد حتى الألف ، كما يفعل الداعية اجمالاً بوصفه عضواً في جماعة لم يتح له بعد ان يقود الجماهير ، بل ينبغي ان نعد هنـــا ملايين وعشرات الملايين . لايكفي ان نتساءل عما اذا كنا قد اقنعنـا طليعة الطبقة الثورية ، بل ينبغي ايضـــاً ان نعرف ما اذا كانت القوى الفعالة تاريخياً في جميع الطبقات ، في جميع الطبقات بلا استثناء ، في مجتمع ما ، مستعدة بحيث تكون المعركة الحاسمة ناجحة تماماً ، بحيث : « ١ - تكون جميع القوى الطبقية المعادية لنا امـــام صعوبات كافية ، تكون ممزقـة فيما بينها بشكل كاف ، وتكون قـد ضعفت بشكل كاف نتيجـــة صراع يتجاوز امكاناتها . ٢ - تكون جميع العناصر الوسيطة المترددة ، المترنحة ، القلقة - البورجوازية - الصغيرة ، الديموقراطية البورجوازية الصغيرة بالتعارض مع البورجوازية قد كشفت بشكل كاف امام الشعب ، ودنست بشكل كاف نتيجة افلاسها العملي . ٣ - تظهر في داخل البروليتاريا حركة قوية في الرأي العام لمصلحة العمل الحاسم ، الأكثر جرأة وثورية ، ضد البورجوازية . آنذاك تكون الثورة ناجحة . . » [١]

ان فكر لينين ، كما نستطيع ان نلاحظ من النص الوارد اعلاه « من اين نبدأ ، في « ما العمل ؟ » » قد توسع ، ولم يتغير . ان قراءة كلاوزويتز قد مكنته من توضيح افكاره وصياغتها لنفسه ، دون ان تؤثر فيها [٢] .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الاول ، صفحة ٧٦٠

(٢) راجع أيضاً في المجلد الأول ، صفحة ٥٤٣ وما بعدها : العبرة من تمرد موسكو ، بخاصة صفحة ٥٤٨ ، والتكتيك العسكري رهن بالتقنية العسكرية . وفي المجلد الثاني ، خاصة ، صفحة ١٤ . : الماركسية والتمرد ، وصفحة ١٥٢ نصائح غائب .

ان التكتيك والاستراتيجية يمكن التفكير بها ديالكتيكياً . ما الذي يعنيه هذا التأكيد ؟ ان المشكلات ، في العمل ، في الصراع الحقيقي ، « في الميدان »، هي مشكلات تكتيك . ويعرف التكتيك بأنه المشخص،شأنه شأن المباشر،او الظاهرة . وثمة دوماً شيء غير متوقع في المشخص ، في الظاهرة . بيد أن الظاهرة تتضمن القانون . والاسلوب (التكتيك) يمكن التفكير فيه ، بواسطة الستراتيجية وفي داخلها . ويخضع لها . كما أن الوضع يفكر فيه بالقانون ومن خلاله . ان التكتيك يطبق الاستراتيجية ، بشيء من الزيادة أو النقصان . وإلا فان الظاهرة ، والوضع المشخص، يحجبان ويخفيان ماهو جوهري . إن الاستراتيجية هي الأساس . ويبقى الانتهازي على مستوى الظاهرة ، أو بالاحرى على مستوى ما هو ظاهر وسطحي في الظاهرة . بينما يتمسك الفكر الجامد ، والمتشيع ، واليساري المتطرف ، بالمبادىء، بالقانون ، بالجوهري [1] .

ومن هنا نظرية التوفيق . إن عمليات التوفيق تفرض نفسها،تكتيكياً، في كل لحظة تقريباً . واذا عزلت البروليتاريا فستقهر . فينبغي لها أن تناور وان تجد لها حلفاء ، وتعزل هذا الخصم او ذاك ، وتحارب هذا او ذاك ، والافضل أن تحارب هذا بذاك ، أعني ان تستخدم التناقضات عند الخصم . فيمكن إذن عقد توفيق (مؤقت) مع عصابات ، مع شر الخصوم ، مع الشيطان نفسه ، بشرط أن يخدم الأهداف النهائية ، البروليتاريا والثورة [2] .

إن التوفيق « المشخص » في صالح الثورة يتعارض مع توفيق الخيانة . فهذا الأخير يبدو احياناً وكأنه صحيح « تكتيكياً » ، بينما هو ليس كذلك من وجهة النظر الاستراتيجية . أما فيما يتعلق بالتناقضات بين التوفيق الصحيح

---

(١) تعريف التكتيك في المجلد الاول ، صفحة ٤٢٢

(٢) لينين ، راجع في المجلد الثاني ، صفحة ٧٠٥ وما بعدها . « مرض الشيوعية الطفولي» .

تكتيكياً مع المبادىء ، فانهـــا ليست الا تناقضات ظاهرة ، وتنحل من وجهة النظر الاستراتيجية ، الأكثر شمولاً ، على صعيد آخر [١]

إن صفة الحرب ، في نظر لينين ، كما نعلم من قبل ، إنما تتوقف على محتواها الموضوعي ، الذي يحدد « **أهدافها** » ، (« أهداف الحرب ») وايضاً سيرها ، أي الاستراتيجية .

وأيا كانت ذرائع الحرب ومبرراتها الايديولوجية ، حتى لو كانت على درجة من القوة تكفي لتقود الناس الى أن يَقتلوا ويُقتلوا ، فينبغي انتقادها بلا هوادة ، وتبديد الظواهر ، و كشف المزيفين ، وتفشيل مناوراتهم ، وتعرية « الجذور الطبقية » للحرب . ان الحرب ، وهي ظاهرة تاريخية واجتماعيـة ، لاتفلت قط من التحليل النظري الموضوعي .

إن الحرب العادلة تختلف جذريا ، بمحتواها ، عن الحرب الظالمة .

أما الحرب الظالمـــة فهي حرب طبقية ، لصالح الطبقة المسيطرة (أو الطبقات المسيطرة المتحالفة ، كما في انجلترة ، حيث نجح الاقطاعيون والبورجوازية في الوصول الى توفيق) للحفـــاظ على السيطرة ومدها وزيادتها ، و كذلك الامتيازات والارباح .

---

(١) ملاحظات عارضة :

أ – طبق لينين نظرية التوفيق الثورية ، مثلا صلح بريست – لتوفسك ، والسياسة الاقتصادية الجديدة مع تنازلات للاقتصاد التجاري وللرأسمالية .

ب – تناول ستالـــين من جديد مطولا في كتاب « مبادىء اللينينية » مسائل الاستراتيجية والتكتيك والتوفيق .

ج - كان لينين ينسب الى الاممية دور هيئة الاركان الستراتيجية والتكتيكية للثورة على الصعيد العالمي .

والحرب العادلة حرب طبقية ،لصالح الطبقات المسيطَر عليها ، وبخاصة البروليتاريا ، بقصد هز او تقويض السيطرة والاستغلال .

بيد أن الحرب الثورية والحرب العادلة لا تترادفان . ذلك أن الحرب الثورية ليست الا الحالة الحدية للحرب العادلة . **إن حرباً وطنية** يقودها رجعيون (اقطاعيون مثلا) او بورجوازية ديموقراطية يمكن أن تتصف بأنها حرب عادلة. وفي هذه الحالة ينبغي على البروليتاريا الثورية ، والجماهير التي تتبعها ،أن تساند هذه الحرب، مع تحديد شروطها السياسية بطبيعة الحال ، ما أن يصبح ذلك ممكناً: بتوجيه هذه الحرب نحو الحد الأقصى من الاستقلال القومي والحرية الديموقراطية للبروليتاريا وجماهير الشغيلة .

ان نظرية **الازمة الثورية** لا يمكن فصلها عن نظرية العلاقات بين الاستراتيجية والتكتيك . وهذه النظرية موجودة في مؤلفات لينين الاولى[1] . وهو لم ينفك يشرحها ويعمقها حتى ظهور العرض الأكمل « **في مرض الشيوعية الطفولي** » .

ان البروليتاريا ، اذ لا تكمل ثورتها منفردة لا تستطيع ايضاً أن تكملها في أي وقت كان . ان للثورة **شروطا** : الازمة الثورية . وهذه الشروط نوعان: موضوعية وذاتية (متفاوتة ، متناقضة احيانا ، لا تنفصل عن بعضها ، فالذاتي ينشأ عن الموضوعي ويؤثر فيه ، وبالعكس). والازمة الثورية هي فعلًا ازمة شاملة ، تهز المجتمع القائم من اساسه الى بنائه الفوقية ، من العلاقات الاجتماعية للانتاج الى المؤسسات القانونية والايديولوجيات . وهي ، قبل كل شيء ، « **حركة شعبية عميقة وقوية** »[2] .

---

(١) لينين ، راجع في المجلد الاول ، صفحة ٦٨ : .
(٢) لينين ، المجلد الثاني ، صفحة ٣٩١ .

« ان كل ثورة تسجل منعطفاً مفاجئاً في حياة الجماهير الشعبية . وطالما ان هذا المنعطف لم يتحقق ، فانه لا يمكن ان تقوم ثورة حقيقية . وفي المنعطف المفاجيء في حياة شعب ما ، نتبين ... الغايات التي تستهدفها الطبقات الاجتماعية المختلفة ، والقوى التي تملكها »[1] .

هذه الازمة تصبح، في آن واحد ، ازمة اقتصادية وازمة سياسية (دون ان يفصلها اي «سورصيني» . فالبنية الفوقية القديمة تتصدع من كل جانب . والعمل السياسي للطبقات والجماهير التي تريد بناء البنية الفوقية الجديدة يدخل الحلبة[2] . كما ان المشكلات التي يطرحها الوضع الاقتصادي والسياسي تغدو اكثر فأكثر استعصاء على الحل (ولا نقول : يستعصي حلها بصورة مطلقة) بالنسبة لحكام الطبقات المسيطرة وتتوارى اسس الدولة القائمة، التي تكرس السيطرة الطبقية والبنية الاقتصادية (التكوين الاقتصادي - الاجتماعي) . ويتصاعد نشاط الجماهير ، ويتحدد ويتأكد . ومن هنا التعريف الذي سبق ايراده عن الازمة الثورية وشروطها العديدة ، سواء في مجال الاقتصاد ام في خلخلة البنى الفوقية، وسواء في الوعي ونشاط الجماهير (العامل الذاتي) ام في الطبقات المسيطرة . ان الازمة الثورية تعرف بأنها ازمة الحياة اليومية، كما هي ازمة الحياة السياسية : فالناس لم يعودوا يقدرون، ولا يريدون، ان يستمروا في العيش كما كانوا . فجماعة «تحت» لا يريدون ، وجماعة فوق لم يعودوا قادرين ...[3] ان الاتجاه الرومانتيكي وحده ، والتشيع (الذي يخفي وراء ظاهر الجملة الثورية انتهازية كامنة) يعتقد ان الثورة ممكنة خارج الوضع الثوري.

---

(١) لينين ، المجلد الثاني ، صفحة ٧٧ .
(٢) لينين ، راجع ، في المجلد الاول ، الصفحة ٤٦٨ : تكتيكان .
(٣) لينين ، المرض الطفولي ، المجلد الثاني ، صفحة ٧٥١ .

« ان من الخصـــائص الرئيسية .. لكل ثورة حقيقية ، الزيادة الخارقة في عدد السكان الذين يبدأون المشاركة في الحياة السياسية »[1] .

غير ان الوعي والمعرفة هما عنصران حاسمان في الازمة . فالعامل الذاتي تنمو اهميته باطراد مع النمو . و « تنضج » الازمة ، ويتضمن هذا النضج تأثيراً متبادلا بين الموضوعي والذاتي . وما ان يتحدد الذاتي حتى يصبح حاسماً . فالوعي ، مزوداً بالمعرفة ، يصبح ارادة .

ولنؤكد هنا على دور الحزب في الازمة فهذا الدور يأتيه من المعرفة التي يدخلها في الحركة (حركة البروليتاريا ، وحركة الجماهير) ، وكذلك من التنظيم الذي يركزه ويقوده .

ونشاط الحزب يتحدد هو ايضاً ، بوصفه عاملا ذاتياً ، فيصبح واقعاً موضوعيا ، ويعدل مجرى الحوادث . ومن الناحية الاستراتيجية يستعد الحزب للازمة الثورية ويعد لها . اما من الناحية التكتيكية فيعنى بكل لحظة ، بكل تفاعل ، بالنجاح والفشل ، بوثبات وانتكاسات الحركة الظاهرة او الواقعية ، وبالانتصـــارات الاجمالية او المحلية ، بالهزائم ، وسواها . وتتجه الشعارات ، على اساس الوضع المباشر ، الى انضاج الازمة ، وتقدم حلولا ثورية في جميع المجالات : الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي ، وسواها . بيد ان الشعارات لاتكفي . وتنظيم النضال في جميع المجالات هو وحده الذي يحسم الأمر ، كما يقول العسكريون .

هكذا نرى ان ثمة ديالكتيكاً للازمة الثورية ، حسب رأي لينـــين ، او اذا شئنا ، فان الازمة الثورية هي من مجال التحليل الديالكتيكي .

ان التفاعل بين الذاتي والموضوعي ، وهو ما يرى خصوم الماركسية وغير

---

(١) لينين ، المجلد الثاني ، صفحة ٢١ .

الديالكتيكيين، انما يرمي بالظاهرات الاجتماعية والسياسية الى منطقة اللاعقلانية ، انما يمثل على العكس، في نظر لينين، امكانية العمل الذي يحل ثوريا تناقضات البنية الاجتماعية حين تصبح شبه « مستعصية على الحل ». ان ثمة ضرورة ، قوانين، في الازمة الثورية . ورغم ذلك فثمة عنصر غير متوقع . هل يبلغ العامل الذاتي المستوى الذي لابد منه ؟ هل يكون التنظيم في مستوى مهامه ومسؤولياته ؟ هل يعرف الناس كيف يحلون المشكلات ؟

ان الحزب يندمج اذن في ديالكتيك الثورة بوصفه عنصراً جوهرياً.

وكلما تفاقم الوضع ازدادت الحوادث، وسيرها، ارتباطاً بالحزب. ففي هذا، وعبره ، يصبح الوعي، والمعرفة ، و « الفكرة » افعالا ، وجدوى عملية . واليه يعود (اي الى القادة ، والى تحليل الوضع) تحديد الخيط الواصل ، او الحلقة من السلسلة التي ينبغي شدها، كيما يأتي المجموع، وذلك في عُقد الاحداث والاشكال .

وتتخذ الازمة شكلًا بحيث يكون ثمة، كما في المعركة ، ظرف ، ومكان ، ووضع مناسب . فأمس يكون مبكراً ، وغداً يكون متأخراً .

وبذلك فان **الضرورة** (الاقتصادية ، التاريخية) ، بمحتواها وقوانينها، وحركتها العميقة التي تتجه (وتتجه فقط) الى اقامة بنى وبنى فوقية جديدة ، هذه الضرورة تتخذ شكل الحادث والظرف والوضع الذي ينبغي تلقفه. ان الظاهرة اكثر تعقيداً على الدوام من القانون . ومع ذلك فثمة قوانين ! .

والمسألة **القومية** ، في نظر لينين ، مسألة بالغة الاهمية ، ومع انها في حد ذاتها مسألة تابعة ، فانها يمكن ان تصبح جوهرية في هذا الظرف او ذاك . وبعد ان تكون مسألة مرتبطة بالثورة **الديموقراطية البورجوازية** تغدو عنصراً مؤسساً في الثورة البروليتارية .

ان المسألة القومية بذاتها ، اعني مسألة الدولة القومية واستقلالها ، ترتبط بالثورة الديموقراطية البورجوازية . وحتى حين تكون البروليتاريا بطبيعة الحال محتاجة الى استقلالها ـ استقلال البلد الذي استولت فيه على السلطة ، وتستطيع بناء الاشتراكية فيه ، فان الامر ليس بالضبط مسألة قومية بالنسبة لها . انها مطروحة بهذه الصفة ، في البلاد المضطهَدة ، المستعمرة وشبه ـ المستعمرة ، حيث ما تزال البورجوازية تكافح مع الشعب ضد الرجعية العالمية والامبريالية[1] .

وقد عانى لينين اكبر مشقة في اقناع الاشتراكية ـ الديموقراطية بصحة نظرياته ، وبأهمية المسألة القومية . وكان عليه ان يكافح المعارضة المزدوجة : معارضة اليسار (روزا لوكسمبورغ) الذي كان ينكر هذه المسألة بوصفها مسألة سياسية ـ ومعارضة اليمين ، الذي كان يقدم « حلولا » ناقصة ، تلغي المسألة السياسية (كالحكم الذاتي الثقافي الذي دعا اليه الاشتراكيون النمساويون : قيام القوميات المضطهدة بتنظيم تجمعات ثقافية منفصلة عن الارض ، وعن الحياة الاقتصادية والدولة السياسية[2]) .

لقد دفعت البورجوازية الى مركز الصدارة ، منذ زمن طويل ، كما نعلم ، مبدأ حق الشعوب (الامم) في تقرير مصيرها . ومن ثم ، في مرحلة ثانية ، فان البورجوازية اذ فقدت صفتها الثورية ، استخدمت هذا المبدأ اكثر فأكثر في مصالحها الطبقية ، ومناوراتها . لقد هدمته بوصفه مبدأ ، ولم تعد تتحدث عنه الا من قبيل

---

(١) لينين ، اوربا المتأخرة ، وآسيا المتقدمة ، المجلد الاول ، صفحة ٦٦٨

(٢) راجع لينين ، المجلد الاول ، صفحة ٦٧٤

تشتيت الاهتمام ، او لاخفاء سلوك معاكس : انعدام حرية الشعوب وحقها ، الاضطهاد الامبريالي ، الاضطهاد الطبقي .

والماركسي يبدأ بتحليل المحتوى الموضوعي للمطالب والحركات القومية والمرحلة التي تجتازها ، لأن هذه الحركات تقع في مراحل متفاوتة . وثمةتمييز أول يفرض نفسه بين البلاد التي تمت فيها التحولات الديموقراطية البورجوازية ـ وتلك التي لم تتم فيها بعد . هنا يكمن جوهر المسألة .

ففي بلد ، كروسيا ، حيث سيطرة الروس الكبار تمارس على سكان مناطق مجاورة عديدة ، وعلى مناطق يتجاوز النمو الاقتصادي والاجتماعي فيها أحياناً نمو المركز ، فلا شك :

« ان الخصائص التاريخية المشخصة للمسألة القومية في روسيا تسبغ عندنا صفة الالحاح الحاسم على الاعتراف بحق الامم في تقرير مصيرها »

لاسيما وقد بدأت ، في الدول الآسيويةالمجاورة ، مرحلة ثورةديموقراطية (بورجوازية) ، وحركات قومية تضم جزئيـاً قوميات لها قرابة مع روسيا (القيصرية) أو في داخلها .

طبعاً ان سياسة البروليتاريا في المسألة القومية لاتساند البورجوازية إلا في اتجاه معين ولا تتطابق معها .

فالبروليتاريا تعارض البورجوازية بسياسة مبدئية حول حق الشعوب في تقرير مصيرها ــ ولا تساند البورجوازية إلا بصورة شرطية [١] :

« إن البورجوازية تضع على الدوام في المقام الاول مطالبهاالقومية

---

(١) مؤشر تحتها من لينين . المجلد الاول ، صفحة ٦٨٥ .

وهي تصوغها بشكل جازم . أما فيما يتعلق بالبروليتاريا ، فان هذه المطالب تخضع لمصالح الصراع الطبقي ».

إن بعض المطالب الديموقراطية ، بما فيها حق الشعوب في تقرير مصيرها، ليست بالنسبة للبروليتاريا والثورة الاشتراكية « غاية بذاتها » ، أي شيئاً مطلقاً ، كما هي الحـــال بالنسبة للبورجوازية . فهي ليست إلا جزءاً من مجموع الحركة الديموقراطية والاشتراكية العالمية . والبروليتاريا ، اذ تعترف بحق جميع الأمم (لا على الطريقة البورجوازية ، لتلك الأمة ، وانكاره على سواها) لا تلتزم باعطاء شيء لأمة على حساب أمة أخرى ، ولا بمنح قومية ما كل شيء . أهو موقف متناقض؟ لا . اذ المهم أن نستخلص اتجاهين اثنين أو امكانيتين سياسيتين .

« وبقدر ماتكافح بورجوازية الأمة المضطهَدة ضد الأمة المضطهِدة فاننا معها بهذا القـــدر ، لأننا أجرأ خصم وأكثر الخصوم تماسكاً ضد الاضطهاد . وبقدر ماتعمل بورجوازية الأمة المضطهَدة لقوميتها الخاصة البورجوازية ، فاننا ضد ذلك » .

ففي الحركة القومية البورجوازية لأمـــة مضطهَدة ، يوجد محتوى ديموقراطي ، « وهذا المحتوى هو ما نؤيده دون تحفظ » . مثـــلا : مساندة البورجوازية البولونية ، مع مكافحة النزعة البورجوازية البولونية لسحق اليهودي .

والبروليتاريا ، اذ تعترف بالمساواة بين الشعوب وحقها في إقامة دولة قومية ، تضع فوق كل شيء التحالف بين بروليتاريي جميع الأمم وبذلك تقاوم ، من زاوية صراع الطبقات ، كل مطلب قوي . وفي أمة مضطهَدة ، فان مصالح السكان ـ حرية هذا الشعب ـ تتطلب أن يكافح الاضطهاد .

---

(١) لينين ، المجلد الاول . صفحة ٦٩٨ .

إن شعباً يضطهد شعوباً أخرى لا يمكن أن يكون حراً (ماركس) .
مثلاً : البروليتاريا الروسية الكبرى لاتستطيع ، بوصفها كذلك، أن تدافع عن امتياز للأمة الروسية الكبرى ، باقامة دولة قومية مستقلة ذاتياً . انها بذلك انما تدافع عن حق او كرانيا في إقامة دولة مستقلة . ويربي الماركسيون الجماهير في هذا الاتجاه : اعتراف بهذا الحق ، رفض امتيازات الدولة ، وسائر الامتيازات. هل يعني هذا أن نفصل أو كرانيا بالضرورةعنروسيا؟إن هذا رهن بوضعمشخص لمجموع العلاقات الطبقية .فاوكرانيا الثورية يمكن أن تنفصلعن روسيا الكبرى اذا بقيت هذه قيصرية او بورجوازية ، وبالعكس . بيد أن الامتين تظلان مرتبطتينارتباطاً حراً اذا تغلبت الثورة البروليتارية في كلتيهما . هـذا هو معنى الموقف الذي اتخذه لينين ، الذي يستطيع بالتالي أن يقول :

« إن اتهام أنصار حرية الشعوب في تقرير مصيرها . . . بتشجيع النزعة الانفصالية لايقل خروجاً عن المنطق ولا رياء عن اتهام أنصار حرية الطلاق بالتشجيععلىتقويض الروابط العائلية » [1]

ان حماة الامتيازات وعبادة المال ، التي يقوم عليها التصور البورجوازي للزواج ، يعارضون الطلاق . كما أن :

« انكار ، حرية الأمم في تقرير مصيرها في دولة رأسمالية ، أيفي أن تنفصل ، إنما يعني فقط حمـــاية امتيازات الأمة المسيطرة والاساليب البوليسية للحكم على حساب الاساليب الديموقراطية [2] ».

ان ادنى مساندة تمنحها البروليتاريا في امة ما لامتيازات بورجوازيتهـا

---

(١) لينين ، المجلد الأول . ص ٦٩٨
(٢) لينين ، المرجع السابق .

القومية انما يثير حذر عمال الأمة الأخرى ويضعف التضامن الأممي الطبقي - ويفتت الحركة البروليتارية . ان البروليتاريا ينبغي أن تتحرر من أي طابع قومي ، لكي تتحرر من بورجوازيتها الخاصة وتكسب أمتها ، ومايهم السياسة البروليتارية اذن هو : « **حرية تصرف البروليتاريا داخل الأمم** » .

ويكمل لينين تدليله النظري ، في هذا المقال الذي لايمكن المبالغة في تقدير أهميته [1] ، بتحليل الوضع في السويد والنروج ، وايرلندة ، وكذلك بولونيا واكرانيا ، وهنغاريا وبوهيميا (التشيك) وسواهـا . ويستشهد بنصوص من ماركس ، يستنتج منها ، أن الطبقة العاملة في نظر ماركس هي أقل الطبقات قابلية لأن تجعل من المسألة القومية « وثناً للعبادة » ، وهي اكثر الطبقات قدرة على معالجتها موضوعياً ، أي بتأييد ماهو تقدمي في الحركات القومية [2] وينبغي اذن مساندة نضال المستعمرات وشبه المستعمرات ، حتى وإن تكن البورجوازية هي التي تحركها وتقودها ، ضد الامبريالية .

« المساواة بين جميع الأمم ، حق الأمم في تقرير مصيرها ، اتحاد جميع الأمم ، هذا هو البرنامج القومي الذي تلقنه الماركسية للعمال » . [3]

ويبقى شعار البروليتاريا : ياعمال العالم ، اتحدوا .

وتبدو الديالكتيك اللينينية ممتازة بشكل خاص في هذه الدراسة الموجزة ، المركزة ، للمسألة القومية . فبين **الطبقة والأمة** ، ثمة وحدة واختلافات قد تبلغ

---

(١) ظهر المقال في وقت واحد تقريباً مع كتاب ستالين عن (المسألة القوميـة والماركسية) . وهو يتضمن بالتالي كل سياسة القوميات في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، وكذلك الافكار الاكثر عمومية عن حركة الشعوب والأمم في آسيا ، وسواها .

(٢) لينين ، المجلد الاول ، صفحه ٧١٢ .

(٣) لينين ، المجلد الاول ، صفحة ٧٢٩ .

حد التناقض . فهما مظهران في العملية التاريخية ، تمسك فيها الطبقة بالدور الجوهري . ولينين يحلل اذن ما هو جوهري وما هو عارض ، المحتوى والشكل ، الصيرورة و « لحظاتها » ، المبدأ والتطبيق في وضع مشخص والتمييز بينهما دون فصلهما . وهو يوحد بذلك - موضوعياً ، في اطار الحركة التاريخية والمصالح الطبقية للبروليتاريا - بين الحس **القومي** من ناحية ، بوصفه حركة محددة تابعة ، يمكن مع ذلك ان تصبح جوهرية في مرحلة معينة ، وبين الأممية الأساسية للطبقة العاملة من ناحية أخرى . انه موقف ديالكتيكي . فثمة **اتجاهان** في الحركة القومية ، **ومهمتان** للبروليتاريا : النضال ضد القومية من أجل حق الشعوب - وبقصد تأمين نجاح النضال ضد القومية :

«الحفاظ على وحدة نضال البروليتاريا والمنظمات البروليتارية »[1] ، **مهمة « مزدوجة أو بالأحرى ثنائية الطرف »** .

ان اولئك الذي لا يحاكمون الأمور ، ولا يفكرون ، بطريقة ديالكتيكية ، يجدون « تناقضاً » في طلبهم ان يلح الاشتراكيون الديموقراطيون في الأمم **المضطهِدة** على حرية **الانفصال** - وان يلح الاشتراكيون الديموقراطيون في الأمم **المضطهَدة** على حرية **الاتحاد** . بيد انه ليس ثمة سبيل آخر أمام الأممية وانصهار الشعوب .

وترتبط مسألة الثورة في بلد واحد وبناء الاشتراكية بالأهمية التي تسبغها اللينينية على المسألة القومية . ان هذه الامكانية تمثل مد حق تقرير المصير على البروليتاريا المندمجة ثورياً بالأمة (وكانت البرجوازية من قبل تحكمها) . انها تمثل ، من خلال قفزة (الثورة السياسية) ، تعميق المحتوى الديموقراطي للواقع القومي . ان الثورة البروليتارية تحل التناقض الذي يتجلى في لحظة معينة من النمو : ففي كل أمة أمتان ، البروليتاريا والبورجوازية . وحين تزيل البروليتاريا

---

(١) لينين المرجع السابق .

طابع الوثن عن الأمة والقومية البورجوازية ، انما تجدد الأمة . ان التمثل الانتقادي لمطامع البورجوازية يفضي الى هذا التفتح . وهذا هو الجانب الايجابي في تحليل المسألة القومية ، الذي رأينا بصورة خاصة جانبه الانتقادي .

ولهذا فاننا سنلتقي، للمرة الأولى، بالنظرية اللينينية عن الثورة في بلد واحد، في مقال عن المسائل القومية . وهذا النص، على ايجازه الكلي [1] ، ذو أهمية بالغة . يحلل لينين شعار « الولايات المتحدة الجمهورية لأوربا » ، ويبين أن هذا الشعار ذو معنى سياسي صحيح . ولكن ضمن حدود محددة جيداً : بوصفه شعاراً سياسياً موجهاً ضد الملكيات المتعددة – القوميات والامبريالية الاوربية، وعلى رأسها القيصرية .

« ان التحولات السياسية بمعنى ديموقراطي ، ومن باب اولى الثورات السياسية ، لايمكن بحال من الاحوال ، وأيا كانت الشروط ، ان تحجب أو تضعف شعار الثورة الاشتراكية . بل انها ، على العكس ، تعجل بها على الدوام ، وتوسع قاعدتها ، جارة الى النضال الاشتراكي فئات جديدة من البورجوازية الصغيرة والجماهير شبه البروليتارية . ومن جهة أخرى فان الثورات السياسية هي حتمية خلال الثورة الاشتراكية التي لاينبغي اعتبارها عملاً وحيداً ، بل عهداً من الترابطات السياسية والاقتصادية العاصفة ، والصراعات الطبقية الحادة جداً ، والحرب الأهلية ، من الثورة ومناهضة الثورة » .

بيد اننا، إذا حللنا المحتوى الاقتصادي لشعار « الولايات المتحدة الاوربية » ، فاننا مضطرون الى التأكيد أنه ، **خارج الحدود** المرسومة اعلاه « يتحول » الى شعار رجعي امبريالي . لأن الولايات المتحدة الأوربية لا تمثل إلا ائتلافاً (موقتاً)

---

(١) لينين: شعار الولايات المتحدة الاوربية، المجلد الاول . صفحة ٧٥٢–٧٥٥ .

بين الامبرياليين ، تفاهماً موقتاً فيما بينهم ، لاقتسام بقية العالم والسيطرة عليه ، واستغلاله . تفاهم واتفاق مؤقتان ، لقد عرفنا ذلك : إذ أن المشاكل لاتسوى إلا بالقوة . ان بلداً رأسمالياً وامبريالياً ، كاليابان ، ينمو بنسق متسارع . وتكون الحرب بين مثل هذه الامبريالية والولايات المتحدة الأوروبية (إذا سلمنا ان هذه لن تتفكك قبل الحرب) حتمية . ان قانون التطور المتفاوت يكشف ويفسر هزال وخطر هذه المنشآت السياسية (نظراً لأن نمواً متساوياً لمختلف الاقتصاديات ومختلف الدول أمر مستحيل في النظام الرأسمالي) .

ان الشعار الوحيد المقبول بهذا المعنى يعبر عنه كما يلي : « ولايات متحدة للعالم » ، وذلك بانتظار ان يؤدي انتصار الشيوعية الشامل الى زوال الدولة نهائياً ، بما في ذلك الدولة الديموقراطية . كما أن هذه الصيغة ، بوصفها شعاراً ، لا أهمية كبيرة لها ، لأنها تتطابق مع الاشتراكية . فضلاً عن أنها تهمل إمكانية انتصار الاشتراكية في بلد ما .

ويصوغ لينين نظريته على النحو التالي ، إذ يربطها صراحة بقانون التطور المتفاوت :

« ان التفاوت في النمو الاقتصادي والسياسي هو قانون مطلق للرأسمالية . وينتج عن ذلك ان انتصار الاشتراكية ممكن في البدء في عدد محدود من البلاد الرأسمالية ، او في بلد واحد » .

« ان الشكل السياسي للمجتمع الذي تنتصر فيه البروليتاريا بإسقاط البورجوازية سيكون الجمهورية الديموقراطية ... ان الغاء الطبقات مستحيل دون دكتاتورية الطبقة المضطهَدة » .

ونجد هنا مرة أخرى المسألة المركزية : الدكتاتورية وعلاقتها بالديموقراطية . وهي ترتبط هنا بقانون النمو المتفاوت ان كل بلد ، في رأي

لينين ، يمر ، ويجب ان يمر ، في طور الديموقراطية ، طور الدكتاتورية الديموقراطية ، طور الدكتاتورية البروليتارية ، ولكن لا بآن واحد ، ولا بشكل واحد . فكل بـــلد إذن سيمر في طور التحول الثوري للعلاقات الاجتماعية عندما تحين ساعته ، وعلى طريقته ، ولمدة تطول او تقصر تبعاً للوضع التاريخي . ذلك ان الدكتاتورية البروليتارية ليست مهمتها اسقاط البورجوازية وحسب ، بل وبصورة خاصة التحويل الاجتماعي ، تحويل جميع الطبقات والبروليتاريا نفسها : إلغاء الطبقات .

وقبـل ان نعود الى النظرية اللينينية في الدولة والدكتاتورية ، من أجـل تعميقها ، نذكر واقعة معروفة قليلا (باستثناء اولئك الذين يُعنون بصورة خاصة بالماركسية – اللينينية) . لماذا غير الحزب الاشتراكي – الديموقراطي الروسي ، أو بالأحرى جناحه « البلشفي » ، اسمه الرسمي ؟ لماذا تسمي الأحزاب الماركسية – اللينينية نفسها « احزاباً شيوعيـة » ؟ ألأنها تريد – كما يظن الناس – إقـامة الشيوعية مباشرة ، دون المرور بالاشتراكية ؟

كتب لينين يقول ، إن تسمية « الاشتراكية – الديموقراطية » غـــير صحيحة علمياً . فالمجتمع لا يمكن أن ينتقل من الرأسماليـة الا الى الاشتراكية . ذلك ان الديموقراطية لا تمثل بنية اجتماعية او نظاماً اقتصادياً (نمط انتاج) ، بل إن مايمثل ذلك هو الاشتراكية وحدها ، معرّفة على انها الملكية الجماعية (الاجتماعية) لوسائل الانتاج ، وتوزيـع المنتجات تبعاً لعمل كل واحد (كماً ونوعاً) .

والاشتراكية نفسها ليست سوى مرحلة وسيطة ، انتقال نحو الشيوعية ، تحدده الصيغة « من كل حسب قـــدراته ، ولكل حسب حاجاته » . وتعبير « الاشتراكي – الديموقراطي » إذن لا معنى ماركسياً دقيـــقاً له . وفضلاً عن ذلك ،

« فان الجزء الثاني من الاسم ليس صحيحاً من النـاحية العلمية . إذ

الديموقراطية شكل للدولة . بينما نحن ، الماركسيين ، أعداء لكل دولة ».

ومن هنـــا التسمية بالحزب الشيوعي ، للدلالة على الهدف التاريخي ، اي تحقيق الحرية الانسانية الكاملة ، والسيطرة على قوانين الطبقة والمجتمع ، كما تدل التسمية ايضاً على الغاء الدولة، ورفض الدولة أيا كانت في الفكر الماركسي.

بيـد ان الماركسية تتميز من الفوضوية في انهـا تعترف بضرورة الدولة للانتقال الى الاشتراكية . لا دولة من نموذج الديموقراطية البرلمانية البورجوازية ـ بل دولة جديدة على غرار كومونه باريس ، او السوفيتات لعامي ١٩٠٥ و١٩١٧ . ان العمال الذين يعتـبرون انفسهم « اشتراكيين ـ ديموقراطيين » هم ، من وجهة نظر ذاتية ، مناضلون ومرشدون للجماهير . بيد انه « **حـان الوقت لتمييز الذاتي من الموضوعي** » . اما من وجهة موضوعية ، علمية ، فالتسمية خطأ . انها تتيح المجال للاوهام والخديعة . فينبغي اذن تبديلها .

كيف يعرف لينين الديموقراطية سياسياً؟ بصورة جد واضحة ، انهـــا : « **حل المشكلات السياسية من قبل جمهور السكان** ». هي اذن سلطة « الشعب بالشعب ومن أجل الشعب » ، حسب الصيغة الكلاسيكية البورجوازية ، بشرط أن تصبح هذه السلطة فعلية . وبهذا المعنى (وهذا ما نعرفه مما سبق) فان مفهوم الديموقراطية نفسه ينطوي على تناقض داخلي . فالديموقراطية ، بوصفها دولة ، تتضمن الاكراه والشرطة والجيش والتسلح . والديموقراطية الكاملة تكف عن ان تكون ديموقراطية ، لأن الديموقراطية هي سيادة الشعب ، ولا يمكن للشعب ان يمارس سيادة على نفسه ، وأن يتسلح ضد نفسه .

لنحاول إذن ان نتبين بوضوح في خضم هذه التناقضات في المفاهيم السياسية . انها باطنة ، مشخصة ، واقعية ، موضوعية وفعلية ـ وتخضع للتحليل الديالكتيكي . ولمعرفتها ينبغي تحديد واستقصاء طبيعة الدولة نفسها بعمق . ولهذا الغرض يعود

لينين في« **الدولة والثورة** » (المكتوب عام ١٩١٧ ، في ذروة الفترة الثورية) الى نصوص ماركس وانجلز عن الدولة ، ليعيد اليها معناها الذي خبا وليعمقها .

ان الدولة ، كأي واقع ، تنشأ وتنمو ،وتتدهور،وتزول . ان لها تاريخاً ، تحكمه قوانين الديالكتيك الشاملة . وهي ، بوصفها بنية فوقية لمجتمع معين او بنية معينة او نمط انتاج معين – تنطوي على قسط من الأوهام والظواهر (الايديولوجيا) وقسط من الوقائع الفعالة (المؤسسات) .

ولئن كانت الدولة تنطوي على تناقضات (ولئن كان مفهوم السلطة السياسية نفسه ينطوي على تناقضات) ، فلأن الدولة تجيب عن مسائل تطرحها التناقضات الموجودة في المجتمع وتحاول حلها .

«ان الدولة هي نتاج وتجلي النزاعات الطبقية التي لا يمكن التوفيق بينها» .

ان الدولة تظهر في وقت ، وبنسبة ، لا يمكن معها حل هذه التناقضات الطبقية ، ولا التوفيق بينها . وبالمقابل فان وجود الدولة يكشف عن تناقضات طبقية لا يمكن التوفيق بينها . بيد أن الدولة تنهض فوق المجتمع كله ، **وفي الظاهر** اذن فوق الطبقات . وهؤلاء الذين يقعون في شرك الظواهر ، من مؤرخين وسياسيين وعلماء اجتماع واخلاقيين ، ينسبون الى الدولة عامة ، وبخاصة الى الدولة الديموقراطية ، دور الموفق ، الحكم . ولو اننا فحصنا محتواها الواقعي ، لتبينا ، بالعكس ، ان الدولة تسهم في إقامة وتكريس «نظامها» ، النظام المقابل لسيطرة طبقة معينة : نظام اقطاعي ، نظام بورجوازي،وسواهما . وحتى الآن قامت الدولة باسباغ المشروعية على الاستغلال والاضطهاد وترسيخها ، مع تخفيف النزاع بين الطبقات،دون ان تتمكن من القضاء عليه . فهي إذن جهاز لسيطرة طبقة على أخرى . وكون الدولة تضع نفسها فوق المجتمع ، بل و « تبتعد أكثر فأكثر عن المجتمع » ، حسب تعبير انجلز الذي استخدمه كاوتسكي بمعنى انتهازي ، لا

يسلبها شيئاً من وظائفها، ولا يلغي ابداً ضرورة الالغاء الثوري لجهاز الدولةالذي أحدثته الطبقة المسيطرة .

ان من يقول دولة إنما يقول إكراهاً ، انعداماً للحرية . ومن يقول دولة يقول قوة ، وقوة مسلحة كشرطـه وجيش دائم . هـذه القوة المسلحة تحول دون الصراع المسلح بين الطبقات المتعـادية ، الذي يستتبـع خراب المجتمع – او تحوله الثورى . بل ان الدولة يمكن أن تحمي احيـــاناً الطبقات المستعبَدة ضد المضطهِدين المستعبدين لإساءة استخدام قوتهم باتجاه مصالحهم الاقتصادية . وتتولى الدولة ايضاً وظائفالادارة، ووظائف ثقافية. وهذه الوظائف تخفي جوهر الدولة الطبقي ، بينما تمارس هـذه الوظائف نفسها ، تحت ستار « الصالح العـــام » ، و « النظام » و «السلم الاجتماعي» ، بمعنى طبقي . والميزانية؟ انها ميزانية طبقية. والتعليم ؟ انهمشرب بايديولوجيا الطبقات المسيطرة ، او بايديولوجية تخدمها .

ان هيمنة المال ، والثروة ، والرأسمالية ، والبورجوازية

« هي أكثر اماناً في الجمهورية الديموقراطية ، لأنهـا لا تتوقف على غطاء سياسي سيء للرأسمالية ، ان الجمهورية الديموقراطية هي افضل غطاء للرأسمالية » (١)

لأنها تترك حرية العمل لقوانين الرأسمالية الاقتصادية ، او تكافح آثارها حين ترتد هذه الآثار ضد الرأسمالية . ولأن هذا الشكل يتيح انتقاء الفرقـــاء الممسكين بالسلطة وتغييرهم ، تبعاً لمصالح البورجوازية .لأن تناقضاتها الداخلية ، وتباين مصالحها ، وانقساماتها ، وصراعاتهم ، انماتجري دون ان تخلخل،او مخلخلة بأقل ما يمكن ، مجموعَ المجتمع ، ونمط الانتاج الرأسمالي .

---

(١) لينين ، المجلد الثاني ، صفحة ١٧٠

أما الاقتراع العام ، فانه يسهم في النضج السياسي للطبقة العاملة ، ويتيح قياس هذا النضج . غير انه لايستطيع ان يقدم شيئاً اكثر من ذلك في الدولة الراهنة [1] .

ان الدولة ، التي ولدت مع ظهور الطبقات ، ستزول مع زوال الطبقات وتناقضاتها . ان المجتمع الشيوعي « سيطرد جهاز الدولة الى المكان الذي هو جدير به ، الى متحف الأثريات ، الى جانب دولاب الغزل العتيق والفأس البرونزية (انجلز) » . ان الدولة ستتلاشى مع تلاشي الشروط الموضوعية لوجودها. ان البروليتاريا تبدأ بالغاء الدولة البورجوازية او تحولها ، وتقيم دولتها ، وقوة القمع الخاصة بها (الدكتاتورية) التي تحل محل قوة القمع البورجوازية . ان الثورة تلغي فجأة الدولة البورجوازية . اما الديموقراطية فانها ، بعد ان تحققت وتفتحت في الديموقراطية الاشتراكية، تتلاشى وتزول ، عبر تسلسل تاريخي طويل. غير ان هذا لايمنع من :

« ان نكون مع الجمهورية ، باعتبارها افضل شكل للدولة بالنسبة للبروليتاريا ، في النظام الرأسمالي » ،

دون ان ننسى لهذا السبب ان نظام الاجر يبقى نصيبها حتى في الجمهورية البورجوازية الاكثر ديموقراطية .

ينبغي أن تُفهم ديالكتيكياً نظريات ماركس وانجلز عن طابع الاكراه والعنف في كل دولة ، عن إسقاط جهاز الدولة البورجوازية ودكتاتورية البروليتاريا من ناحية – وعن الديموقراطية وتفتحها وتلاشيها من ناحية اخرى – . ان معظم الشراح يتبعون **الطريقة الانتقائية** ، اذ يتناولون تارة هذا وتارة اخرى ذاك من مظاهر هذه المشكلة . وبذلك يحل الانتقاء محل الديالكتيك

---

(١) انجلز ، مشار اليه في لينين ، صفحة ١٧٠

الموضوعية والمشخصة . بقصد تبرير الانتهازية . لابـــد من فهم الوحدة الديالكتيكيـة للسلسلة .

« يستحيل ، دون ثورة عنيفة ، احلال الدولة البروليتارية محل الدولة البورجوازية . ان الغاء الدولة البروليتارية ، اي كل دولة ، غير ممكن الا بطريق التلاشي » [1] .

والدولة البروليتارية هي البروليتاريا **منظمة في طبقة مسيطرة .**

« ان الدولة هي تنظيم خاص للقوة . انها تنظيم العنف لقمع طبقة معينة . ماهي اذن الطبقة التي ينبغي على البروليتاريا ان تقمعها ؟ انها بدهياً الطبقة المستغِلة وحدها ، البورجوازية » [2] .

ان الدور الثوري للبروليتاريا يفضي الى الدكتاتورية . انه يحطم المؤسسات التي تميز المجتمع البورجوازي وسلطة الدولة المركزية الخاصة به ، بيروقراطيتها وجيشها ، والطفيليات على جسم المجتمع البورجوازي ، الناجمة عن تناقضه الداخلي ، والتي « **تسد** » مسامه الحيوية .

هـذا هو بشكل خاص معنى كومونة باريس : ان صراع الطبقات ، صراع البورجوازية ضد الاقطاع ، ثم صراع البروليتاريا ضد البورجوازية ، قد اتخذ في فرنسا طابع نقاء كلاسيكي . ان فرنسا هي البلد الذي دار فيه صراع الطبقات التاريخي بعزيمة حتى النهاية (انجلز) .

ويشرح لينين : **لقد اصبحت هذه الملاحظة قديمة ، اذ منذ عام ١٨٧١ حدث انقطاع في النضال الثوري للبروليتاريا الفرنسية . ومع ذلك ، فان**

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

هذا الانقطاع ، مهما يكن طويلاً ، لايستبعد مطلقاً امكانية اثبات فرنسا انها ، في الثورة البروليتارية المقبلة ، ستكون البلد الكلاسيكي لنضال الطبقات [١] » .

ان دكتاتورية البروليتاريا ضرورية لا لإسقاط البورجوازية وحسب ، بل للفترة التاريخية التي تفصل الرأسمالية عن الشيوعية . ويتم ذلك بأشكال سياسية عديـدة شديدة التنوع ، إلا ان جوهرها كلها يبقى بالضرورة واحداً ، دكتاتورية البروليتاريا ، مثلما ان اشكال الدولة البورجوازية كثيرة التنوع ، إلا ان جوهرها واحد : دكتاتورية البورجوازية .

ان البروليتاريا تستطيع ان تلغي النظام البرلماني البورجوازي ، لا المؤسسات التمثيلية . بل انها ، على العكس ، تعمل على تحسين هذه المؤسسات ، وتجعلها ممثلة بصورة اكثر تشخيصاً لمصالح الشعب (الطبقة الفلاحية المتحدة مع الطبقة العاملة) ، وبخاصة مصالح البروليتاريا . انها تقيم مركزية السلطة والتنظيم الاقتصادي ، لا على طريقة المركزية البيروقراطية البورجوازية ، بل عن طريق توحيد حر للهيئات الشعبية في كل واحد . انها بدلاً من ان ترد الوحدة القومية الى تنظيم فدرالي ، الى ذرات من الهيئات المحلية ، تنظم الوحدة القومية بصورة اكثر تشخيصاً من البورجوازية ، وذلك عن طريق مركزية ديموقراطية حقيقية. انها تقوص طفيلية الدولة ، وما الى ذلك .

وبذلك فان دكتاتورية البروليتاريا ، الدكتاتورية ضد البورجوازية ، تمثل الديموقراطية بالنسبة للجماهير ، للشعب ، وبصورة أخص للطبقة العاملة . اما الديموقراطية البورجوازية فقد كانت تمثل الحرية (النسبية) والديموقراطية بالنسبة للبورجوازية ، ولكنها تمثل الدكتاتورية ضد الجماهير الشعبية ، والبروليتاريا

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، صفحة ١٨٥ .

بصورة أخص . وبذلك فان تعميق الديموقراطية يحولها الى دكتاتورية بروليتارية؛ وهذه نتيجة لطابعها المتناقض . ان التحويل الثوري للديموقراطية البورجوازية يحقق الديموقراطية ، دون ان تفقد بذلك صفتها كدولة ، اي كإكراه يتلاشى فقط فيما بعد .

« ان تنمية الديموقراطية حتى النهاية ... هي احدى المهام الاساسية للثورة الاجتماعية . ان النظام الديموقراطي ، أيا كان ، اذا أخذ منعزلا ، لن يعطي الاشتراكية . بيد ان النظام الديموقراطي ، في الحياة ، لن يؤخذ قط « منعزلاً » ، بل « سيؤخذ في مجموعه » ، وسيباشر ايضاً أثراً على الاقتصاد ، ويحرك تحوله ، كما انه سيتأثر بالتطور الاقتصادي ... وسواه . تلك هي ديالكتيك التاريخ الحي [1] » .

ان الديموقراطية البورجوازية ليست ديموقراطية الا « لأقلية ضئيلة ، انها ديموقراطية الاغنياء » . انها تعمل كآلية لمصلحة البورجوازية ، التي تقيد الاندفاعة الديموقراطية تبعاً لحاجاتها (مثال : تنظيم الصحافة) . ان الديموقراطية الرأسمالية ، بوصفها ديموقراطية ، **هي « ضيقة ، تستبعد الفقراء بخبث ، وهي ماكرة بعمق »** . إنها لا تستطيع أن توصل الى الاشتراكية والشيوعية دون صدامات ـ دون حل متصل الحلقات . كما ان البروليتاريا لا تستطيع ان تكتفي بتوسيع الديموقراطية البورجوازية . وليس هذا الا مظهراً من مظاهر المشكلة السياسية . ان على البروليتاريا ، مع توسيع الديموقراطية ،التي تغدو بذلك **للمرة الاولى** ديموقراطية من اجل الشعب ، ان توجه جهاز الدولة ضد البورجوازية ، وتقيد حريات المضطهدين .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥

« فما دامت البروليتاريا في حاجة الى دولة ، فان ذلك ليس من اجل الحرية ، بـــل من أجل قمع خصومها ، وحين يصبح ممكناً التحدث عن الحرية ، فان الدولة لاتعود موجودة بهذه الصفة[1] » .

ومع ذلك فان دكتاتورية البروليتاريا تتضمن وتغلف الديموقراطية للاغلبية الساحقة من الشعب مع استبعاد الديموقراطية عن المضطهدين . ــ ذلكم هو التحول الذي يصيب الديموقراطية في الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية . وفي عهد هذه الاخيرة فقط يمكن الحديث حقا عن الحرية . وعندذاك تصبح الديموقراطية الكاملة ممكنة ، دون استثناء . إلا انها لن تكون بعد ذلك ديموقراطية :

« ان الشيوعية وحدها قادرة على إعطاء ديمقراطية كاملة . وكلما أضحت الديموقراطية أكثر كمالا عجلت في كونها غير لازمة ، وتلاشت من تلقاء ذاتها »[1] .

وعلى هذا الطريق ، يمكن لبعض المؤسسات ــ كالقوة المسلحة وجهاز الدولة او البيروقراطية ــ ان تتلاشى اولا ، في الشروط الموضوعية والمشخصة التي تتيح هذا الزوال . وينبغي علينا ان نشير هنا الى ان لينين ، المنغمس في المشاكل العملية الواقعية . وفي تطبيق النظرية والخط العام كما حددهما ــ اضطر ، في حالة مشخصة ، الى التخلي عن بعض أفكار ونظريات هامة : ففي كتاب **« الدولة والثورة »** - ١٩١٧ - كتب :

« ما أن تستطيع اغلبية الشعب قمع مضطهديها بنفسها ، حتى تزول الحاجة الى قوة قمع خاصة . وبهذا المعنى تأخذ الدولة في التلاشي . وبدلا من مؤسسات

(١) انجلز ، مشار اليه في لينين ، المختارات ، المجلد الاول ، ص ٢٣٣

(٢) لينين ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

ذوات امتيازات لاقلية ذات امتيازات (موظفين ذوي امتيازات ، وقادة الجيش الدائم) ، فان الاغلبية نفسها تستطيع ان تنهض بهذه المهام . وبقدر ما يمارس مجموع الشعب وظائف سلطة الدولة ، تصبح هذه السلطة أقل ضرورة» (المجلد الثاني ، ص ١٩٤ - ١٩٥) .

وفي حياة لينين ،وفي الشروط المشخصة للثورة الروسية (الحرب الاهلية، اتساع ارجاء البلد ، تعدد القوميات ، الوضع المتأخر للقوى الانتاجية ، وما الى ذلك) تحقق ترسخ الدولة وجهازها بدلا من تلاشيها المقدر . وشهد لينين بقلق هذا التطور . وحاول ان يوجهه ويسيطر عليه ، لأنه رأى اخطاره . ولقد كانت هذه هي ، بمعنى ما ، المأساة السياسية للسنوات الاخيرة من حياة لينين .

ان الدولة اذن « **شر ترثه البروليتاريا** » . والغاء الدولة هو في الوقت ذاته الغاء للديمقراطية ، لأن الديموقراطية هي « **الدولة التي تعترف بخضوع الاقلية للاغلبية ، هي تنظيم العنف الذي تمارسه بصورة منظمة طبقة ضد اخرى** »[1]. الهدف النهائي ؟ إلغاء الدولة ، إلغاء العنف المنظم والمستمر ، إلغاء كل عنف يمارس ضد الانسان . وهذا لن يصبح ممكنا الا عندما يتعود الناس على ان يحترموا ، **دون عنف ولا إذعان** بعـــد ان تكون قد تبدلت العلاقات فيما بينهم وكذا الممارسة الاجتماعية ، شروط الحياة الاجتماعية » (المرجع السابق) .

وطبيعي ان الماركسيين ، باعتبارهم غير طوبائيين ، لا ينكرون ان الاساءات الفردية ممكنة ، لا يمكن تفاديها حتى في المجتمع الشيوعي . ومهما يكن فانه لن يكون ثمة « شخص يُقمع » بالمعنى **الطبقي** ، اذ لا حاجة قط ، بالنسبة للاساءات الفردية ، الى آلة ، إلى جهاز خاص للدولة . فالناس سيتكفلون بذلك ، مثلما يمنعون اليوم استخدام العنف ضـد المرأة . وما دام السبب الاجتماعي العميق

---

(١) لينين : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

للاساءات ولانتهاك قواعد الحياة الاجتماعية يكمن في وضع الجماهير – من استغلال وبؤس وحاجات غير مشبعة – فان هذه الاساءات نفسها ستتلاشى .

وتلاشي الدولة يتطلب اذن أسسا موضوعية واقتصادية واجتماعية ، واول مايتطلبه من الناحية الاقتصادية ، نمو كبير في القوى الانتاجية .

وفي الاشتراكيــــة ، اي في الطور الاول من الشيوعية ، لايمكن ان تتحقق العدالة والمساواة . ذلك ان المجتمع يكون قد قوض ، فقط ، « الظلم » الأساسي الذي يقوم على الملكية الفردية لوسائل الانتاج . وهو مايزال عاجزاً عن تقويض الظلم الآخر : التوزيع المتفاوت لاشياء الاستهلاك تبعاً للعمل المقدم . فثمة فروق ظالمة ستستمر ، بالرغم من ان استغلال الانسان للانسان قد اختفى ، إذ لم يعد ممكناً لفئة « خاصة » أن تستولي على وسائل الانتاج : من أرض وآلات ومشروعات . ان الحق البورجوازي أثر من آثار الماضي ، لايزول آنذاك الاجزئياً ، بوصفه يعترف بالملكية الفردية لوسائل الانتاج . وتأخذ الدولة في التــــلاشي ، بقدر مالا يعود للرأسماليين من وجود . إنها لاتزول ، لأنها تستمر في حماية ماتبقى من الحق البورجوازي ، التفاوت الواقعي ، الذي ينظم توزيع منتجات العمل وفقاً لمباديء : من لاينتج لايستهلك . لكم ٌ ونوع متساويين من العمل كمية ٌ متساوية من المنتجات » .

إن الاساس الاقتصادي لزوال الدولة ، هو الشيوعية بعد أن تبلغ درجة عالية بحيث يختفي معها التناقض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، ويتعذر تحديد تاريخ لهذا الحديث . وبعد النمو الضخم في الانتاجية ، الذي اصبح ممكناً بمصادرة الرأسماليين ، وعندما يستطيع المجتمع ان يحقق مبدأ « من كل بحسب قدرته ، ولكل حسب حاجاته » ، عند ذاك لايعود للدولة اي مبرر وجود .

آنذاك تظهر الديموقراطية بوجه جديد . انها مرحلة على الطريق من الاقطاع الى الرأسمالية ، ومن الرأسمالية الى الشيوعية . ان الديموقراطية تعني : المساواة .

إلا أنها مساواة شكلية فقط . وتتحقق في البداية المساواة بين اعضاء المجتمع بالنسبة للتفاوتات القانونية والسياسية ، ثم بالنسبة لتملك وسائل الانتاج ، ثم بالنسبة لتوزيع السلع الاستهلاكية . عند ذاك (تتحقق) المساواة العملية ، المساواة المشخصة ، وهي في آن واحد اكتمال الديموقراطية وزوالها .

« ان المهم هو ان نعرف مدى كذب الفكرة البورجوازية الشائعة القائلة ان الاشتراكية هي شيء ميت ، متيبس ، معطى دفعة واحدة . بينما في الواقع ، تبـــدأ بالاشتراكية وحدها حركةُ تقدم سريع في جميع مجالات الحياة الاجتماعية والخاصة ... وتشارك في هذه الحركة اغلبية السكان اولاً ، ثم جميعهم [1] » .

ان للديموقراطية مظهرين : مظهرا اكراه ، بوصفه شكلاً للدولة ، ومظهر اعتراف رسمي بالمساواة ، بالحق المتساوي للجميع في تقرير شكل الدولة هذا . والديموقراطية ، في درجة معينة من نموها ، تتيح اذن للبروليتاريا ان تتحد ، وتفتت وتفجر آلة الدولة البورجوازية ، وتستبدل بها آلة دولة أكثر ديموقراطية منها ، رغم كونها تظل آلة دولة

في هـذه الدرجة ، **« تخرج الديموقراطية عن اطـــار المجتمع البورجوازي »** [2] . ان هذا المجتمع والرأسمالية هما اللذان جعلا هذا التطور ، هذه القفزة النوعية للديموقراطية ممكنيْن . وذلك باعلان الديموقراطية الشكلية ، بادخال الانضباط ورقابة العمل في المشروعات الضخمة التي أصبح العمل فيها جماعياً ، والاحصاء والمحاسبة المصرفية ، وسوى ذلك .

ان الانتهازيين ، (كاوتسكي وسواه) ، لم يفهموا الفرق بين النظام البرلماني

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، ص ٢٤٣

(٢) لينين ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤

البورجوازي (الذي يوحد الديموقراطية ، لا من أجل الشعب، مع البيروقراطية ضد الشعب) - والنظام الديموقراطي البروليتاري الذي سيقوض جذور البيروقراطية .

ان « دكتاتورية » البروليتاريا « تتناقض » والنظام الديموقراطي في نظر الانتهازيين ، كما في نظر الفوضويين . وهم ، بدلاً من تحليل المتناقضات يأخذون أحد الحدين دون الآخر . انهم يرون التناقض على انه عدم توافق ، واستبعاداً مطلقاً لأحد الحدين من قبل الآخر .

وحين تستطيع الاشتراكية انقاص ساعات يوم العمل ، ورفع الجماهير الى حياة جديدة ، وتتيح للجميع شغل «الوظائف العامة»: في التنظيم والادارة - وحين تستطيع المرأة المسكينة ، ربة البيت ، ان تكتسب هذه القدرة ، عند ذاك تتلاشى الدولة . والخلاصة فان لينين ، بعد ان ميز بوضوح بين المفاهيم والمراحل ، بين الديموقراطية والدكتاتورية ، بين الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية - يبين ، عبر الانقطاع ، استمراراً ، وحركة تاريخية تقدمية .

واذ يعاود لينين الجدل، فيما بعد، ضد كاوتسكي، فانه يلح بشكل اقوى على الدكتاتوريه :

« ان الدكتاتورية سلطة تقوم على العنف ولا ترتبط بأي قانون . ان دكتاتورية البروليتاريا هي سلطة اكتسبت ، وتستمر ، بالعنف الذي تمارسه البروليتاريا ضد البورجوازية والذي لايرتبط بأي قانون » .

لقد كتب مؤلف « **الدولة والثورة** » قبل الثورة ، وقبل استيلاء البروليتاريا والحزب البلشفي على السلطة .. أما كتاب « **الثورة البروليتارية وكاوتسكي المرتد** » ، وكتاب « **مرض الشيوعية الطفولي** » فأحدهما معاصر للتجربة الثورية ، والآخر تال لها بزمن قليل . وفي هذين الكتابين جعل لينين صيغه

المتعلقة بالدكتاتورية أكثر جزمـــاً . فخصمه ، في المؤلف الأول ، الماركسي « الارثوذكسي » كاوتسكي ، يغطي خيانته ، كما يقول لينين ، بحيل وأدلة مرتبكة ، وبتشويش وسوء فهم يحفلان بها بصورة متصلة. إنه يخلط بين « شكل الحكومة » و « الدولة » ، بينما يمكن أن توجد ، وقد وجدت (في انجلترة ، وبصورة أخص انجلترة في زمن ماركس والرأسمالية الليبرالية) ، ملكيات بدون طابع عسكري ولا بيروقراطي ، مثلما توجد جمهوريات ذات طابع عسكري وبيروقراطي . إن استخدام العنف يستلزمه وجود الجهاز البيروقراطي والعسكري في خدمة البورجوازية ، في الدولة التي تقيمها هذه . فمن الممكن تصور ثورة سلمية ولكن حين تنعدم فقط هذه الخصائص . ولكي يتنكب كاوتسكي الثورة العنيفة ، ويخفي انتقاله الى جانب الليبرالية (جانب البورجوازية) ، فانه يجعل من ماركس مجرد ليبرالي ، اذ يستشهد بنصوص تتعلـــق بالرأسمالية السابقة على الاحتكار (الليبرالية) ، ويخفي ، او يحرف ، نصوص ماركس وانجلز عن الدكتاتورية ، وبخاصة عن الكومونة .

« الديموقراطية الصرفة » ؟ إنها جملة ليبرالي خادعة . فليس ثمـــة سوى ديموقراطية طبقية ، من أجل طبقة وعن طريقها ، ضد طبقة أخرى .

« ان التاريخ يعرف الديموقراطية البورجوازية التي تحل محـــل الاقطاع ، والديموقراطية البروليتارية التي تحل محل الديموقراطية البورجوازية» (وتطابق دكتاتورية البروليتاريا[1]) .

ويعود لينين الى نصوص انجلز التي سبق ذكرها . إن من الخطل أن نتحدث عن « دولة حرة » . إذ ذاك نقـــع في تناقض منطقي ديالكتيكي . فالديموقراطية البورجوازية ليس فيها شيء من « الدولة الحرة » .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني صفحة ٤٣٨ .

« أيمكن التسليم بأن العالم كاوتسكي لم يسمع ابداً بأن الديموقراطية كلما ازدادت نمواً في قوتها ، فان البورصة ورجال المصارف يخضعون البرلمان البورجوازي لسلطانهم » .

لقد تناسى كاوتسكي صفة الطابع المحدود، النسبي، التاريخي، للديموقراطية البرلمانية البورجوازية ليجعل منه طابعاً مطلقاً هو الديموقراطية « الصرفة » ، والدولة « الحرة » ![1] .

«ان الديموقراطية البروليتارية ، وسلطة السوفيتات احد اشكالها ، قد طورت الديموقراطية ووسعتها .. ان السوفيتات هي التنظيم المباشر للجماهير العاملة ... ان التنظيم السوفياتي يسهل اتحاد جميع الشغيلة والمستغلين حول طليعتهم ، البروليتاريا » .

بذلك تمحي امتيازات الثروة ، والمركز الاجتماعي ، والصلات، ولا تعود حرية الصحافة مجرد كلمة . إذ أن الجماهير تتصرف بالمطابع والورق ، كذلك الحال بحرية الاجتماع ، اذ أن الجماهير تتصرف بالقصور وبيوت النبلاء .

« ان الديموقراطية البروليتارية اكثر ديموقراطية بمليون مرة من اية ديموقراطية بورجوازية كانت »[2]

ان السوفيتات تحل محل الموظفين او تكون فوقهم . والسوفيتات تنتخب القضاة . أما المقاعد الانتخابية الآمرة والموقتة وسواها فتخضع للرقابة .

وفي الوقت ذاته فان هذه الديموقراطية تمارس الدكتاتورية . اذ لا يمكن ان نصادر دفعة واحدة جميع المالكين العقاريين وجميع كبار الرأسماليين ، في بلد هام .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، ص ٤١ ؛

(٢) لينين ، المرجع السابق ، ص ٤٣ ؛

« ان المصادرة ، بوصفها عملا قانونياً او سياسياً ، بعيدة عن ان تحل المشكلة » .

اذ ينبغي عزل كبار المالكين والرأسماليين وابدالهم بادارة أخرى .

« ليس ثمة مساواة بين المستغِلين الذين تميزوا، طوال اجيال عديدة، بمعارفهم ، وبشروط حياتهم القائمة على الثراء والعادات المكتسبة ـ وبين المستغَلين الذين ما تزال جمهرتهم ، مضطهدة ، أمية ، جاهلة ، مذعورة ، مفككة ، حتى في الجمهوريات البورجوازية الأكثر تقدماً . إن المستغِلين يحتفظون بالضرورة ، وبعد الثورة بزمن طويل ، بمجموعة من المزايا الواقعية ، فيبقى لهم المال (الذي يستحيل الغاؤه بجرة قلم) ، وممتلكات عقارية غالباً ما تكون كبيرة ، وعلاقات ، وعادات في التنظيم والادارة ، ومعرفة بجميع « اسرار » الادارة .. ومعرفة اعمق ... وخبرة متفوقة بما لا يقاس في الفن العسكري ، وما الى ذلك .

واذا لم يقهر المستغِلون إلا في بلد واحد ـ وهذه هي الحالة النموذجية ، باعتبار ان الثورة بآن واحد في بلاد متعددة تبقى استثناء نادراً ، فانهم يظلون أقوى من المستغَلين »[1] .

ففي كل ثورة عميقة تحتفظ الطبقات المسيطرة طوال سنين بمكاسب كبيرة ، وتواجه مقاومة طويلة ، عنيدة ويائسة (التأشير من لينين) . إن الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية يستغرق فترة تاريخية تحتفظ الطبقات المسيطرة خلالها دوماً بأمل العودة ، أمل يتحول الى محاولات « تتمتع بطاقة مضاعفة ، وعاطفة جامحة ، وحقد متزايد اضعافاً مضاعفة لاستعادة الفردوس المفقود » . وستكون وراء هذه الطبقات جماهير مترددة من البورجوازية الصغيرة ، بل وجزء من المستغَلين المتأخرين (الفلاحين ، مثلا) .

(١) لينين ، المرجع السابق ، ص ٤٤٨

ومن هنا النتيجة التالية :

« ان المؤشر الضروري ، الشرط الصريح للدكتاتورية ، هو القمع العنيف للمستغِلين بوصفهم طبقة ، وبالتالي ، انتهاك « الديموقراطية الصرفة » ، اي المساواة والحرية ، تجاه هذه الطبقة [1] » .

ان السوفيتات ، وهي اداة نضال في البداية ، قد تحولت الى جهاز الدكتاتورية البروليتارية ، الى منظمة للدولة . وذلك رغم معارضة المنشفيك العملية والنظرية ، اذ كانوا يبغون اخضاع السوفيتات للدولة البورجوازية ، وذلك بقصر مهمتها على دور منظمة «طبقية» مع بقاء الدولة (من أجلهم ، بقائهاهي وإياهم) ، كياناً خارج الطبقات وفوقها [2] .

وفي الاقسام الاخيرة من هذا الكتاب ، يستأنف لينين المجادلات ضد كاوتسكي ، وهي قديمة ، حول الأممية ، والمذهب « الاقتصادي » ، والعلاقة بين الاقتصادي والسياسي ، وغيرها . ويلخص ويكثف ، في بضعة سطور ، العملية الثورية الجارية آنذاك (١٩١٨) :

« اولا مع « كل الطبقة الفلاحية ضد الملكية ، ضد كبار المالكين العقاريين ، ضد الاقطاع (مع بقاء الثورة رغم ذلك بورجوازية ، ديموقراطية بورجوازية) . ثم ، مع الطبقة الفلاحية الفقيرة ، مع شبه البروليتاريا ، مع جميع المستغَلين ، ضد الرأسمالية ، بما فيها ابناء الريف الاغنياء ، الكولاك ، والمضاربون . وبهذا تصبح الثورة اشتراكية . ان محاولة اقامة سور صيني بينهما بصورة صنعية ، وفصلها بوسيلة اخرى غير درجة استعداد

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، ص ٤٥١

(٢) لينين ، المرجع السابق ، ص ٤٥٦ ومابعدها .

البروليتاريا ودرجة اتحادها مع الفلاحين الفقراء ليس الا تشويها للماركسية ما بعده تشويه [١] ».

ولو أن البروليتاريا البلشفية، في المراكز الصناعية الكبرى، لم تعرف كيف تجمع من حولها فقراء الريف، وتدفع بهم الى الوقوف ضد الفلاحين الاغنياء،

« لثبت بالدليل ان روسيا لم تكن ناضجة للثورة الاشتراكية » .

ولبقيت الطبقة الفلاحية « واحدة » ، اي تحت السيطرة الاقتصادية والسياسية والمعنوية للبورجوازية. وما كانت الثورة لتخرج عن الاطار الديموقراطي البورجوازي (وهذا لا يعني انه ما كان ينبغي على البروليتاريا ان تتسلم السلطة الموصول بالثورة الديموقراطية البورجوازية الى غايتها ، وتحرض الحركة الاممية الديموقراطية والبروليتارية ، وتقيم دولتها ، الخ [١]). ومن ناحية اخرى لو ان البروليتاريا المنتصرة في اكتوبر - نوفمبر (تشرين الاول - تشرين الثاني) ١٩١٧ أقامت الاشتراكية « بمراسيم » ، دون ان تنتظر وتعد وتحقق تمايز الطبقات في الريف - لو انها حاولت الاستغناء عن التحالف السياسي مع الفلاحين ، وعن منح امتيازات للفلاح المتوسط - لكان هذا ضرباً من البلانكية ، لا الماركسية ؛ لكان هذا محاولة من أقلية ، وعدم فهم لواقع كون الثورة الفلاحية ماتزال ثورة بورجوازية ، وانه يستحيل ، على بلد متأخر ، ان يحول هذه الثورة البورجوازية الى ثورة اشتراكية ، **دون سلسلة من الانتقالات ودرجات الانتقال .**

ومن هنا البرنامج الزراعي (الذي لم يفهمه مطلقاً ، بل شوهه ، الارثوذكسي كاوتسكي) ، ومرحلتاه :

---

(١) لينين، المرجع السابق ، ص ٤٩٣

(٢) لينين، المرجع السابق ، ص ٤٩٧

١ ـ توزيع الارض (الاصلاح الزراعي) وتأميم الاراضي .

٢ ـ الانتقال عن طريق الزراعة المشتركة (التعاونيـة) من الاستغلال الصغير المفتت الى الاستغلال الكبير الجماعي .

ان الشعار الاول والبند الاول ليسا اشتراكيين. بيد انهما يستجيبان للمطالب الفلاحية . فضلاً عن ان هذه المساواة الديموقراطية ـ البورجوازية تنطوي على اهمية ثورية . ومن هنا المراسيم التي صدرت بصدد المسألة الزراعية[1] ، لتنظيم المصادرة وتوزيع الاراضي ، مع الابقاء على المشروعات المتقدمة تقنيا ، ومنح امتيازات للجمعيات والاتحادات .

في هذا الكتاب الموجه ضد كاوتسكي تتأكد فكرة سابقة للينين : ان دكتاتورية البروليتاريا تفرضها ، لاقوة البروليتاريا ، بل ضعفها ، وكذلك جسامة المهام المفروضة عليها ، مادام ينبغي عليها ان تحول العلاقات الاجتماعية ، وبخاصة في هذه الكتلة البورجوازية الصغيرة ، التي يترتب عليها ان تجد فيها حلفاء لها : الطبقة الفلاحية . ان هذه الافكار مصوغة في مؤلفات تلك الفترة بوضوح متزايد باستمرار .

« ان روسيا بلد من البورجوازية الصغيرة . فاذا انضمت البورجوازية الصغيرة الى البروليتاريا فان ذلك وحده سيؤمن ، بسهولة وبسرعة ، وبشكل سلمي وهادىء ، انتصار الثورة والسلم والحرية »[2]

غير ان جماهير البورجوازية الصغيرة ، جماهير الفلاحين ، لاتخلو من تردد.

ومهام الثورة البروليتارية تختلف عن مهام الثورة الديموقراطية البورجوازية . فقد كان لهذه صفة سلبية هدامة بصورة خاصة : تقويض الاقطاع . اما فيما يتعلق بالعمل التنظيمي الايجابي ، فقد كانت البورجوازية تتكفل به ، على قاعدة متينة :

---

(١) لينين ، راجع ايضاً المجلد الثاني ، ص ١٤٦ ، وص ٢٧٥ ومابعدها ، و ٢٨٦ ومابعدها ، و ٦٥٠ ومابعدها .

(٢) لينين ، مهام الثورة ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ .

هي السوق الوطنية والدولية ، وهي موجودة من قبل .

وبالعكس ، فان مهام البروليتاريا تتجلى في اقامة نظام معقد للعلاقات (الاجتماعية) يشمل انتاج المنتجات وتوزيعها لعشرات الملايين من الناس .

« ان مثل هذه الثورة لايمكن ان تتحقق بنجاح الا بشرط ان تبرهن غالبية السكان ، وقبل كل شيء غالبية الشغيلة ، عن نشاط خلاق ، تاريخي . واذا وجدت البروليتاريا والفلاحون الفقراء في ذواتهم قدراً كافياً من الوعي والتعلق بمثلهم الاعلى ، ونكران الذات ، والعزيمة ، عند ذاك فقط يتأمن انتصار الثورة الاشتراكية »[1]

ان نشاط الجماهير الخلاق يفترض في آن واحد الدولة الجديدة ، الدولة السوفياتية التي تسهم فيها الجماهير عن طريق السوفييتات ـ والدكتاتورية ، أي السلطة التي لاقيود عليها للعمل في المجال الاقتصادي (مراقبة صارمة على الانتاج والتوزيع ـ زيادة المردود وانتاجية العمل ـ التحويل الاشتراكي للانتاج بصورة فعلية) .

ذلك ان الثورة السياسية ليست سوى الفصل الاول من تحويل اقتصادي واجتماعي طويل وشاق (اقامة « تشكل اقتصادي ـ اجتماعي » جديد ، اوبعبارة اخرى ، مرحلة جديدة في التشكل الاقتصادي ـ الاجتماعي) .

ومن هنا عكس الشعارات مباشرة ، اي قلبها . مثال : زيادة المردود وانتاجية العمل ، والانضباط الصارم . فمثل هذه كانت ، قبل الاستيلاء على السلطة ، تفيد البورجوازية مباشرة . إلا ان الاشتراكية ينبغي ان تتابع هذه الزيادة في الانتاجية **على طريقتها** ، بطرقها الخاصة السوفياتية[2] .

« ان الاستيلاء على السلطة السياسية هو ، بالنسبة للبروليتاريا منظوراً اليها كطبقة ، خطوة جبارة الى الامام »[3] .

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٣٧٠ ، المهام الفورية لسلطة السوفييتات

(٢) لينين ، المجلد الثاني ، ص ٣٧٧

(٣) لينين ، مرض الشيوعية الطفولي ، المجلد الثاني ، ص ٧١٩

غير انها ليست سوى خطوة. ان «اليسارية المفرطة» تظن انها قادرة على القفز من فوق فترة تاريخية، وتحقق إلغاء المال والسوق والسلعة، وما الى ذلك، بمراسيم. ان «اليسارية المفرطة» ترفض أية مصالحة على الصعيد الاقتصادي، كما ترفضها على الصعيد السياسي. انها لا تريد ان ترى المشكلات الخطيرة جداً، التي لا يمكن الا ان تطرح، كتلك التي تنشأ مثلاً عن نوع من ذهنية رجعية للنقابات، لامفر منها في ظل دكتاتورية البروليتاريا (المرجع السابق)، لأن هذه النقابات تبقى مشبعة بالروح المهنية، الحرفية وسواها. ان الاشتراكية لا يمكن بناؤها «بمادة بشرية خيالية»، بل بالناس كما هم، باحكامهم المسبقة، وضيق افقهم، وبنتائج تقسيم العمل عليهم، وأساليب نشاطهم وما الى ذلك.

ان الغاء الطبقات لا يعني مجرد الغاء كبار المالكين والرأسماليين وحسب. بل يعني ايضاً الغاء المنتجين الصغار (بوصفهم هذا). بيد ان هؤلاء لا يمكن سحقهم، ولا طردهم، بل يجب تحويلهم، واعادة تربيتهم، بعمل تنظيمي بطيء وحذر.

«انهم يحوطون البروليتاريا من كل جانب بجو بورجوازي صغير».

ومن هنا ضرورة فرض انضباط صارم على البروليتاريا اذا كانت هذه تريد النهوض بدورها **الاساسي**، بدورها **التنظيمي**. على حزب البروليتاريا، ان يفرض هذا الانضباط، وان يبدأ بنفسه اولاً.

«ان دكتاتورية البروليتاريا نضال عنيد، دموي وغير دموي، عنيف وسلمي، عسكري واقتصادي، تربوي واداري، نضال ضد قوى المجتمع العتيق وتقاليده. ان قوة العادة لدى الملايين وعشرات الملايين من الناس هي القوة الأشد رهبة. ويستحيل خوض هذا النضال بنجاح، بدون حزب حديدي متمرس بالنضال، دون حزب يتمتع بثقة كل ماهو شريف في الطبقة المعنية، دون حزب يعرف كيف يلاحظ حالة الجمهور ويؤثر فيه.

انه لأسهل الف مرة التغلب على البورجوازية الكبيرة الممركزة من « التغلب على » (اي تحويل) الملايين والملايين من صغار ارباب العمل . فهؤلاء ، بنشاطهم اليومي ، المألوف ، الخفي ، الذين لايمكن الامساك به ، المفتت ، يحققون النتائج ذاتها الضرورية للبورجوازية ؛ اي التي تعيد البورجوازية »[1].

ان انتصار البروليتاريا الروسية أسهل من انتصارها في البلاد الكبرى الاكثر تقدما صناعياً ، بيد ان مهام الثورة ستكون هناك اكثر صعوبة، واطول امداً في سبيل انجازها .

« ان دكتاتورية البروليتاريا ، هي حرب الطبقة الجديدة البطولية التي لاتعرف اللين ضد عدو اكثر قوة ، ضد البورجوازية ، التي تضاعفت مقاومتها باسقاطها (ولو في بلد واحد) والتي تكمن قوتها لا في قوة رأس المال الدولي وحسب ؛ ولافي قوة ومتانة الارتباطات البورجوازية الدولية ، بل ايضاً في قوة العادة ، في قوة الانتاج الصغير .. اذ ان الانتاج الصغير يولد الرأسمالية والبورجوازية باستمرار ، في كل يوم وكل ساعة ، بصورة تلقائية وبنسب كبيرة . لهذه الاسباب كلها ، فان دكتاتورية البروليتاريا لايستغنى عنها »[2] .

ان البروليتاريا لا يمكن ان تنتصر على البورجوازية (لا البورجوازية كطبقة وحسب ، بل العلاقات الاجتماعية التي تساندها ، و « تولدها » باستمرار) الا بصراع - بحرب - عنيد ، يائس ، يتطلب ضبط النفس ، والانضباط ، والحزم ، وارادة لا تتزعزع موحدة .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٧١٣

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٦٩٣ .

وبالتالي فان لينين، في هذا الكتاب الذي يكافح « اليسارية المفرطة »، (بينما كان حتى ذاك الحين يحارب الانتهازية بصورة رئيسية، بيد انه يجب الا ننسى الاطروحة الاساسية عن الوحدة العميقة والخفية بين الانتهازية واليسارية المفرطة)، لا يتراجـــع الى الوراء فيما يتعلق بدكتاتورية البروليتاريا. انه، على العكس، يؤكدها، ويوسعها ويجعلها، اذا صح القول، اكثر جزماً وصرامة. فتجربة السلطة، لا تجربة التمرد وحسب، لا تجربة الحرب الاهلية وحسب، بل تحويل العلاقات الاجتماعية، أفضت الى هذه النتيجة. ودكتاتورية البروليتاريا واقامة هيئة ديموقراطية جديدة (السوفيتات) تبدوان على اهميـــة بالغة اكثر من أي وقت مضى. بيد انه لم يتراجع أبداً عن بعض التصريحات السابقة ذات الأهمية المماثلة:

« ليس العنف وحده، ولا العنف بالأساس، هو الذي يصنع جوهر دكتاتورية البروليتاريا. ان جوهرهـــا الرئيسي يكمن في روح التنظيم والانضباط ... لدى البروليتاريا »(١)

وأيضاً:

« ان دكتاتورية البروليتاريا ليست هي العنف وحده يمارس ضد المستغِلين، بل ولا العنف بالأساس، ان الأســـاس الاقتصادي لهذا العنف الثوري .. هو ان البروليتاريا تقدم وتحقق، بمقارنتها بالرأسمالية، النموذج الأسمى للتنظيم الاجتماعي للعمل. ذلك هو جوهر المسألة »(٢).

اما الهيئة العليا للمركزية في العمل السياسي، والانضباط الصارم، وبالتالي للدكتاتورية، فليست سوى الحزب. ان الحزب يقود النضال الثوري،

---

(١) لينين، المرجع السابق. المجلد الثاني، ص ٥٧٥

(٢) لينين، المرجع السابق. المجلد الثاني، ص ٥٨٧

وبالتالي نضال البروليتاريا للاستيلاء على السلطة ، وكذلك النضال من أجل التغلب على العلاقات الاجتماعية التي أصبحت عادات ممتدة الجذور خلال القرون . ان الحزب ، باسم المعرفة ، معرفة التاريخ والبنيـــة الاجتماعية وقوانينها – يحدد الاستراتيجية والاسلوب (التكتيك) .

غير ان الحزب لا يستطيع شيئاً بدون الجماهير، بدون البروليتاريا والشعب . فاللينينية تنطوي على رفض « اليسارية المفرطة » بجميع أشكالها . اليسارية المفرطة تكتفي أحياناً بالدعاية والشغب : انها لا تفهم ان الجماهير تحتاج الى الخبرة السياسية لتتحرك ، وتنتقل الى العمل الثوري ، وتكشف عن قدراتها الخلاقة غير المحدودة . وأحياناً اخرى تكتفي اليسارية المفرطة بالجملة الثورية ، وترفض أي شكل من أشكال الانسحاب ، او الدفاع او التوفيق ، في ظروف قد تخسر فيها القوى الثورية ، المعزولة ، المعركة . وهي تريد أحياناً أخرى ان تقفز من فوق فترة تاريخية ، من فوق الانتقالات ، وتحقيق الاشتراكية بالمراسيم ، والغاء السوق والمال .

ما الذي يتيح للحزب البلشفي ان ينهض بدوره التاريخي ؟

« ان تاريخ البلشفية الكامل ، منذ نشوئها حتى ايامنا هذه ، يستطيع وحده ان يفسر بصورة مرضية لماذا استطاع في اصعب الظروف ان يعد ويصون الانضباط الحديدي الذي لا غنى عنه لانتصار البروليتاريا » [1] .

ما الذي يشد هذا الانضباط ، هذه الوحدة بين النظرية والممارسة ؟ ما الذي يراقبه ويؤكده ؟ انه في المقام الأول ، وعي الطليعة البروليتارية ، وتفانيها في سبيل الثورة ، وضبطها لنفسها ، وروح التضحية لديها ، وبطولتها . غير ان الطليعة لا تكفي هي ايضاً . وما يجعل عمل الحزب ممكناً ، في المقام الثاني :

« هو استعداده للارتباط ، للتقرب واذا شئتم بعبارة اخرى ، للانصهار

---

(١) لينين ، المرجع السابق .

الى حد ما ، في الجمهور البروليتاري ، وفي جمهور الشغيلة غير البروليتارية » (تأشير لينين)[1] .

ثم يلي ذلك في المقام الثالث :

« صواب القيادة السياسية التي أقامتها هـــذه الطليعة ، صواب استراتيجيتها واسلوبها ـ تكتيكها ـ السياسي ، بشرط ان تقتنع اوسع الجماهير بخبرتها الخاصة بهذا الصواب » (التأشير من لينين)[2] .

وفيما يتعلق بروسيا ، فان تمثلها للماركسية ، وادراك الجماهير حقيقتها بوصفها نظرية ثورية حقيقية (وحقيقية وحدها) ، انما كان ثمرة

« نصف قرن من الآلام والتضحيات التي لم يُسمع بمثلها ، من البطولة الثورية الفريدة ، من الطاقة التي لا تصدق ، من انكار الذات في البحث ، ودراسة التجارب العملية ، وخيبات الأمل ، والاختبارات ، والمقارنة بخبرة اوروبا »[3] .

ولا بد اذن من حزب ماركسي يقود الجماهير الى الثورة بتربيتها انطلاقاً من خبرتها الخاصة، آخذاً في نظر الاعتبار جميع المشكلات، جميع مظاهر الواقع، بما فيها المظاهر الخاصة بكل امة ، وبكل دولة (وهو ما تهمله الاساليب اللفظية اليسارية او تجهله) .

وبعد ان اصبح معروفاً الجانب المناهض للانتهازية من البلشفية ، فان لينين يلح على المظهر الآخر : المناهض لليسارية المفرطة :

« ان الناس، في الخارج ، لم يعرفوا بعد تماماً ان البلشفية قد كبرت

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٦٩٤

(٢) لينين ، المرجع السابق .

(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٦٩٥

واشتد عودها ، وتمرست في معارك النضال التي خاضتها سنوات طويلة ضد المذهب الثوري البورجوازي الصغير الذي يشبه الفوضوية[1] بعض الشيء ».

(يقصد لينين الحركة الشعبية ، والحزب « الاشتراكي الثوري» ، مثلما يقصد « الشيوعية اليسارية » التي سبق له ان كافحها بصورة محسوسة بصدد المسألة الزراعية او الحرب ، والتي لم تكن تحمل حتى ذاك الحين اسم « التروتسكية » . ان البورجوازي الصغير ، الذي يعاني في النظام الرأسمالي من اضطهاد دائم ومن تفاقم مفاجيء في شروط حياته ،

« ينتقل بسهولة الى ثورية متطرفة ، ولكنه عاجز عن ان يكون منسجماً مع نفسه ، ومنظماً ومنضبطاً وحازماً »[2] .

ولأول مرة ، في التاريخ الحديث ، يحلل لينين هذه الظاهرة الاجتماعية البارزة : سخط البورجوازية الصغيرة الظاهر ضد الرأسمالية (في ظروف محددة بطبيعة الحال) ، وكذلك عدم استقرارها ، والسهولة في تحويلها ثورتها الى « انزلاق مسعور » الى هذا او ذاك من الاتجاهات البورجوازية . ان « اليسارية المفرطة » تتجلى في :

« ضرب من تكفير الحركة العمالية عن اخطائها الانتهازية

(المرجع السابق) » .

ان اليساري المتطرف يسخر من الانتهازي، ويحاكي الممعنين في الانتهازية (مثلاً في المسألة الزراعية او دكتاتورية البروليتاريا !) .

ان استراتيجية الاحزاب الثورية (الشيوعية) واسلوبها ـ تكتيكها ـ ينبغي ان يجمعا اكبر قدر من الحزم ومنتهى المرونة . ان عليها ان يضما الى

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٧٠٠

(٢) لينين ، المرجع ، المجلد الثاني ، ص ٧٠١

بعضها جميع وسائل النضال ، تبعاً للشروط والظروف : الشرعية اوغيرالشرعية ، السلمية او العنيفة ، البرلمانية او المتمردة ، الاقتصادية والسياسية . ان عليها ان يوحدا فن الدفاع ، وفن الانسحاب المنظم ، والانتقال السريع من الواحد الى الآخر ، واستخدام (اسلوب) التوفيق ، والمحالفات (الموقتة) ، حتى مع الشيطان ، للافادة من الاختلافات والتناقضات الموجودة في معسكر الخصم .

« ان شن الحرب لاسقاط البورجوازية الدولية ، وهي حرب أصعب واطول واكثر تعقيداً بمئة مرة من اشرس الحروب المألوفة بين الدول ، والتخلي مسبقاً عن المراوغة ، وعن استغلال تناقضات المصالح - وان تكن موقتة - بين الأعداء ، وعن عقد اتفاقات وتوفيقات مع حلفاء محتملين (وان يكونوا موقتين (لايؤمن جانبهم كثيرا ، متأرجحين ، وشرطيين) ، أليس هذا هو السخف التام ؟ او ليس هذا كمن يتخلى مسبقاً ، وهو يصعد بصعوبة جبلاً لم يرتده احد وما زال عصي المنال حتى اليوم ، عن السير متعرجاً ، والعودة احياناً الى الوراء ، والتخلي عن الاتجاه الذي وقع عليه الاختيار لمحاولة اتجاهات مختلفة ؟ .. » (١) .

ففي الحالات المشخصة ، ينبغي اذن التوجه دوماً ، دون التخلي عن المباديء . لذا فان ثمة مشكلة دائمة من المعرفة والقيادة ونقل التحليلات والاوامر .

« إلا ان من يريد ان يتخيل للعمال وصفة تقدم مسبقاً حلولاً جاهزة لجميع ظروف الحياة ، او من يؤكد انه لن توجد قط ، في سياسة البروليتاريا الثورية ، صعوبات او حالات مشوشة ، ان شخصاً كهذا ليس سوى دجال (٢) » .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٧٣٧ .

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، صفحة ٧٠٦ - ٧٠٧

وهكذا فان درس لينين السياسي الاخير يدل على ديالكتيك معقدة تضع باستمرار وجهاً لوجه الفكر والعمل ، النظر والممارسة ، المعرفة والحياة . والفكر النظري يحافظ بثبات على مبادىء السياسة الثورية ، وبخاصة مبدأ

« ضرورة الأخذ بعين الاعتبار ، بموضوعية صارمة ، القوى الطبقية وميزان هذه القوى ، قبل البدء بعمل سياسي أياً كان »[١] .

وفي الوقت ذاته اذن فان العمل يهتم دائماً بالوضع التاريخي المشخص . واثناء ذلك يبقى الفكر والعمل متحدين ، ولا يتخليان أبداً عن ارض الموضوعية الثابتة . هذه التجربة ، إذ تؤكد و « تشخص » المبادىء الثابتة ، لها ، في نظر لينين ، اهمية عالمية .

« لقد أثبتت التجربة ان جميع البلاد ستمر حتماً من حيث مرت روسيا في بعض المسائل الجوهرية جداً للثورة البروليتارية »[٢]

ان الفكر والعمل الثوريين ، والقادة ، والاحزاب – والجماهير – ليسوا أبداً معصومين من الخطأ . فقد يخطئون ، وللخطأ نتائج خطيرة . وبذلك فان الفكر والعمل الثوريين يولدان شكلاً حقيقياً جديداً وراقياً من اشكال الوعي : هو **النقد الذاتي** .

« ان موقف حزب سياسي من أخطائه هو أحد المعايير الأكثر سلامة للقول ما اذا كان هذا الحزب جدياً ، وينهض فعلاً بواجباته تجاه طبقته وتجاه الجماهير الكادحة . ان الاعتراف صراحة بالخطأ ، وكشف اسبابه ، وتحليل الظروف التي ادت الى وقوعه ، والبحث الدقيق عن وسائل تصحيح الخطأ ، هي علامة الحزب الجديد »[٣] .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٧٠٢

(٢) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٦٩٩

(٣) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٧٢٠

وينبغي على الحزب ألا يتخلف عن الجماهير ، ولا أن يبالغ في سبقها ، فهذا ايضاً لون من اليسارية المفرطة . إن عليه أن يكون في طليعتها ، دون أن يفقد الصلة بها ، دون ان يعتقد بأن ما كان صالحاً بالنسبة لنا هو صالح بالنسبة **للطبقة كلها ، وللجمهور** (مثلا النظام البرلماني . .) . إن معرفة التاريخ والمجتمع ، التي تتطابق مع العلم السياسي ، تتطلب أن نفيد من تجربة جميع البلاد ، كما تتطلب أن نعنى

« بجميع القوى ، وجميع الجماعات ، والاحزاب ، والطبقات ، والجماهير الفاعلة في البلد ، بدلاً من تقرير السياسة تبعاً للرغائب والآراء ، ودرجة الوعي واستعداد جماعة واحدة او حزب واحد للنضال . . . »

وهكذا لم يتغير لينين بصدد هذه النقطة الاساسية ، منذ كتاب « ما العمل ؟ » وحتى كتاب « مرض الشيوعية الطفولي » (من ۱۹۰۲ الى ۱۹۲۰) . إن العلم السياسي يقتضي معرفة المجتمع بأسره . ان العلم السياسي يقوم ، لا على قوانين التاريخ العامة وحسب ، بل وعلى قوانين الثورات . انه يجمع العام والنوعي ، الاساسي والفروق المشخصة ، ويعرف كيف يطبق المبادىء

« على ما في التطور الموضوعي الأصيل نحو الشيوعية من شيء خاص بكل بلد ، والذي ينبغي ان نعرف كيف ندرسه ، ونكتشفه ونتحسس به »[1].

ان قانون التطور المتفاوت ، وإمكانية الاشتراكية في بلد ما - ثم في هذا البلد او ذاك - يقتضيان تنوع الطرق المؤدية الى الاشتراكية . ومنذ عام ۱۹۱۹ كان لينين يحذر البلاشفة من أن الأمور ، في بلاد أخرى ، **« ستجري على غير ما جرت عندنا »**[2] :

---

(۱) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٥٣١

(۲) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٧٦٤

إننا نلتقي هنا مرة اخرى بالقانون اللينيني للتطور المتفاوت ، بنتائجه العديدة ، وكذلك بالفكرة العظيمة أن الظاهرة ، رغم احتوائها القانون (او مجموعة من القوانين) هي أغنى من أي قانون ...

ومن هنا النتائج السياسية التي يستخلصها لينين ويوجهها الى شيوعيّي الغرب :

« إقامة نظام برلماني جديد ، غير مألوف ، مناهض للانتهازية والوصولية » .

والتوجه الى الجماهير ، حيث هي ، من أشدها بؤساً الى أشدها تأخراً ، و « إيقاظ الفكر » في كل مكان ، ومحاسبة البورجوازية بدقة ، بل واستخدام جهازها السياسي ، لا لجر الطليعة وحدها وحسب ، بل لجر الجماهير المخدرة والغافية ، الى مواقع الحزب الثوري . إن تكوين الطليعة لايمثل الا هدفاً ينبغي الوصول اليه بإزاحة الانتهازية . أما الهدف الثاني ، الأكثر اصالة ، وهو إيقاظ الجماهير ، فلا يمكن بلوغه إلا بازاحة « اليسارية المفرطة » ، أيضاً وبالآن ذاته :

« تتراكم المتفجرات ، وتتضاعف اسباب المنازعات ، والأزمات ، وتفاقم صراع الطبقات . إننا لانعرف ، ولايمكننا أن نعرف ، أية شرارة ، بين هذه الكتلة من الشرارات ، التي تنطلق الآن في جميع البلاد بتأثير الأزمة الاقتصادية العالمية ، يمكن ان تشعل الحريق... وعندما تجعل البورجوازية الفرنسية من الشيوعية حجر الزاوية في الاضطراب الانتخابي وتغرق بالشتائم الاشتراكيين المعتدلين نسبياً او المترددين والموصومين بالبلشفية .. فان علينا ان نحيي ونشكر هؤلاء السادة الرأسماليين . انهم يعملون لخيرنا » (١) .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ٧٦٤

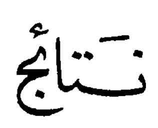
بيد أن هذه البورجوازية لاترى الا مظهراً من مظاهر البلشفية : هو التمرد والإرهاب . إنها لاتدرك :

« ان الشيوعية تنمو بالضبط من جميع مسام الحيـاة الاجتماعية . ان براعمها توجد بالضبط في كل مكان .. ان الحياة ستنتصر » [1] .

---

(١) لينين ، المرجع السابق ، المجد الثاني ، ص ٨٠٠ ، الصفحات الأخيرة من: مرض الشيوعية الطفولي .




نَتائجُ

لو ألقينا الآن نظرة إجمالية على ماسبق عرضه لتبين لنا بيسر قصوره عن المطلوب .

وأول مايؤخذ عليه ، انه يجزيء فكر لينين (وأعماله) بتصنيفها تحت عناوين متعددة : فكر اقتصادي وفكر سياسي وفكر فلسفي . وهذا التفتيت يبقى عيبه قائماً رغم الاشارة باستمرار الى وحدة اللينينية ، وحركتها الحية ، وإلى الاوضاع المشخصة .

ولكن أليس هذا محذوراً لايمكن تجنبه ، محذوراً مرتبطاً بأية محاولة تستهدف **العرض** ، اي التحديد والتصنيف والتحليل لفكر متحرك حي ؟ ان هذا المحذور الكبير ، يعرفه الفكر الماركسي ويعترف به . انالفكرالماركسي يدخله في نظرية المعرفة ، ونحن نعرف كيف ان لينين قد بين ،بعدماركس ،ضرورة التحليل ، وصفته المجردة بالضرورة وبالتالي ضرورة دمج التحليل بالحركة الاجمالية بآن واحد . ان الاعتراف بالضرورة ، يتيح لنا ان نسيطر عليها ، لا أن نحذفها . وذلك هو تناقض داخلي في الماركسية ، يحاول الماركسيون ان يحلوه ، إلا انهم لايستطيعون حله دون صعوبات : وذلك بأن يعرضوا بطريقة متماسكة صورياً ، مجردة ، تربوية ، منطقية ، منهجاً ومفهوماً يتحددان بالمحتوى ، بالمشخص ، بالحركة الديالكتيكية . أليس هذا هو السبب ، او السبب الأساسي ، لقلة مايوجد من شروح تقدم عرضا مرضياً عن الديالكتيك ؟

وإضافة الى ذلك فان عرضنا أغفل كثيراً من المظاهر الهامة جداً من فكر لينين وعمله .

مثال ذلك تدخله في مسائل الاخلاق .

إن إينس ارمان Inès Armand ، الفرنسية ، ذات النزعة الفوضوية ، كانت تبشر بالحب الحر . وفي عام ١٩١٥ كتب لهـا لينين رسالتين وديتين صارمتين [١] . يقول لينين إن هذا المطلب ليس بروليتارياً ، بل بورجوازياً . ذلك أن الامر يتعلق بالمنطق الموضوعي للعلاقات الطبقية في الحب ، لا بالرغبات أو التفضيلات او التطلعات الذاتية [٢] . فبدلاً من ان نعارض «الشهوة» - أي العلاقة العابرة - بالزواج بوجه عام ، أليس من الافضل ان نعارض الزواج القذر الدنيء ، المفتقر الى الحب ، بالزواج البروليتاري ، المتحرر من المصالح البورجوازية التي تدنس الزواج؟ ان قضية القبلات « الدنسة » في الزواج ، و « الطاهرة » في الشهوة ، إن هي الا قضية رواية (اذ في الرواية يقدم وصف حالات فردية ، وتحليل طبائع ، وسيكولوجيا لنماذج معينة) . بينما ينبغي على نشرة موجهة الى الجماهير الشعبية ان تستخلص نماذج طبقية ، ومحتوى المؤسسات .

« كثيراً ماتحدث إليّ الرفيق لينين عن المسألة النسائية . كان يعلق عليها اهمية كبرى ، باعتبار ان الحركة النسوية ، كانت في تقديره ، جزءاً اساسياً ، وفي بعض الظروف جزءاً حاسماً ، من حركة الجماهير . ومن نافلة القول انه كان يعتبر المساواة الاجتماعية التامة للمرأة مبـدأ من مبادىء الشيوعية لا مراء فيه . وقد جرى أول حديث بيننا بهذا الخصوص في خريف ١٩٢٠ . وقد استهل الحديث بقوله إن علينا قطعا ان ننشىء حركة نسائية دولية قوية ، تقوم على أساس نظري واضح ومحدد . ومن الواضح أنـه لا يمكن ان توجد ممارسة جيدة بلا نظرية ماركسية .

---

(١) راجع « المرأة والشيوعية » ، نصوص اختارهـا فريفيل J. Fréville ، المنشورات الاجتماعية ، ١٩٥٠ ، ص ٢٠٦ ومابعدها .

(٢) رسالة بتاريخ ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ .

ان علينا ، نحن الشيوعيين ، ان نلتزم في هذه المسألة بمبادئنا بكل مافيها من طهر . إن علينا ان نفترق بوضوح عن سائر الاحزاب الاخرى » .

بهذا تبدأ ملاحظات كلارا زيتكين Clara Zetkin ، المناضلة الالمانية ، عن احاديثها مع لينين[1] . لقد كان لينين يقف بآن واحد ضد التبتل وضد الإباحية الجنسية . (لا راهب ولا دون جوان ، ولا مَرْاءٍ كحل وسط) . وكان ينتقد بعنف النظرية الفوضوية النزعة ، التي كانت تعتبر تحررية ، والتي كانت ترى ان العمل الجنسي يستجيب لحاجة فيزيولوجية ، وليس له من الاهمية اكثر من تناول كأس من الماء حين يكون المرء عطشان .

« اني اعتبر نظرية كأس الماء معادية للماركسية وللمجتمع »

ان استنكار الرياء البورجوازي أساسه سليم ، غير ان هذا الاساس يتلاشى في الاباحية .

كما أن المبالغة في تقدير المسألة الجنسية هي في حد ذاتها خطأ ايديولوجي ، سياسي واخلاقي أما نظرية فرويد ؟ فهي نوع من الزيّ .

« اني أحذر اولئك الذين تستغرقهم باستمرار وبعناد مسائل الجنس . إن المسائل الجنسية والمتصلة بالزواج لاتفهم كأجزاء من المسألة الاجتماعية الرئيسية ، بل ، بالعكس ، فان المسألة الاجتماعية الكبرى ذاتها تبدو جزءاً ، بل ملحقاً بالمشكلة الجنسية » .

ويقول لينين ، انها ظاهرة أزمة وتحول ثوري ، ولكنها فقط الجانب السلبي من الازمة . ان القيم الايديولوجية القديمة تنهار ، بينما لا تتبلور القيم الجديدة إلا ببطء .

---

(١) كتاب النصوص المختارة ذاته ، ص ١٩٠ - ٢٠٧

إن الأفكار حول العلاقات بين الرجل والمرأة قد اختلطت . ويجري الآن من جديد تحديد حقوق الفرد وواجباته .

« ان هذه عملية تلاش وولادة بطيئة ، وموجعة في اكثر الاحيان »

ويصدق هذا ايضاً في مجال العلاقات الجنسية ، والزواج والاسرة ، وهو مجال تثير فيه دناءة البورجوازية ورياؤها اشمئزاز خيرة الناس ، وبخاصة النساء والشبان . بيد أن العلاقة الجنسية هي علاقة بين كائنين بشريين ، يولد منهما كائن ثالث ، وهنا ينشأ الواجب تجاه المجموع . ثم ان الثورة تقتضي،في الوضع الراهن، شد الطاقات ، طاقات الجماهير وطاقات الافراد .

« انها لاتغفر حالات المجون .. ان الافراط في الحياة الجنسية هو علامة انحلال بورجوازي »

هكذا كان لينين يتدخل ويتخذ موقفاً ، حتى في أكثر مسائل الحياة العملية تشخيصاً ، ومسائل الاخلاق ، وفي آن واحد ضد اليسارية المفرطة، وضد الموقف « اليميني » في التوفيق والانتهاز .

وقد رأينا ايضاً كيف يوجه لينين نقده بمودة وصداقة ، وكيف كان يسعى دوماً لتفهم أسباب موقف معين (ولو كانت سلبية) .

لقد أدخل الفكر اللينيني تمييزاً رئيسياً بين **نقد يساري** ، **ونقد يميني** . وهذا التمييز لايتطابق مع الموقف اليساري او الموقف اليميني ، غير ان بين التمييزين نوعاً من العلاقة .

ان الواقعة والمؤسسة والفكرة (التي تتصف دوما بالتعقيد والتناقض) تخضع عادة لنوعين من النقد . فالنقد اليساري هو نقد تقدمي وثوري ، أي ايجابي وبناء ، عبر اللحظة السلبية للنقد الجذري . اما النقد اليميني فنقد رجعي ، ينصب الماضي في وجه الحاضر .

فالبورجوازية مثلا ، الديموقراطية البورجوازية (والرأسمالية) قد انتُقدت باسم الرواسب او الذكريات الاقطاعية من جهة ، كما انتقدت من قبل ماركس والماركسية والثوريين من جهة أخرى .

هذه الفكرة تبدو بدهية ، وقد يبدو الافصاح عنها ، او التذكير بها ، من قبيل اقتحام الأبواب المفتوحة . إلا انه يتفق أن يمتزج النقدان ويختلطا[1] ، ومن هنا كانت ضرورة تمييزهما بوضوح شديد. فالاشتراكية الاقطاعية (اشتراكية رود برتوس Rodpertus) ، ظهرت بمظهر الجريئة ، المتقدمة ، بل والثورية .

ولهذا لا يكفي الانسان أن ينتقـــد ليصبح فعلا جريئاً ، ومتقدما ، وثورياً ، بل ينبغي النظر الى محتوى النقد ، ومعناه ، والموقف (الحزبي) الذي يقتضيه ويقرره .

لو سرتم بأناة باتجاه النقـــد اليميني (الذي يدفعه الرجعيون الى أقصى نتائجه) ، لبررتم الموقف الانتهازي في الحركة العمالية والثورية . وبالمقابل ، لو دفعتم النقد السليم، الصحيح موضوعياً ، النقد اليساري، بشكل مبالغ فيه والى أبعد من حدوده ، لوصلتم الى التطرف ، والى اليسارية المفرطة . ويصبح الآني ، او العنصر السلبي ، مطلقاً ، ويزول الطابع البناء والايجابي من النقد. وفضلا عن ذلك فان هذه اليسارية المفرطة، تفضي، آجلًا أم عاجلًا ، الى الموقف اليميني او تستخدم لتبريره . وهكذا فان الرفض المطلق للماضي ، وللثقافة المكتسبة خلال قرون ، وللتقاليد ، ينقلب ، آجلًا أم عاجلا ، الى تقبل لهذا الماضي دون تحفظ . كما أن

---

(١) في الادب الفرنسي ، عند بلزاك خاصة ، حين لم يكن النقدان بعدُ منفصلين عن بعضهما ، فان النقد ، الممعن في رجعيته ، للمؤسسات الديموقراطية (موراس Maurras في فرانسا) قد ظهر بمظهر الثوري ، ومن هنـــا المفهوم الكاذب « للثورة الوطنية » ، مفهوم أفادت منه الفاشية . وبالمقابل ، فان الموقف النقدي الفوضوي النزعة (سيلين Céline في فرنسا) قد تكشف عن نزعة رجعية ، وما سوى ذلك .

الرفض المطلق ، الفوضوي النزعة ،للأسرة ، والوطن ، والدولة ، يتحول، عاجلاً أو آجلا ، الى القبول بالاسرة البورجوازية ، بالقومية البورجوازية ، بالدولة . إذ أنه لا يمكن القفز من فوق الحالات الواقعية ، والانتقالات التاريخية .

فالنقد الحق (وهو سلبي وايجابي بآن واحد، هادم لما يفنى وبنّاء لما يصبح ممكناً) ينبغي إذن أن يجري بجذر ، وأن يقوم بصورة خاصة على المعرفة والعلم.

ذلك هو المعنى النيّر والفائدة العامة من هذا التمييز ، الذي يخص الحركة العميقة لفكر لينين ، ومنهجه .

وننتقل بذلك من مسائل الاخلاق، التي بحثها لينين خلال حياته النضالية، الى المسائل الثقافية .

إن موقف لينين من المسائل الثقافية يتوضح أيضاً انطلاقاً من التمييز المزدوج ، الذي أشرنا اليه ، بين **النقد اليساري والنقد اليميني** - بين المواقع **اليسارية** والمواقع اليمينية . وهنا ايضاً ، ولكون لينين قد خاض معركة على جبهتين لتحديد موقف صحيح حق ، لا ينبغي أن نستنتج من ذلك أنه احتل موقعاً وسطاً ، نوعاً من « المكان الوسط » المطابق للحس السليم .

والحقيقة أن بحثه يتميز على الدوام بالجمع بين المرونة والحزم . وهو يتحدد إذن ضد أولئك الذين يدفعون الحزم الى حد التصلب - كما هو ضد اولئك الذين يدفعون المرونة الى حد انعدام المباديء. كل هذا في سبيل موقع متماسك، متوافق مع المنهج العام ومفهوم العالم .

إن اليمينيين يؤخذون ، على الصعيد الثقافي ، بعظمة الماضي ، بغنى الفن وتنوعه في العصور المنقضية، وبعبارة أخرى ، بثقافة الطبقات الحاكمة حتى الآن، وبخاصة الطبقة البورجوازية . وضد هذا الموقف يبين لينين ضرورة ومقتضيات **النقد اليساري** ، النقد الجذري « للقيم » الأخلاقية او الجمالية للطبقات الحاكمة السائرة في طريق الانهيار .

وبالمقابل ، فان « اليساريين المتطرفين » يريدون أن يقذفوا الى « مزبلة التاريخ » كل ثقافة الماضي : بما فيها الفن والعلم والتقاليد القومية ، وسواها . انهم يريدون أن تخلق البروليتاريا ثقافتها وأدبها وعلمها من لاشيء ، بصورة جديدة كلياً ، تعكس بصورة جذرية دور البروليتاريا الثوري .

وفي وجه اليسارية المتطرفة ،بيّن لينين ضرورة قيام تمثل assimilation للفن والفلسفة والمعارف المكتسبة في الماضي (تمثلا نقدياً بقدر ما هو عميق) .إن البروليتاريا لا تهدم **كل** شيء . ولئن كانت تنفصل عن الماضي ،فليس هذا باتجاه انقطاع مطلق، ولا تدمير لما سلف ، إنها ، على العكس ، تندمج ، بوصفها عنصراً فاعلا جديدا، في غنى تطور واسع ، وتحافظ على ما هو جوهري فيه ، لتغنيه بدورها .

ولهذا شن لينين حملة جدلية قاسية ضد المنظمة المسماة « بروليكولت prolekult (الثقافة البروليتارية) وضد زعمائها . وكان قد سبق للينين أن انتقد واضع نظرية (الثقـــافة البروليتارية) وزعيم منظمتها بوغدانوف Bogdanov في كتابه « **المادية والتجريبية النقدية** » . فقد كان بوغدانوف يعتقد أن الأفكار (الأفكار الطبقية) تنظم العالم المادي والاجتماعي . كان إذن مثالياً في الفلسفة ، ذاتياً ، ومن أنصار « التجريبية النقدية » . ومع بقائه عضواً هامـــاً في الحزب البلشفي ، فانه كان قد أسس هذه المنظمة ، (البروليكولت) التي كانت ،حوالي ١٩٢٠ ، تعد ملايين الاعضاء ، وتتصرف بموارد ووسائل ضخمة . ومثال بوغدانوف يوضح مرة أخرى التفاعل والاختلاط بين اليسارية المفرطة والموقف اليميني . كان بوغدانوف يستمد نظرية من مثاليته ، ونفيه للواقع الموضوعي ، وللديالكتيك : إن افكار البروليتاريا، افكارها الطبقية ، بتنظيمها العالم الجديد، إنما تكون الثقافة الجديدة . وباسم هذه النظرية ، كان بعض « أعضاء منظمة الثقافة البروليتارية» يقترحون،ببرود،تدمير المتاحف واحراق أعمال الفن القديمة .

فالفن ، كما يقولون ، سيتطابق مع العمل المنتج ، وسينصهر الفرد في الجماعة . والواقع ، أن المنظمات الثقافية الآخذة بهذا الاتجاه كانت ، في الممارسة ، تتجه بالضبط نحو الماضي، دون أن تقدم أي جديد وفي أفضل الحالات كانت النوادي البروليتارية - التي كانت تريد أن تكون مخابر الثقافة الجديدة - تمثل روايات من المسرح الكلاسيكي ...

ان في كل أمة منقسمة الى طبقات ، توجد امتان ، كما يقول لينين . وللطبقة العاملة ، في المجتمع المنقسم الى طبقات ، ثقافتها الخاصة ، المختلفة عن ثقافة الطبقات المسيطرة والطبقة البورجوازية . بيد أن هذه الثقافة لا توجد الا بشكل بذور . وينبغي تفتيح هذه البذور المخنوقة ، غير أن هذا التفتيح لا يمكن ان يتم باسم ثقافة منعزلة وبروليتارية نوعياً . ثم ان هذه النظرية ليس لها معنى ، اذ أن البروليتاريا لا تفتح الثقافة الجديدة الا عندما تزول بوصفها بروليتاريا ، اذ تتخطى ذاتها ، بتحويل المجتمع كله مبتدئة بنفسها . والثقافة الجديدة اذن بالضرورة ذات معنى **شامل** . إنها تفتح **ايضاً بذور الشمول** التي تتضمنها الثقافة البورجوازية وتخلت البورجوازية عنها او خنقتها . إن الثقافة الجديدة لا تكون جديدة إلا بالعودة الى المكتسب لتجدده . فهي بآن واحد بروليتارية وشاملة ، قومية وشاملة . انها كذلك بآن واحد ، لا بصورة ساكنة ، ولا من زاوية واحدة ومظهر واحد . ان العنصر ، او المظهر ، **القومي** في الثقافة الجديدة سيخضع لمظهرها الدولي ، **الشامل** ، بينما كان العكس في الفكر البورجوازي . فالثقافة الجديدة التي تنشئها البروليتاريا اذ تتجاوز نفسها ، ستكون اذن أكثر شمولا بحق من الثقافة البورجوازية في أفضل ما فيها .

بهذا المعنى ، تحدث لينين الى الشبيبة الشيوعية ، في مؤتمرها عام ١٩٢٠ ، (وكان ذلك ضد يساريتها المفرطة ، العفوية) ونصحها بتمثل ثقافة الماضي كلها .

وقال انه لا يمكن للمرء ان يصبح شيوعيا ما لم يغن ذاكرته بمعرفة كل ما أبدعه الانسان خلال تطوره .

« اننـا اذا لم نفهم بوضوح حقيقـة ان المعرفـــة الصحيحة بالثقافة التي أبدعها تطور الانسانية كله ، وان تنمية هذه الثقافة وحدها تتيح لنا بناء الثقافة البروليتارية ، اذا لم نفهم ذلك فلن نتوصل الى حل هذه المشكلة . إن الثقافة البروليتارية لم تنبثق نتيجة اختراع اشخاص مختصين في الثقافة البروليتارية . إن هذا كله ليس سوى حماقة صرفة »[1] .

وإذ يتوجه الى أعضاء منظمة الثقافة البروليتارية، فإنه يخاطبهم بجزء أكبر:

« لسنا طوبائيين نعتقد أن عمل بناء روسيا الاشتراكية يمكن أن ينجزه أشخاص جدد دون تعيين . اننا سنستخدم الاداة التي خلفها لنا العالم القديم . إننا نريد بناء الاشتراكية بالادوات التي خلفتها لنا الرأسمالية ، في الوقت الراهن، لا بأناس صنعوا في قوالب، إذا كان مثل هذا اللعب يسلينا .. ينبغي ان نأخذ كل الثقافة التي خلفتها لنا الرأسمالية ، وان نبني الاشتراكية بها ، ... وهذا العلم ، هذه التقنية ، هذا الفن ، هي بين ايدي اختصاصيين وفي ادمغتهم .. إن اكثر التعابير سخافة قد قُدمت على انها شيء جديد ، وبحجة الفن البروليتاري الصرف والثقافة البروليتارية ، َقدم بعض الناس شيئا لا يمكن تخيله ، غير متماسك ... إننا سنخرج من هذا ... »[2]

إن على الثورة ، بدلا من هدم الماضي عـــن طريق مزيج مشوش من

---

(١) راجع المؤلفات المختارة ، المجلد الثاني ، ص ٨٠٨

(٢) خطب في ايام ٦ و ٨ اذار (مارس) و ٦ ايار (مايو) ١٩١٩ ،حول الادب والفن ، نصوص جمعها ونشرها فريفيل ، g. Frivel المنشورات الاجتماعية الدولية ١٩٣٣ ، ص ١٠٢

الفوضوية والطليعية الثقافيين ، ان تقيم الشروط الضرورية لتصبح الثقافة ملكاً لجميع البشر .

وانسجاما مع هذا الموقف ، كان لينين يبين ما تعكسه بأمانة اعمال تولستوي الأدبية كمرآة تعكس التخمر الثوري بين الجماهير الفلاحية الروسية . وهذا بالرغم من أفكار هذا الكاتب العظيم الشخصية والفريدة ، وبالرغم من مثاليته الصوفية .

إن موقف لينين من المسائل الثقافية لا يعرّف بموقف وسط ، وبطريق وسط ،بين انحراف اليسار وانحراف اليمين ، إنه يعرّف بأنه **موقف حزبي** .

ذلك أن الكاتب ، ورجل الثقافة ، يجب ان يكون لهما ،كالفيلسوف، موقف ، وبقدر ما يمكن من الصراحة والانفتاح والاندفاع . الامر الذي يؤدي بهم الى الوقوف **مع الطبقة** العاملة **ضد** رواسب الاقطاع والبورجوازية ، أي الى السير قدما مع حزب الطبقة العاملة ، بل وفي داخل الحزب،في اطار مواقف هذا الحزب .

ينبغي على الفيلسوف ، اليوم ، أن يقف بصراحة مع المادية ، **ضد**المثالية (او بالعكس) . وباتخـــاذ موقف صريح واضح فقط ـ وذلك برفض التشويش والالتباس ـ ، يمكن التقدم في المعرفة والسير بها قدماً . فثمة أحزاب في الفلسفة .

« لقد كان ماركس وانجلز في الفلسفة ، منذ البداية حتى النهاية ، رجلين حزبيين » .

وبذلك ، وحده ، انصرفا،خلال نصف قرن،الى تطوير المادية ، والعمل على تقدم اتجاه أساسي في الفلسفة ، دون أن يراوحا مكانهما ، وذلك بكشفهما عن التوفيقات والتشويشات والانحرافات (١) .

(١) راجع لينين ، المادية والتجريبية النقدية ، ص ٣٠٩ وما بعدها .

كما أن لينين طرح مبدأ اتخـــاذ الموقف في الأدب ، مبدأ أدب ثوري له موقف حازم .

« ينبغي أن يصبح الأدب جزءاً من القضية العامة للبروليتاريا ... جزءاً لا يتجزأ من العمل المنظم ، المنهجي الموحد ، للحزب الاشتراكي - الديموقراطي »(٢) .

ولكي نفهم نصوص لينين هـــذه بدقة ، لابد من ان نوجه اليها اكبر انتبـــاه . فأقل إضافة ، وأدنى مبالغة ، او فضول في الكلام ، يحول الموقف السمح المنفتح الى موقف متشيع .

ففي كتاب « المادية والتجريبية النقدية » بين لينين ان الفلسفة **كلها** ، مذ وجدت ، قد انطوت على اتخاذ موقف ، مبـــاشر او غير مباشر ، شعوري أو لاشعوري ، مشوش او واضح ، فوري او غير فوري . فاتخاذ الموقف هو إذن عنصر **موضوعي** في الفلسفة . وعلى هذا النحو اصطدم - وامتزج - التياران الرئيسيان : المثالية والمادية . وعلى هذا النحو صيغت المفاهيم الفلسفية الكبرى ، خلال تناقضاتها وصراعها . وبذلك فان صراع الاتجاهات الفلسفية - مذ وجدت الفلسفة - قدأفصح في الوقت ذاته عن صراع الطبقات ، وشروط الحياة الاجتماعية ، والبحث عن مفهوم متماسك عن العالم ، وعن أرفع تنظيم للمعارف المشتتة المكتسبة ، وأخيراً عن التدرج من الجهل الى المعرفة .

إن المبدأ الذي صاغه لينين يعني أن تاريخ الفلسفة ينتهي بصورة خاصة الى الصياغة الواضحة للموضوعتين الأساسيتين ، الموضوعة المثالية والموضوعة المادية ، أي صياغة المسألة الفلسفية بصورة واضحة ، مما يلزم فلاسفة اليوم بأن يتخذوا موقفاً .

---

(٢) المؤلفات الكاملة . المجلد الثاني ، ص ٣٨٦ وما بعدها . نص عام ١٩٠٥ . ولم يعد لينين فيما بعد الى هذه المسألة .

إن مبدأ اتخاذ الموقف والالتزام الحزبي قد جعل تاريخ الفلسفة كله يُرى في ضوء جديد .

إنه يوضح ، ويرفع الى مستوى المعرفة ، مظهراً موضوعياً ، واقعياً، بل وجوهرياً ، لعمل الفكر وتاريخه ، وكان هذا المظهر ملقى في الظلام ، حتى ذاك الحين

وبذلك فان اتخاذ الموقف ، في رأي لينين ، يحتضن موضوعية عميقة ، بدلا من ان يطرح « موقفاً ذاتياً » متحيزاً .

وينطبق هذا على الأدب والفن . واذ يطالب لينين الكاتب ، او الفنان ، الذي يريد أن يكون مجدداً وثورياً ، باتخاذ موقف صريح ، فانه يضيف :

« إن الأدب أقل أهلية من اي شيء آخر لعملية المساواة الميكانيكية ، لعملية التسوية ، لسيطرة الأغلبية على الاقلية . ومن المؤكد انه ينبغي ، في هذا المجال : تأمين ارحب مجال للمبادرة الشخصية ، للميول الفردية ، للمخيلة ، للشكل والمحتوى .. إننا لانفكر بالتبشير بمذهب جامد او حل هذه المشكلة ببعض الأنظمة . لا ، ففي هذا المجال ليست القضية ابداً قضية صياغة تجريدات » .

إن الحزب مشاركة حرة وطوعية ، لها برنامجها وانضباطها . اما الحرية الكلية ، المطلقة ، فلا وجود لها في مجتمع يقوم على سلطة المال . ان الكاتب ليس حراً تجاه الناشر البورجوازي ، وجمهوره البورجوازي . وحريته لا تعدو أن تكون تبعية مقنعة . ان أدبا وفنا خارج الطبقات وصراع الطبقات لن يكونا ممكنين الا في مجتمع لا طبقات فيه !

يرى لينين ان اتخاذ الموقف يتضمن درجة عليا من الحرية بدلاً من الاستقلال

المزيف . ان حرية الكاتب او الفنـــان تعرف ، كأية حرية ، بمعرفة الواقع والسيطرة على قوانينه . انها تنطوي ، هنا ايضاً ، على موضوعية عميقة .

ان اتخاذ موقف بحكم هذا التعريف يستبعد التشيع :

« ان من أكبر الأخطاء ، وأخطرها ، التي يرتكبها الشيوعيون... هي اعتقادهم أن الثوريين يستطيعون ، وحدهم ، إنجـــاز الثورة . وعلى العكس فانه ينبغي، لتأمين نجاح كل عمل ثوري جدي، ان ندرك ونعرف كيف نطبق بصورة عملية فكرة أن الثوريين يمكن فقط ان يقوموا بدور طليعة الطبقة ... إن الطليعة لا تؤدي رسالتها الا إذا بقيت غـير منفصلة عن الجمهور ، وعرفت كيف تدفع الجمهور الى الأمام . وبدون هذا الحلف مع غير الشيوعيين في جميع مجالات النشاط ، لن يكون ممكنـــاً إقامة المجتمع الشيوعي » .

ان ما يصح على الجبهة السياسية ، في المجـال السياسي ، يصح أيضاً على الجبهة الايديولوجية ، في المجال الثقافي .

ان المادي المناضل (كاتباً كان أم فناناً أم فيلسوفاً) يلعب دوراً طليعياً بين طبقة المثقفين (الانتلجنسيا) .

وينبغي عليه أن يدرس ويتمثل ثقافة الماضي ، ويميز ما فيها من عناصر حية ، أي ان يدرس الـــتراث الفلسفي والفني ، والفلاسفة الماديين في العصور القديمة وفي القرن الثامن عشر . كما أن عليه أن يحافظ على الاتصال الحي بالعلماء من مختلف الفروع العلمية ، او مع الفنانين في مختلف ميادين الفن . إن دراسة أعمال هؤلاء ومؤلفاتهم ضرورية له أيضاً .

إن بين هؤلاء الفلاسفة والعلماء والأدباء والفنانين تلونات عديدة . فثمة شيوعيون غير ماديين ، وماديون غير شيوعيين ، وثمة عقلانيون ، ومثاليون ، على

درجة متفاوتة من السذاجة أو الوضوح أو العلم . وثمة من يتخذون موقفاً مادياً بصورة عفوية في عملهم العلمي أو الفني – وباحتكاكهم بالواقع – ثم يتخلون عنه خارج اطار بحوثهم ، وسوى ذلك .

ان موقف الحزب والمادية الديالكتيكية بوصفها موقفاً، لا يمكن ، ولا يجوز ، الفصل بينهما. ان وضعهما على صعيد المعرفة والثقافة ازاء « الانتلجنسيا »، يطابق وضع الحزب – في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية – بالنسبة الى البروليتاريا والجماهير . ان الاحلاف الضرورية ينبغي إبرامها وتوجيهها على أساس مجموع الحركة وأهدافها . فمن ناحية لا تستطيع المادية ، ولا اتخاذ الموقف، شيئاً بذاتها ، منعزلين . ومن ناحية أخرى فانهما وحدهما يستطيعان أن يكافحا بشكل مجد ومظفر ضد ألوان المثالية الرجعية والايديولوجية البورجوازية .

فالقضية إذن هي متابعة عمل حي على صعيد المعرفة ، على ما في ذلك من صعوبات واشكالات،بل وتناقضات ، ودون نزعة تقريرية ، مع الاهتمام بجميع عناصر عملية المعرفة ، وبجميع الناس كما هم ، وجميع مظاهر الوضع . كل هذا دون طمس المبادىء ، دون الوقوع في الانتهازية والموقف اليميني . ان الهدف هو ، بايجاز ، أن نحقق فعلياً الدور القيادي للمادية الديالكتيكية في المجال الفلسفي والثقافي .

كما أن الهدف ، في المجال السياسي ، هو ان نحقق فعلياً الدور القيادي للطليعة ، للحزب .

وقد كتب لينين في النص الذي يعتبر وصيته الايديولوجية [١]

« ان النهوض بهذه المهام يحدد المادية المناضلة » .

---

(١) مقال كتب للمجلة الالمانية Unter dem Banner des Marximus آذار (مارس) ١٩٢٢ ، راجع المؤلفات الكاملة ، المجلد السابع والعشرون ، ص ١٨٠ وما بعدها .

وليس قصدنا هنا أن نستعرض جميع أفكار لينين ، وجميع الحلول التي قدمها أو اقترحها لحل العديد من المشكلات التي طرحها التطور التاريخي والاجتماعي . انها كلها مشكلات مشخصة ، ظهرت في روسيا خـــلال العملية الثورية ، إلا ان لها جميعها مغزى عاماً .

إننا نحاول هنا أن نقدم خيط الوصل الذي يتيح تتبع فكر لينين وعمله: يتيح فهمه . ونحاول بشكل خاص أن نعرّف «أسلوبه» ، و « الروح » الحية ، الثورية ، لمؤلفاته .

وقد أوردنا ، في مستهل هذه الدراسة، تعريف ستالين للأسلوب اللينيني : الجمع بين الحماس الثوري الروسي والروح العملية الامريكية . انه تعريف رجل سياسي ، رجل دولة . بيد أننا سنقترح هنا تعريفاً أكثر فلسفة : ويبدو لنا ان « الأسلوب » اللينيني يتميز أولاً بنوع من الحياة في الممارسة ، في العمل ، دون الوقوع أبداً في النزعة العملية والتجريبية . لقد كان لينين يعرف كيف يستلهم « الحياة » دون أن تعني هذه الكلمات بالنسبة له كياناً غامضاً ملتبس المعنى ، وتبريراً « للأمر الواقع » . « ان الحيـاة ستنتصر » ، أي الوحدة الديالكتيكية بين القانون وبين غـــير المتوقع ، بين الانتظام والجدة .

وهو يتميز أيضاً بطريقة في استخدام المفاهيم والمقولات الأكثر تجريداً دون أن يظل في التجريـد ، ويجتازها ، ليعود ثانية الى المشخص ــ المشخص الحقيقي ، لا المباشر ــ والتقاطهبعمق . إن الحقيقة مشخصة على الدوام ، ولكن الحقيقة (المعرفة) هي المشخصة !.

ويعلمنا لينين أن الربط بين الممارسة والنظرية لا يمثل « شيئاً » معطى ، سهل الالتقاط ، مصنوعاً مسبقاً . إنه ، على العكس ، خط متحرك ومتعرج ، وإن يكن محدداً . تلك هي ، في رأينا ، العقدة الحيوية للفكر اللينيني . إن المنهج الديالكتيكي لا يرتد الى قائمة من الوصفات ، الى بعض القواعد المصاغة ، للتفكير والعمل . إنه يصبح تفكير انسان حي فاعل دون ان يفقد طابعه العقلاني التربوي . إنه يندمج معه ، في شعوره ، في عمله .

وليس مؤكداً أن التاريخ يعيد أوضاعاً ثورية من النموذج الذي واجهه لينين وحلله في روسيا ، نموذج يتميز بقوى اجتماعية متقدمة على القوى الانتاجية ، رغم انها محددة،بطبيعة الحال ، من قبل هذه الاخيرة . (بروليتاريا قليلة العدد ، قليلة المهارة ولكنها شديدة التركز ، وثورية جداً ، في بلد متأخر اقتصادياً — يمثل الفلاحون فيه أيضاً قوة اجتماعية ثوريـة كبيرة قادرة على التحرك تحت قيادة الطبقة العاملة) .

وقد تظهر في المستقبل أوضاع تختلف كثيراً (ولكنها تبقى مع ذلك في منطقة قانون التطور المتفاوت) .

من هذه الزاوية ، وبصورة موقتة — وعلى سبيل **الفرضية العلميـة** — فاننا نقترح « تقسيماً زمنياً » للتاريخ الحديث على النحو التالي :

أ — **العهد السابق على الماركسية** : عهـــد الحركات الديموقراطية البورجوازية ، الذي أدت فيه البورجوازية الثورية دوراً قيادياً ، وسيطرت فيه المسألة القومية على المسألة الاجتماعية .

إنه عهد الاشتراكية الطوبائية — والفلسفة الهيجليـــة — والاقتصاد السياسي الانجليزي .

ب ـ **العهد الذي حلله ماركس**: وهو الانتقال من الحركة الديموقراطية البورجوازية الى الحركة البروليتارية والاشتراكية .

فالبورجوازية تتفسخ كقوة اجتماعية ثورية ، وتنتقل الى الليبرالية ، مثلما انتقلت من قبل جزئياً إلى الرجعية السياسية والثقافية .

وتنتقل المسألة القومية ـ التي احتكرت ، وحرفت واستخدمتها السياسة البورجوازية ـ الى المقام الثاني ، بالقياس الى المسألة الاجتماعية .

وتصبح البروليتاريا الثورية القوة الاجتماعية الفعالة الرئيسية . لقد أعلن ماركس عن ثورة سياسية ، وتنبأ بها ، يعقبها تحول ثوري في علاقات الانتاج (توافق بين العلاقات الاجتماعية للانتاج والقوى الانتاجية) في **البلاد الرأسمالية الكبيرة المتطورة** . وقد سلم ، خلال زمن طويل ، أن هذا التحول الثوري يمكن ، في حالات معينة ، وفي بعض البلدان (انجلترة خاصة) ، أن يتم بطريق سلمية ، ديموقراطية ، برلمانية ، دون انقطاع عنيف في جهاز الدولة . بيد أن ماركس وجد نفسه ، شيئاً فشيئاً ، أمام المشكلات التي طرحتها بقوة سلطة هذا الجهاز ، وصعوبة تحويل علاقات الانتاج في مجتمع لا يقتصر على الزوج « بروليتاريا ـ البورجوازية » ، بل يجر معه أثقال مخلفات الماضي . وبكلمة ، فإن ماركس وانجلز وجدا نفسيهما أمام مشكلات دكتاتورية البروليتاريا .

ح ـ **العهد الذي حلله لينين** : إن التاريخ وتطور المجتمع يقدمان شيئاً جديداً بالنسبة للوقائع التي حللها ماركس ، دون تكذيب القوانين التي اكتشفها ماركس ، دون هدم الماركسية ، بل على العكس ، بالتحقق من صحتها .

ان الثورة لم تقع في البلاد الرأسمالية المتقدمة ، فقد تحولت هذه الى

امبرياليات . وانتقل مركز الثورة العالمية اذن الى البلاد « المتأخرة » ،الزراعية بالدرجة الأولى . وأصبح الفلاحون، في هذه الثورة، **قوة اجتماعية اساسية وان لم تكن قائدة** . واحتفظت البروليتاريا والماركسية ونظرية الثورة الاشتراكية بدورها المسيطر .

ويتكشف التحليل اللينيني (أو بالأحرى : الماركسية ـ اللينينية) عن خصوبة لم تكن متوقعة في البداية ، تجاهلتها تماماً الماركسية « الارثوذكسية » ، غير أن لينين تحسس بها وتوقع حدوثها . وانتشرت الثورة في البلاد المتأخرة ، حيث تراخت الامبريالية ، حيث توجد الحلقة الضعيفة في السلسلة التي طوقت بها الأمبريالية العالمية العالم بأسره (الصين ، يوغسلافيا وسواهما) ان الثورة تتحقق.

وتستعيد المسألة القومية اهميتها الرئيسية ، وإن تكن تابعة في أهميتها للثورة الاجتماعية[١] .

---

(١) أكمل ستالين أعمال لينين وحققها (بناء الاشتراكية في أحد البلدان ،تصنيع روسيا السوفياتية ، مع غلبة الصناعة الثقيلة ، والتخطيط ، وسوى ذلك) .

إلا ان ستالين وجد نفسه أمام تناقضات داخلية – بخاصة بين الصناعة والزراعة – اقتضت دعم جهاز الدولة ، والبيروقراطية . واتجهت التناقضات الخارجية بنفس الاتجاه (أي خطر الحرب)، التي اقتضت تقوية الجيش،وسواه . كما انه استخدم الحركة ، بصورة خاصة في البلاد الرأسمالية المتقدمة ، في « عمليات تغطية » (بالمعنى الستراتيجي لهذه الكلمة) بقصد حماية جوانب الثورة المكشوفة في روسيا . مما قاده الى ان يقلل من شأن هذه الحركات ، الى ان يقوم بعمل دبلوماسي متناقض معها ، والى ان يهمل الاوضاع الثورية ، حتى في البلاد « المتأخرة » .

وبعبارة أخرى فان التروتسكيين قد أخطأوا . فنظريتهم في الثورة الدائمة ، واحتقارهم للمسألة الفلاحية ، كان يمكن ان يؤديا الى كوارث عالمية ، والى إصابة الحركة الثورية تحت قيادتهم بفشل حاسم .

إلا أنه لايمكن أن نستخلص ، من نوع من الضرورة الموضوعية والتاريخية لسياسة الستالينية ، تبرير هذه السياسة . =

د ـ **ونبلغ بذلك العهد الذي يبدأ حالياً** : ان الجزء «المتأخر» من العالم وهو مجموع البلاد المستعمَرة أو شبه المستعمَرة التي يغلب عليها الطابع الزراعي ، قد بدأت تحركها . بل ان البلاد الخاضعة لسيطرة الاقطاعية أو البورجوازية مضطرة الى السير قدما ونيل استقلالها ، واتخاذ تدابير ديموقراطية ، والتفكير في اتخاذ تدابير اشتراكية (الهند واندونيسيا وسواهما) .

إن الشعلة الثورية، بعد أن دارت حول العالم ، تعود الى نقطة انطلاقها : البلاد « المتقدمة » الشديدة التصنيع ، ذات البروليتاريا الكبيرة العدد .

في هذه البلاد لا يمكن للحركة إلا أن تتحرر من مختلف أنواع السيطرة والضغوط التي تمارس عليها (وهي الانشقاق بين الانتهازيين والثوريين ، ضغط الامبريالية والاستعمار ، وسوى ذلك) . بيد أنه من الممكن ، بل والمؤكد ، أن تكون الأوضاع الثورية من نموذج جديد . وان بروليتاريا وشعوب هذه البلاد ستجد دروبها الخاصة لحل تناقضاتها ومشكلاتها النوعية ، أي أنها ستبدع أشكالاً جديدة من العمل ، والصراع والتنظيم .

إن العهد الحالي يدخل إذن ـ الى حد ما ـ في امتداد العهد والتوقعات التي حللها ماركس ، مع عناصر ومظاهر جديدة .

هل يعني ذلك العودة الى ماركس من فوق لينين ؟ قطعاً لا . وحتى لو أمكننا أن نجد لدى ماركس عناصر لتحليل الأوضاع الجديدة، فان الشرح اللينيني

= ان نظرية « عبادة الفرد » ترد مجموعة من **الوقائع السياسية** الى ظاهرة ايديولوجية لا تخضع إلا للنقد الايديولوجي . ذلك ان السلطة الفردية ، واساءاتها وأساليب التسلط والبيروقراطية في القيادة ، والتقصير في سير الديموقراطية ، وما الى ذلك ، وهي وقائع سياسية ، لم تتمكن من الظهور إلا على اساس التناقضات النوعية، التي بدأ تحليلها مؤخراً (أضيفت هذه الحاشية في تموز ـ يوليو ـ ١٩٥٦) .

المذهب الماركسي يندمج في هذا التطور بصورة نهائية . ان الماركسية واللينينية لم يعد ممكناً فصلهما ، حتى لو ظل ماركس بصورة خاصة ، بالنسبة الينابنبوعاً حياً من الفكر والعمل .

(مثلاً ، ان التطور المتفاوت يولد باستمرار ظاهرات وآثاراً جديدة ، لا يتيح تحليلها وتفسيرها ، إلا القانون الذي اكتشفه لينين ، إذ هو يندمج في المعرفة العلمية) .

وقد يكون في وسعنا ان نورد الصفحة الأخيرة من كتاب « **مرض الشيوعية الطفولي** » ، الذي استشهدنا به كثيراً في هذه الدراسة

« لقد أصرت المذهبية اليمينية على ألا تقبل إلا بالاشكال القديمة وأفلست إفلاساً تاماً لانها لم تبدل المحتوى الجديد . كما اصرت المذهبية اليسارية doctrinarisme de gauche **على الانكار المطلق للاشكال القديمة ، دون ان ترى ان المحتوى الجديد انما يشق طريقه عبر الاشكال على اختلافها .. »**

وهذا المحتوى هو من القوة والشدة بحيث يمكن ، ويجب ، ان يتجلى :

« في اي شكل قديم او جديد ، يمكنه ، ويجب عليه ، ان يحوله ويتغلب عليه ويخضعه لذاته » .

ثبت مُقتضَب بالمراجع

ثمة ، باللغة الروسية ، أربع طبعات لمؤلفات لينين . ولم ينته نشرها بعد ، فمازال عدد من المخطوطات أو المقالات القديمة غير ميسورة التناول .

وقد جرت الاحالات الى النص الروسي على أساس الطبعة الثالثة (لينينسكي سبورنيك) .

ومجموعة المؤلفات المختارة في مجلدين (موسكو ، نشر اللغات الأجنبية ، ١٩٤٨) تكون خير اداة للعمل في اللغة الفرنسية .

وقبل حرب (١٩٣٩ - ١٩٤٥) قدمت دار النشر الاجتماعية الدولية (Les Editions Sociales Internationales) عدداً من الترجمات ، يتعذر العثور عليها في التداول اليوم ، كما نشر مكتب النشر للحزب الشيوعي الفرنسي تحت العنوان العام : « مكتبة لينين » - عدداً كبيراً من الكراسات ، بخاصة نصوص لينين حول الدين .

وثمة مختارات أقـــدم من ذلك ، بصورة خاصة مقالات زمن الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، كتب بعضها بالاشتراك مع زينوفيف Zenoviev بعنوان « ضد التيار » ، ونشرتها عام ١٩٢٤ مكتبة جريدة الانسانية ، وهي مفقودة الآن عملياً .

ومنذ عام ١٩٤٦ نشرت « المنشورات الاجتماعية » أو اعادت نشر الكتب التالية :

- ما العمل ؟

- المادية والتجريبية النقدية .
- الاشتراكية والحرب (ايلول - سبتمبر - ١٩١٥) .
- الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية (مع اضافات) .
- الدولة والثورة .
- مرض الشيوعية الطفولي .
- الدفاتر الفلسفية .
- الرأسمالية في روسيا .

وكراسات أخرى مختلفة .

والى هذه المؤلفات والمجموعات ، يجب أن نضيف الكتب التالية :

ج . فريفيل : لينين Les Classiques de la liberté. Genève. éd. des trois Collines 1947 . مقتبسات مع مقدمة جيدة .

وثمة دراسة اجمالية وحيدة عن فكر لينين في مجموعتي ستالين ، «مبادىء اللينينية» ، محاضرات عام ١٩٢٤ في جامعة سفير دلوفسك ، وقضايا اللينينية ، في جزئين ،وتتضمن بالاضافة الى «مبادىء اللينينية »عدة خطب وتقارير ومقالات .

وقد قدم ستالين ، باعتباره رجل دولة ، خليفة لينين ومكمل عمله ، على اساس أعمال لينين ، خطه العام ، وتفسيره للينينية كما حددته مشكلات الممارسة الاجتماعية والسياسية وبناء الاشتراكية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية .

والنظرية التي تقول إن النصوص المتعلقة بتلاشي الدولة قد فقدت معناها ، على الاقل في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، في الشروط القائمة ، هذه النظرية لخصها ستالين لمناسبة النقاش حول علم اللغة « الماركسية وعلم اللغة » منشورات دار النقد الجديد (Editions de la Nouvelle Critipre) ص٥٩-٦٠ ، دون الاستشهاد بماركس او لينين ، بل استنادا الى كتاب « انتي دهرنج » فقط .

وتوجد معلومات جيدة عن حياة لينين في :

- دافيد شوب ، لينين، تاريخ حياته .

David Shub : Lénine , a biography (Doubleday, New - york) , 1948

ومن حيث القصص ما يزال كتاب مالا بارت ، « لينين الطيب » صالحا للرجوع اليه ، مع التزام الحذر النقدي .

Malaparte , le Bon homme Lénine (Grasset , 1948)

راجع ايضا :

- ب. شارل . حياة لينين ، ١٩٢٩

P. Charles : Vie de Lénine , Plon, 1929

- كرجنتسي ، حياة لينين ، ١٩٣٧

Kerjentsey , Vie de Lénine , E. S. I . 1937

- ميرسكي ، لينين ، ١٩٣٥

Mirsky , Lénine . Grllianard , 1935

- جيرار والتر ، لينين . ١٩٤٨ .

Gérard Walter , Lénine , Julliard , 1948

- واخيرا ليون تروتسكي ، حياة لينين ، ريدر ، ١٩٣٦ . (المعادي بعنف لستالين كما هو معروف) .

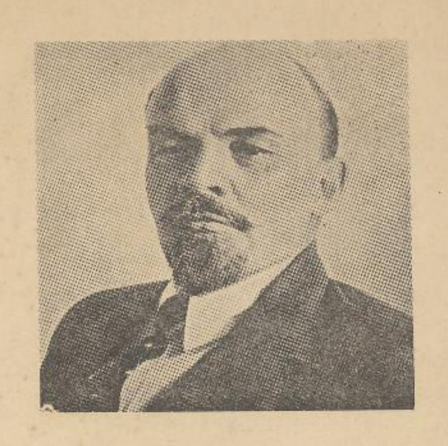
Léon Trotsky , Vie de Lénine , Rieder , 1936

الفهرس

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	٥	وصورته	وصيرورته
٢٦	١٤	العلم	العالَم
٣١	٨	بصورة	بصورة غير مرئية
١٤٢	٢	شرط أن أحسن	شرط ان يكون أحسن
١٦٦	٢٠	العلم	العالَم
١٨١	١٣	بأخذ حدين	بأحد حدين
١٩٠	٧	فكرة	فقرة
٢٦٩	١٥	وتجري	تجري
٢٨٣	٢	يعتبر أنه	يعتبرانه
٢٨٥	١٦	(والباعة	(الحمالون والباعة
٣٣٣	١	« من الحفز الخارج »	« الحفز من الخارج »
٣٧١	١٩	قوي	قومي

١٩٦٩/١٢/٢٥٠٠



فكر لينين

« كان لينين ثورياً صميماً ، وهو بكل تأكيد أعظم ثوري في جميع العصور ، ومنذ موته ، ما انفك فكره وأعماله تلعب دور خميرة ثورية ... »

إن لينين ، إذ دخل التاريخ ، دخل الأسطورة ... وعمله الثوري لمصلحة الشعوب المضطهدة في الامبراطورية القيصرية القديمة ، ولمصلحة الشعوب المستعمرة أو شبه المستعمرة في العالم بأسره ، وصله بجماعات انسانية تمثل جميع عصور التطور التـــاريخي ، من الرحل وشبه البدائيين الآسيويين ، الى البروليتاريا ، إلى أحدث طبقة المثقفين (الأنتلجانسيا) .

فمن حق كل عربي ، في هـذه الظروف التي توغلت الثورة العربية فيها الى صميم بنية المجتمع العربي لتبعث فيها حياة جديدة ، أن يعرف حياة وفكر واحـد من أكبر قادة الثورة الاشتراكية في العالم .

سعر النسخة ٤٠٠ ق.س
أو ما يعادلهـــا

مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٦٩